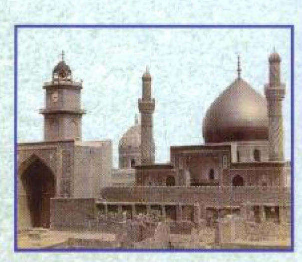
أ. محمد محمد خاطر السوافيري



البرامكة

ودورهم في الحياة الفكرية
في العصر العباسي الأول







عمان - الأردن - ت: ٠٧٩/٥٢٨١١٢٨

البرامكة

ودورهُم في الحياة الفكرية في العصر العباسي الأول

تاليف

محمد محمد خاطر السوافيري

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار حمورابي للنشر والتوزيع

{ اللهم علّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علّمتنا }

رقم الاجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر

الطبعــة الأولــى

٢٠٠٩

دار حمورابي للنشر والتوزيع

تلفون ٢٨١١٢٨ ٥ ٧٩ ٠٠٩٦٢ تلفاكس ٠٠٩٦٢٦٤٦٢٠٧١١

E-mail: mohumed٨١@yahoo.com

عمان – الأردن

دار الإسراء للنشر والتوزيع

جبل عمان – تلفون ٤٦١٤٥٩١ العبد لي تلفاكس ٠٠٩٦٢٦٤٦٢٠٧١١

E-mail: esraa_jordan@hotmail.com

عمان – الأردن

الإهـداء



وفاءً وتقديراً للمجاهد الشيخ

محمد عبد الهادي خاطر

قائد فصيل ثورة ١٩٣٦م الفلسطينية

الملقب بـ "أبو عمرية"

والوالدة التي وقفت معه في السرّاء والضرّاء

- تغمدهما الله تعالى بواسع رحمته وغفرانه -

أهدي هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً، كما ينبغي لجلالِ وجهه، وعظيم سلطانه، وأشهَدُ أن لا إله إلا الله، وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهَدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله، وأُصَلِّي وأسَلِّمُ عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن اتَّبَعَ سُنَّتَهُ، وسارَ على دربه إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذه صفحاتٌ مضيئةٌ من تاريخ البرامكة السياسي والثقافي إبَّانَ الحُكمِ العبَّاسي تبيِّن ما قاموا به من أعمالٍ مجيدةٍ في سبيلِ رِفعَةِ الدولة الإسلامية، وتقدمها في مختلف المجالات.

فالبرامكة من الرجال القلائل الذين سطَّروا أروعَ صفحاتِ المجدِ والخُلودِ في تاريخ هذه الأمة، ولا عَجَبَ في هذا، فهُم أربابُ السيف والقلم، فقد برزوا في السلم والحرب، والسياسة والقيادة، والشعر والأدب، وأخذوا على عاتقهم بعث الحركة الفكرية، وتشجيع كل صاحب فكر وقلم على اختلاف أطيافهم ومنابتهم وعقائدهم ومذاهبهم من علماء وشعراء وأدباء وكُتَّاب ومؤلفين ومترجمين، وأصحابُ حِرَفٍ وصناعات، فأغدقوا عليهم الأموال، ومنحوهم الهدايا والجوائز والهِبات، وبلغت عطاياهم من الكثرة ما لم يشهدُ لها التاريخ مثيلاً.

فغدا البرامكة بهذا الصنيع معقد آمال ومَحطٌ رِحالِ هولأء الادباء والكتاب، وأصبحت بغداد مثابة لهم، فجاءوا إليها من كل حَدْبٍ وصوب من الحاضرة والبادية، فاكتظت بهم طرقاتها وشوارعها، كل واحد منهم يلقي درسه، ويزجي بضاعته في مختلف العلوم والفنون والآداب، فحازَ الكثيرُ منهم على أرفعِ الدرجات[1].

وهذه السياسة التي انتهجها البرامكة ادت الى تفجر ينابيعُ النهضة الفكرية، في عهدهم وازدهار شتَّى العلوم الإسلامية والأدبية والطبية والهندسية والزراعية والفنون والصناعات

---

[1] تاريخ العالم ٤/ ٦٠٧-٦٠٨.نشر جون .i . هامرتن ترجمه قسم الترجمة بوزارة التربية والتعليم – مصر.

والزخرفة والعطور والأصباغ والأطعمة وغير ذلك[٢] ودُوِّنَ العلم، وأُلِّفَت الكتب حتى بلغت من الكثرة ما يصعُبُ إحصاؤها، ومن الجَودَةِ بما لم يُصَنَّف مثلُها في أمَّةٍ من الأمم[٣].

وترجم العديد من أمهات الكتب العلمية والأدبية عن الفارسية والهندية واليونانية والرومية مما عثر عليها المسلمون في خزائن أنقرة، وسائر بلاد الروم أثناءِ الفتوحات الإسلامية.

وحسبُنا في هذا ما ذكر أسماؤها في فهارس الكتب، وما تداولَتهُ أيدي المسلمين[٤]. وشُيِّدَت المكتبات الخاصة والعامة، وعلى رأسها بيت الحكمة في بغداد، والذي لعب دوراً كبيراً في ترجمة الكثير من الكتب في مختلف العلوم والفنون، وافتتحت حوانيت الورّاقين، وأُنشِئَ مصنع الورق في بغداد لسدِّ حاجة الدواوين والمؤلفين والعلماء وطلاب العلم، والكتّاب وغيرهم من الورق، وبذلك استعاضَ العُلماءُ عن الحفظ بالتدوين، فسهل دراسة العلوم المختلفة وتداولها وانتشارها في ربوع الوطن الإسلامي.

والتأمت حلقاتُ العلمِ في المساجد والبيوت. وعُقِدَت المناظرات والمذاكرات في الأدب واللغة والعلم والكلام والفلسفة، وغير ذلك.

وشارك بغداد هذا الفضل مختلف عواصم الأقاليم الإسلامية: البصرة والكوفة وبيت المقدس، ودمشق والفسطاط وبلَخ وأصفهان وخوارزم، وغيرها من الحواضر الإسلامية.

واشتهر الكثير من العلماء والأدباء والشعراء، فكان منهم: أبو حنيفة ومالك والشافعي، وأبو يوسف القاضي، وابن حنبل، وأبو الهذيل العلاف، والنظام، وجابر بن حيَّان، وسفيان الثوري والواقدي ومحمد بن الحسن الشيباني، والأصمعي، والكِسائي، وسيبويه، والفرَّاء، وأبو عُبيدة معمر بن المثنى، والجاحظ، وإسحق الموصلي، وابراهيم الموصلي، وجبريل بن بختشوع، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي، وأشجع السلمي، والخريمي، والرقاشي، وأبو العتاهية، واليزيدي، وأبو نواس، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وأبو اسحق الفزاري، وغيرهم كثير مما يصعب حصرهم ويستعصى عدهم. فذاعَ ذِكرُهم وانتشر صيتُهم، وبلغ المسلمون من العلم بحيث غدوا أساتذةَ العالم في العصور الوسطى[٥]فسمي ذلك العصر بالعصر الذهبي.

---

[٢] ابن خلدون: العِبَر ٣/ ٤٧٦.

[٣] القلقشندي: صبح الأعشى ١/ ٤٦٧.

[٤] الجاحظ: الحيوان ١/ ٨١.

[٥] الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية: ص ٢٧٦- ص٢٧٧. ومرحبا: الموجز في تاريخ العلوم عند العرب: ص ٨٢.

فكان لجهود البرامكة أثرها الطيب في ازدهار الحركة الفكرية ودفع عجلة النهضة وتقدمها في ربوع الوطن الإسلامي ، ولولا ذلك لما وصلت الى ما وصلت إليه من تقدُّمٍ وازدهار[٦].

ويعود تشجيع البرامكة للعلماء والأدباء وأصحاب الفكر إلى حبهم للعلم والعلماء ولا عجب في هذا، أذ انهم تحلّوا بكثيرٍ من الملكات العلمية والأدبية، مما جعلهم فرسان البلاغة والفصاحة وأئمة الكتابة، وجهابذة الفكر والثقافة[٧]، فقد نبغوا في الشعر والتوقيعات والرسائل والخطابة والنقد، وغير ذلك. حتى فاقوا أقرانهم.

وقد شهِدَ لهم بطول باعهم في ذلك جمعٌ غفيرٌ من الأدباء والمؤرخين والكتّابِ منهم ابن عبد ربه الاندلسي في كتابه العقد الفريد حيث قال[٨] : "ينابيع البلاغة، وجوامع البيان".

كما كان للبرامكة الفضل العظيم في القضاء على الثورات والفتن التي كانت تستعر من حين لآخر وتوطيد الأمن والسلام في ربوع الدولة الإسلامية، ومحاربة الروم والانتصار عليهم، وبناء القلاع والحصون والنهوض بالثروة الزراعية، وحفر الأنهار، وإنشاء السدود والطرق... إلخ.

ولهذا تأثّل مجدهم وسطع نجمهم، وعظُمَت مكانتهم، وذاعَ ذِكرُهم، وانتشر صيتهم، وكثُرَ الحديثُ عن مناقبهم، وقصص جودهم، وتساءَلَ بعضُ الناسِ عن صحة ما روى من أخبارهم وهل انتحل انتحالاً على أيدي المؤلفين والورّاقين؟

فأجاب على هذا التساؤل أبو العيناء [٩]حين حَضَرَ مجلساً لبعض الوزراء ذاتَ يوم، فتناولوا في حديثهم أخبار البرامكة وقصص كرمهم، فقال الوزيرُ لأبي العيناء بعد أن بالغ في مدحهم والثناء عليهم، ووصف ما تحلّوا به من بذل وعطاء: "قد أكثرت من ذكرهم، ووصفك

---

[٦] حسن ابراهيم: تاريخ الإسلام ٢/ ١٧٣.

[٧] العقد الفريد ٥/ ٥٨ والجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ٣٤٩ وياقوت الحموي: معجم الأدباء ٢٠/ ٥.

[٨] العقد الفريد ٥/ ٣-٤.

[٩] أبو العيناء : هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد الهاشمي بالولاء مولى أبي جعفر المنصور صاحب النوادر والملح، والشعر والأدب أصله من اليمامة، ولد بالأهواز سنة ١٩٠هـ ونشأ بالبصرة، طلب الحديث والأدب فغدا من أحفظ الناس، وأفصحهم لساناً، وكان سريع الجواب، وله أخبار حسان، وأشعار ملاح توفي بالبصرة سنة ٢٨٣هـ. راجع: وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٣.

إياهم، وإنّما هذا تصنيف الورّاقين، وكذب المؤلفين، فقال له أبو العيناء: فلم لا يكذب الورّاقون عليك أيُّها الوزير، فسكَتَ الوزير، وعجِبَ الحاضرون من إقدامهِ عليه[١٠].

ولمّا كان للبرامكة محاسن عظيمة، وأيادٍ بيضاء في خدمةِ الخلافة، ومكانةً عاليةً في عالم الأدب والفكر، والبذل والعطاء ألفت فيهم كتب عديدة في الماضي والحاضر، وإن كانت دون القدَرِ الذي يستحقونه، فمن تلك الكتب:

أخبار البرامكة من ابتداء أمرهم إلى انتهائه، بلغ عدد أوراقه خمسمائة ورقة، قام بتأليفه أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني[١١]، وكتاب أخبار الخلفاء والبرامكة: لم يعرف اسم مؤلفه، وكتاب أخبار البرامكة: ألّفه: الشيخ أبو فرج عبد الله بن الجوزي ت ٥٩٧هـ[١٢]، وكتاب يحيى بن خالد في الأدب ألّفَهُ محمد بن الليث[١٣] والبرامكة سلبياتهم وإيجابياتهم: ألّفَهُ: هولو جودت فرج[١٤]، والبرامكة في ظلال الخلفاء، ألّفَهُ محمد أحمد برانق واعلام الناس لما وقع للبرامكة مع بني العباس الفه السيد محمد مرتضى الاتليدي وغيرُها من المؤلّفات.

ولا ينتابنا العجب من هذا، فقد عاش البرامكة في أكناف دولة عتيدة، وأمةٍ مجيدة لا تنحني هامات أبنائها أمامَ الأعاصير مهما بلغ عتوها، وبلغت دولة الخلافة من القوة بحيث دانت لها أقوى الدول، وخطبت ودها، وادت الجزية لها وقد وصفها ابن خلدون[١٥] فقال: "إنّها من أعظمِ الدول" كما كانت من الاتساع ما جعل الرشيد يقول عندما رأى سحابةً ممطرةً تجوبُ عِنانَ السماء: "اذهبي إلى حيثُ شِئتِ يأتيني خراجك"[١٦].

كما بلغت من الغِنى والثراء مبلغاً عظيماً، فكانت الأرزاقُ تأتيها من جميع ولايات دولة الخلافة حتى بلغ دخلها في العام الواحد عشرات ألوف الألوف[١٧]، وعلى وجه التحديد بما

---

(١٠) وفيات الأعيان ٤/ ١٤٣.

(١١) ابن النديم: الفهرست، ١٣٤.

(١٢) ابن عساكر: التاريخ الكبير ٥/ ٢٨.

(١٣) انباه طبقات الأطباء: ص٤٧٥.

(١٤) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٢٦.

(١٥) العِبَر ٣/ ٤٧٦.

(١٦) القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة ١/ ١٩٤، وشلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٣/ ٢٤٩.

(١٧) الجهيشاري: الوزراء والكتاب: ٢٢٨.

يُقدَّر بسبعة آلاف قنطار من الذهب[18]، فغدا اهلها من الرفاهية والسعادة ما جعل المسعودي يقول[19]: "إن أيامهم عروس، وسرور دائم لا يزول".

وقال ابن الطقطقي[20]: "اعلم أنَّ هذه الدولة كانت غرَّةً في جبهة الدهر، وتاجاً على مفرق العصر ضُرِبَت بمكارمها الأمثال، وشُدَّت إليها الرِحال، ونيطَت بها الآمال. وبذلت لها الدنيا أفلاذَ أكبادها، ومنحتها أوفرَ أسعادها.

فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرةً والبحورِ زاخرة، والسيول دافقة، والغيوث ماطرة، أسواق الآداب عندهم نافقة، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وأبّهة المملكة ظاهرة، وهم ملجأ اللهف، ومعتصم الطريد ولهم يقول أبو نواس:

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بني برمك من رائحين وغاد .

وقال ابن خلدون[21]: إنَّ الرشيد قد اجتمع له من العباقرة ما لم يجتمع لأحدٍ غيره من جد، وهزل، وزراؤه البرماكة لم ير مثلهم سخاء وسروا، وقاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن عمِّ أبيه، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس، وأعظمهم[22]، ومغنييه إسحق الموصلي وزوجه زبيدة".

لهذا أحببت إخبارهم، واستهواني تاريخهم، وقصص كرمهم، وما قدَّموا من خدماتٍ في شتَّى المجالات، مما دفعني إلى الكتابة عنهم رغم تشعُّبِ جوانب الموضوع حيث يشتمل على عِدَّة شخصيات بالإضافة إلى عِدَّة فنون كالشعر والخطابة والتوقيعات والرسائل، والحكم، والنقد، ومجالس العلم والأدب والغناء ... إلخ.

وقد تناولت تاريخ البرامكة السياسي والثقافي، وما قدموا من خدماتٍ في سبيل النهضة الفكرية اثناء الحديث عن كل واحد منهم، ولم أدَّخر وسعاً في استقصاء ذلك، فاطلعت على مئات

---

[18] حيدر بامات: مجالي الإسلام: عن مقال لشكيب أرسلان بعنوان: أبهة بغداد في عهد الخلافة لانسيون آراب (الأمة العربية، ١٩٣٨م ويبلغ القنطار من الذهب ثلاثون ألف ألف درهم.

[19] مروج الذهب ٣/ ٣٧٥.

[20] الفخري:ص١٥٩.

[22] العِبَر ٣/ ٤٧٦.

[22] ذكر كتاب الوزراء والكتاب للجهشباري: أنّه كان من العجز وعدم المقدرة على مجارات البرامكة كما كان من الغفلة بحيث أضاع كل شيء وراء باب الرشيد: الوزراء والكتاب: ٢٦٥.

المصادر والمراجع والتي منها ما يتناول جانباً من حياتهم في المكتبات العامة والمراكز الثقافية وأخصُّ بالذكر مكتبة سيدي الشيخ أحمد الزروق بمحافظة مصراته: فوجدت من أمينها كل عونٍ وترحيبٍ ومساعدة، فقد وضع تحت تصرُّفي جميعَ ما احتجت اليه من مصادر قبل افتتاح المكتبة، فلهُ مِنِّي الشكر، ومن الله تعالى حُسنَ الجزاء. كما لا يفوتني ان اشكر زوجي واولادي على ما تحملوا من عناء البعد والاغتراب اثناء كتابة هذا البحث ومن تشجيع لانجازه.

غيرَ أنّي وجدتُ صعوبةً في الحصول على المادة المطلوبة، لأنَّ بعض المصادر لم توضع لها الفهارس العامة، الأمر الذي يجعل الاستفادة منها شاقة وعسيرة، وتحتاجُ في كثيرٍ من الأحيان إلى قراءتها صفحة صفحة.

ومما تشكر عليه دور النشر ، حيث قامت في السنوات الأخيرة بإصدارِ طبعاتٍ مُفَهرَسَةً لبعض المصادر.

وإنّي لأرجو الله تعالى أن أكونَ قد وُفِّقتُ في الكتابة في هذا الموضوع وأمطت اللثام عن حياة البرامكة، ودورهم العظيم في ازدهار الحركة الفكرية، وكشف ما بذلوا من جهودٍ عظيمة في هذا الميدان، فإن أصبتُ فمن اللهِ تعالى، وإن أخطأتُ فمن نفسي واجتهادي ولا ادعي لنفسي العصمة من الخطأ وحسبي ما عانيت من جهد ومشقة وما اضعت من وقت طوال سنوات طويلة. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكّلتُ وإليه أُنيب.وأسأله تعالى ان يتقبل مني هذا العمل وان يجعله خالصاً لوجهه الكريم

ربَّنا لا تؤاخِذنا إن نسينا أو أخطأنا ... واعفُ عنَّا واغفر لنا. وصلى الله على سيِّدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد محمد خاطر السوافيري

غرة صفر سنة ١٤٢٨هـ

الباب الأول

الأسرة البرمكية

الفصل الأول

تاريخ الأسرة البرمكية

اهتمَّ المؤرِّخونَ عبر مختلف العصور بأخبار البرامكة، وشغفوا بقصص كرمهم، وشاركهم هذا الاهتمام خاصةُ الناس وعامتهم، وتساءلوا عن الأسباب التي أودَت إلى الإطاحة بهم، والقضاء عليهم.

فمن هؤلاء الذين استحقوا هذا الاهتمام؟ وما الأعمال التي قاموا بها؟ وما الإنجازات التي حقَّقُوها؟

تنحدرُ الأسرة البرمكية من أصلٍ فارسي، موطنها مدينة بلخ [١] إحدى مدن خراسان [٢]، وكان جَدُّهُم برمك الأكبر بن جاماس بن يشتاسف البرمكي يُدينُ بالمجوسية[٣]، ومن الشرف والمكانة في أهله ما أهَّلَهُ لأن يتولى سِدانة النوبهار [٤]، وظلَّ يتقلَّدُ هذا المنصب إلى أن فتح المسلمون بلخ سنة ٣١هـ بقيادة الأحنف بن قيس من قبل عبد الله بن عامر في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه فوقع أسيراً في أيدي المسلمين، فبعثه الأحنف الى عثمان رضي الله عنه مع عدد من الرهائن ، فأعلن إسلامه عن قناعة، ودون إكراه، فسمَّاهُ: عبد الله، فاستشاطَ قومه غضباً عليه، وأقصوه عن سدانة النوبهار، ونصَّبوا ابنه مكانه، وبذلوا ما في وسعهم لإرجاعه إلى دين آبائه، وشاركهم في جهودهم هذه طرخان أحدُ ملوك فارس – وكان

---

[١] بلخ: أشهر مدن فارس، وأكثرُها خيراً تقع الآن في أفغانستان. معجم البلدان مادة بلخ.

[٢] خراسان: بلادٌ شاسعة يلي أولها العراق وآخرها يلي الهند. معجم البلدان مادة خراسان.

[٣] برمك: لفظٌ سنسكريتي يُلَقَّبُ به سادن النوبهار معجم البلدان مادة برمك والوزراء والكُتَّاب: ١٩١ ووفيات الأعيان ١/ ٢١٩.

[٤] النوبهار: معناه المعبد الجديد، أو البهار الجديد لتكلله بالريحان، وتزيينه بالدرر والجواهر والديباج والحرير، وكان معبداً للنار. وفيات الأعيان – ٤/ ٢٩ و٦/ ٢١٩. ومعجم البلدان مادة النوبهار ومروج الذهب ٢/ ٢٢٨ و٣/ ٣٨٦ وقيل إنَّهُ بيتٌ للأصنام: آثار البلاد ص٣٣١-٣٣٢.

ملكاً على بلاد الترك – فرغَّبه وحذره وتوعده، لكـنَّهم لم يجـدوا منـه أذنـاً صـاغيةً، فـذهبت جهودهم هباءً بعد أن ردَّ عليهم بما يدل على قوة إيمانه، وحسن إسلامه، قـائلاً[٥]: إنّـي إنَّمـا دخلت في هذا الدين – يقصد الإسلام – اختياراً له، وعلماً بفضله مـن غـير رهبـة، ولم أكـن لأرجع إلى دين بادي العوار مهتك الأستار" فأثار قوله حنق طرخان وغضبه، فدبَّرَ له مكيـدة قتله فيها، وعشرة من بنيه، ولم يبقَ له إلا طفلٌ صغيرٌ هربت به أمُّه إلى جبال قشمير، فقضى في ربوعها أيام طفولته كلها، وتعلَّم فنوناً مختلفـةً مـن الحكمـة منهـا: العلـوم الطبيـة، والنجـوم والحساب حتى برع فيها ولَمَّا أرتدَّ قومُهُ عن الإسلام بعد اسلامهم على أثرِ وباءٍ أصابَهُم كاتبوه طالبينَ منهُ أن يرجَعَ إلى دينِ آبائهِ على أن يكونَ سـادناً للنوبهـار، فلبَّـى رغبَـتَهُم واسـتجاب لهم[٦].

ولَمَّا غدر طرخان بالمسلمين غزاه القائد المسلم قتيبـة بـن مـسلم البـاهلي[٧] بإيعـازٍ مـن الحجَّاج بن يوسف، فانتصر عليهم، واستولى على مدينة بلخ سنة ٨٥هـ، وقيل: سـنة ٨٦هـ، فوقعت زوج يرمك أسيرةً بأيدي الجيش الإسلامي، فعاملوها معاملةً حسنة تدُلُّ على سماحة الإسلام، وحُسنِ معاملته للأسرى، فتمَّ إطلاقُ سراحِها[٨]، وفي هذا العام هـاجر برمـك إلى دمشق عاصمة الخلافة الأموية، فاتصل بالخليفة الأموي عبد الملـك بـن مـروان، فقرَّبـه منـه؛ لثقافته الواسعة في الطب والحساب والنجوم[٩]، ولم تَدُمْ العلاقَةُ طويلاً، فقد مات عبد الملك في نفس العام، فوثَّقَ صِلَتَهُ بولده الخليفة هشام، فأسلمَ على يديه، وسُمِّيَ بعبد العزيز[١٠]، فأدَّى خدمات جليلة للبيت الأموي في ميدان الطـب[١١]وعـالج مـسلم بـن عبـد الملـك مـن عِلَّـةٍ

---

[٥] معجم البلدان مادة النوبهار ومختصر كتاب البلدان: ص٣٢٣.

[٦] معجم البلدان: مادة النوبهار ومختصر كتاب البلدان: ٣٢٤ وتاج العروس ٧/ ١٢.

[٧] قتيبة بن مسلم كان شهماً مِقداماً نجيباً شُجاعاً عُيِّنَ أميراً على خُراسان، فافتتح كثيراً من المدن منها: خوارزم – سمرقند – بخارى قتل غيلة بعد خروجه على سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ وقيل سنة ٩٧. وفيات الأعيان ٤/ ٨٦ وما بعدها.

[٨] تاريخ الأمم والملوك ٦/ ٤٢٥-٤٢٦ والكامل في التاريخ ٤/ ١٠٦ والعبر لابن خلدون ٣/ ١٣٠.

[٩] تاريخ الأمم والملوك ٦/ ٤٢٦ والسيف المهند ص١٤٣.

[١٠] دائرة المعارف الإسلامية مادة برمك والنبراس في تاريخ بني العباس: ص٣٨.

[١١] دائرة المعارف الإسلامية، مادة برمك وربيع الإبرار ١/ ٣٥٨ وآثار البلاد ص٣٣١.

أصابته[١٢]، كما اتصل بملكي الهند والصين، فأهداهُما ما صنع من عقاقير، فحازَ على هداياهما[١٣].

ثم تاقت نفسه لرؤية موطنه الأول بلخ، فوجدها أطلالاً، فأعادَ بناءَها بأمرٍ من أسد بن عبد الله[١٤]. ثم لاحَقَهُ الأمويون مُطالبين بما في حوزته من أموال النوبهار، فولّى هارباً إلى قشمير مهد طفولته[١٥]، ولما سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ توجَّهَ وولده خالد إلى الرصافة بالعراق لمبايعة السفاح بالخلافة[١٦].

وفي عهد المنصور لبّى نداءَ ربه، بعد أن أنجبَ أربعةً من الذكور: الحسن، وبه يُكنّى وخالداً وعمراً وسليمان.

خالد بن برمك:

أمّا خالد فهو أشهرُ أبنائه فقد ولد سنة ٩٠هـ[١٧] من أم فارسية[١٨]، وكان ولاؤه لقبيلة بهراء، ومن صفاته الطيبة أنّهُ ما فتِئَ طوال حياته فاضلاً جليلاً حازماً يقِظاً راجح العقل بعيد النظر شُجاعاً فصيحاً بليغاً كريماً. فكان بهذه الصفات محل تكريم واجلال.

ولمّا قامَ العباسيون بالدعوة لآلِ البيت تعاطَفَ معهم، وشدَّ أزرَهُم؛ لمكانتهم من رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فاتصل بأئمة الدعوة في عهدها المبكر، وعلى رأسهم: محمد بن علي الإمام، ثم بابنه ابراهيم[١٩]، فحَازَ على إعجابِهم، وتقديرهم؛ لفصاحته وكريمِ خِصاله، فجعلوهُ أحَدَ العشرين الذين اختاروهم للدعوة لآلِ البيت في خُراسان بعد النقباء الإثني عشر[٢٠] فأخذ يدعو لآلِ البيت، ولمّا انتقلت الدعوة من السِّرية إلى العلنية، عُيِّنَ قائداً في جيش

---

[١٢] تاريخ الأمم والملوك ٦/ ٤٢٦.

[١٣] الشرواني: حديقة الأفراح، ص٢٤٧-٢٤٨.

[١٤] دائرة المعارف الإسلامية ٦/ ٥٤٨.

[١٥] النويري: نهاية الإرب ٢/ ٢٩.

[١٦] الزبيدي: تاج العروس ٧/ ١١٠.

[١٧] تاريخ الأمم والملوك ٩/ ٢٩٠ ومعجم البلدان ٨/ ٣٣٢ وابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان: ص ٣٢٤.

[١٨] تهذيب ابن عساكر ٥/ ٢٩ ووفيات الأعيان ١/ ٣٣٢، ومرآة الجنان ١/ ٤٠٨-٤٠٩.

[١٩] سِيَر أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٩.

[٢٠] تاريخ الأمم والملوك ٩/ ١٠٥.

قحطبة بن شبيب، فأظهر شجاعة، ومقدرةً على قيادة بعض الجيوش الخراسانية، فقلدوه ما افتتح من مدن وقرى، ثم تولّى الغنائم، فوزّعها على الجيش، كما تولّى الخراج، فقسَّطَه على أهل البلاد المفتوحة؛ ليخفف عنهم ، وعاملهم معاملةً طيبة وأحسن إليهم[٢١] ثم واصل زحفه حتى وصل إلى العراق، فقدم على السفاح لمبايعته، فأعجب بفصاحته[٢٢]، وأقره على الغنائم، كما ولاّه عِدَّة وظائف منها: ديوان الخراج[٢٣]، وديوان الجند، فأثبت جدارةً عاليةً نالَ بها ثقته ومحبته، ثم ولاَّهُ الوزارة بعد أبي سلمة الخلال[٢٤]؛ مكافأةً له على إخلاصه، وأمانته، وحنكته الإدارية والعسكرية، وصدقه وعفافه وعلمه[٢٥] فابى ان يسمى وزيرا تشاؤما ان يحل به ما حل بابي سلمة الخلال حيث قتله ابو العباس السفاح.

كما أسند إليه الإشراف على جميع الدواوين[٢٦]، فظلَّت تعرض عليه كتب الخلافة، وتوثقت العلاقات العائلية بينهما، فكانت زوج خالد ترضع ريطة ابنه السفاح كما أرضعت زوج السفاح ابنة خالد أم يحيى[٢٧] ولهذا ارتفع شأنه، وسمت مكانته عنده، وظلَّ مرضياً عنه طوال حكم السفاح.

ولَمَّا تقلَّدَ المنصور الخلافة أقره على ما بيده من أعمال، وظلَّ يُكرِمُه، ويستشيرُه في أمور كثيرة[٢٨]، مُدَّةَ عام وبضعة شهور[٢٩] ثم نقله لإمرة فارس: طبرستان، الري، دنباوند، إثر تمرُّدِ الأكراد، وتغلُّبهم عليها[٣٠]، فقضى على الفتنة، وحارَبَ الأصبهبذ، فانتصرَ عليه، وغنَمَ الكثيرَ

---

[٢١] تهذيب ابن عساكر ٥/ ٢٨ وأعتاب الكتاب: ص ٦٥ ومروج الذهب ٣/ ٢٣٩ وابن خلدون: العبر ٣/ ٢٦٧ والبداية والنهاية ١٠/ ٣٥ والوزراء والكتاب: ص٨٧-٨٨.

[٢٢] الوزراء والكتّاب: ٨٩ وأعتاب الكتاب: ص٦٥-٦٦.

[٢٣] تاريخ الأمم والمولك ٩/ ١٥٣ والعبر ٣/ ٤٢٤ والبداية والنهاية ١٠/ ٥٥ وتاريخ الموصل: ص١٤٠.

[٢٤] التنبيه والإشراف: ص٢٩٣ ومروج الذهب: ٣/ ٢٨٤-٢٨٥.

[٢٥] التنبيه والإشراف: ص ٢٩٤ والوزراء والكتاب: ٨٩ وأعتاب الكتاب:ص ٦٥.

[٢٦] أعتاب الكتاب: ص٦٥-٦٦.

[٢٧] تاريخ الأمم والملوك: ٣/ ٦٧١، ط بيروت.

[٢٨] الفخري: ١٢٤.

[٢٩] وفيات الأعيان: ١/ ٣٣٢، وخزانة الأدب: ٣/ ٢١٠، وشذرات الذهب: ١/ ٢٤٣.

[٣٠] وفيات الأعيان: ١/ ٣٣٢، والكامل في التاريخ: ٥/ ٤١-٤٢، والبداية والنهاية:١٠/ ١٢١-١٢٢، ومرآة الجنان: ١/ ٤٠٧.

من الأموال النفيسة، والذخائر والسيوف المنقوشة بالدُّرِ والياقوت والزُمرُّد، بما يصعُبُ تقديرُ قيمتها، كما لا تُحصى كثرة ونفاسة[٣١]، فأُعجِبَ به أهلُ خُراسان، واعتزوا بشجاعته وبطولته، فنقشوا صورته والمجانيق التي حارب بها الأعداء[٣٢]، واستمرَّ في ولايته مُدَّة سبع سنوات، وكان ينوب عنه على الري ولده يحيى[٣٣].

ثم أعفاه المنصور عن إمرتها، وفرَضَ عليه دفعَ مبالغ كبيرة من مال الخَرَاج تُقدَّر بثلاثة آلاف الف (ثلاثة ملايين) خلال أيامٍ ثلاثة، وإلا أهدَرَ دمه، فاستغاث بأصحابه ممن له يدٌ طُولى عليهم، فجَمَعَ معظمه، وبقي ثلاثمائة ألف، فأعفاهُ المنصور من دفعها[٣٤]، ومع هذا ظلَّ على ولائه للمنصور، ولَمَّا نشبت فتنة الأكراد في الموصل انتدبه والياً عليها[٣٥]، فقضى على الفتنة، واستأصَلَ شأفَةَ المتمردين دون أن يشتدَّ في عقوبتهم[٣٦]، ممَّا يَدُلُّ على حُسنِ تصرفه، وحنكته السياسية والإدارية فقال أهل الموصل [٣٧]:

" ما هِبنا قط أميراً هيبتنا " خالد " من غير أن تشتد عقوبته، ولا نرى منه جبرية، ولكن هيبته كانت له في صدورنا ".

وظلَّ يمارس عمله هذا حتى وفاة المنصور.

ولَمَّا تولَّى المهدي الخلافة استوزره فترةً وجيزة [٣٨]، ثم جعله وزيراً لابنه هارون في حكم بلاد المغرب من الأنبار إلى إفريقيا[٣٩].

---

[٣١] الذخائر والتُحف: ص١٧٦.

[٣٢] مختصر كتاب البلدان: ص٣١٤، ودائرة المعارف الإسلامية: ٦/ ٥٤٩.

[٣٣] الري: إحدى مُدُن خُراسان المهمة تكثُرُ فيها الخَيرَات، وهي محطة للحُجَّاج، معجم البلدان: ٣/ ١١٦.

[٣٤] الوزراء والكُتَّاب:ص١٥١.

[٣٥] وفيات الأعيان: ١/ ٣٣٢، والمحاسن والمساوئ: ٢/ ٣-٥.

[٣٦] تاريخ الأمم والملوك: ٩/ ٣٣٢، وتاريخ الموصل:ص ٢٠٩، والكامل في التاريخ: ٥/ ٤١-٤٢. والعبر ٣/ ٤٢٩-٤٣٠.

[٣٧] تاريخ الأمم والملوك: ٤/ ٥١٤.

[٣٨] العبر: ٣/ ٤٢٠-٤٢١، وتاريخ الموصل:ص٢٣٦- ص٢٣٧.

[٣٩] أثر الفرس السياسي:ص ٢٤٨.

ثم أمرَهُ المهدي بغزو بلاد الروم، فرافقه في حملته هذه ولده يحيى، وأخواه: الحسن وسليمان، فأبلى بلاءً حسناً رغم تقدُّمِهِ في السن، وحقَّقَ بعون الله على الأعداء نصراً مبيناً بعد أن فتح أحدَ الحصون المنيعة[٤٠].

وقد رزقه الله تعالى اثنين من الذكور هما: يحيى ومحمد.

ثم وافاه الأجل المحتوم في جمادى الأولى سنة ١٦٥هـ عن عمرٍ يُناهِز الخامسة والسبعين، فصلَّى عليه الرشيد.

يحيى بن خالد البرمكي:

أما يحيى الرمكي – أبو علي – فقد وُلِدَ سنة ١٢٠هـ ونالَ من الشهرة ما لم ينل أخوه[٤١] محمد، فنشأ و معه كثيرٌ من الخِلال: كالعقل، والذكاء، وسداد الرأي، وحسن التدبير، والضبط لما تحت يديه، والعفاف والوقاروالكرم، والفصاحة والبلاغة والكتابة والعلم والادب، وحسن الخلق، والوفاء [٤٢]والفضل والنبل، مما جعل المنصور يقول[٤٣]: ولد الناس ابناً، وولد يحيى أباً".

وقد شهِدَ له أحدُ التجار بكمال عقله عندما أرادَ في مستهل حياته العملية أن يشتغل في التجارة، فأثناه عن ذلك لَمَّا رأى فيه من الكمال ما يسمو به عن العمل في هذه المهنة([٤٤] فغضَّ الطرف عن ذلك، واشتغل في الأدب والعلم والسياسة بعد أن تعلَّمَ كثيراً من العلوم، فنبَغَ في الكتابة والشعر والتوقيعات والنقد الأدبي والفلسفة وعلم الفلك والصنعة[٤٥]، فولاَّهُ أبوه على الريِّ بعد أن لمس فيه من الخِلال ما يؤهِّلُهُ لذلك، فساسَ البلاد سياسةً رشيدة عامَلَ فيها أهلَ البلاد معاملةً حسنة، وقسط عليهم الخَرَاج ليُخَفِّفَ عنهم على عكس سياسة الولاة من قبله[٤٦]، وبذلك عمَّ الأمنُ في رُبوعِ البلاد.

---

[٤٠] تاريخ الأمم والملوك: ٩/ ٣٤٤، والبداية والنهاية: ١٠/ ١٤٦.

[٤١] تهذيب ابن عساكر ٥/ ٢٩، ووفيات الأعيان: ١/ ٣٣٢، واليافعي: مرآة الجِنان: ١/ ٣٥٢، والوزراء والكُتَّاب: ص١٥٠. والكامل في التاريخ ٥/ ٦٣.

[٤٢] الأعلام: ١/ ١٧٥ والفخري: ص١٥٩.

[٤٣] الفخري:ص ١٥٩.

[٤٤] تاريخ الأمم والملوك: ٩/ ٢٩٠.

[٤٥] راجع كتاب مختار رسائل ابن حيَّان:ص٣٠٣- ص٣٠٤ .

[٤٦] الوزراء والكُتَّاب:ص١٨٦.

فهنَّأَ أحد الشعراء أهل الرَّيِّ لإمرته عليهم قائلا [٤٧]:

هنيئاً لأهل الرَّيِّ طيب بلادهم   وأنَّ أميرَ الرَّيِّ يحيى بن خالد

فقام بخدماتٍ جليلة نالت إعجاب المهدي عندما ذهب إلى هناك في زيارةٍ تفقدية [٤٨]، فأسنَدَ إليه تربية ولده هارون، وكان ما يزالُ رضيعاً، فتولَّت إرضاعه زوجتاه: أم الفضل، وأم جعفر مع ولديهما: الفضل وجعفر[٤٩].

ثم أوكل إليه أمرَ تأديبه، والإشراف على شؤونه، والكتابة له[٥٠]، فقامَ بما أوكل إليه خير قيام، وشمَلَهُ بعطفِهِ وحنانه، وغمَرَهُ بحبه ورعايته، فبادَلَهُ الرشيد حبَّاً بحب، وبلغ من تقديره له وإجلاله أن كان يناديه أبي؛ وقال أبي[٥١].

ولَّما تولَّى الرشيد إمارة بلاد المغرب ابتداءً من الأنبار، وانتهاءً بإفريقيا استعان بيحيى في الإشراف على دواوينه ورسائله[٥٢].

وحينَ غزا خالد بلاد الروم رافقه في غزوته، فتولَّى أمرَ العسكر، ونفقاته وكتابته، والقيام بشؤونه [٥٣].

ولعِبَ دوراً هاماً في تَوَلِّي الرشيد ولاية العهد بعد أن ناظر الهادي في أحقيَّة هارون بذلك، فأثناهُ عن تنصيبِ ولده جعفر بن الهادي عن ولاية العهد لصغر سنه [٥٤]، فأدَّى ذلك إلى حقدِ الهادي عليه، فزجَّهُ في السجن، وظلَّ سجيناً يتجرَّعُ كأسَ الذُّلِّ والهَوان إلى حين وفاة الهادي،

[٤٧] الحيوان للجاحظ: ٥/ ٣٩٠-٣٩١.

[٤٨] الوزراء والكتاب ص ١٣٦.

[٤٩] تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٤٠٦ والعِبَر لابن خلدون: ٣/ ٣٧٢.

[٥٠] تاريخ الأمم والملوك: ٩/ ٣٣٤ ووفيات الأعيان: ٦/ ٢٢١.

[٥١] البداية والنهاية: ١٠/ ٢٠٤.

[٥٢] تاريخ الأمم والملوك ٩/ ٣٤٥ و١٠/ ٦٦٨ والوزراء والكتاب: ١٥٠ والعيون والحدائق ص٢٨٢-٢٨٣ والعِبَر لابن خلدون ٣/ ٤٤٩.

[٥٣] راجع: تاريخ الأمم والملوك ٩/ ٣٤٤ والبداية والنهاية ١٠/ ١٤٦.

[٥٤] الفخري: ص١٥٩-١٦٠.

فأرسلت إليه أم الرشيد: الخيزران تُخبِرُه بذلك[٥٥]، فبويع الرشيد بالخلافة في نفس الليلة التي مات فيها الهادي والتي تصادف الليلة الأخيرة من ربيع الأول سنة ١٧٠هـ.

فأشار يحيى على الرشيد بتنصيب بعض الوُلاةِ على الأقاليم. ولم يتردَّد الرشيدُ في تقليده الوزارة في نفس الليلة، ومنحه سلطاتٍ واسعةً يقوم بمُقتَضاها بتصريف شؤون البلاد دونَ الرُجوعِ إليه، وخاطبه مخاطبة الابن لأبيه قائلاً[٥٦]: "يا أبَتِ أنتَ أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك، وحُسنِ تدبيرك، وقد قلّدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، واعزل من رأيت، فإنّي غيرُ ناظرٍ معك في شيء".

ودفع إليه خاتمه[٥٧]، وبهذا منحه سلطاتٍ واسعة، فغدا صاحب الأمر والنهي[٥٨]. فقال الشاعر[٥٩]:

ألَمْ ترَ أنَّ الشمسَ كانت مريضةً	فلمَّا أتى هارون أشرَقَ نورها
تلبَّسَت الدُّنيا جلالاً بملكه	فهارون واليها ويحيى وزيرها

كما أسنَدَ إليه بالإضافة إلى ذلك إدارة الدواوين جيمعها باستثناء الخاتم، ثم ولاَّهُ الخاتم بعد ذلك، فغدت الرسائل تؤرَّخُ باسمه، وكان يتولَّى الرشيد تنفيذها[٦٠]وما برحَ يستشيرُ أم الرشيد، ويأخُذَ برأيها تطيباً لخاطر الرشيد، يساعِدُه في عمله ولداه: الفضل وجعفر، فكان يجلس ثلاثتهم ينظرون في قضاء حوائج الناس إلى منتصف النهار، كما ظلُّوا يفتحون أبوابَ بيوتهم لكل من له حاجة، وبذلك ساسَ البلادَ سياسةً حكيمةً تجمع بين الكياسة، وحسن التدبير، فوطَّدَ الأمن وأسكت الثورات، وتصدَّى لمهمات الأمور وتدارك الخلل، فسدَّ الثُغور،

---

[٥٥] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٤٨ و١٦٨-١٦٩. والكامل في التاريخ ٥/ ٧٧-٧٩ وتاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٦ ومروج الذهب ٣/ ٣٣٢-٣٣٣. والفخري: ص١٥٩ والبداية والنهاية: ١٠/ ٥٨. والوزراء والكتاب:ص١٧٤-١٧٥ وغيرها.

[٥٦] تاريخ الأمم والملوك:١٠/ ٥٠ والبداية والنهاية ١٠/ ١٦٠ والوزراء والكُتَّاب: ص١٧٧، والكامل في التاريخ: ٥/ ٨٢، ومروج الذهب: ٣/ ٣٣٧، وغرر الخصائص الواضحة: ص٣٣٣ والعيون والحدائق: ص٢٩١.

[٥٧] الفخري: ص١٥٨.

[٥٨] الأنباء في تاريخ الخلفاء:ص٧٥.

[٥٩] البرامكة سلبياتُهم وإيجابياتهم ص٣٢ عن الوزراء والكُتَّاب: ص١٧٨.

[٦٠] راجع تاريخ الامم والملوك ٤/ ٦٣٧.

وحقَّقَ انتصارات عظيمة على الروم، فغدت الخلافةُ مهيبة الجانب يرهبها الأعداء، ويدينون لها بالطاعة، وعمَّرَ المُدُنَ والحُصون، وجبى الأموال.

يقول ابن الطقطقي[٦١]: لَمَّا جلس الرشيدُ على سرير المملكة، استوزر يحيى بن خالد بن برمك، وكان كاتبه ونائبه ووزيره قبل الخلافة، فنهض بأعباء الخلافة أتمَّ نهوض، وسدَّ الثغور، وتدارَكَ الخلل، وجبى الأموال وعمَّرَ الأطراف، وأظهر رونَقَ الخلافة، وتصدَّى لمهمَّات المملكة، إلى أن يقول: وكان ... صائب الآراء حسن التدبير، ضابطاً لما تحت يديه قوياً على الأمور ... إلخ.

كما نشر العدل وفق كتاب الله تعالى، وسُنَّةِ رسوله المصطفى صلَّى الله عليه وسلم، ولم يؤخذ عليه ولاعلى بنيه ظلمٌ لأحد، واهتمَّ بالزارعة، فحفر الأنهار منها: نهر سيحان بالبصرة[٦٢]ونهر القاطول و "أبا الحيل" فأنفق في حفره أموالاً كثيرة[٦٣]وأنشأ الطرق والخانات، أمَّا في الميدان الاجتماعي: فقد أجرى القمحَ على أهل الحرمين، وبالأخصِّ على من ينحدِرُ من نسلِ المُهاجِرين، والأنصار، وعلى أربابِ الدين والآدب والشعر، وأهلِ المروءات، وأنشأ المكتبات العامة والخاصة، وأنشأ دور التعليم المجاني للأيتام ... إلخ. وقضى على الفتن ومن ذلك حين تغلب عبدربه على افريقية وخلع الرشيد وعظم امره وكثر اتباعه فوجه يحيى اليه يقطين بن موسى ومنصور بن زياد لارجاعه فكان يحيى يرسل اليه الكتب مرغبا في الطاعة ومحذرا من المعصية حتى استجاب ورجع الى الولاء وقدم الى بغداد فوّفى له يحيى بما عاهده عليه واحسن اليه واخذ له الامان من الرشيد[٦٤].

وقد عبَّرَ الرشيد لابن بختيشوع عن امتنانه لما يقوم به يحيى قائلا[٦٥]: "بارك الله عليه، وأحسن جزاءه، فقد خفَّفَ عني، وحمل الثقل دوني ونابَ منابي".

وظلَّ قائماً بعمله تحيطه عناية الله ورعايته إلى أن تآمَرَ عليه الأعداء، فأُودِعَ السجنَ مع أبنائه بعد مقتلِ ولده جعفر، وظلَّ يُقاسي الذُّلَ والحِرمانَ إلى أن ماتَ في سجن الرافقة في

---

[٦١] الفخري: ص١٥٩.

[٦٢] سمي سيحان لجرى مائه، وعدم انقطاعه، معجم البلدان: ٥/١٩٦، وتاريخ الأمم والملوك ١٠/٦٩ وفتوح البلدان: ٤٤٦.

[٦٣] الوزراء والكتّاب: ص١٧٧.

[٦٤] الوزراء والكتّاب: ٢٢٥-٢٢٦.

[٦٥] وفيات الأعيان ٦/٢٢٨ والعِبَر ٣/٤٧٦ وتاريخ بغداد ١٤/١٣٢ والبداية والنهاية ١٠/٢٠٥

الثالثِ من المحرم سنة ١٩٠هـ عن عمرٍ يُناهِزُ السبعين، فصلَّى عليه ولده الفضل في السجن[٦٦]، ودُفِنَ بالرقَّة [٦٧]، فاستقبل الرشيد نبأ وفاته بالحزن والأسى فقال [٦٨]: اليومَ مات أعقل الناس وأكملهم"، وقال مرةً أخرى[٦٩]: مات والله يحيى، ومات الجودُ والكرمُ والسخاء.

وخلَّفَ من الذكور أربعة من الأبناء: الفضل وجعفر وموسى ومحمد، فكانوا من السادة النبلاء.

١. **الفضل بن يحيى البرمكي:**

أمَّا الفضل بن يحيى ويُكنَّى بأبي العباس فهو الولد الأول ليحيى بن خالد، فقد ولد لسبع بقين من ذي الحجة سنة سبع وأربعين بعد المائة من الهجرة[٧٠]قبل مولد الرشيد بسبعة أيام، فرضع من أم الرشيد: الخيزران كما رضع الرشيد من أمه زبيدة بنت بريه أياماً [٧١]، فكان الرشيد يناديه أخي[٧٢]. فقال سليمان الاعمى من قصيدة رثى بها جعفرا:

امين الله في الفضل بن يحيى　　　رضيعك والرضيع له ذمام[٧٣]

فأوكل يحيى أمر تعليمه، وتأديبه إلى كبار علماء عصره منهم: العالم المجاهد: عبد الله بن المبارك[٧٤]، وسمع المغازي من ابراهيم بن سعيد، والحديث من أبي بكر بن عياش[٧٥].

وبذلك نشأَ نشأةً علمية، وأدبية كان لها الأثرُ الكبيرُ في نبوغه العلمي والأدبي، وروايته للشعر، وحرصِهِ على تدوين كل ما يسمع من شعرٍ رائعٍ، وأدبٍ رفيعٍ، فنالَ بذلك إعجابَ

---

[٦٦] العِبَر ٣/ ٤٧٦.

[٦٧] الوزراء والكتّاب:ص٢٦١

[٦٨] البرامكة سلبياتهم وإيجابياتهم ص٢٠٢ عن الإتليدي: أعلام الناس.

[٦٩] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٤٨ والوزراء والكتّاب ص ١٣٦ والنجوم الزاهرة ٢/ ١٤٠ والكامل في التاريخ ٥/ ٢٦ وتاريخ بغداد ١٢/ ٣٧٤.وخلاصة الزهب المسبوك ص١٠٧.

[٧٠] تاريخ بغداد ١٢/ ٣٣٦.

[٧١] الوزراء والكتّاب:ص١٣٦، وفيات الأعيان ٤/ ٢٧ واليافعي، مرآة الجنان ١/ ٤٣٠ وتاريخ بغداد ١٢/ ٣٣٥ ويقال ان امه بربريه مولدة المدينه المنورة.

[٧٢] مرآة الجنان ١/ ٢٤٣.

[٧٣] الهاشمي جواهر الادب١/ ٨٥

[٧٤] ابن سعد: الطبقات الكبير ٢/ ٩١.

[٧٥] الأغاني ١٧/ ٦٤-٦٦ والعباس: معاهد التنغيص ٢/ ٦٥- ٦٦.

الرشيد، واحتل لديه منزلةً رفيعة، فأسند إليه تأديبَ ورعاية ولـده محمـد الأمـين، فوضـعه في حجره، وأسكنه في قصره: الخلد، وضمَّ إليه عمَّاله ودواوينه [٧٦]، فأوكل الفـضل تعليمـة إلى الهيثم بن بشر الواسطي، وأوصاه[٧٧]: "ليكوننَّ أكثرَ ما تأخذ به وليَّ العهد تعظيم الدماء، فإنّي أحب أن يشرب الله قلبه الهيبة لها، والعفاف عن سفكها".

وبهذا توثَّقَت العلاقات الأخوية بينه وبين الرشيد، وتوطَّدَت المحبةُ بينهما فكانا لا يفترقان إلا إذا اقتضت ظروفٌ طارئة فعندئذٍ يوكل من ينوب عنه، فحينما

سافرالفضل إلى الرَّقة أنابَ عنه محمد بن منصور بن زياد[٧٨]وكذلك جعـل مـن ينـوب عنـه عندما سافر إلى بلاد الديلم [٧٩]؛ لهذا كان الرشيد يُحِبُّهُ أكثر من حبِّه لجعفر، إلا أنَّهُ كان أسعدَ بجعفر منه، وأشدُّ حظوةً لديه [٨٠]ولعلَّ هذا يعود إلى عدم مشاركة الرشيد مجالس أنـسه فظـنَّ الرشيد أنَّه يتعالى عليه [٨١]. وبلغ تأثيره في الرشيد أنَّ الرشيد كان يستجيب لرغباتـه، فعنـدما دعاه إلى مبايعة ولده محمد الأمين ولياً للعهد وعمره حينئذٍ خمس سنوات استجابَ له، وسمَّاهُ الأمين، وكان الفضل قد أرسل وفداً إلى الرشيد يدعوه إلى مبايعته، كما كتب إلى جميع الولايات يدعوهم إلى ذلك، فتمَّ للفضل ما أراد [٨٢].

وقد استوزره يحيى فأناط به مساعدته في عمله في الوزارة والدواوين، والإنابةِ عنه في حال غيابه وفي كل امر جليل.

كما استوزره الرشيد فولاَّهُ ديوان الخاتم ومهمتـه تـولّي الخطـط الـسلطانية والوظـائف، والختم على الرسائل والصكوك[٨٣]، فسُمِّيَ بالوزير الصغير، ثُمَّ تولَّى عِدَّةَ ولاياتٍ منها: ولاية

---

[٧٦] وفيات الأعيان ٤/ ٢٨ والوزراء والكتّاب ص ١٩٣.

[٧٧] البيهقي: المحاسن والمساوئ، ٢/ ٤٠٢.

[٧٨] الوزراء والكتاب: ص ١٩٣.

[٧٩] نفسه: ص ١٩٠.

[٨٠] ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٢١١.

[٨١] راجع الفخري ص١٦٥.

[٨٢] الوزراء والكتاب: ص١٩٣.

[٨٣] راجع كتاب العِبَر لابن خلدون ١/ ٤٦٧ والبداية والنهاية ١٠/ ١٧٢.

المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك سنة ١٧٦ه [٨٤]، فالتحق في عمله بعد عامين من تعيينه لكثرة مشاغله فيما يبدو، فودَّعَهُ الرشيدُ والأشراف والوجوه تقديراً له[٨٥].

وأثناء عمله انتهجَ سياسةً حكيمةً تدُلُّ على حِنكَته السياسية تمثَّلَت فيما يلي:

تألُّف قلوب أهل البلاد المفتوحة بكثرة الإحسان إليهم، وأنفق أموالاً كثيرةً على الجند والكتَّاب والزوار، وأزالَ الظلم وشيَّدَ الرباطات – دور العامة – والسقايات، والمساجد ومنها مسجد بلخ، والمسجد الجامع في بُخارى، وأمرَ بإشعالِ القناديلِ في المساجد في شهر رمضان المبارك [٨٦].

واهتم بالثروة الزراعية، فأنشأ السدود، والحِياض والقنوات[٨٧] واعتنى بالشؤون العسكرية فأنشأ جيشاً ضخماً قوامه خمسمائة ألف يدينون له بالطاعة سمَّاه العباسية، أرسلَ عشرين ألفاً منهم إلى بغداد[٨٨].

وكان الفضل قائداً بارعاً، ومقاتلاً محنَّكاً، لذلك انتدبه الرشيد لمحاربة اعداء الخلافة، فشارَكَ في عِدَّةِ معارِكَ أبلى فيها بلاءً حسناً وحقَّقَ بتوفيق الله انتصاراتٍ باهرةً منها:

حين أعلنت مدن عِدَّة في خراسان سنة ١٧٨هـ التمرُّد على الخليفة انتدبه الرشيد لمحاربتهم، ففتح عِدَّة مدن، وأخضعها للخلافة، وعاد إلى بغداد مكللاً بالنصر[٨٩].

وحارب صاحب أشروسنة فاستسلم له، فعامله معاملةً حسنة تَنُمُّ عن رحمة الإسلام، وحسن معاملتة للأسرى[٩٠]، كما انتصر على صاحب الترك رغم كثرة عدته وعتاده، فاستسلم له، واستباح الفضل عسكره وغنم أمواله، ثم عاد غانماً[٩١].

---

[٨٤] الوزراء والكتاب: ١٩٠ص وتاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٥٤ والوفيات ٤/ ٢٩ ومآثر الإنافة في معالم الخلافة ١/ ١٩٤-١٩٥ وغيرها.

[٨٥] الوزراء والكتاب :ص ١٩١

[٨٦] الوزراء والكتّاب ص١٩١ ودائرة المعارف الإسلامية ٦/ ٥٥٠. وراجع كتاب أحكام أهل الذمة لابن الجوزية ٢١٧/١.

[٨٧] العِبَر ٣/ ٤٨٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٦/ ٥٥٠.

[٨٨] لعيون والحدائق ص ٢٩٦ والبداية والنهاية ١٠/ ١٧٢.

[٨٩] الكامل في التاريخ ٥/ ٩٩ والبلدان لليعقوبي ص٣٠٤.

[٩٠] الكامل في التاريخ ٥/ ٩٩.

[٩١] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٦٢-٦٣.

وانتدبه الرشيد لمحاربة يحيى بن عبد الله العلوي حين خرج على الخلافة في بلاد الديلم سنة ١٧٦هـ، وقويت شوكته، وأمَّرَهُ على جيشٍ قوامه خمسون ألفاً فكاتبه الفضل ودعاه إلى الاستسلام بالترغيب تارة، وبالترهيب تارةً أخرى فاستجاب لدعوته، وأخذ له الأمان من الرشيد، فجاء به إليه [٩٢]، فسُرَّ الرشيد بما قام به الفضل حيث حسم الصراع بين البيتين العباسي والفاطمي، ولما جيئ به الى الرشيد استقبله ، ووجوه بني هاشم، وجمعٌ غفيرٌ من الناس استقبالاً حافلاً، وأكرمه وعفا عنه [٩٣].

ثم بدأ نجم الفضل بالأفول عندما سخط عليه الرشيد فعزله عمَّا ولاّه من أعمال، وصادر أمواله، لأنَّه وسَّع على موسى بن جعفر العلوي فاطلق سراحه وذلك سنة ١٨٣، وكان الرشيد قد أودعه عنده في الحبس، فتشفعت له أمه زبيدة، فعفى عنه، وأقره على حضانة ابنه محمد الأمين لكنَّه لم يرجعه إلى ما سلب منه من أعمال [٩٤].

ولما غضب الرشيد على البرامكة سنة ١٨٧هـ ألقي القبض عليه، وأودع مع أبيه وإخوته السجن، حيث ظلَّ حبيساً إلى أن وافَتْهُ المنِيَّةُ غداة الجمعة سنة ١٩٣هـ عن عمرٍ يُناهِزُ الخامسة والأربعين [٩٥]، وصلّي عليه داخل السجن، كما صلّى عليه جمعٌ غفيرٌ خارجه، وعمَّ الحزنُ والأسى جميعَ من عرفه [٩٦].

وقد وصف الجهشياري صاحب كتاب الوزراء والكتّاب جنازته فقال [٩٧]: " صلَّى عليه أكثرُ الناس، واشتد الجزع من الخاصة والعامة، واغتمَّ عليه جميعُ من عرفه، وكثر التضاغط، والتزاحُم في جنازته ودفن بالرقة إلى جانب قبر أبيه".

---

[٩٢] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٥٤-٥٥ والوزراء والكتاب:ص ١٧٢ وص١٨٩-١٩٠ ومقاتل الطلبين ٤٦٧ ص وتاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٠٨ والبداية والنهاية ١٠/ ١٦٧ ومآثر الإنافة في معالم الخلافة ١/ ١٩٤-١٩٥ والعِبَر ٣/ ٤٦٣ والمختصر في أخبار البشر ٢/ ١٣ وغيرها.

[٩٣] العيون والحدائق ص٢٩٦. والداية والنهاية ١٠/ ١٧٢ – ١٧٣

[٩٤] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٦٩ والوزراء والكتاب ص ٢٢٧.

[٩٥] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ١٠٩ والوزراء والكُتَّاب ص٢٦١-٢٦٢ وذكر أن ذلك يوم السبت. ووفيات الأعيان ٤/ ٣٦ وذكر ذلك في شهر رمضان، والعِبَر ٣/ ٤٧٦ وتاريخ بغداد ١٢/ ٣٣٩ وذكر رواية أخرى أنّه في المحرم.

[٩٦] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ١٠٩-١١٠ والبداية والنهاية ١٠/ ٢١١ والكامل في التاريخ ٥/ ١٢٨.

[٩٧] الوزراء والكتّاب: ص٢٦١-٢٦٢.

٢. جعفر بن يحيى البرمكي:

أمَّا أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، فهو الولد الثاني ليحيى بن خالد، وُلِدَ سنة خمسين بعد المائة من الهجرة[٩٨]، فنشأ في أحضان النعيم، والجاه، والسلطان، فأُتيحَ له أن يتعلَّمَ على كبار العلماء في عصره أمثال قاضي القضاة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة وغيره[٩٩]. فضمه يحيى اليه ففقهه وعلمه.

فكان لهذه النشأة العلمية والأدبية أثرها في حياته، فكانت توقيعاته على منهج الفقه الإسلامي[١٠٠]من حيث دِقَّةِ العبارة، وإيجازها، والاستشهاد بآياتٍ من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ونَبَغَ في كثيرٍ من الآداب والعلوم والفنون، وكانَ من ذوي الفصاحة والبلاغة والعلم بكل شيء والحلم والكرم والشعر والأدب والفلسفة والفلك وعلم الصنعة وغير ذلك حتى فاقَ أباه[١٠١]، وكثيراً من أهل عصره!! لانه كان من أدق الخلق ذهناً واصحهم فكراً واعظمهم فطنة فكان من جلال القدر، وعِظَم الهمة، ونفاذ الكلمة ما لم يبلغة أحدٌ في عصره[١٠٢]حتى قيل: إنَّهُ بلغ من المقدرة ما لم يكن لأحدٍ أن يجاريه فضلاً عن أن يسبقه[١٠٣]فاحتلَّ بذلك منزلةً رفيعةً لدى هارون الرشيد.

ومن صفاته الحميدة: بشاشة الوجه، ودماثة الأخلاق، وطلاقة الوجه والذكاء والفِطنة، وتوفُّر العقل، وتوقُّد الذهن، والسخاء، والجود؛ فكان لهذه الصفات أثرُها فيمن حوله فأحبه كل من عرفه[١٠٤]، كما أحبه الرشيد، وتوثقت صلته به في عهد مبكر، عندما كان الرشيد في حضانة أبيه، فدرجا معاً مثلما درج الفضل مع الرشيد[١٠٥]، وبذلك توطَّدَت العلاقة بينهما، فكان الرشيد يأنسُ به كل الأنس، ويُحبّهُ كل الحب حتى غدا لا يصبر على فراقه، ويخاطبه مخاطبة

---

[٩٨] الأعلام ١/ ١٨٨ ودائرة المعارف الإسلامية ٦/ ٥٥٠.

[٩٩] تاريخ بغداد ٧/ ١٥٢ والبداية والنهاية ١٠/ ٩٤.

[١٠٠] تاريخ بغداد ٧/ ١٥٢ ووفيات الأعيان ١/ ٣٢٨.

[١٠١] مختار رسائل جابر بن حيَّان:٣٠٣-٣٠٤.

[١٠٢] وفيات الأعيان ١/ ٣٢٨ و١/ ٣٣٢ وتاريخ بغداد ٧/ ١٥٢ ومرآة الجِنان ١/ ٤٠٤ والأغاني ٤/ ٥٣٩ ط مصر.

[١٠٣] الأغاني ٤/ ٥٣٩ ط الشعب مصر.

[١٠٤] الفخري: ص١٦٥.

[١٠٥] حياة الحيوان الكبرى ٢/ ١٠٧ وذكَرَ أنّه رضع مع الرشيد من فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة.

الأخ لأخيه، ويدعوه: يا أخي [١٠٦] ، وقد عبَّرَ الرشيد عن هـذا الحـب حين قـال لـه [١٠٧]:
"ويحك يا جعفر: إنَّه ليس في الأرض طلعة أنـا بهـا آنـس، ولا إليهـا أميـل، وأنـا بهـا أشـدُّ استمتاعاً، وأنساً مني برؤيتك" و ذلك لدماثة اخلاقه على عكس ما كان عليه الفضل بن يحيى وأنزله قريباً من قصره المعروف بقصر الخلد [١٠٨].

وتمكَّنَ هذا الحُبُّ في قلبِ الرشيد حتى غلبه على أمره، فكان يُجلِسُهُ إلى جواره بينما يجلس ذوا قرباه على الكراسي والوسائد، ويخصُّه بالمشورة دونهم [١٠٩].

فبادَلَهُ جعفر حباً بحب، وقد عبَّرَ جعفر عن عميق حبه له حين عادَ من الشام منتـصراً بعـد أن قضى على الفتنة التي نشبت بين اليمنية والقيسيه هناك وقد ذكرت ذلك في خطب البرامكة.

وقد وصف الشاعر ابن مناذر هذا الحب، فقال [١١٠]:

قـد تقطـع الـرحم القريـب وتكفرالنـــ ـــــعّمى ولا كتقـــارب القلـــبين
يــدني الهــوى هــذا ويــدني ذا الهــوى فــإذا همـــا نفــس تــرى نفــسين

ولا عجَبَ في هذا فقد كان جاداً وقت الجد، وهزلاً وقت الهزل، وبلغ تأثيرهِ في مستمعيه بحيث قيل "إذا شاء أضحك الثكلى"، وخشَّنَ قلب العابد، على عكس ما كان عليـه الفـضل؛ لأنَّ الفضلَ ما برَحَ جاداً في جميع أحواله؛ ولهذا لم يشارك الرشيد مجالس أنسه [١١١].

وبهذا كان أعظم حظوةً عند الرشيد من أخيه الفضل مِمَّا جعل الرشيد يقول ليحيى ذات يوم [١١٢]: "أنتَ للفضل، وأنا لجعفر".

وتقديراً له اتخذه الرشيدُ مُرَبِّياً لولده المأمون [١١٣]، وأغدَقَ عليه الهـدايا النفيـسة حتـى بلغـت إحدى هداياه بما تقدر قيمتها ببضعة عشر ألف دينار [١١٤]؛ وقد كان من الفـصاحة والبلاغـة

[١٠٦] الوزراء والكُتّاب: ص٢٠٤ والعِقد الفريد ٥/ ٦٢-٦٣ والبخلاء ص٤٠٣ ووفيات الأعيان ١/ ٣٣٦.

[١٠٧] مروج الذهب ٣/ ٣٧٥.

[١٠٨] الوزراء والكتَّاب: ١٨٩.

[١٠٩] حضارة الإسلام في دار السلام: ١٠٢.

[١١٠] الأغاني: ١٧/ ٤٩-٥٠.

[١١١] الفخري:ص١٦٥.

[١١٢] الوزراء والكُتَّاب: ص١٨٩

[١١٣] وفيات الأعيان ٦/ ٤٧٣ والبداية والنهاية ١٠/ ١٧٩ والبيهقي: المحاسن والمساوئ ٢/ ٤٠٢ والبخلاء:ص ٤٠٣.

والمهارة الكتابية بحيث عيَّنَهُ الرشيد وزيراً له بالإضافة إلى ما أُنيطَ به من أعمالٍ أخرى؛ لأنَّ الخُلَفَاء لا يستوزرون إلا من توفَّرَ فيهم المهارة الكتابية، كما أشركه معه في النظرِ في المظالم، فكان يوقع بين يديه في مجالس حكمه، وربما استقلَّ عنه في بعض الأحيان دونَ الرجوع إليه، فكان لها من النفاذ بحيث لا تُردّ [115].

كما ولاَّهَ شؤون داره، فسمي بالوزير الصغير [116] وفي سنة ١٧٦هـ ولّي نيابة مصر بعد أن امتنعت عن دفع الخراج، لكنَّهُ لم يُباشِر عمله بنفسه، فأنابَ عنه: عمر بن مهران، فأصلح شؤونَها، وعادَ أهلها إلى السمع والطاعة [117]غيرَ أنّه لم يستمر في ولايته طويلاً فعزَلَ عنها سنة ١٧٧هـ، ثم ولّى الحرس سنة ١٨٠هـ، فاستخلَفَ نيابةً عنه هرثمة بن أعين [118] كما هي عادته في جميع ما أُسنِدَ إليه من ولايات [119]، وأسندَ إليه الرشيد القضاءَ على الفتنة التي نشبت مرة اخرى في بلاد الشام، بين اليمنية والقيسيه وكان موسى بن يحيى قد قضى عليها قبل ذلك فأصلحَ بين المتخاصمين، وعاد منتصراً، كما وُلّي بلادَ المغرب من الأنبار شرقاً إلى بلاد إفريقيا غرباً بالإضافةِ إلى ما بيده من أعمالٍ أخرى، ثم أعفي عن ولايتها [120]،

كما تقلَّدَ بريد الآفاق، ودور الضربِ والطرز [121].

وبهذا يمكننا القول: إنَّهُ تولّى من الولايات أكثرَ مِمَّا تولّى يحيى بن خالد؛ لهذا لُقِّبَ بالسلطان [122]. وقد ذكر ابوالفداء في كتابه البداية والنهاية انه استمر في تولي الوزارة سبعة عشر عاما [123]. لهذا قال البغدادي في كتابه تاريخ بغداد ٧/ ١٥٢: كان من علو القدر ونفاذ الامر وعظم

---

[114] وفيات الأعيان، ٦/ ٤٧٣.

[115] حضارة الإسلام في دار السلام، ص١٠٥- ص١٠٦.

[116] الفخري: ص١٦٥.

[117] البداية والنهاية ١٠/ ١٦٩.

[118] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٦٨.

[119] الوزراء والكُتّاب: ص١٩٠ والبداية والنهاية ١٠/ ١٦٩ ودائرة المعارف الإسلامية ٦/ ٥٥٠.

[120] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٦٢.

[121] الوزراء والكُتّاب ص٢٠٤ وحياة الحيوان الكبرى ٢/ ١٠٧.

[122] دائرة المعارف الإسلامية ٦/ ٥٥٠.

[123] ابو الفداء: البداية والنهاية١٠/ ٢٠٥ طبع دار الريان.

المحل، وجلالة المنزلة عند هارون بحالة انفرد بها، ولم يشارك فيها، وكان سمح الاخلاق طلق الوجه، ظاهر البشر

ومن إنجازاته التي حقَّقَها أثناء ما أنيطَ إليه من مهام: أشارَ على الرشيدِ أن يُبايع ابنه المأمون بعد الأمين في ولاية العهد وأخذ له البيعة، وأكَّدَ الأيمان على وجوه بني هاشم، وكاتب عُمَّالِ الأقاليم في ذلك؛ مِمَّا أوغرَ قلب الأمين عليه [١٢٤].

ونظَمَ الدواوين: والضرائب والجند، وأنشأ العسَس في الشوارع والحواري، وأصلَحَ الزوراء، وأوكل في كل بلدٍ ومدينةٍ من بلاد المسلمين رجالاً يحكمون بكتاب الله وسنة رسوله، وجعل لهم أمكنةً بارزَةً للعيان، وسهَّلَ للشعب الوصول إليهم، فحفظوا للأمة أنفسها، ودينها وأخلاقها، وأعراضها وأموالها، فعمَّ الأمنُ والسلام في طول البلاد وعرضها [١٢٥].

يقول ابن قيِّم الجَوزية [١٢٦]: وكان الرشيد حين ولاَّهُ، أمَرَهُ بالنظر في مصالح المسلمين فعمرت المساجد والجوامع والصهاريج والسقايات، ومكاتب اليتامى ... إلخ.

وَرَعَى الحركة العلمية والأدبية، وشجَّعَ العلماء والشعراء والأدباء، فأغدَقَ عليهم الأموال، والهدايا، وعقِد مجالس العلم والأدب، فانتشر العلم، وازدهرَ الشعرُ والكتابة وتقدَّمَت الحضارة، وعمَّ العِمران، وفي ليلة السبت الأول من صفر سنة ١٨٧هـ تنكَّر له الرشيد، ولأهل بيته، فقتله في الأنبار أثناء عودته من الحج بصحبة الرشيد ، وقد ناهز السابعة والثلاثين من عمره، وصلبت أشلاؤه على جسور بغداد.فقال الشاعر [١٢٧]:

ايا سبت يا شر السبوت صبيحة　　　ويا صفر المشؤوم ما جئت اشأما

٣. موسى بن يحيى:

أمَّا موسى فهو الابنُ الثالثُ ليحيى بن خالد فكان، أحدُ الفرسان الشجعان [١٢٨]، وقد فاقَ في بأسِهِ وشجاعته اخوته جميعاً، فأهَّلَهُ ذلك لأن يكون مقاتلاً بارعاً وقائداً مُحنَّكاً، لهذا اختاره الرشيد لولاية الشام سنة ١٧٦هـ على أثر اضطرامِ نارِ الفتنةِ بين اليمانية والقيسية ،

---

[١٢٤] الوزراء والكُتَّاب: ص٢١١.

[١٢٥] حضارة الإسلام في دار السلام، ص١٠٣-١٠٥.

[١٢٦] أحكام أهل الذمة ١/ ٢١٧.

[١٢٧] تاريخ الامم والملوك١٠/ ٨٣ ط مصر.

[١٢٨] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٨٣.

فخرج إليهم بجيشٍ ضمَّ خِيارَ المُقاتلين وكِبارَ القادة، ومشايخَ الكُتَّاب، فحقَّقَ بعونِ الله تعالى انتصاراتٍ باهرة، فاستأصلَ شأفَةَ الفتنةِ من جُذورها، وأجهَضَ الفساد، ووطَّدَ الأمن، وأصلح شؤونَ البلاد والعباد[129]. فقال الشاعر[130]:

قد هاجت الشام هيجا	يشيـــــب رأس وليده
فهب موســـى عليها	بخيله وجــــــــنوده
فدانت الشـــــام لما	اتى بســـــنح وحيده

...... إلخ القصيدة

ثم بدأ نجمُهُ بالأفول بعد ان ساءت علاقته بالرشيد، وحامت حوله الظنون وتشكك الرشيد في اخلاصه ونواياه، بعد أن وشى به والي خُراسان: علي بن عيسى بن ماهان واتهمه بمكاتبه أهل خراسان يُحرِّضُهم على الرشيد، ويدعوهم إلى الثورة عليه والخروج على الخلافة واثارة الفتنة، فوجد منهم آذاناً صاغية، فأحبوه، واستجابوا له، وهو الآن بِصَدَدِ اللَّحاقِ بهم ليشاركهم ثورتهم عليه.

وأكَّدَ صِحَةَ الخبر اختفاؤه في دين لحقه، فامتلأ قلب الرشيد حُنقاً عليه، فطارده حتى ظفَرَ به، فأودعه السجن، فتشفَّعت له أم الرشيد – الخيزران امه من الرضاعة –، وضمنه أبوه فاستجاب الرشيد لهما، ففكَّ قيدَهُ وأطلقَ سراحه[131].

ولَّما تنكَّرَ الرشيدُ للبرامكة قبض عليه مرةً أخرى، فأودع السجن مع أهله، وظلَّ سجيناً حتى تولَّى الأمينُ الخلافة، فأطلقَ سراحه، فانضمَّ إلى جيش الخلافة، ولَّما اندلعت نارُ الفتنة بين الأخوين الأمين والمأمون انحازَ إلى جانبِ المأمون، فكافأهُ بعد انتصاره تقديراً لإخلاصه وشجاعته، وعيَّنَهُ والياً على بلاد السِند[132]، واستمرَّ في ولايته إلى أن اخترمته المنية سنة ٢٢١هـ فخلَّفَ من الأبناء عمران الذي شارك في عِدَّة حُروب ضِدَّ أعداءِ الخلافة فأبلى فيها بلاءً حسناً[133].

---

[129] المرجع السابق ١٠/ ٦٠ والبداية والنهاية ١٠/١٦٨-١٦٩.

[130] ابوالفداء، البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٤ بسخ:اليمن والبركة.

[131] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٨٣ وحسن ابراهيم: تاريخ الإسلام ٢/ ٥٩.

[132] تاريخ بغداد ٤/ ١٣٠.

[133] دائرة المعارف الإسلامية:٦/ ٥٥٨.

٤. محمد بن يحيى:

أما محمد: فهو الابن الرابع ليحيى، وهو أصغر إخوته، ولم يكُنْ له من الشهرة ما كان لهم، وكتب لجعفر بن محمد بن الأشعث على الزمام[١٣٤] إبَّانَ خلافة الرشيد، وكان على صِلَةٍ بِعامَّةِ الناس وداعياً إلى محبة البرامكة، والتقرُّبِ إليهم ونشرِ فضائلهم ومكارمهم[١٣٥]، وقد تمَّ القبضُ عليه مع أبيه وأخوته، فحُبِسَ بالرقة حيثُ ظلَّ رهينَ الحبس إلى أن تولَّى الأمين الحكم، فأفرجَ عنه[١٣٦]، فانضمَّ إلى بلاطه في مرو، ثم خلفه ابنه محمد وابن أخيه العبَّاس بن الفضل[١٣٧] ولم يكُن له من الكرم ما كان لأبيه وأخوته[١٣٨].

---

(١٣٤) الوزراء والكتاب: ص١٩٣.

(١٣٥) أطلس عصر الازدهار: ص١١٦ وذكر الجاحظ في: البخلاء:ص٣٤٤ غير ذلك فقد قال: أنّه كان منطوياً على نفسه فلم يخالط الناس، ولم يتقرَّب إليهم، متجاهلاً لهم، ولم يحسب لأحدٍ حساباً، ولم يُبالِ مَدَحَهُ الناس أم ذمُّوه لهذا لم يكن له من الأخبار ما لهم كما ذكرت المراجع التالية أنّه لم يكن له اختلاط بالناس، وأنّه كـان مـبخلاً، راجع: الوزراء والكتاب: ص٢٤٢ وغرر الخصائص الواضحة: ص٢٣٥ والعقد الفريد ١/ ١٨١ والمستطرف للأبشهيي ١/ ١٨١ وابن الأزرق: بدائع السلك: ص٤٢٨ والتوحيدي: الامتاع ٢/ ٥٨.

(١٣٦) الجاحظ: البخلاء: ص٣٤٣.وراجع كتاب تاريخ الاسلام السياسي والديني لحسن ابراهيم طبع دار الاندلس ـ بيروت.

(١٣٧) دائرة المعارف الإسلامية: ٦/ ٥٥٨.

(١٣٨) الجاحظ: البخلاء: ص٣٤٤ والورقة: ص١٠٠

الفصل الثاني

نكبة البرامكة وأسبابها

في ليلة السبت غرة شهر صفر سنة ١٨٧هـ سقطت الوزارة البرمكية [(١)]، بعد أن عمَّرت في الحكم قرابة ثمانية عشر عاماً [(٢)]، فقتل جعفر بالأنبار أثناء عودته من الحج بصحبة الرشيد، وصلبت أشلاؤه على جسور بغداد، وسجن والده، عميد الأسرة البرمكية يحيى بن خالد، وأبناؤه: الفضل، وموسى، ومحمد، وجُرِّدُوا من ممتلكاتهم وأموالِهم، ونُهِبَت مكتباتهم، وصُودِرَت ضِياعُهم [(٣)]، ونُكِّلَ بأعوانِهم، وأشياعِهم، فقتل أنس بن أبي شيخ [(٤)]، وإبراهيم بن عثمان بن نهيك [(٥)]، وحُبِسَ ثمامة بن أشرس [(٦)]، ومسلم بن الوليد [(٧)]، واستجوب بعضهم، ونودي في النَّاس أن لا أمانَ لمن آوى واحِداً منهم، وبهذا ضاع مجدُهم الذي شيَّدُوه عبر سنواتٍ طويلة!! وصدق الله العظيم حيث قال: "وَتِلكَ الأَيَامُ نُداوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ" [آل عمران/ ١٤٠] وانطبق عليهم قول القائل [(٨)]:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر!!

---

(١) وفيات الأعيان ٦/ ٣٣٧-٣٣٨ ومروج الذهب: ١/ ١١٨ والفخري: ص١٦٠-١٦١ والتنبيه والإشراف: ص٢٩٩، وقيل سنة ١٨٨هـ وقال ابن قتيبة صاحب كتاب المعارف ص٣٨٢: آخر يوم من المحرم.

(٢) وقيل استمرت في الحكم مدة سبعة عشر عاماً، وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً متتالية. مروج الذهب: ٣/ ٣٨٠-٣٨١.

(٣) تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٨٥ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٤٢٢ ووفيات الأعيان ٦/ ٣٣٨ ومروج الذهب ٣/ ٣٧٨-٣٧٩.

(٤) أنس بن أبي شيخ من الكتاب البلغاء خدم البرامكة فأخلَصَ لهم وكان كاتباً لجعفر قبض عليه صباح اليوم الثاني لمقتل جعفر، فضرب عنقه وهو يتمثل: تلمظ السيف من شوق إلى أنس فالسيف يلحظ والأقدار تنتظر راجع: البداية والنهاية، ١٠/ ١٩٠-١٩١ وتاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٨٥ والمعارف ص٣٨٢.

(٥) اتصل بالبرامكة وحزن عليهم، وتوعد من قتل جعفرا، فاستدعاه الرشيد فخطأ الرشيد في قتله، فحبسه ثم أمر بقتله راجع: البداية والنهاية ١٠/ ١٩٣ والأمم والملوك ١٠/ ٩٤ والنجوم الزاهرة ٢/ ١٢٠ والعِبَر ٣/ ٤٧٥-٤٧٦.

(٦) هو أبو معن ثمامة بن أشرس التميري أحد الفصحاء البُلغاء من كِبارِ المعتزلة وزعمائهم سُمِّي أتباعه بالثمامية اتصل بالرشيد والبرامكة والمأمون كان ذا نوادر ومِلَح: ربيع الأبرار ١/ ٧٥٤ والأعلام ٢/ ٨٦.

(٧) مسلم بن الوليد الأنصاري – صريع الغواني نزل بغداد كان شاعراً مجيداً كثير المدح اتصل بالبرامكة فمدحهم ونالَ جوائزهم توفي آخر دولة الرشيد: أعلام النبلاء: ٨/ ٣٢٣-٣٢٤.

(٨) البداية والنهاية: ١٠/ ٢٠١ .زعم ان جعفرا هتف به هاتف في المنام بهذا البيت.

فلماذا نكَّلَ الرشيد بمن أخلصوا له، وكان لهم اليدُ الطولى في تولّيهِ الخلافة، وجعلوا الخلافةَ العباسية مهيبة الجانب يرهَبُها الأعداء، ويخطبون ودَّها، ومن بغداد منهلاً للعلوم والآداب وموئلاً للشعراء والأدباء والعلماء، ولماذا حدث هذا من رجلٍ عرف بتقواه، وورعه، وزُهدِه وكثرة عبادته، وشِدَّة تأثُّره إذا سمع موعظةً بكى؟

وكان يحجُّ عاماً، ويغزو عاماً[٩]: فإذا حجَّ حجَّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا غَزَا ولم يحج حجَّ على نفقته ثلاثمائة حاج[١٠]، وكان يحجُّ ماشياً طلباً لمزيدٍ من الأجر، وهذا ما لم يفعله غيرُهُ من الخلفاء[١١]، فقال الشاعر ابوالمعلى الكلابي[١٢]:

فمن يطلب لقاءك أو يرده	فبالحرمينِ أو أقصى الثغور
ففي ارض العدو على طمر	ِروفي ارض الترفه فوق كور
وما حاز الثغور سواك خلق	من المتخلفين على الامور

كما عُرِفَ بكثرة الصلاة: فبلغ ما يصليه في اليوم الواحد مائة ركعة غير الصلوات المكتوبة لم يتركها إلا لعُذرٍ شرعي، كما كان كثير الصدقة من ماله الخاص، فبلغ ما ينفقه في اليوم الواحد ألف درهم[١٣].

ومن خصاله الحميدة أنّه لا يستمع إلى وشي الواشين، وإفك النَّمامين[١٤]، وقد وصفه الأتابكي فقال[١٥]: "من أحاسن الخلفاء".

فإذا كانت هذه سيرته وأخلاقه، فلماذا نكَّلَ بالبرامكة دونَ أن يُجري لهم محاكمةً عادلة؟

لقد تضاربت أقوال المؤرخين، وأصحاب السير، فما أثبته بعضهم نفاهُ آخرون، وهذا ما يجعل الباحث يقف من ذلك موقف الحائر المُتَرَدِّد، يُقَدِّمُ رِجلاً، ويُؤَخِّرُ أخرى من التسليم

---

(٩) الوزراء والكتاب: ص٢٠٦ وتاريخ بغداد ١٤/ ٦ وابن خلدون: العِبَر ٣/ ٤٧٦ والنجوم الزاهرة ٢/ ٨٦.

(١٠) تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ١١٣ وتاريخ بغداد ١٤/ ٦ والعِبَر ٣/ ٤٧٦.

(١١) النجوم الزاهرة ٢/ ٦٥.

(١٢) تاريخ بغداد ١٤/ ٦ والنجوم الزاهرة ٢/ ٨٦ والسيوطي: تاريخ الخلفاء: ٢٨٣ والبداية والنهاية١٠/ ٢١١ .الطمر:الثوب الخلق الكور:الرحل.

(١٣) تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ١١٣ وتاريخ بغداد ١٤/ ٦ والعِبَر ٣/ ٤٧٦

(١٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص٣٢٩.

(١٥) النجوم الزاهرة: ٢/ ٦٥.

بصحة هذه الأخبار، وإن كان لبعضها وجاهتها في اتخاذ الرشيد زمام المبادرة، وتنفيذ القرار بعد أن تردَّدَ طويلاً[16]، فقيلَ إنَّه قد عزَمَ على قتل جعفر قبل ذلك بخمس سنين أو ست، فأخذ يستخيرُ ربَّهُ وكان يتعلَّقُ بأستار الكعبة، ويقول: "اللهم إنِّي أستخيرك في قتل جعفر" [17]، وقد أخفى ذلك عن أقرب المُقَرَّبينَ إليه [18]، مِمَّا يدُلُّ على أنَّه كان من أشدِّ الناس كتماناً لسره حتى زعم أنَّهُ لا يعرف السبب الذي دعاه إلى ذلك. ذكر ابن الجوزي ان الرشيد سئل عن سبب قتله البرامكة فقال: "لو اعلم ان قميصي يعلم ذلك لاحرقته" [19]. وقد أورد الجهشياري أنَّ الرشيد استجوبَ يحيى أثناء حبسه، فبلغ عددُ ما وجَّهُ إليه من تهم: أربع عشرة تهمة [20].ومِمَّا يُروى عن أسبابِ نكبتهم ما يلي:

١- استئثارُهم بالسلطة

من إمارةٍ ووزارةٍ وولاية وحرس وقيادة، وسيف، وحِجابة، وقلم، فملأوا الوظائف الحكومية بالرؤساء من ولدهم حتى قيل إنَّهُ بلغ من تولَّى من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً [21]، كما تولَّى الحكم ولدا يحيى الفضل في المشرق، وجعفر في المغرب.

فقال الشاعر [22]:

إذا ما البرمكي غدا ابن عشر فهمته أمير أو وزير

هذا عدا من استعانوا بهم من أشياعِهم، وأبناءِ جِلدتهم من الفرس، فقد اكتظت بهم الدواوين، فأغدقوا عليهم الأموال، والهِبات، وبهذا تكاثر مؤيِّدُوهم، وازداد أشياعُهم [23]. فغدا جميعُ رِجالِ الدولة من صنائعهم وأتباعهم، فأصبحت الدولة عباسية خرسانية بعد أن

[16] شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٣/ ٢٨٤.

[17] راجع: كتاب التاج في أخلاق الملوك للجاحظ.

[18] الصولي: أشعار أولاد الخلفاء: ص٥٧.

[19] البداية والنهاية ١٠/ ١٩٦ ط دار الريان.

[20] الوزراء والكتاب: ص٢٤٣ قال: حتى عدد أربعة ... شيئاً وموضع النقط قد مُحِيَ والمناسب عشر.

[21] ابن خلدون: العِبَر ١/ ٢٤.

[22] أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول: ص٢٦٦ عن السيوطي: حسن المحاضرة ٢/ ١١٣.

[23] شذرَات الذهب ١/ ٣١٢.

كانت أيام الأمويين عربيةً أموية. لذلك وجد الرشيد بعد رحيلهم صُعوبَةً كبيرةً في العثور على من يحِلُّ محلَّهم، ويُسُدُّ مسدَّهم؛ ليملأَ الشواغر التي نجمت عن رحيلهم [٢٤].

كما لا ننسى أن نذكر أنَّ يحيى بن خالد أصبح صاحب الأمر والنهي، فكلمته لا تُردُّ بعد أن فوَّضَهُ الرشيدُ في إدارة شؤونِ البلاد دونَ الرجوعِ إليه، حتى أصبح الرشيدُ فيما قيل: لا أمرَ له ولا نهي [٢٥]، مما جعل أحدَ الوُشاةِ يدُسُّ إلى الرشيد أبياتاً من الشعر، يُحرِّضُهُ فيها على البرامكة قال فيها [٢٦]:

قُـــلْ لأمـــينِ اللهِ في أرضِـــهِ	ومَـــنْ إليـــهِ الحـــلُّ والعَقْـــدُ
هـذا ابـن يحيـى قـد غـدا مالكـاً	مثلُـــكَ، مـــا بينكُمـــا حـــدُّ
أمــــرُكَ مـــــردودٌ إلى أمــــرِهِ	وأمــــرُهُ لــــيسَ لــــه حــــدُّ

إلى أن قال:

نحـــن نخـــشى أنَّـــهُ وارثٌ	ملكـــك إن غيَّبَـــكَ اللَّحْـــدُ
ولـــن يبـــاهي العبـــدُ أربابَـــه	إلا إذا مـــا بطـــر العبـــدُ

فأُصيبَ هارون بالحزن والأسى حين رأى ازدحامَ ذوي الحاجات على باب يحيى بن خالد، فقال [٢٧]: "استبدَّ يحيى بالأمور دوني، فالخلافة على الحقيقة له، وليس لي منها إلاَّ اسمها!!".

فمن الذين أرجعوا نكبة البرامكة إلى ارتفاع مكانتهم، وعظم شأنهم، واستئثارهم بالحكم أبو الفدا فقال [٢٨]: "لمَّا عظُم أمرُ البرامكة، واشتهر كرمُهُم، وأحبَّهُم الناس، والملوك لا تصبرُ على مثل ذلك نكبهم الرشيد".

---

[٢٤] أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول: ص٢٥٢.

[٢٥] راجع: تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٤٢٩.

[٢٦] وفيات الأعيان: ١/ ٣٣٥-٣٣٦ واليافعي: مرآة الجِنان ١/ ٤١١ والحنبلي: شذَرَات الذهب ١/ ٣١٢ وكتاب التحف والهدايا: ص١٧.

[٢٧] ابن الطقطقي: الفخري: ص١٦٩.

[٢٨] أثر الفرسي السياسي: ص٢٨٧ عن كتاب المختصر في أخبار البشر ١/ ١٦.

وقال العمراني في مخطوطته: الأنباء في تاريخ الخلفاء ورقة ٤٨: "من أسباب نكبة البرامكة استيلاؤهم على الدولة، وتقلُّبهم على الدنيا بالكلية" [٢٩].

ولعلَّ هذا السبب من أقوى الأسباب التي دفعت الرشيد إلى القضاء عليهم والإيقاع بهم.

٢- إرادة نقل الخلافة لآل البيت:

وهناك من يُرجِعُ نكبة البرامكة إلى ما أضمروا من حُبٍّ لآلِ البيت فأرادوا أن ينقلوا الخلافة إليهم؛ لقرابَتِهم من رسول الله صلّى الله عليه وسلم؛ لهذا أمدوا بعضهم بالمال، فقد قيل: إنَّ يحيى بن خالد أمدَّ يحيى بن عبد الله العلوي في بلاد الديلم بمائتي ألف دينار بعد أن أعلن العصيان والخُروجَ عن طاعة الرشيد سنة ١٧٢هـ، فلمَّا علم الرشيد بذلك أسرَّها في نفسه ولم يُبدِها، ولَمَّا سأله وهو في الحبس عمَّ حمله على ذلك؟ أجابه [٣٠]: أردتُ أن تقوى شوكة يحيى بن عبد الله، فيظفر به الفضل بعد قوته، فيكون أحظى له عندك!! فقالَ له الرشيد: فما يؤمنك أن تقوى شوكته، فيقتل الفضل، ويقتلني".

وكان الفضلُ قد خرج إليه، وأرجعه إلى طاعة الرشيد، وأخذَ له الأمان من الرشيد، فشكرَ له الرشيد ذلك، غَيْرَ أنَّ الأعداء وشوا بيحيى بن عبد الله، فقبضَ عليه، واحتجز عند جعفر بن يحيى، فتوسَّلَ إليه قائلاً له: اتقِّ الله في أمري، ولا تتعرَّض أن يكون خصمك غدا محمَّداً صلّى الله عليه وسلم، فوالله ما أحدثت حدثاً، ولا أويت محدثاً فرق له، وأطلق سراحه، فلمَّا علم الرشيد بذلك استاء من جعفر، وتوعَّدَه [٣١].

وقد عزا أبو محمد اليزيدي قتل جعفر إلى ذلك؛ وقال: "ومن قال غيرَ ذلك فلا تصدِّقه" [٣٢].

وأرسل يحيى بن خالد سبعين ألف دينار إلى الزعيم العلوي: أحمد بن عيسى بن زيد [٣٣].

---

[٢٩] أثر الفُرس السياسي: ص٢٨٧.

[٣٠] الجهشباري: الوزراء والكتاب، ص٢٤٣.

[٣١] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٨٠-٨١، والفخري ١٦٩ والبداية والنهاية ١٠/ ١٨٩، والعِبَر ٤/ ١٥ والنجوم الزاهرة ٢/ ١١٥-١١٦، ووفيات الأعيان ١/ ٣٣٤ ومراجع أخرى.

[٣٢] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٦٨٠-٦٨١ و٤/ ٦٥٨ ط بيروت.

[٣٣] أثر الفرس السياسي: ص٢٨٢ عن الجهشياري: ص٢٤٢.

كما اتهم يحيى بأنّه أراد نقل الخلافة إلى عثمان بن نهيك الفاسق [٣٤]. ولما أراد عبد الملك بن صالح الخروج على الرشيد لينازعه الملك ظنَّ الرشيدُ أنَّ يحيى يعلم بأمره، فأخفى عنه ما كان يُدبِّر؛ لهذا سأل الرشيد يحيى وهو في الحبس عمّ حمله على ذلك [٣٥].

وقِيلَ إنَّ الفضلَ بن يحيى وسَّعَ على موسى بن جعفر لَمَّا حبسه الرشيد، ووضعه عنده، فغَضِبَ عليه الرشيد، وزَعَمَ أنّه ضربه، ولعنه وتبرأ منه فأشفَقَ عليه يحيى بن خالد، فتوسَّطَ له عند الرشيد فعفا عنه [٣٦].

لهذا تشكَّكَ الرشيدُ في نوايا البرامكة، وما يضمرونه، ولكن هذا الشك لا مُبَرِّرَ له لأن الشكّ لا يغني من الحق شيئاً؛ لهذا شعر الرشيد بعظم الذنب الذي ارتكبه بعد ذلك، ولكن بعد فوات الأوان، فاستدعى عيسى بن برد انيروث أحد كتاب البرامكة – بعد قتله لجعفر– وأجلَسَهُ إلى جِوارهِ دونَ أن يُشاركَهُما أحدٌ في تلك الجلسة، وسأله عمَّا كان يضمِرُ جعفر له، وهل أرادَ به غدراً، أو احتالَ لقتله؟ فأكَّدَ له الأيمان أنّه ما عرف عنه ما يدُلُّ على خروجه عن طاعته، كما وأنّه لم يقصر في موالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، فما زالَ الرشيدُ يُكرِّرُ له السؤال ثلاثاً، وعيسى يؤكِّدُ له ما ذكره له، فتأثَّرَ الرشيد، وحزِنَ لذلك، فقال: يا أسفى عليك يا جعفر!! وأعادَ إليهِ ما سلَبَ من أمواله، وردَّهُ إلى ما كان يتقلَّدُ من مناصب [٣٧].

٣- حيازة الأموال والضياع:

وهناك من المؤرِّخين والكُتَّاب؛ من يعزو نكبة البرامكة إلى جمعهم الأموال، وحيازة الضياع والقرى في جميع الأمصار لأنفسهم [٣٨]، فقال علي بن عيسى: أنَّ الشره هو الذي أودى إلى قتل جعفر، حيث حاز على ضِياعِ الدنيا، وبساتينها لنفسه، فكان الرشيد إذا غدا أو راح لا يَمُرُّ بشيءٍ من ذلك إلا قيل: هذا لجعفر [٣٩]، كما تكدَّسَت لديهم أموال الجباية، وهدايا الخلفاء

---

[٣٤] وفيات الأعيان ١/ ٤٧٣، والمقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ١٠٤.

[٣٥] مقتل الطالبين: ص٥٠٣-٥٠٤.

[٣٦] أثر الفرس السياسي: ص٢٨٢ من الجهشياري.

[٣٧] وفيات الأعيان ١/ ٤٧٢-٤٧٣.راجع مختار القاموس حرف الهمزة الاسف:اشد الحزن

[٣٨] العِبَر: ١/ ٢٤ ومروج الذهب ٣/ ٣٦٨.

[٣٩] ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٤٧٣ والبداية والنهاية ١/ ١٨٩.

والملوك[٤٠]، ولم يقف الأمرُ عند هذا الحدِّ، فقام جعفر بضرب السكَّة، فصنع دنانير من الذهب طبع عليها صورته واسمه كما يفعل الملوك في عصرنا الحاضر، وزن كل دينار مائة دينار ودينار، وهذا ما لم يفعله أحدٌ من الخلفاء والوزراء قبله[٤١]، وقد عثر بعد نكبتهم على أربعة آلاف دينار في بركة داره الواقعة في سويقة جعفر، وقد كُتِبَ على كُلِّ دينارٍ قول الشاعر:

وأصفر من ضرب دار الملوك	يلوح على وجهه جعفر
يزيد على مائة واحد	إذا ناله معسر يسر[٤٢]

فأدَّت كثرةُ الأموال لديهم إلى الإسراف في مساكنهم وأثاث بيوتهم ولباسهم وتشييد قصورهم، فأنفقوا عليها أموالاً جَمَّة حتى بلغت تكاليفُ قصر جعفر المسمى بالقصر الجعفري: عشرون ألف ألف درهم، عدا ما أنفقه على أثاثه وفرشه[٤٣]، فقال الشاعر في وصفه[٤٤]:

وقد بنى الدار التي ما بنى الفرس	لها مثيلا ولا الهند

وقيلَ في وصفه أيضاً:

الدر والياقوت حصباؤها	وتربها العنبر والمسك

لهذا جعله الرشيد بعد نكبة البرامكة قصراً للخلافة. فاستغلَّ أعداءُ البرامكة هذا الإسراف، فأغروا الرشيدَ به فقالوا: هذا غرمه في داره، فما ظنُّكَ بنفقاته وصلاته، وغير ذلك؟[٤٥].

فنصح مؤنس بن عمران جعفراً، وكان مخلصاً له أن يقول للرشيد: إنَّ القصرَ الذي شيَّدَهُ إنَّما أنشأَهُ لولد أميرِ المؤمنين المأمون ليذهب ما في نفسه من غيظ، فعمِلَ بنصيحته، فكان لها اثرها الطيِّب في نفس الرشيد[٤٦].

---

[٤٠] البرامكة في ظلال الخلفاء: ص٦٦ عن كتاب: الوزراء والكتاب ص٢٤١.

[٤١] وفيات الأعيان ١/ ٣٣٥-٣٣٦ ومرآة الجِنان ١/ ٤١١ والحنبلي: شذرات الذهب ص٣١٢، وحياة الحيوان الكبرى ٢/ ١٠٦.

[٤٢] البرامكة في ظلال الخلفاء: ص٦٦ عن الوزراء والكتاب: ص٢٤١.

[٤٣] وفيات الأعيان ١/ ٣٣٥-٣٣٦، ومرآة الجِنان ١/ ٤١١ والحنبلي: شذرات الذهب:ص ٣١٢، وحياة الحيوان الكُبرى: ٢/ ١٠٦.

[٤٤] البرامكة: سلبياتهم وإيجابياتهم:ص٦٥.

[٤٥] وفيات الأعيان ١/ ٣٤٤ والنجوم الزاهرة ٢/ ١١٥-١١٦.

[٤٦] الأصبهاني، محاضرات الأدباء ١/ ٢٥٧.

وأسرفوا في لباسهم ونفقاتهم، فزعمَ أنَّ يحيى ساوَم جوهرياً بالكرخ على سفطٍ من الجوهر بلغ ثمنه سبعة آلاف ألف درهم [٤٧].

وأسرفوا في الإنفاق على أصدقائهم وأعوانهم ورجال الشيعة، والشعراء والأدباء والكُتَّاب وغيرهم [٤٨]، فبلغ ما أنفقَ جعفر من ماله الخاص على عرس المأمون، بأم موسى بنت عيسى الهادي سنة ١٨٨هـ خمسة عشر ألف ألف درهم [٤٩].

فاستغلَّ أعداءُ البرامكة ذلك، وعلى رأسهم: الفضلُ بن الربيع، واسماعيل بن صبيح، وبنو قحطبة أخوالُ جعفروغيرهم، فأوغروا صدرَ الرشيد، فأخذ يتجهم لهم، حتى عرف ذلك في مُحيَّاهُ، فاستشارَ يحيى صديقاً له من بني هاشم، فأشارَ عليه: أن يأخذ ما في أيدي أصحابه من أموال، وضِياع، ويُعطيها لولد الرشيد، فاستعظم يحيى ذلك، وقال: يا أخي: جعلني الله فداك، لأن تزول عني النِّعمة أحبُّ إليَّ من أن أزيلها عن قومٍ كنت سببها إليهم [٥٠].

فإذا كانت هذه نفقات البرامكة في الوقت الذي زعَمَ فيه أنَّ يد الرشيد كانت تغل عن التصرف في أموال الدولة حتى قِيلَ أنَّهُ كان يحتاجُ إلى القليلِ من المال، فلا يُلَبَّى طلبه [٥١]، كما زعَمَ أنَّ يحيى كان يُضَيِّقُ على عيال الرشيد في النفقة مما جعلها تجأرُ بالشكوى إلى الرشيد مرات عِدَّة [٥٢].

وقد اختلف المؤرِّخونَ في مقدار ما خلَّفَ البرامكة من أموالٍ بعد نكبتهم فمن قائل: إنَّ ما وجد منها ومن ثيابٍ وجواهر وأثاث لا يتصور أن يكون لأحدٍ في الدنيا [٥٣]هذا عدا ما خلَّفوه من: ضِياعٍ وغلاَّت ودورٍ ورياش ورقيق، والكثير من المواعين [٥٤]. وهناك من بالَغَ في وصفِ

---

[٤٧] تاريخ الطبري ٨/ ٣١٥ ط المعارف، مصر.السفط:كالقفة

[٤٨] محاضرا ت الأدباء ١/ ٢٥٧ والعِبَر ١/ ٢٤ والوزراء والكتاب: ص٢٤٣ والبيهقي: المحاسن والمساوئ ١/ ٢٩٧.

[٤٩] الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف:ص١٠١.

[٥٠] الوزراء والكتاب: ص٢٢٧.

[٥١] مروج الذهب ٣/ ٣٦٨.

[٥٢] الوزراء والكتاب: ٢٢٧ ومروج الذهب ٣/ ٣٨٤.

[٥٣] العيون والحدائق:ص ٣٠٨.

[٥٤] شذرات الذهب ١/ ٣١٥.

ذلك فقالَ: "إنَّ ما وُجِدَ بعد رحيلهم من الكثرة بحيث: لا يعرف أقلُّه ولا يُوصَفُ أيسَرُه" [٥٥].

وهناكَ من يقول عكس ذلك فنفى أن يكون الرشيد وجد شيئاً ذا بال بعد نكبتهم، فعندما سأل الرشيدُ عمَّا تركوه، قيلَ له: إنَّهُم أصابوا ما لا يُشبِهُ أمثالَهُم فاستغربَ ذلك فقال: كيف؟ وقد نهبوا مالي!! فقيلَ له: أنفقوه في المكارم [٥٦] وهذا القول ان صح يثير التعجب والاستغراب فالمال مال الله ثم مال المسلمين جميعا وليس مال الرشيد وحده.

[٥٥] العقد الفريد ٥/ ٦١-٦٢ وشذرات الذهب ١/ ٣١٥.

[٥٦] محاضرات الأدباء ١/ ٢٥٧.

٤ - اتهام البرامكة بالزندقة:

وهناك من يرجع ما أصاب البرامكة من نكبة استأصلت شأفَتَهُم إلى ما قِيلَ عن زندقتهم، وأنَّهُم أرادوا إظهارها؛ لإفسادِ الخِلافة [٥٧]، وليسَ هُناك شيءٌ أسوأُ من أن يتهم الإنسان في عقيدته.

فمن الذين اتهموا البرامكة بهذه التهمة الأصمعي رغم صداقته لهم وعِفَّةِ لسانه حيث قال [٥٨]:

إذا ذكر الشركسي في مجلس ... أضاءت وجوه بني برمك

ولو تليت عندهم آية ... أتوا بالأحاديث عن مزدك

كما اتهمهم بذلك محمد بن الليث في حوارٍ جرى بينه وبين الرشيد، وكان مخاصِماً لهم رغمَّ أنَّهُ ألَّفَ كتاباً سمَّاهُ: يحيى بن خالد في الأدب [٥٩].

كما تهممهم بالزندقة : أبو نوَّاس، وكان بينَه وبين البرامكة جفوة بسبب ما قِيلَ عن مُجونِه، فقال فيهم [٦٠]:

فإذا أذَّنوا لوقت صلاةٍ ... كرَّروا لا إله إلاَّ الرغيف

ونسَبَ عيسى بن زيد إلى يحيى والفضل عدم الإيمان بالله تعالى وبالبعث فقال [٦١]:

شردني فضلٌ ويحيى وما ... أذنبت ذنبا غير ذكر المعاد

آمَنْتُ باللهِ ولم يُؤمِنا ... فطرداني خيفةً في البلاد

---

[٥٧] وفيات الأعيان ١/ ٤٧٣ والدُميري: حياة الحيوان الكبرى ٢/ ١٢٦ والمقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ١٠٤ وابن المعتز: البديع ص ٦٣٦.

[٥٨] البيان والتبيين ٣/ ٢٨٦ وعيون الأخبار ١/ ٥١ والعارف: ص ٣٨٢، ومحاضرات الأدباء ٤/ ٤٢٣ والوزراء والكُتَّاب: ص٢٠٦ والبدء والتاريخ ٦/ ١٠٦.

[٥٩] تاريخ الأمم والملوك، ١٠/ ٨٠.

[٦٠] راجع بقية الأبيات في ديوانه، ص٥٥٥.

[٦١] الأصفهاني: مقاتل الطالبيين: ص٤١٢.

وذكر العتابي – وكان منحرفاً عنهم – تآمرهم على الإسلام، وأنّهم أصابوه بجرحٍ لا ينـدمل، ومما يثير الاستغراب أنَّ العتابي هذا اتهم بالإلحادِ ففر من الرشيد فتشفع له البرامكـة، ولـولا ذلك لظلَّ طريداً [٦٢].

وقال الذهبي [٦٣]: أنَّ خالداً مِمَّن اتهم بالمجوسية، كما اتهم عامة البرامكة بذلك باستثناء محمد بن خالد بن برمك [٦٤].وقال ابن قتيبة في كتابه المعارف ص٣٨٢ أن البرامكة كانوايرمون بالزندقة- الا من عصم الله.

ومِمَّا قيلَ أيضاً: إنَّهم حين عجزوا عن عبادة النار أشاروا علـى الرشـيد أن تُـزَوَّدَ جميـعُ المساجد بمجامر يُوضَعُ فيها الند رغبةً منهم في عِبادة النار [٦٥]، كما زَيَّنُوا له: أن يَتخَّذ في جَوفِ الكعبة مجمرةً يتبخَّرُ بها رغبةً في تحويلِ الكعبة المشرَّفة إلى بيت نار، يتعبَّدُ الناسُ فيه، فتـشكَّكَ الرشيدُ في نواياهم؛ لهذا اتهم يحيى بالزندقة حين طلب منه وهو في الحبس أن يطلق سراحهم، فأجابه إجابةً قاسية، وصفه فيها بالمخادع الزنديق [٦٦].

وحينما أرادَ يحيى أن يُؤَخِّر النيروز شهرين بناءً على رغبة الدهاقنـة ألـصقَ بـه أعـداؤه وحساده تهمة التعصُّب للمجوسية، فأصيبَ بالإحباطِ، فأقلعَ عن ذلك [٦٧].

ولعلَّ الذي شجَّعَ أعداءَهم إلى اتهامهم بالزندقة والشعوبية تقريبهم لأهلِ المِلَلِ والنِحَل والشعوبيين منهم: هشام بن الحكم الرافضي وغيره، وبهذا وضع البرامكة في أيـدي أعـدائهم سلاحاً رهيباً يحاربون به، ووضعوا أنفسهم في منزلقٍ خطيرٍ كانوا في غِنى عنه، ولو أنَّهُم أبعدوا كل من اتهم في دينه، لما استطاعَ أعداؤهم أن يُلصِقوا بهم هذه التهمة.

وقد نفى بعضُ الكُتَّاب ذلك؛ لأنَّ القول بهذا يجانِبُهُ الصواب [٦٨]؛ فتقريبَهم لأهل المِلَلِ والنِحَلِ لا يعني بالضرورة أنَّهم أرادوا نشر الزندقة، وإنما أرادوا تشجيع العلماء، ونشر الثقافة

---

[٦٢] البديع لابن المعتز: ص٦٣٦.

[٦٣] سيرة أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٩.

[٦٤] أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٠٦ ودائرة المعارف الإسلامية ٦/ ٥٥٢.

[٦٥] البغدادي: الفرق بين الفرق: ص٢٧٠. الند: نوع من الطيب. والذهبي: سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٩.

[٦٦] غرر الخصائص الواضحة، ص٣٣٤-٣٣٥ وتاريخ اليعقـوبي ٢/ ٤٢٣ والأتليـدي: أعـلام النـاس، ص١٣٥ والعِقد الفريد: ٥/ ٦٨-٦٩.

[٦٧] البرامكة سلبياتهم وإيجابياتهم، ص٥٥.

[٦٨] البرامكة سلبياتهم وإيجابياتهم، ص٥٧ عن حياة الحيوان الكبرى ٣/ ١١٢.

والأدب، كما لم يثبت تبنيهم فكرة الزندقة، لأنَّ الزندقة تعني عبادة إلهين اثنين: إله للخير، وإله للشر، أو التناسخ أو الإباحة، أو الحلول، أو وحدة الوجود، أو غير ذلك [٦٩].

كما لم يثبُت أنَّهم وضعوا المجامر في البيت الحرام أو اعتزموا ذلك. وليس هناك ما يـدُلّ على استهانتهم بقيم الإسلام، وشعائره بل العكس من ذلك فقد شهِدَ لهـم بحسن إسـلامهم الجهشياري [٧٠]، وابن الطقطقي [٧١]و ابو الفداء بن كثير وغيرهـم.فقـال الفخـري ص١٥٩: أسلَمَ من أسلَمَ منهم، وحَسُنَ إسلامُهم ويقول ابو الفـداء عـن يحيـى "يظهـرفي امـوره خـير وصلاح" [٧٢].

كما تقولُ دائرة المعارف الإسلامية [٧٣]: والشائعُ أنَّهُم كانوا مسلمين معروفين بالتُّقى اشتُهِرُوا بحجهم" إلى أن تقول: بَيْدَ أنَّ خُصومَهم يتهمُّـونَهم بعـدم الاحتفـال بالإسـلام وتعاليمـه ... والراجِحُ أن يكون الرشيدُ قد أوقعَ بالبرامكة لتهمٍ مثل هذه: ولكن شـيئاً مـن هـذا لم تـذكُرُه المصادر".

ومِمَّا يدُل على حسن إسلامهم، وتعزيزاً لما ذكرتُ آنِفاً الوقائع التالية: أنَّ بَرمَكَ الأكـبر حينَ دعاهُ طرخان أحَدُ مُلوكِ فارس إلى الارتداد عن الإسلام، والعودة إلى دين آبائه أجابه بما يدل على قوة إيمانه وحسن إسلامه [٧٤].

وأما خالد بن برمك، فكان نقش خاتمه [٧٥]: "الله ثقة عبد الله، وبه يؤمن".

وما برح يحيى بن خالد يؤمن بقضاء الله وقدره، ففي سـاعة العُـسرة عنـدما نُكِّـل بهـم وهتكت الستور، وجمع المتاع، ونهبت الخزائن.

قال لسلام الأبرش: يا أبا سلمة [٧٦]"هكذا تقوم الساعة"، ولمَّا نعى إليه مقتل ولده جعفر قال [٧٧]: "الحمدُ لله، فإنِّي بفضلِ الله واثِقٌ، وبالخيرة منه عالم، ولا يؤاخذ الله العباد إلاَّ بذنوبهم، وما ربُّكَ بظلاَّمٍ للعبيد، وما يغفِرُ الله أكثر، ولله الحمدُ على كُلِّ حال".

---

[٦٩] أحمد أمين: فجر الإسلام: ص٩٨ وما بعدها.

[٧٠] الوزراء والكُتَّاب: ص٢٥٤.

[٧١] الفخري: ص١٥٩.

[٧٢] البداية والنهاية ٩/ ٢١٢ ط دار الريان للتراث.

[٧٣] دائرة المعارف الاسلامية ٦/ ٥٥٢

[٧٤] معجم البلدان: مادة النوبهار ٨/ ٢٢٢.

[٧٥] التنبيه والاشراف: ص١٩٤.

وحين حجَّ إلى بيت الله الحرام أمسك بأستار الكعبة وأخذ يدعو [٧٨]: اللهم ذنـوبي جمَّـةٌ عظيمةٌ لا يُحصيها غيرُك، ولا يعرفها سِواكَ، اللهم إنْ كنت تعاقبني، فاجعل عقوبتي في الدنيا، وإن أحاطَ ذلك بسمعي، وبصري، ومالي، وولدي حتى تبلـغ رضـاك ولا تجعـل عقـوبتي في الآخرة".

وكان يتوجه للعلماء طالباً منهم الموعظة فكان منهم ابن السماك فقد قال له يوما عظـني فقال: لقد خاب وخسر من لم يكن له مكان في جنة عرضها السموات والارض فـسكت [٧٩] وقال جعفر بن يحيى حين سلَّ السيَّافُ حسامه ليقتله: "أهون بها من قتلة، ولا سيما إذا كانت في طاعة الله" [٨٠].

ومِمَّا يدُلُّ على حُسنِ إسلامهم أيضاً أنَّهم حكموا بما شَرَعَ الله تعـالى في كتابـه الكـريم، وسُنَّةِ رسوله صلّى الله عليه وسلم، ونشروا العدلَ في ربوع الخلافة، وشيَّدُوا المساجد، وأمروا بإنارتها، وهدموا جزءاً من المعبد المعروف النوبهار لِيُقيموا مسجداً على أنقاضه، وبنوا مسجداً في بخارى [٨١].

كما كانوا من الالتزام بالأخلاق الفاضلة بحيث قال الفضلُ بن يحيى عندما استحسن بيتاً من الشعر لأبي نوَّاس [٨٢]: "أما والله لولا قالة الناس ما فارقني، ولكن إذا فكَّرتُ فيه وجدتُ الرجلَ ماجناً خليعاً مهتكاً ألوفاً لحانات الخمَّارين، فأترك نفعه لضره".

٥- عظم الدَّالة:

وهناكَ من يُرجِعُ نكبةَ البرامكة إلى عِظَمِ الدَّالة، فقد كان الفضل وجعفر يتيهانَ لقربهما من الرشيد، ومحبَّتِهِ لهما [٨٣] ويتجرءان على تلبية طلبات أربـاب الحاجـات دون الرجـوع الى

---

[٧٦] الوزراء والكُتَّاب: ص٢٣٥.

[٧٧] المرجع السابق، ص٢٣٥

[٧٨] تاريخ الأمم والملوك ١/ ٨٢-٨٣، والبداية والنهاية: ١٠/ ١٩٠.

[٧٩] الاقتباس من القران الكريم للثعالبي ١/ ٢٠٢

[٨٠] ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٤٧٤.

[٨١] الوزراء والكتاب: ١٩١ ودائرة المعارف الإسلامية ٦/ ٥٥٠ لم يتمكنُوا من هدم المعبد بالكلية لإحكام بنائه.

[٨٢] طبقات الشعراء: لابن المعتز: ٢١٥-٢١٧.

[٨٣] العِبَر لابن خلدون ١/ ٢٤ والكتبي: فوات الوفيات ٤/ ٢٢٦. الدالة: ما تدلُّ به على صديقك، والوثوق بمحبته، والجرأة عليه. مختار القاموس، ص٢١٦.

الرشيد ، وكما قيل [٨٤]: الدَّالة تُفسِدُ الحرمة، وتصرع الأبطال، وتبدد النعم، وقد أرجع ابن الطقطقي نكبة البرامكة إلى ذلك فقال [٨٥]: إنَّهُ حدث من جعفر والفضل إدلال ما لا تحتمله نفوس الملوك، فنكبهم" ، كما أرجع الرشيدُ سبب نكبة البرامكة إلى ذلك عندما حذَّرَ اسماعيل بن صبيح قائلاً له [٨٦]: إيَّاكَ والدَّالة، فإنَّها تُفسِدُ الحرمة، ومنها أتي البرامكة".

كما حَذَّرَ يحيى ولده جعفراً من عواقِبِ العلاقة الحميمة بينه وبين الرشيد وسهر الليالي الطوال في المنادمة، لكنَّ جعفراً لم يُعِرْ قول أبيه اهتماماً مِمَّا جعلَ يحيى يُشيحُ بوجهه عنه كُلَّما وقعت عليه عيناه [٨٧] لهذا حذَّرَ الرشيدَ من عواقب ذلك، وطلب منه أن تقتصر خدمة جعفر على ما يتولى من أعمالٍ جسيمة [٨٨]. لكن الحذر لا يُنجي من القدر.

٦- **زواج العبَّاسة:**

وهناكَ من يُرجِعُ نكبة البرامكة إلى ما قيل عن اختلاء جعفر بالعباسة أخت هارون الرشيد سِرَّاً، وقد نفاها بعض المؤرخين وأنكروا أن يكون الإيقاع بسببها منهم ابن خلدون؛ لما عرف عن العبَّاسة من شِدَّةِ تديُّنِها، وعِظَمِ مكانتها وجلالةِ قدرها [٨٩]، كما نفاها الدينوري في كتابه: الأخبار الطِوال، واليعقوبي في تاريخه، ومسرور الخادم وهو أحدُ المُقَرَّبين من الرشيد [٩٠]. وخُلاصَةُ ما رُوِيَ من هذه القصة [٩١] أنَّ الرشيد لم يكُنْ في مقدوره أن يصبر على فراق أخته العبَّاسة، وعن جعفر في مجالس أُنسِه، فرأى أن يعقِدَ قرانهما حتى يَحِلَّ اجتماع ثلاثتهم شريطةَ أن لا يخلو بها، وعاهده جعفر على ذلك غيرَ انَّ جعفراً لم يلتزم بما عاهده عليه، فنقض العهد بعد أن وقعت العباسة في حبائله، فأحبته وراودته عن نفسه، فاستعصم، فاستعانت بأمِّه، فهيَّأت

---

[٨٤] الفخري: ١٥٨.

[٨٥] الفخري: ١٧٠ وصبح الأعشى ١/ ٧٧.

[٨٦] الفخري: ١٧٠.

[٨٧] المخلاة: ص١٥٨.

[٨٨] تاريخ الأمم والملوك ط المعارف ٨/ ٢٩٣.

[٨٩] العِبر: ١/ ٢٣.

[٩٠] الوزراء والكُتَّاب:ص ٢٥٤.

[٩١] العباسة: أخت الرشيد، وهي من ذوات الفضل والأدب والشعر، والظُرف والعقل؛ لهذا، كانت أكثر أيام طهرها مشغولة بالصلاة ودراسة التفسير أحبها الرشيد حباً جماً، وبالغ في إكرامها ت سنة٢٢٠هـ راجع: الزركلي: الأعلام، ١٠/ ١٥٨ وأعلام النساء ٣/ ٢٢٨.

لهما سبيل الوِصال، وسقته الشراب، فواقعها فحملت منه ووضعت مولودها دون أن يعلم الرشيد عن أمرهما شيئاً[٩٢]. ولمَّا علم الرشيد بذلك نكب البرامكة، وقتل العبَّاسة.

ويبدو من سِياقِ القصة أنَّها مختلقة من ألفها إلى يائها وأنها من الحكايات المنحولة، والتي نسج خيوطها أعداءُ الرشيد، وهي أشبه ما تكون بحكايات ألف ليلة وليلة، لهذا ينتابنا الشك في صحتها، ويجعلنا نتساءل:

هل يُعقَلُ أن تُضّحي أم بابنها، وتعرضه لما لا يُحمَدُ عُقباه ؟ كما لا يمكن أن نُسَلِّم بأن الرشيد – لو صحَّت الحكاية – لا يعلم بأمرها، وهي معه في قصره يراها صباح مساء. وهل يمكن التسليم بان الرشيد قتلها وقتل جعفرا بعد ان عقد قران جعفر عليها فحلت له مباشرتها شرعا.

كما ثَبَتَ أنَّها تزوَّجَت عِدَّةَ مرات، فمن أزواجها: دنية المدني[٩٣]، وابراهيم بن صالح بن علي والي مصر وفلسطين[٩٤]، ومحمد بن سليمان بن علي أمير البصرة[٩٥]، وموسى بن عيسى العباسي[٩٦]، ومحمد بن علي بن داود بن علي[٩٧]، فكان كل من يقترن بها لا يعمِّر طويلاً، فتوافيه منيَّته؛ لهذا قال أبو نوَّاس[٩٨]:

الا قُـــلْ لأمـــين الله	وابـــن القـــادة الـــساسة
إذا مـــا ناكـــث ســـرّ	ك أن تفقـــده رأســـه
فـــلا تقتلـــه بالـــسيفِ	وزوِّجـــهُ بعبَّاســـه

وقد أمدَّ الله في عمرها، فعاشت بعد مقتل جعفر سنواتٍ طويلة، حيث ماتت سنة ٢٢٠هـ.

---

[٩٢] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٨٤، ووفيات الأعيان ١/ ٣٣٢-٣٣٤ وابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢/ ٢٩٩ والفخري: ص١٦٩ وشذرات الذهب: ١/ ٣١٢ والنجوم الزاهرة ٢/ ١١٥-١١٦.

[٩٣] الأغاني: ٤/ ١٥٥١ ط الشعب مصر.

[٩٤] ابن خلخل: طبقات الأطباء: ص٤٧٧ والقفطي: أخبار العلماء: ص١٤٧ ومعجم الأدباء مادة السين.

[٩٥] الأتابكي: النجوم الزاهرة ٢/ ٧٠ وما بعدها ومعجم البلدان مادة السين.

[٩٦] الزركلي: الأعلام ٥/ ١٨٩.

[٩٧] معجم البلدان: مادة السين.

[٩٨] ديوان أبو نواس: ص٥٢٠، ومعجم البلدان مادة السين.

من آثار النكبة:

لقد تمخَّض عن نكبة البرامكة، واندثار سلطانهم آثارٌ سيئةٌ على مختلف الصعد تمثَّلت فيما يلي:

اختلت أمور الخلافة، وضعفت قوتها[٩٩]، واشتعلت الفتن في ربوع البلاد، فاضطر الخليفة إلى الخروج بنفسه لمحاربة رافع بن الليث، كما اشتدَّ التنازع بين الأخوين: الأمين ويناصره الفرس، والمأمون ، ولم يلبث إلا يسيراً حتى تحوَّلَ إلى صراعٍ مسلح، انتهى بمقتل الأمين[١٠٠]، فطمع بدولة الخلافة الأعداء، وبهذا ساءَ تدبيرُ الرشيد، يقول المسعودي[١٠١]: "وبان للناس قُبحُ تدبيره، وسوء سياسته[١٠٢]، كما اختلَّ النظامُ الإداري الذي ابتكره البرامكة في الدواوين، والذي كان في غاية الإتقان، غيرَ أنَّهُ ظلَّ مسيطراً في عاصمة الخلافة قُرابَةَ قرنٍ ونصفٍ من الزمان.

وأهملت شؤون البريد، والأخبار بعد أن تسلَّمها مسرور الخادم، ويعاونه: ثابت الخادم، حتى بلغ الإهمالُ ذروَتَهُ في آخر عهد الرشيد، فوصل عددُ الخرائطِ التي لم تفض أربعة آلاف خريطة[١٠٣].

وبذلك لم ينفع الرشيد من أغروه في القضاء على البرامكة، منهم الفضل بن الربيع، فقد بلغ من العجز، وعدم القدرة على مجاراة البرامكة مبلغا عظيما كما كان من الغفلة بحيث أضاعَ كل شيءٍ وراءَ باب الرشيد[١٠٤].

وقد عبَّرَ الرشيدُ عن ندمه على ما اقترفت يداه، فكان يقول: أعزونا بهم حتى إذا هلكوا، وجدنا فقدهم، ولم يسدُّوا مسدَّهم" [١٠٥].

---

[٩٩] الكتبي: فوات الوفيات ٤/ ٢٢٥-٢٢٦ والوزراء والكتاب: ٢٦٥ والمسعودي: التنبيه والأشراف: ص٢٩٩.

[١٠٠] زاهية قدورة: الشعوبية وأثرُها الاجتماعي: ص٢٨٦ و٢٨٩.

[١٠١] فوات الوفيات ٤/ ٢٢٥-٢٢٦.

[١٠٢] التنبيه والأشراف:ص٢٩٩.

[١٠٣] الوزراء والكُتَّاب: ص٢٦٥.

[١٠٤] نفسه: ص ٢٦٥.

[١٠٥] فوات الوفيات ٤/ ٢٢٥-٢٢٦. وجد: أدرك.

وقال مرةً أخرى [١٠٦]: "حملونا على نصحائنا، وكفاتنا، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم، فلمَّا صرنا إلى ما أرادوا، لم يغنوا عنَّا، وأنشد:

أقلُّوا علينا لا أبا لأبيكم ... من اللوم، أو سَدُّوا المكان الذي سدّوا

وكان يدعوالله تعالى قائلاً [١٠٧]: "لا آمن الله من أغراني بقتل البرامكة! ما رأيت رخاءً بعدهم، ولا وجدت لذَّةً، ولا راحة".

وتمنَّى من أعماقِ قلبه لو غرم نصف ماله، وضاعَ نصف عمره، وفقد نصف ملكه وترك البرامكة على ما كانوا عليه [١٠٨].

وودَّ لو يستطيع أن يكفِّر عن ذنبه، ويُرجِعَهُم إلى سابِق عهدهم في الوزارة والدواوين، ولكنَّهُ لا يأمن جانبهم ويخشى من عدم صفاءِ قلوبهم [١٠٩].

وبذلك فقَدَ أربابُ الفكرِ من علماء، وأدباء وشعراء وغيرهم النَّاصِرَ والمُعين وأقسم بعضهم أن لا يقفَ على بابِ أحدٍ بعدهم فوفَّى [١١٠].

وما أن جاء القرن الثالث الهجري بعد عصر المأمون حتى ساء حال الشعر والأدب، وقد عبر عن ذلك ابن قتيبة كبير كُتَّابِ القرن الثاني الهجري فقال [١١١]:

"فإنِّي رأيتُ أكثرَ أهلِ زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ومن اسمه مُتَطَيِّرين، ولأهله كارهين ..." إلى أن يقول: "وصار العلم عاراً على صاحبه ... فأبعدُ غايات كاتبنا في كتابه أن يكون حسن الخط، قويم الحروف، وأعلا منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة، أو وصفِ كأس ... إلخ".

---

[١٠٦] الجشياري: الوزراء والكُتَّاب: ص٢٥٨، ووفيات الأعيان ٦/ ٢٢٨-٢٢٩ ونسب البيت للحطيئة.

[١٠٧] وفيات الأعيان ١/ ٣٣٦.

[١٠٨] تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٢٢ والنهشلي: مرأة الجِنان ١/ ٤١١، والبداية والنهاية ١٠/ ١٨٩.

[١٠٩] وفيات الأعيان ٦/ ٢٢٨-٢٢٩.

[١١٠] الوزراء والكتّاب: ص١٩٥-١٩٦ وتاريخ الأمم والملوك: ص١٦٤-١٦٥.

[١١١] أدب الكاتب لابن قُتيبة ص١-٢، القينة: الأمة مغنية اوغير مغنية.

الباب الثاني

الأدب البرمكي وخصائصه

الفصل الأول

منزلة البرامكة الأدبية

تبوأت الأسرة البرمكية منزلةً رفيعة، ومكانةً عالية في الميدان الأدبي بما لا يقلُّ عمَّا وصلت إليه في الميدان السياسي، فقد كانوا من الفُصحاءِ المرموقين والبُلَغاءِ المشهورين، والخُطباء المفوهين، والشُعراء المبدعين، والكُتَّاب البارزين، والنقاد الماهرين، ففاقوا في ذلك كثيراً من أدباء عصرهم، وبُلَغاءِ زمانِهم [1]، وهذا يعود إلى ما تحلّوا به من عبقريات فذة، ومواهب بارعة؛ مِمَّا جعلهم يُشارِكُونَ في النهضة الأدبية والعلمية ولا ينتابُنَا العَجَبُ في ذلك، فقد سخَّرُوا لها جميعَ طاقاتِهم، حتى برزوا في كل فنٍّ من فنون الأدب [2]: في الشعر والخطابة والتوقيعات والرسائل والحكم والأمثال والنقد، وقد شهِدَ لهم بهذا كثيرٌ من الأدباء والمؤرِّخين.

وبلغوا من المهارة في فنِّ الكتابة ما جعل بعضَ الكُتَّابِ يعزو إليها ما وصلوا إليه من مجدٍ ورفعة [3]. ولم يكُن جميعُ البرامكة في مستوىً واحدٍ في مهاراتهم الأدبية والعلمية، فقد تفاوتوا في ذلك تبعاً لتفاوت قُدراتهم العقلية وملكاتهم الأدبية، ومهاراتهم الفنية، واستيعابهم للثقافات المختلفة؛ لهذا اختلف الكتاب في تفضيل بعضهم على بعض، فهناك من يُفَضِّلُ خالداً، وآخرون يُفَضِّلُونَ يحيى وجعفراً؛ لهذا آثَرْتُ أن أتحدَّثَ بإيجازٍ عن منزلة كُلِّ واحدٍ منهم على حِدة.

---

[1] ياقوت: معجم الأدباء: ٢٠/ ٥.

[2] راجع كتاب أثر الفرس السياسي:ص ١٥٨.

[3] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ١٦٩ وابن الآبار: أعتاب الكتّاب: ص١٠٨.

خالد بن برمك :

وأما خالد فقد كان متكلماً فصيحاً، وكاتباً ألمعياً، وأديباً بليغاً شهِدَ له بذلك كثيرٌ من المـؤرخين أمثال: ابن خلكان، والبغدادي والمسعودي، فقالوا: إنَّه لم يصل أحدٌ من ولده إلى ما وصل إليه من فصاحة وبلاغة وكتابة [٤]؛ لهذا اختاره العباسـيون ليكـون أحَـدَ الـدُّعاةِ العـشرين لآلِ البيـت في خُراسان [٥]، ولم يكن العباسيون ليختاروا لهذا المنصب الرفيع إلاَّ من توفر فيه كثيرٌ من الـصفات التي تُؤَهِّلُه لذلك: كالأدب والبلاغة والفصاحة، والبراعة في الحديث [٦]، والقدرة علـى المُنـاظرة والإقناع، وقد عرف السفاح له ذلك حين تبادلا الحديث في أول لقاءٍ جَمَعَ بينهما عنـدما قـدِمَ إلى العراق لمُبايعته بالخلافة، فسأله: من أنتَ يرحَمُكَ الله؟ فأجابه خالد قائلاً: من العجم أنا خالد بن برمك، وإنِّي وأهلي في موالاتكم، وللجهاد لكم ... ثم قال:

ومـــا لـــي إلاَّ آل أحمـــد شـــيعةً ... وما لي إلاَّ مـذهب الحـق مـذهب [٧]

فأُعجِبَ السفَّاحُ بفصاحته، فأقَرَّهُ على ما كان يتقلَّدُ مـن غنـائم، ثـم ولاَّهُ علـى ديـوان الخراج، وديوان الجند، ولمَّا رأى ما يتحلى به من مهارة في الكتابة، وبراعة في الأدب، والخِلالِ الكريمة ما يُؤَهِّلُهُ لأن يكون وزيره ولاَّهُ الوزارة بعد أبي سلمة الخلال، والخلفاء لا يستوزرون إلاَّ من كمل من الكُتَّاب [٨]. لأن الكُتَّاب أكثر الناس اهتماماً وإجادةً للنثر الفني، وأمثلُ طريقةٍ في البلاغة حيثُ يختارونَ ما فَصُحَ من الألفاظ، ويهجُرُونَ الكلماتِ الوحشية والساقطة السوقية [٩]. ويعتنون بالمعاني عنايتهم بالألفاظ، وقد توفَّرَ لخالدٍ كلُّ ذلك مِمَّا أهَّلَهُ لأن تعـرض عليـه كتب الخليفة، كما أُسنِدَ إليه الإشرافُ الكاملُ على جميع الدواوين، فنهض بها ونظَّمها تنظيماً جيداً، فجعل ما كان يثبت في الصحف في دفاتر [١٠]كي يحفظها من الضياع، ومما يؤسف له أنَّ ما وصلنا من أدبه كان قليلاً لا يكادُ يُذكَرُ!!

---

[٤] وفيات الأعيان ٦/ ٢٢٠ وخزانة الأدب ٣/ ٢١٠ ومروج الذهب ٣/ ٦٨.

[٥] الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٩/ ١٠٥.

[٦] العالم الإسلامي في العصر العباسي لحسن أحمد، ص٩.

[٧] الوزراء والكتّاب: ص٨٩ وأعتاب الكُتَّاب ص٦٥-٦٦ وذكر "شعب" بدلاً من مذهب.

[٨] المسعودي: التنبيه والأشرف: ص٢٩٤ والقلقشندي: صبح الأعشى ١/ ٤٢٣ والبيان والتبيين ٤/ ٢٤.

[٩] صبح الأعشى ١/ ٤٢٣.

[١٠] أبو الخشب: تاريخ الأدب العربي: ص١٩٠.

يحيى بن خالد:

أما يحيى فقد تأثَّرَ بأبيه، فوَرَثَ عنه فصاحته وبلاغته، كما تأثَّرَ بالبيئة التي يعيش فيها، وبالثقافات المختلفة التي نهَلَ من أثدائها فكان لذلك أثرُهُ الكبيرُ في تكوين شخصيته الأدبية والعلمية، وبهذا أصبحَ أديباً بارعاً، وكاتباً بليغاً، وشاعراً مجيداً، ومتحدثاً لبقاً، وهذا ما دفع ببعض الكتَّاب إلى المبالغة في وصفه فقال ياقوت الحموي [١١]: "إنَّهُ كان أكملَ أهلِ زمانه" أدباً وفصاحةً وبلاغة، ووصفه ابن الطقطقي فقال [١٢]:

"وكان كاتباً بليغاً لبيباً أديباً سديداً صائب الآراء" وقال سهل بن هارون [١٣] عندما ذكر يحيى وولده جعفر: "لو كانَ الكلامُ مُتصوَّراً دُرًّا، ويُلقيه المنطق جوهراً، لكان كلامهما، والمنتقى من ألفاظهما، ولقد غبرت معهما، وأدركتُ طبقة المتكلمين في أيامهما، وهم يرون البلاغة لم تستكمل إلاَّ فيهما، ولم تكُن مقصورةً إلا عليهما، ولا انقادت إلا لهما، وإنَّهما للباب الكرم، عتق منظر، وجَودةُ مخبر، وسُهولةُ لفظ، وجزالةُ منطق، ونزاهَةُ نفس، وكمالُ خِصال؛ حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهما، والمأثورُ من خصائصها جميع أيام من سواهما من لدن آدم إلى أن ينفخ في الصور، ويبعث أهل القبور – حاشا أنبياءَ الله الكِرام، وسلف عباده الصالحين – لما باهت إلاَّ بهما، ولا عوَّلت في الفخر إلا عليهما ...".

ولذلك نالَ من الشهرة، والإعجابِ في تدبيج رسائله، وحسن توقيعاته ما جعلَ أهلَ البلاغةِ والأدب يعرفون قدره، ويضربون ببلاغته الأمثال [١٤]، كما حازَ على إعجاب الرشيد عندما نظرَ إلى ما يكتب فقال [١٥]: "لقد أبلغت يا أبَتِ".

وكان المأمون لا يقدم عليه، ولا على بنيه أحدا في هذا الميدان [١٦]كما كان موسى بن عمران لا يُفَضِّلُ أحداً عليه ولا على أيوب بن جعفر بن أبي جعفر المنصور [١٧].

---

[١١] ياقوت: معجم الأدباء ٢٠/ ٥.

[١٢] الفخري: ص١٥٩.

[١٣] الحصري: زهر الآداب ٢/ ٣٨٦ مطبعة دار السعادة، مصر. غبرت: مكثت.

[١٤] القلقشندي: صبح الأعشى ١/ ٩٣.

[١٥] ياقوت: معجم الأدباء ٢٠/ ٥.

[١٦] ياقوت، معجم الأدباء ٢٠/ ٥ وياريخ بغداد ١٤/ ١٣٠.

[١٧] موسى بن عران سري من سراة البصرة كان كثير الثروة نبيلاً أديباً بليغاً.

لهذا رأينا أهلَ الأدب يقبلون على كتبه، فيتناولونها بالدراسة والتحليل؛ ليقتبسوا ألفاظها، ويتمثلوا معانيها[١٨]؛ فتأثَّرَ بها جمعٌ غفيرٌ. وهذا ما ذكره سهل بن هارون فقال[١٩]: "إنَّ جميعَ الخُطباء وأصحابِ الشعر كانوا عالةً عليه وعلى ولده جعفر[٢٠].

لهذا استغل الجاحِظُ شهرته في مستهلِّ حياته الأدبية، فنسب كتبه إليه رغبةً منه في أن تحوزَ على إقبالِ الكتاب، فتحقَّقَ له ما أراد، فأقبلوا عليها وتناولوها بالنسخ بخطوطهم، وتأدَّبوا عليها، واقتبسوا ألفاظها، وتأثَّروا بمعانيها حتى أولئك الذين كانوا يطعنون فيه ويجرِّحونه[٢١] وإعجاباً به وإقراراً بمكانته الأدبية ألَّفَ محمد بن الليث الخطيب[٢٢]: كتاباً عن أدبه سمَّاهُ: كتاب يحيى بن خالد في الأدب[٢٣].

---

[١٨] المبرد الكامل في الأدب ١/ ٢٠١.

[١٩] رسائل الجاحظ ١/ ٣٤٩ والبيهقي: المحاسن والمساوئ: ص٤.

[٢٠] العِقد الفريد ٥/ ٥٨.

[٢١] الجاحظ: المحاسن والاحتداد: ص٤.

[٢٢] هو أبو ربيع محمد بن الليث الخطيب مولى الأُمويين، كان بليغاً مترسلاً وفقيهاً بارعاً، ومقدماً عند البرامكة كتب ليحيى فأحسنوا إليه اتهم بالزندقة وله من الكتب الرد على الزنادقة. الفهرست لابن النديم: ص١٢٠.

[٢٣] الفهرست: ص١٢٠.

الفضل بن يحيى:

لقد احتلَّ مكانةً رفيعةً في الأدب، ولكن دون منزلة أبيه وأخيه، فكان كاتباً بليغاً، ومُتحدِّثاً فصيحاً، وله درايةٌ وعلمٌ بالشعر، وراويته كما كان يُجيدُ قرضه.

وقد شهِدَ له الجهشياري في كتابه الوزراء والكُتَّاب ص١٩٧ بهذا فقال: كان أروى الناس للشعر، وأجودِهم طبعاً فيه".

وقد أثنى جعفر بن يحيى على بلاغته عندما تنازَلَ له عن الخاتم فقال[٢٤]: لله درُّ أخي ما أكيسَ نفسه، وأظهرَ دلائلَ الفضل عليه، وأقوى منه العقل عنده، وأوسعَ في البلاغةِ ذرعه".

وكانت له مشاركاته العلمية والأدبية ومذاكراته، ومجالسه الأدبية التي تنُمُّ عمَّا يتمتَّعُ به من فصاحةٍ وبلاغة وسِعةٍ في الأفق.

ومِمَّا يُؤسَفُ له أنَّ ما وصلنا من أدبه كان قليلاً! فلعلَّ هذا يعودُ إلى ما حلَّ بالبرامكة من نكبة قضت على الأخضر واليابس.

جعفر بن يحيى:

فقد كان أديباً بارعاً وخطيباً مصقعاً، وشاعراً مفلقاً، وفصيحاً بليغاً[٢٥]. بلغَ في ذلك مبلغاً لم ير مثله في طلاقة لسانه فقيل[٢٦]: كان من أنطقِ خلقِ الله، ولا يستطيع أحدٌ أن يُجاريه، وكان قوي الحُجَّةِ حسن البيان، فإذا ذكرت الفصاحة والبلاغة ذكر جعفر، وإذا ذُكِرَ جعفر ذُكِرَت الفصاحةُ والبلاغة".

وقد شهِدَ له بالبلاغة عدد من الأدباء والمؤرخين والكُتَّاب، منهم: ثمامة بن أشرس، وسهل بن هارون والثعالبي، وابن كثير، وجمعٌ غفيرٌ من الكُتَّاب.

---

[٢٤] وفيات الأعيان ١/ ٤٠٩ والفخري ص١٦٦ وزهر الآداب ١/ ٣٦٤-٣٦٥ والعقد الفريد ٢/ ٢٧٢ ومحاضرات الأدباء ١/ ١٧٨ ومرآة الجنان ١/ ٤٣١ وجمهرة رسائل العرب ٣/ ١٨١.

[٢٥] الجاحِظ: البُخلاء: ص٤٠٣ والأصبهاني: الأغاني ٤/ ١٥٣٩ – ١٥٤٠ ط الشعب مصر وتاريخ بغداد ٧/ ١٥٢.

[٢٦] تاريخ بغداد ٧/ ١٥٢ والبداية والنهاية ١٠/ ١٩٥ والكامل في الأدب ١/ ٢٠١ ط لبنان وزهر الآداب ١/ ٣٦٥.

يقول ثمامة بن أشرس [٢٧]- وكان شديد الإعجابِ به -: إنَّـهُ أنطَـقُ النـاس، قـد جمَـعَ الهدوء، والتَّمهل والجزالة والحلاوة، وإفهاما ما يغنيه عن الإعادة، ولو كـان في الأرض نـاطقٌ يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة".

وقال أيضاً [٢٨]: ما رأيتُ أحداً كان لا يتحبس ولا يتوقف، ولا يـتلجلج، ولا يتنحـنح، ولا يرتقبُ لفظاً قد استدعاهُ من بعد، ولا يلتمسُ التخلُّصَ إلى معنىً قد عُصِيَ عليه طلبه أشدّ اقتداراً، ولا أقلُّ تكلُّفاً من جعفر بن يحيى". وقال [٢٩]عندما سئل عن معرفتـه: "كـان اعلـم الناس بالخبر الباهر والشعر النادر والمثل السائروالفصاحة التامة واللسان البسيط".

وقال الثعالبي [٣٠]: " ما رأى الناس مثـل ابـن يحيـى الفـضل في سماحتـه، وجعفـراً في بلاغته".

وقال سهل بن هارون عن يحيى وجعفر إنَّه لو كان الكـلام متـصوَّراً دراً ويُلقيـه المنطـق جَوْهراً لكان كلامهما. والمنتقى مـن ألفاظهمـا. وذكـر أنَّ طبقـة المتكلمين يـرون البلاغـة لم تستكمل إلاَّ فيهما ولم تكُن مقصورةً إلا عليهما ولا انقادت إلاَّ لهما" ثم أشادَ بسهولة لفظهما وجزالةِ منطقهما، ومضى في قوله مبالغاً في مدحهما [٣١].

وذكر الصولي في كتابه أخبار الشعراء المُحـدثين: أنَّ الكُتَّـابَ اجتمعـوا عنـد أحمـد بـن اسرائيل، فتذاكروا أخبارَ الماضين من الكُتَّاب، فأجمعوا على أنَّهُ أكتبُ مَـنْ كـانَ في دولـة بـني العبَّاس ... فذكروا عدداً منهم، ثُمَّ قالوا: "إنَّ أزكى كُتَّاب الدولة، وأجمعهـم لمحاسـنِ الكتابـة ذكاءً وخطاً وفِطنةً جعفر بن يحيى، وإسماعيل بن صبيح [٣٢].

ولعلَّ من المبالغةِ أنْ يُقالَ أنَّه لا يدانيه أحد في بلاغته، أو أن يقال: لا يرى أحد مثله بين أهـل عـصره، فـالواقع أنَّ جعفـراً لم يكـن وحيـد عـصره، فقـد شـاركه في بلاغتـه المـأمون [٣٣]وإسماعيل بن صبيح [٣٤].

---

[٢٧] البيان والتبيين ١/ ١٠٥-١٠٦ الجزل من الكلام: القوي الفصيح الجامع وهو خلاف الركيك من الألفاظ.

[٢٨] البيان والتبيين ١/ ١٠٦ ط الشعب بيروت وراجع زهر الآداب ١/ ١١٩ و٢/ ٣٨٦ ط دار السعادة بمصر.

[٢٩] زهر الاداب١/ ٣٨٦

[٣٠] الثعالبي: ثمار القلوب: ٢٠٤.

[٣١] راجع زهر الآداب ٢/ ٣٨٦.

[٣٢] الصولي: أخبار الشعراء المُحدثين: ص٢٠١.

[٣٣] البيان والتبيين ١/ ١٢٧.

وقال عمرو بن مسعدة[٣٥]: إنّه قرأ لأم جعفر بن المنصور توقيعات في حواشي الكتب وأسافلها، فوجدها أجودَ اختصاراً، وأجمع للمعاني".

ويمكننا القول إنّه بلغ من العلم والأدب والفن في مختلف ضروبه بحيث كان موسوعةً علمية، ودائرةً للمعارف[٣٦]وقد بلغ في ذلك ما جعل إسحق الموصلي يقول[٣٧]: "قد بلغ من الفتوة والظرف والأدب وحسن الغناء، والضرب بالطبل ما لم يُـرَ مثلـه" ولا عجَـبَ في هـذا، فقد مارس جميعَ الفنونِ الأدبيةِ شعراً ونثراً ونبغ في كتابة الرسائل والتوقيعات والخطابة حتى قيل إنَّ الشعراء والخُطباء كانوا عالةً عليـه وعلـى أبيـه[٣٨] بالإضـافة إلى علمـه بالأخبـار والأشـعار والأمثال كما قيل[٣٩]: إنّه كان من أعلم الناس بالأخبار الطريفة، والأشعارِ النادرة، والأمثالِ السائرة".

---

[٣٤] أخبار الشعراء المُحدِثين: ص٢٠٦-٢٠٧.

[٣٥] البيان والتبيين ١/١٠٦-١٠٧ ط بيروت لكنّه لم يذكر شيئاً من توقيعاتها.

[٣٦] راجع: الأغاني: ٤/ ٥٣٩-٥٤٠ ط الشعب مصر.

[٣٧] المرجع السابق ٥/٢٢٨.

[٣٨] العقد الفريد: ٥/٥٨.

[٣٩] الحصري: زهر الآداب ١/ ٣٦٥.

وقد أجادَ في استخدامِ السجع، وقد تجَلَّى ذلك في خُطَبِهِ ورسائِلِه؛ لهذا أثنى عليه الخفاجي قائلاً [٤٠]: كان من الكُتَّاب المُحدِثين الذين كانوا يستعملون السجع كثيراً ولا يخلون به".

ووصفه أشجع السلمي عندما يمسك القلم ويُحرِّكُهُ فقال [٤١]:

إذا أخـــــــــذت أناملـــــــــه	بـــــيَّن فــــــضله القلمـــــا
وحـــــسبُكَ مـــــن قلـــــمٍ ينتـــــ	ــــقي الألفـــــاظ والكلمـــــا
تطأطـــــأ كـــــل مرتفـــــع	كفـــــضل الكتـــــب إذ نجمـــــا

ووصفته عنان جارية النِاطقي في أبياتٍ منها [٤٢]:

بديهَتُـــــهُ وفكرَتُـــــهُ ســـــواءٌ	إذا التبـست علـى النـاسِ الأمـورُ

[٤٠] الخفاجي: سر الفصاحة: ص١٦٧.

[٤١] الصولي: أخبار الشعراء:ص ١١٥ والمحاسن والمساوئ ١/ ١٥ ولم يذكر البيت الثاني.

[٤٢] الوزراء والكُتَّاب: ٢٠٤-٢٠٥ وطبقات الشعراء ١٠٢ ونسب الأبيات لسلم الخاسر في مدح يحيى وديوان المعاني ١/ ٦٩ ولم ينسبه لأحد وغرر الخصائص الواضحة: ١٦٠ وتحفة الوزراء:ص ٧٧. والورقة: للجراح:ص ٤٢ وذكر أنَّ الأبيات قيلت في الفضل والأغاني ١٧/ ٨٨-٨٩ ونسب الأبيات لأشجع.

الفصل الثاني
الخصائص العامة لأدب البرامكة

وقبل أن أضع القلم جانباً؛ لأريحه من عناء الكتابة لا بُدَّ لي بعد أن تحدَّثتُ عن منزلة البرامكة في الأدب، أن أتكلم عن بعض خصائصه التي تميَّزَ بها عن غيره من ألوان الأدب؛ لأنَّ لكل أدبٍ خصائصه التي ينفردُ بها عن غيره، وقد كان لأدب البرامكة من المميزات ما دفع الكُتَّابَ والأدباء، وطلاب الحاجات إلى الحرص عليه، وافتعال الحاجات ليظفروا به؛ رغبةً في اقتباس ألفاظه، والتأثر بما حسُنَ من معانيهِ وأساليبه، وبلاغته.

وإن من اهم ما تميز به أدبهم يتلخص فيما يلي:

١- السجع:

لقد تميَّزَ الأدبُ البرمكي بزخرفته بألوان البديع، وأخُصُّ بالذِكرِ فن السجع [١] الذي ينظُرُ إليه العرب نظرة حُبٍّ وتقديرٍ وإعجاب؛ لِما لـه مـن إيقـاعٍ موسـيقي يُـشَنِّفُ الآذان، ويـستهوي القلوب لما فيه من التلحين والتنغيم، فالكلمات تتقابل وتتوازن، ويأخذُ بعضُها بأعناقِ بعض، حتى تغدو أشبَهَ ما تكون بعقدٍ من اللؤلؤ لهذا كان خليقاً ان يرويه الرواة وان يحفظه الحفـاظ وقد عرف في الجاهلية والاسلام وفتنوا به.

لهذا حَرِصَ عليه البرامكة في كثيرٍ من كتاباتهم، وخُطَبِهم، وأحاديثهم اليومية، وأخُصُّ جعفراً بالذكر، وإنْ لم يَكُن مطرداً في جميع ما يـدبجون مـن رسـائل وتوقيعـات، لـئلا يكـون الكـلام متكلفاً،ويعتريه التصنع فتضيعَ معانيه في غمرة ذلك، وقد بلغ جعفر من الإجادة فيه بحيث كان يستعمله ولا يكادُ يُخِلُّ به [٢]، فاقتدى به أربابُ الكِتابة، وبهذا نقل البرامكة، وأشياعُهم مـن الكُتَّابِ النثرَ الفنيَّ من أُسلُوبِهِ القديم، الذي عُرِفَ به في العصر الأموي، إلى أسلوبٍ يكادُ أن يكون جديداً، لا عَهْدَ به لمن سبقهم من الكُتَّاب، فتأثَّرَ بهم جمعٌ غفيرٌ مـن الكُتَّـابِ والأدبـاء، وأربابِ الحاجات، مِمَّا أدَّى إلى تطور النثر الفنِّي، وبذلك كان البرامكة كما ذكر أحد الكتّاب المهدين لطبقة أهل القلم، وأصحاب مدرسة البديع في الأدب العربي [٣].

---

[١] السجع: الكلام المقفى، وموالاة الكلام على روي واحد .

[٢] الخفاجي: سر الفصاحة: ص١٦٧.

[٣] ضيف: العصر العباسي الأول، ص٤٧٥.

٢- الإيجاز:

كما تميَّزَ الأدب البرمكي بالإيجاز، ونعني بالإيجاز ألفاظ قليلة تدُلُّ على معانٍ كثيرة، أو بمعنى آخر – وهو ما ذكره علماءُ البلاغة -: اندراجُ المعاني الكثيرة تحت اللفظ القليل[٤]، والإيجاز من الأساليب المستحبة في العربية؛ لأنَّ الإطالةَ قد تكون تكلُّفاً في بعضِ الأحيانِ لا تستدعي الحاجة إليها، ولا خيرَ فيها، والعرب ترى البلاغةَ في الإيجاز[٥]؛ لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فنضر الله وجه رجل اوجز في كلامه واقتصر على حاجته"[٦] وقد كان البرامكة مغرمين به في الكثير من كتاباتهم، فما بَرِحُوا يحرِصُونَ عليه حتى غَدَت كتاباتُهُم في كثيرٍ منها بضع كلماتٍ، أو جمل، شأنهم في هذا شأن العرب، وهذا ما أشارَ إليه جعفر حين قال[٧]:

"خيرُ الكلامِ ما قلَّ ودلَّ، ولم يطل فيملّ". وذكر ابن قتيبة في كتابه (أدب الكاتب، ص١٥-١٦) أنَّ أبرويز قال لكاتبه: "واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول" فعلَّق ابن قتيبة على قوله فقال: " يريد الإيجاز، وهذا ليس بمحمودٌ في كل موضع، ولا بمختارٍ في كل كتاب بل لكل مقامٍ مقال، ولو كان الإيجازُ محموداً في كل الأحوال لجرَّده الله تعالى في القرآن الكريم، ولم يفعل الله ذلك ولكنه، أطالَ تارةً للتوكيد، وحذَفَ تارةً للإيجاز وكرَّرَ تارةً للإفهام".

وقال أيضاً: "وليس يجوز لمن قام مقاماً في تحضيض على حرب، أو حمالة بدم[٨]أو صلح بين عشائر أن يقلِّل الكلام، ويختصره ولا لمن كتب إلى عامَّة كتاباً في فتح أو استصلاح أن يوجز ... إلى أن يقول ولكن الصواب أن يُطيلَ ويُكرِّر ويُعيدَ، ويُبدئ، ويُحذِّرَ ويُنذِر".

والإيجاز والإطناب لكل واحدٍ منهما موضعه، فالإطناب لا يصلح في موضع الإيجاز، وكذلك الإيجازُ لا يصلح في موضع الإطناب، وصدق من قال: لكل مقامٍ مقال[٩]، ولعلَّ هذا ما اقتضتهُ ظروفهم، التي لا تسمَحُ لهم بالإطالةِ في رسائلهم، ومنشوراتهم وعهودهم،

---

[٤] طبانة: معجم البلاغة العربية: ص٧٠٢ وما بعدها.

[٥] نفس المرجع ونفس الصفحة.

[٦] العمدة لابن رشيق ١/ ٢٤١

[٧] الوطواط: غُرر الخصائص الواضحة: ص١٤٥.

[٨] التحضيض والحض: الإغراء بالشي والترغيب فيه. والحمالة: بفتح الحاء – الكفال، والحميل الكفيل وزناً. ومعنى هامش أدب الكاتب، ص١٦ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

[٩] ضيف: البلاغة تطوُّر وتاريخ: ص٢١.

وتوقيعاتهم؛ لهذا أوصى جعفر كُتَّابَه به قائلاً لهم[10]. "إن استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات اختصاراً فافعلوا".

ورغم هذا الأسلوب الذي انتهجه البرامكة فيما دبجوا من رسائل، وما سطروا من توقيعات كانت واضحة المعاني لا تحتاج في فهمها، وحل رموزها إلى إعمال فكر.

٣- ظهور أثر الثقافات المختلفة في أدبهم:

لقد تأثَّر الأدب البرمكي، كما تأثر أدب غيرهم بمختلف الثقافات التي كانت سائدةً في عصرهم، فمن تلك: القرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية المطهرة، والفقه الإسلامي، فالتزموا بما يلتزم به الفقهاءُ من حيثُ ذكر الدليل، من الكتاب والسنة، والإيجاز، والتحليل، والتمحيص وقد ظهر هذا واضحاً في خطب جعفر، وكتاباته، وكما عرفنا في فصلٍ سابق، فإنَّ جعفراً قد تعلَّمَ على أيدي كِبارِ العلماء أمثالِ أبي يوسف القاضي[11]؛ لهذا كان يوشح كتاباته، وخطبه بآياتٍ من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، بالإضافة إلى أصولٍ من الفقه الإسلامي[12]، كما ظهر هذا الأثر في أدب يحيى بن خالد، فمن يُطالِعُ أدب البرامكة يجدُ ذلك واضحاً، خاصةً في فن التوقيعات.

كما يظهرَ ذلك الأثرُ في دِقَّةِ العبارة التي كان يحرص عليها الفقهاء، ويبدو أثرُ الثقافة العربية واضحاً في أدبهم سواء أكان من حيث المعاني، أم اقتباس الأمثال السائدة، أو الأبيات النادرة، ويبدو هذا ظاهِراً للعيان في توقيعات جعفر، وخُطَبِهِ التي كان يرتجِلُها في مناسباتٍ مختلفة[13].

كما تأثَّرَ الأدبُ البرمكيُّ بالثقافات المختلفة: كالفارسية، والهندية واليونانية، السائدةِ في عصرهم بسبب الاختلاط بين القوميات المتعدِّدَةِ الأجناس، سواءٌ أكان ذلك عن طريق النسب والمُصاهَرة، أو المعاملات اليومية، أو الكتب المترجمة، والمؤلفة والتي تحمل طابع هذه الأجناس؛ لأنَّ أغلبَ المؤلفين من العجم، وهم أسبقُ من العرب في هذا الفن، وقد ظهر هذا واضحاً في أدب البرامكة سواءٌ أكان ذلك من حيثُ الفكر، أو الخيال، أم الحِكَمِ والأمثال أو المعاني، أم في

---

[10] غرر الخصائص الواضحة: ص١٤٥.

[11] وفيات الأعيان ١/ ٣٢٨-٣٢٩ وتاريخ بغداد ٧/ ١٥٢، والنجوم الزاهرة ٢/ ١٢٣، والحنبلي: شذَرَاتُ الذهب ٣١/١.

[12] التوحيدي: الإمتاع: ص٩٩-ص١٠٠.

[13] راجع خطب البرامكة في هذا البحث.

تأنّقِهم بألوان البديع شأنهم في هذا شأنُ الفرس، لأنَّ الفرس كانوا مُولَعينَ بهـذا اللـون مـن الزخرف [١٤] ؛ لهذا أكثروا من السجعِ في كتاباتهم [١٥]، وإن لم يكن مُطَّرِداً في كثيرٍ من الأحيان. كما تأثَّرَ أدَبُهم أيضاً بالحياةِ الاجتماعية، وما فيها من ترفٍ وبـذَخٍ ورفاهيـة كانـت سـائدةً في عصرهم، سواءٌ أكان ذلك من حيثُ الطعام والشراب أم التأنُّقِ في اللباس، أو تشييد القصور، والاهتمام بتأثيثها، حتى ضُرِبَ برفاهيتهم الأمثال، شأنهم في هذا شأن الخلفاء العباسيين، فإذا ذكر البرامكة ذكر الخير والخصب والنماء، وكل ما هو حسن، وقد عبَّرَ عن هذا الثعالبي فقال [١٦]: "زمن البرامكة يضرب لكل شيءٍ حسن"، وحين سُئِلَ أحـدُ الأدبـاء كيـف تركـت آل برمك قال [١٧]: " أنِسَت بهم النعمة حتى كأنها منهم، أو بعضهم"، وحين سئل اعرابي كيف رأيتهم قال:" رأيتهم قد انست بهم النعمة كأنها من بناتهم" [١٨]وإذا وصف ملك من الملوك بالرفاهية قِيلَ [١٩]: " فلانٌ من الملوك يتبرمك"، وقد اشاد الشاعر: صالح بن طريف بأيامهم، وما آلَت إليه الأمورُ بعد رحيلهم، وغروب شمس سعادتهم، فقال [٢٠]:

كانـت الـدنيا عروسـاً لكـم وهـي اليـومَ ثكـولٌ أرملـة

وقد انعكسَ ذلك واضحاً في موائدهم التي يقيمونها، فضُرِبَ بها المثل قال الجماز [٢١]: "أتونا بمائدةٍ كأنَّها زمن البرامكة على العفاة،[٢٢] ومن الذين أسـرفوا في ذلـك: الفـضل بـن يحيى، فقد أقامَ مأدبةً لأبي عبيدة: معمر بن المُثنَّى تكريماً له حين استقدمه الرشـيدُ لحاجتـه إلى عالِمٍ بالعربية، فكانت من الفخامة بما لم يسمع بمثلها [٢٣].

---

[١٤] الإمتاع:ص ٩٩- ص١٠٠ .

[١٥] قصة الحضارة ٢-٤/ ٢٢٤.

[١٦] الثعالبي: ثِمار القلوب:ص ٢٠٢.

[١٧] البصائر والذخائر: ٢/ ٦٠٤.

[١٨] العقد الفريد٤/ ٣٤ ط دار الفكر.

[١٩] حضارة الإسلام في دار السلام: ص١٣٩.

[٢٠] ثمار القلوب:ص ٢٠٢.

[٢١] الجماز: هو أبو عبد الله محمد بن عمرو بن جماز مولى بني محمد الصديق من أهل البصرة، وهو ابن أخت سلم الخاسر، كان شاعراً أديباً خبيثَ اللسانِ حسَنَ النادرة. وفيات الأعيان ٧/ ٧٠.

[٢٢] ثمار القلوب:ص٢٠٢ وربيع الابرار١/ ٧٥.

[٢٣] نور القبس:ص ١١٦ ونُزهَةُ الألباب: ص٧٠.

ووصف الأصمعي إحدى موائده التي حضرها في مجلس مذاكرة فقال [٢٤]: "كانت من الحُسنِ والغرابة بما لا يُصدَّق"، وأسرفوا في أفراحِهم، فحين عرَّس جعفر بابنة علي بن عيسى بن ماهان جعل الطعام في الشوارع، ووضع الطيب في الغوالي ليتطيَّب به من يريد، وليأخُذ منه من يشاء [٢٥].

وأسرَفَ في لِباسِه، فاتَّخَذَ مثلاً للزخرفة والزينة، يقول الجاحِظ في كتابه البخلاء [٢٦]: "وكان أكثرُ سراة عصره ترفاً سواءً في ذلك الترف الماديّ أو الترف المعنوي".

فكانَ أول من عرَّض الجربَّانات لطول عنقه، فقال أبو نوَّاس [٢٧]:

ذاكَ الوزيرُ الذي طالت علاوته		كأنَّهُ ناظرٌ في السيَّف بالطول

وقد بلغ الترفُ ذُروَتَهُ عندما أهدى إليه الرشيدُ حُلَّةً بلغ ثمَنُها أربعمائة ألف دينار [٢٨]. ولم تقتصر رفاهيتهم على لباسهم بل تجاوزوا ذلك إلى خيولهم، فاتخذوا لها السروج واللجم المذهبة [٢٩].

كما سرى الترف إلى مساكنهم، فبنوا القصور الفخمة، فأنفق جعفر على قصره الجعفري مبالغ كبيرة، حتى بلغ من الإتقان ما جعله يقول [٣٠]: ليس لدارنا هذه عيبٌ إلاَّ أنَّ صاحبها فيها قليل البقاء"؛ لهذا اتَّخَذَهُ الرشيدُ بعد نكبة البرامكة قصراً للخلافة.

فقال مسلم بن الوليد فيه [٣١]:

يا قصرَ جعفرَ ما لي عَنْكَ إقصَارُ		لي فيكَ ألف وأشجانٌ وأوطارُ

---

[٢٤] ابن المعتز: طبقات الشعراء: ٢١٤.

[٢٥] محاضرات الأدباء: ٢/ ٦٤٩.

[٢٦] البخلاء:ص ٤٠٣ وسراة ج سري: صاحب المروءة والسيد الشريف.

[٢٧] البيان والتبيين ٣/ ٣٥٦ ط بيروت. الجربان: جيب القميص، وهي رقعةٌ تُعمَلُ موضع الجيب وعلاوته أعلى الرأس أو أعلى العنق.

[٢٨] الفخري: ص١٧٠-١٧١ والعمراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء: ص١١٤.

[٢٩] المحاسن والمساوئ: ٢/ ٦-١٢.

[٣٠] الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ١٠/ ٨٢.

[٣١] راجع بقيَّة الأبيات في شرح ديوان صريع الغواني: ص٢٧٦. الاوطار جمع وطر وهو الحاجة فاذا بلغتها فقد قضيت وطرك.

ووصَفَ أحَدُ الشُعراءِ داراً للبرامكة فلعلها القصر الجعفري، فقال [٣٢]:

وقد بنى الدار التي ما بنى الفر ... س لها مثلاً ولا الهند

الدّر والياقوت حصباؤها ... وتُربُها العنبرُ والنَّدُّ

وبنى يحيى وولداه الفضل وجعفر قصورهم المعروفة بقصر الطين [٣٣]، وكان الهدف من بناء قصورهم على هذه الصورة تخليد ذكرهم، وقد أعرب جعفر عن ذلك عندما قال لعمرو بن مسعدة [٣٤]: "يا أبا الفضل، والله إنّي لأعلَمُ أنّهُ ليسَ من بناء مثلي، ولكن قلت: إن بقي لي فهو قصر جعفر، وإن شره السلطان في وقتٍ من الأوقات، فهو قصر جعفر، وإن مضت عليه الأيام، فهو قصر جعفر، ويبقى اسمه وذكره، ولعله أن يمر به بعض من لنا عنده إحسان، فيترحَّم علينا".

وأسرفوا في أثاثِ بيوتهم؛ وهذا ما جعل أحدَ الكُتَّابِ يُبالِغُ في وصفه، فيقول إنّه [٣٥]: "... لا يتصوَّر أن يكون لمخلوقٍ في الدُّنيا"، كما أسرفوا في أثاثِ مجالِسِهم الأدبية والعلمية، ومجالِسِ المُذاكرة، فكانت من الزينة والفخامة، بما لا مثيلَ لها".

فسرى هذا التَّرَفَ والزَخرَفة إلى فنونهم الأدبية [٣٦]، فبلغت من جمالِ العبارة، وحُسنِ الصنعة ما جعل الكُتَّابَ والشُعراء يقتبسون ألفاظها، ومعانيها، ويتأثَّرُون ببلاغَتها.

أسباب قِلَّة التراث الأدبي البرمكي:

وقد يتبادَر إلى الذهن السؤال الآتي: إذا كانت هذه منزلة البرامكة الأدبية، فأين ما خلَّفُوا لنا مِن شِعرٍ ونثر؟

الحقيقة إنَّ ما وقع بين أيدينا، وما سجَّلَتْهُ الكتب كان قليلاً لا يتناسبُ وما حازوا من شُهرَةٍ واسعة، وأدبٌ اشرأبَّت إليه الأعناق، فلعلَّ ذلك يعودُ إلى عِدَّة أسباب أبرزها فيما أحسب:

---

[٣٢] الوزراء والكُتَّاب: ص١٨٩.

[٣٣] ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٣٣٥-٣٣٦.

[٣٤] الجهشياري: الوزراء والكُتَّاب: ص٢١٦-٢١٧ ووفيات الأعيان ١/ ٤٧٤.

[٣٥] العيون والحدائق: ٣٠٨.

[٣٦] ضيف: الفن ومذاهبه في النثر: ص١٩٦

أ- ما أصاب البرامكة من نكبة استأصلت شأفتهم، فقضت على الأخضر واليابس، فنهبت مكتباتهم، وعفي على آثارهم، فغدا ما خلَّفوا لنا من أدب، وما قرضوا من شعر طَوالَ عُهودٍ طويلة، يكادُ أن يَلُفَّهُ النسيان، ويطويهِ الزمان.

كما عمِلَ أعداءُ البرامكة على تناسيهم، وحسبُهم في ذلك عدوُّهُم اللّدود: الفضل بن الربيع، فقد عمِلَ جاهِداً على أن يجعل الشعراء يتناسونهم، فها هو يتجهَّمُ لأبي العتاهية، ويقطعه لا لشيء سوى أنّه أنشده أبياتاً من الشعر ترنَّمَ فيها بذكر البرامكة، فبثَّ شكواه إلى صديق البرامكة: الحسن بن سهل، فواساه قائلاً [٣٧]: "لئن كان ذلك أضرَّكَ عند الفضل بن الربيع، لقد نفعك عندنا".

ولعلَّ للحظر الذي فرضَهُ الرشيدُ على رثاء البرامكة أثرَهُ السلبيُّ على الأدب البرمكي إلى حدٍّ ما، فتناساهم الرواة، وأسدلوا السِتارَ على أدبهم؛ نجاةً بأنفُسِهِم من غضب الرشيد وعِقابه. كما يرجع فيما يبدو إلى تعصُّبِ بعضِ الرواة من شعوبي العرب ضد البرامكة ما جعلهم يغفلون أدبهم، فلم ينتج لنا إلاَّ القليلُ منه، لأنَّ الشعوبيين رأوا البرامكةَ قد استعانوا بأبناءِ جلدتهم من الفرس في جميع الدواوين، وأغفلوا كثيراً من أُدباءِ العرب حتى غَدَت الدولة العباسية يغلبُ عليها الطابع الخراساني وبذلك سلبوا من العرب سلطانهم، ولم يعد لهم إلاَّ السلطان الاسمي الذي يتمثَّل في شخصِ الخليفة [٣٨]؛ مما أوغَرَ صدورهم، فامتلأت غلاً عليهم رغم إحسانِ البرامكة لكلٍّ من اتصل بهم من أهل الفكر سواءً كانوا عرباً، أو عجَمَاً. ولم يُفرِّقوا بين جنسٍ وجنس، ولا توجد حادثةٌ واحدةٌ تَدُلُّ على أنَّهُم تعصَّبُوا لهويتهم الفارسية.

كما يرجع قلة أدبهم إلى انشغالهم في إدارة شؤون البلاد، مِمَّا دفع بهم إلى الاستعانةِ بجهابذة الكتابة، وفرسان البلاغة، أمثال: اسماعيل بن صبيح، وسهل بن هارون، وثمامة بن أشرس، وأنس بن أبي شيخ، ومحمد بن الليث الخطيب، وأحمد بن يوسف، ويوسف بن سليمان، وأبو صالح يحيى بن عبد الرحمن، ويحيى بن سليمان، ومحمد بن أمين، وعبد الله بن عبده وابراهيم البربري المحرر، وحميد بن مهران، وغيرهم، فقامَ هؤلاء بما أوكِلَ إليهم خيرَ قيام، فأراحوا البرامكة من عناء الكتابة في الدواوين، وكتابة الرسائل المطولة وغير ذلك.

---

[٣٧] الأصبهاني: الأغاني ٤/ ١٣٠٣ ط الشعب.

[٣٨] تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٤٢٩، وبرانق: البرامكة في ظلال الخلفاء:ص ١٥٩، وتاريخ العرب مطوَّل ١/ ٣٦٨.

وبهذا توفر للبرامكة الوقتُ الكافي؛ لإدارةِ شؤونِ الدولة، والقيامِ بمهامها، والإشـراف علـى الدواوين، والقضاء على الفتن، ومحاربة أعداءِ الخلافة، ويمكننا الحكم على أدب البرامكة مـن خلال ما خلَّفوا لنا من: شعر وخطب، وتوقيعات، ورسائل، وحكم وأمثال، ونقد، وإن كـان قليلاً.

الفصل الثالث

فنون البرامكة الأدبية

أولاً : شعر البرامكة

إذا قدَّرَ الله تعالى لنا أن نُحلِّقَ في سماء الشعر العباسي، وأن نجـوبَ رُبُوعَـهُ الخـصبة، وأن نتفيَّـأَ ظلالَهُ الوارِفة، بحثاً عن شعر البرامكة لا نَجِدُ منه إلا القليل، رغم ما قيل عن شهرتهم في ذلـك، وعلو منزلتهم، ولكن هذا القليل يُعَبِّرُ عن براعَتِهِم في قرضِ الشعر، وعلو كعبهم فيه خاصة في فن الاستعطاف.

وقد شهِدَ لهم بذلك بعضُ الكُتَّاب، فقال الحنبلي في شذَرَات الذهب (١): "لقد كـان ليحيـى، وابنه الفضل، قصائد طنَّانة، تستعطفُ الرشيدَ عليهم لم ينتج منها شيء ...".

وعدَّهم ابن الحاجب من شُعراء الكتاب المقلين في قرض الشعر، يقول ابن النديم (٢): "أسمـاءُ الشعراء الكتَّاب على ما ذكره ابن الحاجب النعمان في كتابه، وقد تكرَّرَ فيه ما مضى مـن كُتَّـاب: محمد بن داود، القاسم بن صبيح خمسون ورقة، يحيى بن خالد مقلّ، والفضل بن يحيى مقلّ، علي بن عبيدة مقلّ، وجعفر بن يحيى مقلّ ...".

وروى المرزباني في معجمه (٣): بعض الأبيات التي نظمها يحيى، لكنَّهُ لم يتطرق إلى الحديثِ عن شاعرية البرامكة، ومكانَتِهِم في هذا المجال، فلعلَّهُ تحدَّثَ عن ذلك فـضاع فيمـا ضـاع مـن أجـزاء الكتاب.

ومن خلالِ ما بَقِيَ لنا من شعرهم، يُمكِنُنا القولُ إنَّهم بلغوا في نظمه من الجودة والبراعة منزلةً رفيعة، ومكانةً عالية، جعلت الشعراء كما قال سهل بن هارون: عالةً عليهم (٤): "والله إنَّ كانوا سجّعوا الخطب، وقرضوا القريض لعيال علي يحيى بن خالد بن برمك، وجعفر بن يحيى".

لأنَّ شعرهم، يمتازُ بالسهولة والسلاسة، والرونَق والحلاوة، ومِمَّا يُؤَيِّدُ قولنا هذا ما سأعرضه من مقطوعات وأبيات تشهد لهم بذلك؛ لأنَّ البرامكة من أهل الكتابة والكتّاب: من أحسن الـشعراء

---

[١] الحنبلي: شذَرَات الذهب ١/ ٣١٤.

[٢] ابن النديم: الفهرست: ص١٦٦.

[٣] المرزباني: معجم الشعراء: ص٤٨٨.

[٤] العِقد الفريد ٥/ ٥٨.

وأفضلهم نظماً، وأعذبهم لفظاً، وأجودهم معنى حيث يبلغ في الكثير منه مبلغ المنثور في سلاسته، ورقة ألفاظه، وجزالةِ عباراته، وقرب معانيه من المستمع والقارئ، وقِلّةِ ضروراتِه الشعرية.

أوكما يقول أبو هلال العسكري (٥): "والمنظوم الجيد ما خرج مخرج المنثور في سلاسته، وسهولته واستوائه، وقِلّةِ ضروراته".

وهذه ميزةُ الشعراء من الكُتّابِ وكما قال ابن رشيق في كتابه العمدة (٦): "والكُتّاب أرقُّ الناس في الشعر طبعاً، وأملحُهُم تصنيفاً، وأحلاهُم ألفاظاً، وألطَفُهُم معاني، وأقدَرُهم على تصرف، وأبعدهم من تكلّف، وقد قيل: الكُتّابُ دهاقينُ الكلام".

فإذا كانت هذه منزلةُ البرامكة في الشعر، فلماذا كانوا مُقِلّينَ في قرضه؟ فلعلَّ ذلك يرجِعُ إلى أسبابٍ عِدَّة من أبرزها: أنَّ الشاعر أحوجَ ما يكون إلى العواطف الجيّاشة، والشعور الرقيق وإلى ما يُلهِبُ عواطفه ويؤجِّجَ مشاعره ويستثيرُ شاعريته؛ لأنَّهُ يُعبِّرُ في شعره عن احاسيس النفس ومشاعر الفؤاد ووجده على فراق الأحبة، وحنينه إليهم، والبكاء على الديار (٧)، وهذا ما يفتقده البرامكة، فلم يعانوا من قسوة الحياة، وفراق الأحبة، كما وأنَّ ما يتولون من أعمالٍ من شأنِها أن تُجَفِّفَ ينابيع الشعر، وتضعف ملكته وتبلد العواطف والمشاعر.

وظل البرامكة في شُغْلٍ شاغل في إدارة شؤون الحكم في ربوع البلاد، والتصدّي للمؤامرات التي تعصِفُ بالخلافة من حينٍ لآخر على أيدي الأعداء والشعوبيين.

ولعلَّهَم استعاضوا عن الشعر بما كانوا يقيمون من ندواتٍ شعرية، ومجالس أدبية ما جعلهم لا يجدون من الوقت ما يسمح لهم بهذا اللون من الفن إلاَّ في أوقاتٍ قليلة، وفي فتراتٍ متباعدة.

وربما يرجعُ زهدهم في نظم الشعر لأنَّهم رأوا كثيراً من الشعراء وقد أطاحوا به من عليائه وألقوا به في مستنقع التزلُّفِ والكذب والنفاق عندما تكسبوا به في مدح الخلفاء والأمراء والوزراء، وبذلك لم يعد الشعر في الكثير منه شعر العواطف النبيلة والمشاعر الصادقة، وإنَّما غدا شعر أربابِ الدولة، ينشرن به فضائلهم، ويتَّخِذُونَ منه وسيلةً للدعاية السياسية والحزبية البغيضة، ويهيمونَ به في كل وادٍ كما ذكر القرآن الكريم: "ألم ترَّ أنَّهُم في كل وادٍ يهيمون. وأنَّهم يقولون ما لا يفعلون".

---

(٥) كتاب الصناعتين: ١٧١.

(٦) ابن رشيق: العمدة ٢/١٠٦ الدهاقين: جمع دهقان وهو التاجر البارع.

(٧) كتاب الصناعتين: ٤٥.

[الشعراء ٢٢٥-٢٢٦] لهذا قال يحيى بن خالد عندما قيل له (٨): لو قلت الشعر، فقال: "شيطانه أخبثُ من أن أسلِّطَه على عقلي" كما نسب مثل هذا القول إلى الفضل بن يحيى، فقد روى أنَّ عبد الله بن يس قال (٩): حدثني أبي قال: كنا عند الفضل بن يحيى، فخضنا في الشعر، فإذا هو من أروى الناس له، وأجوَدِهم طبعاً فيه، فقلتُ له: أصلحَكَ الله لو قلت شيئاً من الشعر، فإنَّهُ يزيد في الذكر وينبه، فقال: هيهات إنَّ شيطان الشعر أخبثُ من أن أُسَلِّطَهُ على عقلي".

وقال جعفر بمثل ما قال أبوه وأخوه الفضل (١٠)، وفيما يبدو كان هذا شعوراً عاماً عند جميع البرامكة مما جعلهم يزهدون في نظمه إلاَّ في مناسباتٍ عارضة فكان يصدُرُ عفو الخاطر، دون إعدادٍ مُسبَق، كما وأنَّهُم لم يكونوا في حاجةٍ لأن يتزلَّفوا لأحدٍ كائناً من كان، ولو كان المُتزلف إليه شخصُ الخليفة، وكيف يليقُ بهم التزلُّفُ فهم الذين اشتروا ألسنةَ الشعراء، وفجَّروا ينابيع شاعريتهم، وأتحفوهم بالجوائز والهدايا والهِبات.

ولم يكن زهد البرامكة في الإكثار من نظم الشعر الحطّ من قيمته؛ لأنَّهُم يُدرِكون أهميته، فهو كما قال أبو هلال العسكري (١١): "لا شيء أسبق إلى الأسماع، وأوقع في القلوب، وأبقى على الليالي، والأيام من مثل سائر، وشعر نادر"، وقال أيضاً (١٢): "ومما يفضل به غيره أنّه ليس يؤثّرُ في الأعراض والأنساب تأثيرَ الشعر في الحمد والذم شيء من الكلام، فكم من شريفٍ وضع، وخاملٍ دنيء رفع، وهذه فضيلةٌ غيرُ معروفةٍ في الرسائل والخُطَب ... إلخ".

كما قال (١٣): "وكذلك لا نعرِفُ أنسابَ العرب، وتواريخها وأيَّامها، ووقائعها إلاَّ من جملة أشعارها؛ فالشعر ديوان العرب، وخزانةُ حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها".

وربما نظم البرامكة كثيراً من الشعر، لكنَّه ضاعَ بسبب النكبة التي حلَّت بهم حيث نهبت مكتباتهم، فضاعَ شعرُهم فيما ضاعَ من تراثهم كما ذكرت في فصلٍ سابق

فمن الذين عرفوا بقرض الشعر من البرامكة: يحيى بن خالد وولداه الفضل وجعفر.

وفيما يلي نماذج من أشعارهم:

---

(٨) كتاب الصناعتين: ١٤٤.

(٩) الثعالبي: التمثيل والمحاضرة: ١٤٦.

(١٠) الثعالبي: ثمار القلوب: ٧٣.

(١١) العسكري:كتاب الصناعتين: ص١٤٣.

(١٢) كتاب الصناعتين: ص١٤٤.

(١٣) الصولي: أخبار الشعراء المُحدِثين: ص١٥٧ وأحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب ٣/ ١٧٥.

من شعر يحيى بن خالد :

فمن شعر يحيى هذه الأبيات التي وقّع بها على رسالةٍ ليوسف بن القاسم:

عندي لمثلِكَ إحسانٌ وتكرِمَـةٌ فثِقْ بـذلك منّـي وأبسط الأمـلا

إعمل على ثقـة إنّـي أنـا رجـل لا أمنع المرء موجـوداً إذا سـألا

وإنَّ عندي لك الحسنى ونافلـة بنصح عيبك إذ لم تبـغِ بـي بـدلا

ودعا إلى الكرم في بيتين من الشعر قالهما (١٤):

لا تـبخلنَّ بـدنيا وهـي مقبلـة فلـيسَ ينقـصها التَّبـذيرُ والـسَّرَف

فإن تولَّت فـأحرى أن تجـودَ بهـا فليسَ تبقى ولكن شـكرها خلـف

وكتب معتذراً لصديق مرضَ فلم يعده (١٥):

دفـــع الله عنـــك نائبـــة الـــده ـــرِ وحاشَـــاكَ أن تكـــون علـــيلا

أشـــهد الله مـــا علمـــت ومـــا ذا ك مـــن العُـــذرِ جـــائزاً مقبـــولا

ولعلَّـــي لـــو قـــد علمـــت لعـــاود تُـــكُ شـــهراً وكـــانَ ذلـــك قلـــيلا

فـــاجعلن لـــي إلى التَّعلُّـــقِ بالعـــذ ر ســـبيلا إن لم أجِـــدْ لـــي ســـبيلا

فقـديماً مـا جـاء ذو الفـضل بالفـضـ ـــلِ ومـــا ســـامَحَ خليـــلٌ خلـــيلا

ووصف حالَ الدنيا وهو الذي ذاقَ حلوها ومرها فقال (١٦):

ألا اعلـــم انمـــا الـــدنيا غـــرور ولـــيسَ بـــدائم فيهـــا نعـــيمُ

ســـينقطِعُ التلـــذُّذُ عـــن أُنـــاسٍ إذا مـــاتوا وتنقَطِـــعُ الهمـــومُ

---

(١٤) المستطرف ١/ ٢٦٧ ويبدو أنه تأثر بقول بزر جمهر: إذا أقبلت عليك الدنيا، فألفق منها، فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك، فأنفق منها، فإنها لا تبقى. شرح مقامات الحريري ٤/ ٢٧١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط مصر.

(١٥) راجع الأبيات في العِقد الفريد ٢/ ٤٤٨-٤٤٩.

(١٦) التنوخي: الفرج بعد الشِدَّة: ٤٤٣. ونسب جواهر الأدب ٢/ ٤٢٤ البيت الثاني إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ووصف تقلبات الأيام وهو في الحبس (١٧):

رُبَّ قومٍ قد غَدَوا في نعمةٍ … زمناً والدَّهرُ ريَّان غَدَقْ
سكت الدَّهرُ زماناً عنهمُ … ثم أبكاهم دماً حينَ نطقْ

وعندما صنع طعاماً بمساعدة ولده الفضل أثناء وجودهما في الحبس، فانكسر منهما القدر فأصابه اليأسُ من الدنيا فخاطبها قائلاً (١٨):

قطعت منك حبائل الآمال … وأرحْتُ من حلٍّ ومن ترحالِ
ووجدت بردَ اليأسِ بين جوانِحي … فحططتُ عن ظَهْر المطيِّ رحالي
فالآنَ يا دُنيا عرفتك فاذهبي … يا دار كلِّ تشتت وزيال
والآن صارَ لي الزمان مؤدِّبا … فغدا وراحَ عليَّ بالأمثال

وقال في الشيب (١٩):

اللَّيل شيَّب والنّهارُ كلاهما … رأسي بكثرة ما تدور رحاهما
يتناهبان نفوسنا ودماء نا … ولحومنا عمداً ونحن نراهما
والشَّيبُ إحدى الميتتين تقدّمت … أولاهما وتأخَّرت أخراهما

وفي بيتين من الشعر ذمَّ فيهما الظلم وبيَّنَ عواقبه الوخيمه وأنَّ الله سبحانه وتعالى سيُحاسِب من يقترف ذلك عند اجتماع الخلائق للحساب وهما ينفيان عن البرامكة تهمة الزندقة التي حاول أعداؤهم أن يلصقوها بهم رغم أنهم خدموا الدولة بِجِدٍّ وإخلاص

---

(١٧) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٢٠٥. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٤/ ١٣٢ دار الفكر. الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك: ص ١٦٣. الريان: ضد العطشان. وغدق الماء: الكثير وغدقت: غزرت.

(١٨) الجهشياري: الوزراء والكُتَّاب:ص ٢٤٥. زيال: مفارقة.

(١٩) المرتضي: الأمالي: ١/ ٦٠٩ والتوحيدي: البصائر والذخائر ٢/ ٣٥٨-٣٥٩ والمرزباني: معجم الشعراء:ص ٤٨٨.

وحكموا بالإسلام. وحاربوا أعداءه وقضوا على الفتن التي كانت تشتعل من حينٍ لآخر في ربوع الدولة. فقال (٢٠):

وحـــقٌ الله إنَّ الظلـــمَ لـــؤمٌ	وإنَّ الظلـــم مرتعـــه وخـــيم
إلى ديَّـــان يـــومِ الـــدين نمـــضي	وعنـــد الله تجتمـــع الخـــصوم

ومن شعر الاستعطاف الذي بَرَعَ فيه يحيى بن خالد وولده الفضل حينَ أُودِعَا السجن فتفتقت شاعريتهما، والتهبت مشاعرهما، فقالا شعراً كثيراً في الاستعطاف (٢١). منه هذه الأبيات التي نظمها يحيى فعبَّرَ فيها عمَّا يجيشُ في صدره ويختَلِجُ في فؤادِه من حسرةٍ وألمٍ وعَناءٍ وذُلٍّ بعد العزِّ والرِّفعة وقد استعطف فيها الرشيد كي يطلق سراحهما، ولكن هذه التوسلات ذهبت أدراجَ الرياح، فلم تجدْ لها أُذُناً صاغية، وقد ظهر الأثر الإسلامي فيها واضحاً حيثُ اقتبس بعض ألفاظ القرآن الكريم مثل: أعجَازُ نخلٍ خاوية. فقال (٢٢):

قـــل للخليفـــة ذي الـــصَّنيعة	والعطايـــــا الفاشـــــية
وابـــن الخلائـــف مـــن قـــريش	والملـــــوك العاليـــــة
إنَّ البرامكـــــة الـــــذين	رمـــوا لـــديك بداهيـــة
صـــفر الوجـــوه علـــيهم	خلـــع المذلـــة باديـــة
فكـــأنَّهُم مِمَّـــا بهـــم	أعجـــازُ نخـــلٍ خاويـــة
عمَّـــتهم لـــك ســـخطة	لم تبـــقَ مـــنهم باقيـــة
بعـــد الإمـــارة والـــوزا	رة والأمـــور الـــسامية

---

(٢٠) ابن خلّكان: الوفيات والأعيان ٦/ ٢٢٩ والأبشيهي: المستطرف ١/ ١٠٥ وورد بيتان في معنى البيتين مع اختلافٍ في بعض الألفاظ ونسبتا لأبي العتاهية. كتاب الكبائر للذهبي ص١١٧ دار الهدى الوطنية بيروت وبهجة المجالس وأنس المجالس ١/ ٣٦٨-٣٦٩. ونسبها لأبي العتاهية مع اختلافٍ في بعض الألفاظ ونسب جواهر الادب١/ ٣٦٨-٣٦٩ البيت الثاني إلى علي رضي الله عنه وذكر الديّان بدلاً من ديان ٤. وورد في البداية والنهاية البيت الثاني ونسبه مع بيتٍ آخر إلى أبي العتاهية وهو في السجن ١٠/ ٢٢٧ وفي المستطرف ص١/ ١٨٣ نسب البيت الثاني الى رجل حبسه الحجاج ظلما فكتب اليه رقعة في ابيات اربع منها البيت الثاني.

(٢١) الحنبلي: شذَرَات الذهب، ١/ ٣١٤.

(٢٢) ابن عبد ربه: العِقد الفريد ٥/ ٢٦٨-٢٦٩ ط دار الفكر، تحقيق محمد سعيد العريان. الخلائف: جمع خليفة: السلطان الأعظم.

ومنـــــازلٌ كانـــــت لهـــم فـــــوق المنـــــازل عاليـــــة
أضـــحوا وجُـــلُّ منـــاهُمُ منـــك الرِّضـــا والعافيـــة
يـــا مـــن يـــودُّ لـــي الـــرَّدى يكفيـــكَ منِّـــي مـــا بيـــه
يكفيـــك مـــا أبـــصرتَ مـــن ذُلِّـــــــي وذُلِّ مكانيـــــة
وبكـــــاءُ فاطمـــــة الكئيبـــــة والمـــــدامعُ جاريـــــة (٢٣)
ومقالهـــــــا بتوجُـــــــعِ: يـــــا سُـــوْأتي وشـــقائية
مـــن لـــي وقـــد غـــضِبَ الزَّمـــا ن علـــى جميـــع رجاليـــة
يـــا لهـــفَ نفـــسي لهفهـــا مـــا للزَّمـــانِ ومـــا ليـــه
يـــا عَطْفَـــةَ الملـــك الرِّضـــا عـــودي علينـــا ثانيـــة

كما توسَّلَ يحيى بن خالد إلى محمد الأمين – ولد أمير المؤمنين الرشيد وكان رضيعةً، فمتَّ إليه بحرمة ذلك كي يتشفَّعَ لهم لدى الرشيد لإطلاقِ سراحِهِم على أن تقومَ أمُّهُ زبيدة بنت جعفر بن المنصور بهذه المهمة. فشغل الأمين عن الوفاء، فكتب إليه بهذه الأبيات آملاً أن تُبعَثَ نخوته، وتثير شفقته ولكن هيهات هيهات؛ وكما قيل:

إنَّ القلـــوبَ إذا تنـــافَرَ ودُّهـــا مثـل الزجاجـةِ كـسرُها لا يُجبَـرُ

وقد قال في الأبيات (٢٤):

يـا مـلاذي وعـصمتي وعمـادي ومُجيري مـن الخطـوبِ الـشِّداد
بـك قـام الرجـاءُ في كـل قلـبٍ زادَ فيــه الــبلاءُ كــلَّ مــزادِ
إنَّمـــا أنـــتَ نعمـــةٌ أعْقَبتهـــا نعـــم نفعهـــا لكـــلِّ العبـــاد
وعـد مـولاك أتممنـه فـأبهى الـد ر مـــا زيـــن حـــسنه بانعقـــاد
مـا أظلَّـت سـحائبُ اليـأسِ إلاَّ كان في كشفها عليك اعتمـادي

---

(٢٣) فاطمة هي: بنت محمد بن الحسين بن قحطبة والدة جعفر من الرضاعة ويُقالُ إنَّها أرضعت الرشيد مع جعفر، راجع العِقد الفريد: ٥/ ٦٢-٦٥.وذكر الطبري ان اسمها زينب بنت منير وقال ابن خلكان: في وفيات الأعيان ان اسمها عتابة وصاحب نجباء الابناء اسمها عبادة جواهر الادب ١/ ٨٥.

(٢٤) ابن عبد ربه: العِقد الفريد ٥/ ٦٥. وقيلَ بأنَّ الأبيات لسليمان الأعمى أخي مسلم بن الوليد، وكان منقطعاً للبرامكة. فواقا: علاهم بالشّرف. وتفوّق: ترفع.

إن تراخَــتْ يــداكَ عَنِّــي فواقــا   أكَلَــتني الأيــامُ أكــلَ الجــرادِ

ولما حانَت وفاتُه كتب من سجنه أبياتاً من الشعر، أوصى ابنه الفضل أن يبعـث بهـا إلى الرشيد جاءَ فيها (٢٥):

ســتعلم في الحــساب إذا التقينــا   غـــدا يـــوم القيـــام مـــن الظلـــومُ
وينقَطِــعُ التلــذُّذُ عــن أُنــاسٍ   مـــن الـــدنيا وتنقطـــع الهمـــومُ
تنــامُ ولم تــنَمْ فيــكَ المنايــا   تنبَّـــه للمنيـــة يـــا نئـــومُ
تــرومُ الخُلْــدَ في دارِ المنايــا   وكـــم قـــد رامَ غـــيرُكَ مـــا تـــرومُ
إلى ديّــانِ يــوم الــدين نمــضي   وعنـــد الله تجتَمِـــعُ الخُـــصومُ

ومن شعر الفضل بن يحيى:

قوله (٢٦):

إذا ملَكَــت كفــي منــالاً ولم أنَــلْ   فلا انبسطت كفي ولا نهـضت رجلـي
علـى الله إخـلاف الـذي قـد بذلتـه   فـلا معـدي بخلـي، ولا مكتفـي بـذلي
أرونـــي بخـــيلاً نـــالَ مجـــداً ببخلـــه   وهـاتوا كريمـاً مـاتَ مـن كثـرة البـذل

ولما قتل جعفر، وقبض على يحيى والفضل، وضيَّقَ عليهما في الحبس، واشتدَّ بهما الجُهدُ وأصابهما البلاءُ قال الفضل (٢٧)في سجنه الأبيات التالية:

إلى الله فيمــا نابَنــا نرفــع الــشكوى   ففــي يــده كــشفُ المــضرة والبلــوى
خرجنـا مـن الـدنيا ونحـنُ مـن أهلـها   فــلا نحــنُ في الأمــواتِ ولا الأحيــا
إذا جاءَنــا الــسجَّانُ يومــاً لحاجــةٍ   عـجِبنا وقلنـا: جـاءَ هـذا مـن الـدنيا

---

(٢٥) البرامكة سلبياتهم وايجابياتهم ص١٤٧. عن الاتليدي:اعلام الناس وهناك من ينسب هذه الابيـات الى علـي رضي الله عنه. ومعنى الأبيات يشير إلى أنها ليحيى بن خالد .

(٢٦) البرامكة: سلبياتهم وإيجابياتهم: ص١٦٧. عن الإتليدي: أعلام الناس، ص١٥٦-١٥٧.

(٢٧) البرامكة سلبياتهم وإيجابياتهم: الدكتور: هولو جودت فرج: ص١٦٧ عن المسعودي: مروج الذهب ج٤ ص١٥٥ وابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٤/ ٣٥ ونسبت دائرة معارف القرن العشرين الابيات لصالح بن عبد القدوس ، راجع حرف الفاء.

ونظَمَ أبياتاً بعد وفاة أبيه عثر عليها في ثنى مصلاه. بعد أن نقل من سجنٍ إلى آخر. وقد تمنى في الأبيات أن يكون قد مات قبل أبيه حتى ينالَ أبوهُ أجر احتسابه، ولا عجب في ذلك فقد كان الفضل باراً به ومن برِّهِ أنَّهُ كان أثناء سجنهما يسخن له الماء في أيام الشتاء على مصباحٍ ليتوضأ لصلاة الصبح (٢٨).

والأبيات يقول فيها (٢٩):

إنَّ العَزَاءَ على ما نابَ صاحِبُهُ ... من راحةٍ من عناء النَّفسِ والتَّعبِ
والصبرُ خير مُعينٍ يُستَعانُ به ... على الزَّمان ومن ذا فيه لم يصب
لو لم يكُن هذه الدنيا لها دُوَلُ ... بين البَرِيَةِ بالآفاتِ والعَطبِ
إذا صفَتْ لأُناسٍ قبلنا وبهم ... كانت تليقُ ذوي الأخطار والحسب
ولم تنلها وفيا قد ذكرت أسىً ... وعبرةً لذوي الألباب والأدب
ألستم مثل من قد كان قبلكُمُ ... فارضوا، وإن أسخطتكم نوبه
نضو الحوادث نضوٌ ليس ينفعه ... شيءٌ سِوى الصبرِ من كَدٍّ ومن تعبِ
والله ما أسفي إلا لواحدةٍ ... ألاَّ أكون تقدَّمت المنون أبي
فكان يؤجر في مثلي ويتبعني ... دعاؤه لي دعاء الوالد الحدب

---

(٢٨) ابن خلكان: الوفيات: ٤/ ٣٦ والنهشلي: مرآة الجِنان ١/ ٤٤٢ والدميري: حياة الحيوان الكبرى ٢/ ٦٢ والبيهقي: المحاسِن والمساوئ ٢/ ٣٦٠ ابن قتيبة: عيون الأخبار ٣/ ٩٨ والأبشيهي: المستطرف: ٢/ ١٠.

(٢٩) الجهشياري: الوزراء والكُتَّاب: ٢٦٠. النضو: البعير المهزول والثوب الخلق. الحدب: حَدِبَ وتحدَّبَ عليه: تعطَّف عليه.

من شعر جعفر بن يحيى:

وكما ذكرت سابقاً فقد نبَغَ جعفرُ في نظمِ الشعرِ ففَاقَ فيه كثيراً من شعراء عصره فقيلَ إنَّهم كانوا عالَةً عليه وعلى أبيه، ورغم هذه العبقرية الشعرية لم يصِلنا من شعره إلا هذه الأبيات. ردَّ فيها على الرشيد حينَ استدعاهُ قائلا:

سَلْ عن الصارم بن يحيى تجده ... راحلاً نحونا من النهروان

ليصون المُدام سهداً ويفشي ... الهجر بين الأصوات والعيدان

فإنَّنا نصطبحُ ونلتذ جميعاً ... لثلاثٍ بقين من شعبان

وقد عدَّها الوطواط من أطرف الاستدعاءات. فَرَدَّ عليه جعفر بقوله:

إنَّ يوماً كتبت فيه إلى عبدك ... يوم يسود كل زمان

يوم لهو كأنه طلقة الكأ ... س إذا قابلت خدود القِيانِ

فاصطبح واغتبق فداؤُكَ نفي ... من جميع الآلام والحدثان (٣٠)

---

[٣٠] الوطواط: غرر الخصائص الواضحة: ٣٦٣.المدام: الخمر السهد:الارق او قيل النوم الهجر بالضم والكسر:الخروج من ارض الى اخرى والهجر القبيح من ىالكلام واصطبح شرب الصبوح هو ما يؤكل ويشرب في الصباح والغبوق ما يشرب في العشى.

الصارم: السيف القاطع.

المدام: الخمر.

السُهد: الأرق أو قليل النوم.

الهجر بالضم والكسر: الخروج من أرضٍ إلى أخرى.

الهُجر: القبيح من الكلام وهِجر وهُجْر: هذي.

فاصطبح: شرب، الصَّبوح وهو ما يؤكل ويشرب في الصباح وهو خلاف الغبوق.

الغبوق: ما يشرب العشي.

الفصل الثالث

ثانياً: نثر البرامكة

١- خطب البرامكة

الخطابة: إحدى الفنون الأدبية الجميلة في الأدب العربي، وقد عرفت منذ القِدَم عند مختلف الأمم؛ لأهميتها، كما عرفت في الجاهلية والإسلام، فكان الخطيبُ يُلقي خُطبَتَهُ على جمهورٍ من الناس؛ لأغراضٍ متعددة، وفي مناسباتٍ مختلفة، كالدعوة إلى السلم، وتأكيد العهود والمواثيق، وتوثيق المعاهدات، والتحريض على الحرب والاستبسال في محاربة الأعداء، والمناظرة، والوفادة على الخلفاء، والملوك؛ لِشَرحِ ما يُعانونَ من أوضاعٍ صعبة، وبسطِ حاجاتهم، والدعوة إلى تلبية مطالبهم (١) أو للتهنئة أو للتعزية ... إلخ.

وقد راجَت في العهدين الإسلامي والأموي، وازدهرت في مستهل العصر العباسي الأول، بعد أن اتخَذَتها الثورة العباسية إحدى الوسائل الناجعة لبيان حقِّهِم في الخلافة؛ لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢).

كما اتخذتها سلاحاً للدعاية ضد خصومها الأمويين، فشهَّرَت بهم، وأشاعت بين الناس ما ارتكبوا من قتلٍ وتشريدٍ لآل البيت، ولِكُلٍّ من شايعهم، فكان لهذه الخطابة أثرُها الفعَّال في تأجيج نار العداوة والبغضاء في الكثير من خصوم الأمويين، فانضوى الكثيرُ منهم في صفوفِ الثورة العباسية للقتالِ معهم خاصةً الموالي (٣)، كما اتخذت لبيان فضلهم العظيم في القضاءِ على الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، ووسيلة لإزالة ما في نفوس أبناء عمهم من آل محمد بن الحنفية من حقدٍ لاستئثارهم بالخلافة دونهم، وقد ظهر هذا واضحاً في خطبة أبي العباس السفاح (٤).

وقد اشتهر في ذلك العهد من الخطباء: السفاح والمنصور والمهدي وغيرهم وبعد أن تكلَّلَ جهادهم بالنصر والنجاح، ورضَخَت لهم البلاد، واستقرَّت الأوضاع بعد القضاء على ثورة

---

(١) الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية: ص٢٢٢. وابن قدامة: نقد النثر: ص٩٣.

(٢) ضيف: العصر العباسي الأول: ص٤٤٨-٤٤٩.

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة والحضارة الإسلامية في العصور الزاهرة: ص٢٣٩.

(٤) ضيف: العصر العباسي الأول: ص٤٤٨.وراجع خطبة السفاح في كتاب الاقتباس من القران الكريم١/ ١٠٢

محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي – النفس الزكية – بالمدينة المنورة في عهد أبي جعفر المنصور، صودِرَت الحريات، ولم يستطع أحد مناصبة العباسيين العداء علناً؛ لهذا قلَّت الحاجة إليها، فأصابها الضعفُ واعتراها الوهن والذبول.
وفقدت أهميتها باستثناء خُطَب الجمعة والأعياد، والدروس في المساجد، والمواعظ كما نزرت الخطابة الحفلية بعد أن قلَّ من يفِدُ على الخلفاء إلا في مناسباتٍ قليلة، وظروف طارئة، كالتهنئة بتولِّي خليفة، أو التعزية بوفاته، أو المباركة بمولود (٥).

وبذلك لم يعُد يمارسها أربابُ الدولة، وأصحابُ الحاجات كما هو العهد في الماضي (٦) وحلَّ محلها ضروب مختلفة من الأنشطة الأدبية والعلمية: كمجالسِ الأدبِ والعلمِ، والشعر والمناظرة، والمُذاكرة، والفنون النثرية الاخرى كالكتابة والتأليف والترجمة، ورغم قلة الحاجة إلى الخطابة ظهر عددٌ من الخُطباء كان من أبرزهم يحيى بن خالد وولده جعفر حيث تمتَّعا بمواهب جمَّة، فكانا خطيبين مفوهين، ومتحدثين بارعين، بلغا من المهارة والإجادة بما لا يقلُّ عن إجادتهما في الفنون الأدبية الأخرى؛ لأنهما ملَكَا في خُطَبِهما الحُجَجَ الدامغة، والمقدرة البارعة على التأثير في مستمعيهما بطريقةٍ مُقنِعة، فاقا فيها أهلَ زمانهما (٧) وبخاصةٍ جعفر (٨)، وقد شهِد لهُما بذلك بعضُ الأُدباء؛ والكُتَّاب فكان مويس بن عمران لا يقدم أحداً على يحيى بن خالد، وأيوب بن جعفر في حسن ألفاظهما، وجمال نُطقِهما (٩) وأقسمَ سهل بن هارون – وكان شديدَ الإعجابِ بيحيى وجعفر – أنَّ جميعَ من سجَّعوا الخطب، وقرضوا القريض كانوا عِيالاً عليها (١٠)؛ لهذا مدحهم ابن مناذر فقال (١١):

فما خلقت إلا لجود أكفِّهم وأقدامهم إلاَّ لأعواد منبر

(٥) ضيف: العصر العباسي الأول / ٤٥٠.
(٦) إيليا: فن الخطابة وتطوره عند العرب: ص٣٩٠ دار الثقافة بيروت.
(٧) ياقوت: معجم الأدباء ٢٠/ ٩.
(٨) تاريخ بغداد ٧/ ٥٢ والبداية والنهاية ١٠/ ١٩٥ والمبرد الكامل ١/ ٢٠١ ط بيروت.
(٩) معجم الأدباء ٢٠/ ٢.
(١٠) العِقد الفريد: ٥/ ٥٨.
(١١) طبقات الشعراء: ص١٢٥ – والفخري: ص١٦٢ والأغاني: ص٤٧-٤٩ ووفيات الأعيان ٦/ ٢٢٤ والمستطرف ١/ ٢٣٥.

وعندما مدَحَ محمد بن العباس الفضل بن يحيى، ذكر مكانة أبيه في الخطابة فقال (١٢):

إلى المنبر الشرقي سار ولم يزل   له والدٌ يعلو سريراً ومنبرا

وكان يحيى بن خالد بارعاً بمناظراته؛ لما اشتملت عليه من أسلوبٍ خطابي رائع، يَدُلُّ على علو كعبه في هذا الفن، وسعة ثقافته، وعظيم مقدرته على الحوار، والإقناع والتأثير فيمن يناظرهم، فحازَ بذلك على شهرةٍ واسعة، فمن نشاطاته في هذا الميدان مناظرته لأهل الموصل في قضية الخراج (١٣) ومناظرته للرشيد في قوس جلاهق (١٤)، ومناظرته الهادي في أحقية هارون في ولاية العهد، وقد ذكر بعضاً منها صاحب الفخري أما الفضل بن يحيى: فقد تناساهُ المؤرِّخون، فلم يذكروا شيئاً عن خُطَبِه ومناظراته، وما قال في هذا الفن.

جعفر بن يحيى:

وأما جعفر فقد كان من أخطَبِ الناس، وأبسَطِهِم لساناً، وأفصَحِهِم منطقاً، وأعظَمِهِم حجة، فإذا خطَبَ لا يتوقف، ولا يتلجلج، ولا يعتريه فتورٌ فهو يمضي كالسيلِ الهادر، والبركان الثائر.

وقد شهدَ له بذلك ثمامة بن أشرس فقال (١٥):

"كان جعفر بن يحيى: أنطَق الناس، قد جمع الهدوء والتمهُّل، والجزالة والحلاوة، وإفْهاما يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة، لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة".

وقال مرَّةً أخرى (١٦):

"ما رأيتُ أحداً كان لا يتحبس، ولا يتوقَّف، ولا يتلجلج، ولا يتنحنح، ولا يرتقِبُ لفظاً قد استدعاهُ من بُعد، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصَّى عليه طلبه اشد اقتداراً، ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى"، وقد روى الطبري واليعقوبي والجهشياري بعض خطبه.

فمن خطبه الرائعة التي رواها الطبري هذه الخطبة التي ألقاها في حفل مهيب أقامه الرشيد تكريماً له بعد عودته من الشام مكللاً بالنصر وقضائه على الفتنة التي اشتعلت بين النزارية

---

(١٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٦٣٠.

(١٣) معجم الأدباء ٢٠/ ٢.

(١٤) العقد الفريد ٥/ ٥٨.

(١٥) الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ١٠٥-١٠٦.

(١٦) المرجع السابق ١/ ١٠٦ وكتاب الصناعتين ص٤٩ مع اختلافٍ في بعض الألفاظ.

واليمنية سنة ١٨٠هـ وكان موسى بن يحيى قد قضى عليها قبل ذلك إلاَّ أنَّها عادت ثانية، فهبَّ جعفر للقضاء عليها؛ تلبيةً لرغبة الرشيد، وكان الرشيد قد عرض عليه الخروج لهذه المهمة، وإلاَّ خرجَ بنفسه (١٧) فأجابه جعفر بما أثلج صدره، فشخص يقود جيشاً جرَّاراً، فشيعه الرشيد والأشراف، فأخمد الفتنة، وأصلح بين المتخاصمين ولما عاد إلى بغداد استقبله الرشيد وكبار رجال الدولة، والعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم، فقبَّلَ يديّ الرشيد، ورجليه على عادة أهل فارس في تعظيم ملوكهم، ثم وقف خطيباً، فاستهلَّ خطبته بحمد الله تعالى، وبث الرشيد في خطبه لواعِجَ شوقه إليه، وما عانى من مرارة الفراق أثناء غيابه، ومدحه فأسرف في مدحه أيّما إسراف، كما تناول في خطبته ما أنجز من أعمال:

حيث قضى على الفتنة، وأطفأ نار العداوة والبغضاء، وأشاع الأمن والسلام في ربوع البلاد في الفيافي والقفار، فعاد أهلها لطاعة أمير المؤمنين، وغدا أقصى مناهُم عفوه ورضاه، وبرّه وكرمه، وأبدوا ندمهم على ما بدَرَ منهم، كما أكَّدَ له أنّه لم يفرِّط فيما أوكل إليه من أعمال ومهام.

وقد صاغ خطبته بألفاظ سهلة خالية من الغرابة وبأسلوبه البديع مستخدماً بعض المُحسِّنات البديعية كعادته التي من شأنها أن تُضفِي عليها جرساً موسيقياً بديعاً ونغماً حلواً، وقد أسهب في خطبته على غير عادته في فنونه الأخرى، لأنَّ المقامَ يستدعي الإسهاب، ولِكُلِّ مقامٍ مقال، وهذا نصها (١٨):

"الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي أنس وحشتي، وأجاب دعوتي، ورحَمَ تضرُّعي وأنسأ في أجلي حتى أراني وجه سيدي، وأكرمني بقربه وامتنَّ عليَّ بتقبيل يده وردَّني إلى خدمته فوالله إن كنت لأذكر غيبتي عنه، ومخرجي والمقادير التي أزعجتني، فأعلم أنّها كانت بمعاص لحقتني، وخطايا أحاطت بي، ولو طال مقامي عنك يا أمير المؤمنين: جعلني الله فداك لخفت أن يذهب عقلي إشفاقاً على قربك، وأسفاً على فراقك، وأن يعجّل بي عن إذنك الاشتياق إلى رؤيتك، والحمد لله الذي عصمني في حال الغيبة، وأمتعني بالعافية، وعرَّفني الإجابة ومسَّكني بالطاعة، وحالَ بيني وبين استعمال المعصية فلم أشخص إلاَّ عن رأيك ولم أقدم إلاَّ عن إذنك، وأمرك، ولم يختَرمني أجل دونك، والله يا أمير المؤمنين، فلا أعظم من اليمين بالله لقد عانيت ما لو

---

(١٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٦٧-٦٨.

(١٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٦٧-٦٨

تُعرض لي الدنيا كلها لاخترت عليها قربك، ولما رأيتها عوضاً من المقام معك ..." ومضى في خطبته يوقع على أوتار قلوب مستمعيه إلى أن قال:

"إنَّ الله يا أميرَ المؤمنين لم يزل يُبليكَ في خلافتك بقدر ما يعلم من نيتك، ويريك في رعيتك غاية أمنيتك، فيصلح لك جماعتهم، ويجمع ألفتهم، ويلمّ شعثهم حفظاً لك فيهم، ورحمةً لهم، وإنَّما هذا للتمسُّكِ بطاعتك، والاعتصامِ بحبل مرضاتك، والله المحمود على ذلك وهو مستحقه، وفارقت يا أميرَ المؤمنين أهل كور الشأم، وهم منقادون لأمرك نادمون على ما فرط من معصيتهم لك متمسكون بحبلك نازلون على حكمك طالبون لعفوك، واثقون بحلمك، مؤملون فضلك، آمنون بادرتك حالهم في ائتلافهم كحالهم كانت في اختلافهم، وحالهم في ألفَتِهِم كحالِهِم كانت في اقتناعهم، وعفوُ أميرِ المؤمنين عنهم، وتغمده لهم سابِقٌ لمعذرتهم، وصِلَةُ أميرِ المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدّم عنده لمسألتهم، وأيم الله يا أمير المؤمنين لئن كنتُ قد شخصتُ عنهم، وقد أخمدَ الله شرارهم، وأطفأ نارهم، ونفى مُرّاقهم، وأصلح دهماءهم وأولاني الجميلَ منهم، ورزقني الانتصارَ فيهم فما ذلك كله إلا ببركتك، ويمنك، وريحك، ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة، وتخوُّفهم منك، ورجائهم لك، والله يا أمير المؤمنين ما تقدّمتُ إليهم إلاَّ بوصيتك، وما عاملتهم إلاَّ بأمرك، ولا سِرتُ فيهم إلاَّ على حدّ ما مثلته لي ورسمته، ووفقني عليه، ووالله ما انقادوا إلاَّ لدعوتك، وتوحُّدِ الله بالصنع لك وتخوُّفِهم من سطوتك، وما كان الذي كان مني، وإن كنت قد بذلت جهدي، وبلغت مجهودي قاضياً ببعض حقك عليَّ بل ما ازدادت نعمتك عليَّ عِظَماً إلاَّ ازددت عن شكرك عجزاً وضعفاً، وما خلق الله أحداً من رعيتك أبعد من أن يطمع نفسه في قضاء حقك مني، وما ذلك إلاَّ أن يكون باذلاً مهجتي في طاعتك وكلّ ما يقرب إلى موافقتك، ولكني أعرف من أياديك عندي ما لا أعرف مثلها عند غيري، فكيف بشكري، وقد أصبحت واحد أهل دهري فيما صُنْعتُهُ فيَّ وبي أم كيف بشكري، وإنَّما أقوى على شكرك بإكرامك إياي، وكيف بشكري، ولو جعل الله شكري في إحصاء ما أوليتني لم يأتِ على ذلك عدّي، وكيف بشكري، وأنت كهفي دون كلِّ كهفٍ لي، وكيف بشكري، وأنتَ لا ترضىَ لي ما أرضاه لي، وكيف تجدُ من نعمتك عندي ما يستغرقُ كلَّ ما سلف عندك لي، أما كيف بشكري وأنت تنسبني ما تقدَّمَ من إحسانِكَ إليَّ بما تجدده لي أما كيف بشكري، وأنت تقدمني بطولك على جميع أكفائي أم كيف بشكري وأنت المكرم لي وأنا أسألُ الله الذي رزقني ذلك منك من غير استحقاق له إذ كان الشكر مقصّراً عن بلوغ تأدية

بعضه بل دون شقص (١٩) من عشر عشيرة أن يتولّى مكافأتك عني بما هو أوسعُ له، وأقدرُ عليه، وأن يقضي عني حقك، وجليلَ منَّتِك؛ فإنَّ ذلك بيده وهو القادر عليه.

وخطب في بلاد الشام بعد أن قضى على الفتنة هناك فأثار حماس أهلها وقد دعاهم فيها إلى الاعتصام بالوحدة الإسلامية، والألفة والمحبة، وحذَّرَهُم من الفرقة، والاختلاف بكلام سهل، لأنَّ السهولة في مثل هذا المقام كما يقول أبو هلال العسكري (٢٠): أمنع جانباً، وأعزُّ مطلباً، وأحسنُ موقعاً، وأعذَبُ سمعاً".

وقد ملأ خطبته بحكمه الرائعة مثل قوله: إنَّ الفرقة تنشئ بينكم إحنا.

إنَّه لم يجتمع ضعفاء قط إلا قووا، ولم يفترق أقوياء إلا ضعِفوا، واجتماعُ الضعيفين قوة، وافتراق القويين مهانةً.

غافل الجماعة لا تضره غفلته.

ومتيقظ الفرقة لا ينفعه تيقظه لكثرة من يطلبه.

صاحب الجماعة يدرك إرشه (٢١) وصاحب الفرقة يذهب حقه وذكر في خطبته فضل الله على عباده فيما انعم عليهم مع غناه عنهم ورحمته بهم رغم إساءاتهم، وبيَّن أنَّ الله دعا خلقه إلى ما يتجيهم، وحذَّرهم ما يرديهم، وأنَّ من رحمته بهم أن كلفهم من العمل ما يطيقون، ثم أوصاهُم في خطبته بعدة وصايا أبرزها:

دعاهم إلى ما فيه خير الجماعة من التآلف، وعدم الاختلاف، وأوصاهم بالتمسك بدين الله، والاعتصام بحبله المتين، وبين الأضرار الناجمة عن الفرقة ... إلخ (٢٢).

ونلاحظ في خطبته الالتزام بالمحسنات البديعية خاصةً السجع؛ لأنَّ السجع من الأمور المحمودة في مثل هذه المواقف (٢٣) كما هي عادته في مثل هذا الفن (٢٤)، وقد بلغ من الإجادة فيه ما لا يكادُ يخل به (٢٥) ولم يكن جعفر نشازاً في هذا، فإنَّ أكثر خطب العرب

---

(١٩) شقص: الشقص والشقيص السهم والنّصيب.

(٢٠) محمد عبد الغني حسن الخُطَب والمواعظ:ص ٣٥.

(٢١) الأرش: دية الجراحات.

(٢٢) المرجع السابق ص٥٣.

(٢٣) المرجع السابق ص٣٥.

(٢٤) ضيف: الفن ومذاهبه في النثر: ١٩٦.

(٢٥) الخفاجي: سر الفصاحة: ١٦٧.

كانت مسجوعة، مما يضفي عليها نغماً موسيقيا حلواً مؤثراً، وظل يختار الجمل القصيرة في الغالب أسوة بخطيبي الجاهلية: قس بن ساعدة الأيادي، والمأمون الحارثي، ولعلَّ الذي حفزَهُ إلى ذلك رغبته في التأثير في مستمعيه. وهذا نصها (٢٦):

"الحمد لله الذي لم يمنعه غناه عن الخلق من العائدة عليهم (٢٧) ولم تمنعه إساءتهم من الرَّحمة لهم؛ دعاهم من طاعته لما ينجيهم، وذادهم من معصيته عمَّا يُرديهم، كلفَّهم من العمل دون طاقتهم، وأعطاهُم من النعم فوق كفايتهم، فهم فيما حمّلوا فخفَّفَ عنهم، وفيما خوّلوا موسَّعَ عليهم؛ وصلّى على محمد نبي الرحمة، والمبعوث إلى كافة الأمة، وعلى أهل بيته الطّاهرين، وسلّم تسليماً.

أمَّا بعد: فإنّي أوصيكُم بالأُلفة، وأُحَذِّرُكُم الفُرقة، وآمركم بالاجتماع، وأنهاكُم عن الاختلاف قال الله جلَّ وعزَّ: "واعتصموا بحبلِ الله جميعاً، ولا تفرَّقُوا" فأمرَ الجماعةِ في أول الآية، ثم لم ينقص حتى نهى فيها عن الفرقة، توكيداً للحجة، وقطعاً للمعذرة.

إنَّ الفُرقَة تنشئُ بينكم إحناً (٢٨) يطلب بها بعضُكم بعضاً، وإنَّ الجماعة: تعقد بينكم ذمماً، يحمي بها بعضكم بعضاً، حتى يكون المكاثر لواحدكم كالمكاثر لجماعتكم؛ فمتى يطمع عدو فيكم إذا كانت النائبة تعمكم؟ إن غفل بعضكم حرسه بقيتكم، وإن غربت (٢٩) طائفةٌ منكم منعها تألُّفكم إنّه لم يجتمع ضعفاء قط الا قووا حتى يمتنعوا ولم يفترق أقوياء الاّ ضعفوا حتى يخضعوا، واجتماعُ الضعيفين قوّة، وافتراقُ القويَّين مهانةٌ تُمكِّنُ منهما، غافل الجماعة لا تضرُّهُ غفلته، لكثرة من يحفظه، ومتيقِّظُ الفرقة لا ينفعه تيقُّظُهُ لكثرة من يطلبه، وصاحب الجماعة يدرك أرشه (٣٠) في الخدش والشجَّه، وصاحب الفرقة يذهب حقه في النفس والحرمة.

وعندما اشتعلت نارُ الفتنة في حمص تولّى جعفرُ بنفسه معالجة الأمر فوقف خطيباً، وقد روى اليعقوبي في تاريخه جزءاً منها واختتمها بقوله: "في كلامٍ كثير".

وقد اشتملت الخُطبَةُ على مجموعةٍ من الحِكَم منها:

---

(٢٦) الجهشياري: الوُزراء والكُتّاب: ص٢٠٨-٢٠٩.

(٢٧) العائدة: المعروف والصلة.

(٢٨) إحنا: جمع احنة وهو الحقد والغضب.

(٢٩) غربت أي فارقت الجماعة وابتعدت عنها.

(٣٠) الأرش دية الجراحات.

السعيدُ من سعِدَ بغيره، والشقيُّ من شقِيَ بنفسه.
الخاسِرُ من باعَ آخِرَتَهُ بدُنياه، وآجِلَهُ بعاجِلِه.
المغبون من غبن عقله.
المفتون من فُتِنَ في دينه.
المحرومُ من حرم حظه من ربّه.

وحذَّرَ من عواقب البطر، ووبال ما لا يشكر من النعم. فقال (٣١):

"يا أهل الشام: أحذركم عواقب البطر (٣٢)، ووبال ما لا يشكر من النعم، وملمَّة كل خطبٍ يدفع إلى ندم، فإنَّ السعيدَ من سعِدَ بغيره، والشقيُّ من شقي بنفسه، واتعظٌ به غيره، والمغبونُ من غبن عقله (٣٣) والمفتون من فتن في دينه، والمحرومُ من حرم حظّه من ربّه، والخاسرُ من باع آخِرَتَهُ بدنياه، وآجله بعاجله "وإنَّما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ"، ولم يُعطِ اللهُ من عبـاده إلاَّ أولى البهاء ..." في كلام كثير".

وبعد: فمن خلال ما عرضته من خطب جعفر يتَّضِحُ لنا مدى ما وصل إليه من فصاحة وبلاغة، وما تشتمل عليه من معانٍ حسنة وعباراتٍ حلوة، وألفاظٍ سـهلة منتقـاة مـن غـير أن يُكَلِّف نفسه مشقة التعقيد والتوعُّر فيها حتى لا يفسد ما ذهب إليه، مِمَّا يدل على كمالِ عقله وحسن ذوقه، ووشَّحَها بآياتٍ من القرآن الكريم مع الكثير من الحكم حتى غدت في سموهـا وجمالِ عباراتها أشبه بالشعر المنثور.

كما ملأها بالعبارات التي تؤجِّجُ العواطف وتبعث الهِمَمَ وتُلهِبُ المشاعر وتمـلأُ الـنفسَ حماسةً وأنَفَةً واعتزازاً بمبادئ الإسلام القويمة، ودعاهم إلى الوحدة الإسلامية، وما ذلك إلاَّ لأنَّ الدولة هي دولة الإسلام لا دولة جنس دون جـنس، ولا قبيلـة دون قبيلـة، ولا حـزب دون حزب، فالمسلمونَ جميعاً أمَّة واحدة مهما تعـدَّدت أجناسُـهم، واختلفـت لغـاتهم، وتباعـدت ديارهم، يقول تعالى: "وأنَّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فـاتقون" [المؤمنـون ٥٢] "إن هذه أمتكم أمـة واحـدة وأنـا ربكـم فاعبـدون"[الانبيـاء ٩٢] وهـم متـساوون في الحقـوق والواجبات لا فضل لجنسٍ على جنس، ولا أبيض على أسود ولا عربي على عجمي ولا قبيلة على قبيلة الا بالتقوى، وهذا سر قوتهم، ومصدر عزتهم يومذاك ويوم أن ترك المسلمون مبادئ

---

[٣١] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤١٠.
[٣٢] البطر: الطغيان بالنعمة
[٣٣] غبن: نسى وضعف ومغبون مخدوع.

دينهم وتفرَّقوا شيعاً، وأحزاباً، وأمماً وشعوباً وقوميات أضحوا من أضعف الأمم، فطمع بهم الطامعون، وتربَّصَ بهم الأعداء كما ظهر في خطبه الكثير من المحسنات البديعية، والتأنق اللفظي، من سجعٍ، وغير ذلك من فنون التوقيع اللفظي والترادف الموسيقي.

٢- توقيعات البرامكة

أضاف المسلمون إلى تراثهم الأدبي، فناً جديداً لم يكن للعرب عهدٌ به من قبل، وهو ما يسمى بفن التوقيعات:

والتوقيعات: مفردها توقيع، وهو إمَّا أن يكون: آيةٌ من كتاب الله تعالى، أو حديثاً نبوياً شريفاً، أو حُكماً شرعياً مستمداً منهما، أو حكمة، أو مثلاً، أو بيتاً من الشعر، أو أبياتاً، أو جملةً قصيرة، أو بضع جملٍ تتسم بالفصاحة والبلاغة، يذيل بها أرباب الدولة: الخلفاء والأمراء والوزراء أو نوابهم، أو رؤساء الدواوين، ما يرفع إليهم من شكاوى يطلب فيها أصحابُها رفع الظلم والحَيفِ عنهم، أو تتعلق بشؤون الدولة، أو تقديم نصيحة، وإرشاد؛ لهذا اختلفت موضوعاتها تبعاً لذلك (١).

وهذه التوقيعات رغم إيجازها، فإنَّها تغني عن مقالة، وصدق من قال: رُبَّ إشارةٍ أبلغُ من لفظ.

والإيجاز كما عرفنا من الأمورِ المحمودة في العربية، ورُبَّما تسمى العرائض التي يُوقَّعُ عليها: القصص، ومفردها قصة مجازاً؛ لما تحويه من قصة الشاكي، والمتظلّم (٢)، كما سميت رقاعاً، لصغر حجمها تشبيهاً لها برقاع الثياب (٣)، كما تسمى في عصرنا الحاضر: عرض حال، وجمعها عرائض.

وهذه التوقيعات إحدى الفنون الشرقية، وقد عرفت قبل الإسلام عند بعضِ الأمم، ولعلَّ أولَ من مارسها الفرسُ قبل غيرهم (٤)؛ ولم يكن للعرب في جاهليتهم معرفةٌ بها؛ لأنَّهم

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ١/ ١١٠ وأبو الخشب: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول: ص١٢٦-١٢٧ وضيف: العصر العباسي الأول: ص٤٨٩.

(٢) ضيف: العصر العباسي الأول: ص٤٨٩، وأحمد أمين: ضُحى الإسلام: ١/ ١٨٧.

(٣) ضحى الإسلام ١/ ١٨٧-١٨٨، وضيف: العصر العباسي الأول، ص٤٨٩.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ١٠/ ١٦٢ وضيف: العصر العباسي الأول: ص١٢٩.

أمَّةٌ أمية، فلمَّا جاء الإسلام، وغدا لهم دولة فتية، تطوَّرت حياتُهم السياسية، والأدبية والاجتماعية والاقتصادية، والعلمية واستجدَّ كثيرٌ من المشكلات، فاضطروا أن يُضيفوا إلى تُراثِهِم الأدبي هذا اللون من الفن.

ولعلَّ أول من مارسها الخليفة الثاني: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسارَ على نهجه الخلفاء من بعده: عثمان بن عفان رضي الله عنه، فعمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي، ثم ارتقت وتطوَّرت بعد بزوغ فجر الدولة العباسية، بفضل اهتمام الخلفاء والوزراء والكُتَّابِ بها، فكان أشهر من مارسها واهتمَّ بها: عبد الله السفاح، والمهدي والرشيد، ووزراؤهم، وعلى رأسهم البرامكة.

فالبرامكة بذلوا عنايةً فائقةً في تحريرها، فكتبوها بأسلوبٍ أدبي رائع حيث اشتملت على الصنعةِ البديعية، وكُلٍّ ما فيه زخرف وزينة، وبذلك غدَت فناً أدبياً رائعاً، فتناولها الكُتَّاب والأدباء بالنسخ والدراسة، حتى غدَت إحدى الفنونِ الأدبية الجميلة.

ولم يكُن لهذه التوقيعات ديوانٌ خاصٌ بها، فلمَّا كثُرَت التظلُّمات والشكاوى. وازداد ذوو الحاجات اقتضى الأمر إنشاء: ديوان التوقيعات؛ لمعالجة القضايا العالقة، والبتِّ فيها (٥) فأوكل الخلفاء والوزراء الاضطلاع بها إلى كبار الكُتَّاب، مِمَّن لهم باعٌ طويلٌ في ميدان الكتابة والأدب.

فأسنَدَ الرشيدُ حين تولَّى الخلافة كتابة التوقيعات إلى البرامكة: يحيى بن خالد وولده جعفر؛ لمساعدته فيما يعرض عليه من رقاع، فقاما بذلك خير قيام، وأثبتا جدارة فأحتلاً بها مكانةً مرموقةً لديه، ونالا ثقته (٦) ومحبته، ولعلَّ أولُ من تولَّى التوقيع بين يديه على القصص والرقاع جعفر بن يحيى (٧). مما جعل هذا اللون من الأدب ينظر إليه الكُتَّاب، والأدباء، نظرة إعجاب، لأنَّ صاحبه ينالُ به المناصب الرفيعة لدى أصحاب السلطان، ومن لهم نفوذ (٨) خاصة إذا كان كاتبها من ذوي الفصاحة والبلاغة والبصيرة النافذة، متحرياً للعدل الذي أمر به الإسلام ومن أصحاب الحزم والعزم، كما ذكرنا من قبل.

---

(٥) أحمد أمين: ضُحى الإسلام ١/ ١٨٨ ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ١٦٢.

(٦) السباعي: تاريخ الأدب العربي:ص ٢٣٣.

(٧) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي:ص ١٠٥.

(٨) نفس المرجع: ص٢٣٣.

وكان الرشيد حين تولّى الخلافة قد أطلق ليحيى العنان في تصريف شؤون الدولة، فمنحه حرية التوقيع نيابةً عنه، دون أن يُكلِّفه مشقة الرجوع إليه، فكان يحيى يجلس للنظر في شؤون ذوي الحاجات، فلمَّا تكاثرت عليه الرقاع، وازدحم ببابه أربابها اتخذ من يساعده من أرباب الفصاحة والبلاغة أمثال ولده جعفر بن يحيى، وسهل بن هارون (٩) وكان من الأعمال التي يقومُ بها سهل لدى يحيى كتابة التوقيعات بين يديه في أسافل كتبه لطلاب الحاجات إليه وإكمال معانيها، وإقامة الوزن فيها (١٠).

كما اتخذ يحيى بن خالد: يوسف بن القاسم خلفاً له على التوقيع في داره ودار أمير المؤمنين الرشيد بالإضافة إلى ما أُسنِدَ إليه من أعمال أخرى مثل ديوان الأزمَّة (١١).

وكان جعفر أكثر الكُتَّابِ مساعدةً لأبيه في مهامه، وأوثق من يعتمد عليه؛ لما تحلّى من مهارة بلاغية، وسداد في الرأي، وحصافة في العقل، فإذا جلس يحيى بن خالد للنظر في حوائج الناس جلس جعفر بين يديه يُوقِّعُ على الرِّقاع((١٢)، فأثبتَ جعفر جدارةً عاليةً، ومهارة عظيمة، فارتفعت بذلك منزلته، وذاعَ ذكره بين الكُتَّاب، واشتهرت توقيعاته، لما تحلَّت به من الاتقان ودقة التعبير، وبلاغة الأسلوب (١٣) وإيجاز العبارة، مع مراعاة أحكام الفقهِ الإسلامي، وسلامة اللغة، والاهتمام بقواعدها وقد بلغ من الاتقان بحيث لم يُخِلّ بشيءٍ منها، مهما بلغت هذه التوقيعات من الكثرة، وقد شهدَ له بذلك كل من عرفه، فأثنى عليه ابن كثير والبغدادي والأتابكي، وغيرهم فقالوا (١٤): إنَّه وقَّع بحضرة الرشيد ما يزيدُ عن ألف توقيع لم يخرج فيها عن موجب الفقه الإسلامي وقواعد العربية " وقال الجهشياري (١٥): إنَّ هذه

---

(٩) هو أبو عمرو سهل بن هارون من أصل فارسي كان كاتباً بليغاً، وخطيباً ماهراً، وشاعراً مغلقاً، ومترسلاً مجيداً، وله كتب، وديوان رسائل لُقِّبَ بزرر جمهر الإسلام، اشتهر بالبصرة، فاتصل بالرشيد فعلَت منزلته، وارتفع شأنه فجعله يحلُّ محلَّ يحيى على الدواوين بعد نكبة البرامكة، وكان شعوبياً مُتَعَصِّباً على العرب ت:٨٣٠م في بغداد.راجع الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٠٢١.

(١٠) العقد الفريد: ٥/ ٥٨-٥٩.

(١١) الصولي: أخبار الشعراء، ص١٥٦.

(١٢) وفيات الأعيان ٤/ ٣٧-٣٨.

(١٣) الحنبلي: شذَرَات الذهب: ١/ ٣١١.

(١٤) البداية والنهاية ١٠/ ١٩٤ وتاريخ بغداد ٧/ ١٥٢ والنجوم الزاهرة ٢/ ١٢٣.

(١٥) الوزراء والكتاب: ص٢٠٤.

التوقيعات عرضت على العُمَّال والقضاة، والكُتَّاب، وكُتَّابِ الدواوين، فلم يجدوا فيها شيئاً مُكرَّراً، أو ما يُخالِف الحق".

كما حرص في توقيعاته على استخدام السجع في كثيرٍ من الأحيان، وقد شهِدَ له بذلك الخفاجي فقال (١٦): "وجعفر من الكُتَّاب المحدثين من كان يستعمل السجع كثيرا، ولا يكاد يخلّ به"، وقال القلقشندي (١٧): "إنَّهُ كان فرداً في زمانه بحيث يُضرَبُ به المثل في أمثاله ...".

وقد فاق في بلاغة توقيعاته أهل بيته، وربما أهل زمانه جميعاً (١٨)، وبرع فيها بما لم يبرع وزيرٌ قبله، ولا بعده، فأهَّلَهُ ذلك لأن يتبوَّأ منزلةً رفيعةً في الدولة لم يبلُغها أحَدٌ غيره.

لهذا اهتمَّ الكُتَّابُ والأُدباءُ بجمعها، واقتنائها، وتدوينها في كتبهم ودفاترهم، فكانوا يتكلَّفون الحاجات كي يحصلوا عليها ويُدوِّنوها على رقاعهم((١٩)، فإذا تمَّ لهم الحصول عليها انكبُّوا على دراستها، وأخذوا ينهلون من بلاغتها، ويرتشفون من رحيقها العذب (٢٠) فغدت سلعةً تُباعُ وتُشترى حتى بلغَ ثمن التوقيع الواحد منها ديناراً واحداً (٢١). بل ربَّما أكثر من ذلك، يقول الثعالبي (٢٢): "إنَّ الناس كانوا يشترون رسائل جعفر وتوقيعاته بالأثمانِ الكثيرة، ويتنافسون فيها".

وقد عرف الرشيد كفاءته ومقدرته الكتابية، فعهد إليه التوقيع على القصص والرقاع دون الرجوع إليه (٢٣)، فكان يوقع في حال حضوره وغيبته، ولمَّا ازدادت الرقاع، وانهالت عليه، عجز عن أن يقوم بتحريرها بمفرده، فاتخذ عمرو بن مسعدة لمساعدته.

---

[١٦] سر الفصاحة: ص١٦٧.

[١٧] صبح الأعشى: ١/ ٤٥٤ وثمار القلوب للثعالبي:ص ١٨٩.

[١٨] روى الجاحظ عن جعفر بن سعيد قال: ذكرت لعمرون بن مسعدة توقيعات جعفر بن يحيى فقال: قرأتُ لأم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور أم الأمين توقيعات في حواشي الكتب وأسفلها فوجدتُها أجودَ اختصاراً وأجمع للمعاني: البيان والتبيين ١/ ١١٩ وصبح الأعشى ١/ ٦٤.

[١٩] الثعالبي: تحفة الوزراء:١١٦.

[٢٠] الوزراء والكُتَّاب:ص ٢٠٤.

[٢١] ابن خلدون: العبر ١/ ٤٣٧ والحضارة الإسلامة لآدم تنز ١/ ١٥٣.

[٢٢] تحفة الوزراء للثعالبي:ص ١٣٩.

[٢٣] السباعي: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي ص ٢٣٤.

فكان يُوقِّعُ بين يديه مجيباً على بعض الشكاوى (٢٤) ولم يقتصر جعفر وقد وهبه الله الفكر الثاقب والعقل النيِّر في توقيعاته على تقليد من سبقه من الخلفاء والكُتّاب، وإنّما ابتكر منهجاً جديداً يتَّسِمُ بالتجديد والتطوير، ويتلاءم مع مستجدات العصر ومتطلبات الحياة لم يسبقه إليها أحدٌ قبله فغدت سنة مُتّبَعةً لمن بعده من رؤساء الكُتّاب وإليك ما روى الجهشياري حيث قال (٢٥):

"ولم تزل كتب الملوك والرؤساء تجري في التوقيعات على أن يوقِّع الرئيس في القصة بما يجب فيها، ويذكر المعاني التي يأمر بها، ولم يكن للكتّاب في ذلك الأمر شيء أكثر من أن يكتبوا تلك الجملة من التوقيع ألفاظاً تشرحها، ويقرب من العامَّة فهمها، ولا يخرج عن معنى قصد الرئيس، إلى أيام الرشيد، فإنَّ المتظلمين كثروا على باب جعفر، وتأخَّرَ جلوسه أياماً ثم جلس، وكانت القصص قد كثرت، فنفض أكثرها، وجاءه رسول الرشيد يأمره بالسير إليه، فقال للرسول: قل له: يا سيدي الساعة أجيء، ونظر فيما بقى، فجاءه الرسول ثانيةً يستحثُّه، وكان في القصص قصة طويلة دقيقة الخط رديئته، فوافاه الرسول، وهي في يده، وأعجله أن يستتمها، وكان يحتاج في فهمها إلى مُدّة، وكره، وقد نظر إليها في يده أن تطرح فيما لا ينظر فيه، فوقَّع على ظهرها، يعمل في ذلك بما يعمل في مثله على سنن الحقّ، وقصده، وجهة الإنصاف وسبيله إن شاء الله".

"فَوَرَدَ على الكُتّابِ من ذلك ما لم يُردَ مثلُه، وامتثلوه ثم صارَ ذلك رسماً للرؤساء".

أمّا مكانة الفضل في التوقيعات: فكما نعلم فقد تدرَّج في السلم الوظيفي حيث كان يعاون أباه يحيى في الوزارة مثبتاً جدارة عالية نالَ بها ثقة الرشيد، فأسنَدَ إليه ديوان الخاتم قبل أن يسنده لجعفر، فكان له توقيعات، لكنَّه لم يبلغ في بلاغتها ومن الشهرة ما بلغه يحيى وجعفر؛ لهذا فإنَّ ما وصلنا من توقيعاته كان نزراً يسيراً.

وهذه باقةٌ جميلةٌ من توقيعات البرامكة أقدِّمها بين يدي القارئ؛ ليتعرَّفَ من خلالها على ما تحلَّى البرامكة به من بلاغة وفصاحة ومهارة في التوقيع وان كانت قليلة.

وكما قيل في المثل: "يكفيك من القلادة ما أحاطَ بالعنق".

---

[٢٤] ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٣/ ٤٧٦ والراغب الأصبهاني: محاضرات الأدباء ٢/ ٥٩٣

[٢٥] الوزراء والكُتّاب: ٢١٠-٢١١.

من توقيعات يحيى البرمكي:

فمن توقيعاته عندما جاءته رسالة لم يعتن صاحبها بالبلاغة، حيث كانت عباراته ركيكة، غيرَ أنّه زيَّنها بخطٍ جميلٍ فوقَّع عليها (٢٦) "الخط جسم روحه البلاغة، ولا خيرَ في جسمٍ لا روحَ فيه".

وكتب إليه رجلٌ يغريه بتركة تاجر قد توفاه الله غريباً وقد خلَّفَ وراءه جاريةً حسناء، وطفلاً رضيعاً، ومالاً كثيراً، وأنَّ الوزير أحقُّ بذلك فوقع يحيى على رسالته (٢٧):

" أمّا الرجل فرحمه الله، وأمَّا الجارية فصانها الله، وأمَّا الطفل فرعاهُ الله، وأمَّا المال فثمَّره الله، وأمَّا الساعي إلينا بذلك فلعنه الله".

ووقع في أمر رجل استحق عقوبة القتل بآيةٍ من القرآن الكريم (٢٨) "ولكم في القصاصِ حياة ...".

ووقع إلى عامله على واسط على شكاة تكرّرت فيه (٢٩): "اكفني أمره، وإلاَّ كفيتُه أمرَك".

وتوعَّدَ شخصاً فوقَّع (٣٠):

" أنصف من ولّيت أمره، وإلاَّ أنصفه منك من ولّي أمرك".

ووقَّع مهدداً من اشتكى إليه ظلمه (٣١): "بئس الزاد إلى الميعاد ظلم العباد".

ووقَّع على رسالة استعطاف وردت إليه من ابن سيابة (٣٢) فقال: قد عفونا عن الخائن، والحاكم لنفسه ببراءته، وأمرنا له بصلةٍ تنير ظلمته، وتؤنس وحشته، ووهبنا ما فيه لمستقبله، وسالفه لمستأنفه".

ووقَّع على رسالة صديقٍ استفسر فيها عنه حين كان رهين السجن قال فيها (٣٣): "أفضلُ الناسِ حالاً في النِّعمة من استدام مقيمها بالشكر، واسترجع فائتها بالصبر".

---

(٢٦) الثعالبي: تحفة الوزراء: ١٤٦.

(٢٧) ابن الطقطقي: الفخري: ٦٤ دار بيروت للطباعة والنشر:١٣٨٥ه.

(٢٨) الثعالبي: خاص الخاص: ص٩٠.

(٢٩) الثعالبي: تحفة الوزراء ص١٤٥.

(٣٠) الأصبهاني: محاضرات الأدباء ١/ ١٧٦ والثعالبي: خاص الخاص: ٩١.

(٣١) الثعالبي: تحفة الوزراء: ١٤٧ والتمثيل والمحاضرة: ١٤٦.

(٣٢) ابن سيابة من الشعراء العباسيين من موالي الهاشميين مدح الوزراء والشعراء، والمغنين أمثال إبراهيم الموصلي، وابنه إسحق، وقد أجادَ في شعره مما رفع من شأنه هامش البيان والتبيين ١/ ٤٠٥.

ووقّع على رقعة وردت إليه من ولده الفضل(٣٤): "ما أهونَ التدبير بالوصف".

ووقّع توقيعاً مسهباً على رسالة يوسف بن القاسم بعث بها إليه في حاجةٍ له (٣٥):

"هذه فضيلة في أوليائنا، وحقوق في أضيافنا، فنحن بالقيام منهما دونك حريون، وبخط نقلها عن حالك جديرون، وقد أمرت لأحمد ما سألت من المال بمسألتك فيه، وزيادة الضعف، استظهاراً مني له، ومؤكداً، وامرت باستحقاقك لشهرين من مال السلطان أعزَّهُ الله ومثله صلة من مالي، وأنفذت إليك بذلك كلّه رقاعاً بخطي إلى من يقبض ذلك منه، فأمّا السلف من مال السلطان، فلا سبيل إليه، ولا أعرف جعفراً بتارك أحمد إليك، ولا إلينا كما لم يترك الفضل قاسماً إن شاء الله" وختم التوقيع بشعره (٣٦).

من توقيعات الفضل بن يحيى:

وللفضل بن يحيى البرمكي توقيعات، غيرَ أنَّ ما وصلنا منها كان قليلاً: "وقّع ذات يوم على رقعة لأبي الهول الحميري اعتذر فيها من ذنبٍ وقع فيه (٣٧): "لا أحتمل تفريقك بين رضاي وإحساني، وهما مقرونان، فإن أردتهما معاً، وإلا ندعهما معاً".

وفي روايةٍ (٣٨): غضب الفضل على أبي الهول في شيءٍ وجده عليه، وكان مقرباً منه، ومعجباً بشعره، فكان يتحفه بالصلات السنية، فلما غضب عليه جفاه الناس وتنكروا له فضاق بذلك ذرعاً فاستشفع بأبيات من الشعر ختمها بقوله:

فجُدْ بالرضى لا ابتغي منك غيره ورأيك فيما كنتَ عوَّدتني بعد

فلما قرأ الفضل رقعته وقَّع عليها: "رضاي عنك مقرون بإحساني إليك، فإن أردت أن أفرق بينهما لم أفعل".

فاستغنى الفضل بالأبيات عمن يشفع له، ووصله.

---

(٣٣) البصائر والذخائر للتوحيدي ١/ ١٤٨ وابن الابار: اعتاب الكتاب ص ٨٣ والعفو والاعتذار ص ٢١٩.

(٣٤) الوزراء والكُتّاب: ٢٤٨ وابن قدامة: نقد النثر: ص١٠٣.

(٣٥) لصولي:اخبار الشعراء ص ١٥٧ واحمد زكي:جمهرة رسائل العرب ٣/ ١٧٥.

(٣٦) راجع الشعر في فصل شعر البرامكة.

(٣٧) الفخري: ١٦٣.

(٣٨) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٥٣.

من توقيعات جعفر بن يحيى:

وكان لجعفر توقيعات بديعة فاق في جودتها أباه وأخاه الفضل منها:

قرأ كتاباً ذات يوم، فأعجبه خطّه فوقّع (٣٩):

" الخط خيط الحكمة، ينظم فيه منثورها، ويفصّل فيه شذورها".

وقال أيضاً في هذا المعنى (٤٠):

"الخط سمة الحكمة به تفصَّل شذورها، وينظم منثورها".

ووقّع إلى كتّابه يدعوهم الى الايجاز

" ان استطعتم ان تكون كتبكم كالتوقيعات اختصاراً فافعلوا، ووقَّع على رسالة كاتبه عمرو بن مسعدة كتبها إلى حمزة الحروري (٤١).

"إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز مُقصراً، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عيَّاً".

ووقَّع إلى بعض عمَّاله في قصة رجل شكاه (٤٢):

"أما بعد: فقد كثر شاكوك، وقلَّ شاكروك، فإمَّا اعتدلت، وإمَّا اعتزلت".

ووقَّع إلى قوم (٤٣):

"عينُ الخليفة تكلؤكم، ونظره يعمّكم".

وعلى كتاب صديق (٤٤):

"ما جاوزتني نعمة خصصت بها، ولا قصرت دوني ما كان بك محلّها".

ووقّع إلى بعض عمّاله (٤٥):

---

(٣٩) الحصري: زهر الاداب ١/ ٣٦٦.

(٤٠) تاريخ الامم والملوك ٣/ ٥٣٧ دار الكتب العلمية بيروت.

(٤١) العقد الفريد ٢/ ٢٧٢ وأدب الكتاب: ١٢٨ و١٣٤ والأصبهاني: محاضرات الأدباء ١/ ٥٩ والقلقشندي: صبح الأعشى ٣/ ٢ والوزراء والكتاب: ٢٠١ وانظر الكامل للمبرد ١/ ٣٥٢ مؤسسة الرسالة.

(٤٢) العقد الفريد ٤/ ١٥٦ والقالي: الأمالي: ١/ ١٢٢.

(٤٣) وفيات الاعيان:١/ ٣٢٩ و ١٤٦ والبداية والنهاية ١٠/ ١٩٣ وشذرات الذهب ١/ ٣١١ والتمثيل والمحاضرة ص ١٤٦ والكامل في الادب ١/ ٢٠١ والثعالبي: تحفة الوزراء:١٤٧ ومحاضرات الادباء ١/ ١٧٦ ونسبه ليحيى ومجمع البلاغة ص ٦٣٦ للامام ابي القاسم الحسن بن مفضل بن محمد الراغب الاصفهاني ١٤٠٦ ه مكتبة الاقصى عمان مع الاختلاف في بعض الكلمات.

(٤٤) العقد الفريد ٤/ ١٥٦.

"إنَّك كثير الشكاية قليل النكاية جريءٌ في ميدان العلل بطيءٌ في ميدان العمل".

وكُتِبَ إليه أنَّ صاحب الطريق اشتطَّ فيما طلب من الأموال، فوقَّع(٤٦):

"هذا رجلٌ منقطعٌ عن السلطان، وبين ذؤبان العرب بحيث العُدد والعِدَّة ليدفع به عدوَّه، فإنَّ نفقات الحروب يستظهر لها، ولا يستظهر عليها".

ووقَّع في قصة مُتظلِّمٍ من بعض عُمَّاله (٤٧):

"إنّي ظلمتك دونه".

وفي رقعة مُتظلِّمٍ آخر (٤٨):

"أنا لمثله حتى ينصفك".

وفي قصة رجلٍ شكا بعض خدمه (٤٩):

"خذ بأذنه ورأسه فهو مالك".

ووقع في رقعة متشفع اليه في دم (٥٠):

"ولكم في القصاص حياةً يا اولي الالباب لعلكم تتقون"[البقرة ١٧٩]

وفي قصة رجل سأله أن يقفل ابنه من الغزو، لأنَّ غيبته طالت فكتب (٥١):

"غيبة يوسف عليه السلام كانت أطول".

وكتب رجل إليه يستبطئه، فوقَّع على ظهر كتابه (٥٢):

"أحتج عليك بغالب القضاء، وأعتذر إليك بصادق النيّة".

ووقَّع لرجلٍ اعتذر عنده من ذنب (٥٣):

قد قُدمت طاعتك، وظهرت نصيحتك، ولا تغلب سيئةٌ حسنتين".

---

(٤٥) الفخري:ص ١٦٣.

(٤٦) محاضرات الأدباء: ١/ ١٨٠ والنكاية: نكأ: جرح العدو وقتله

(٤٧) العقد الفريد ١٥٦.

(٤٨) العقد الفريد ٤/ ٢١٩

(٤٩) العقد الفريد ٤/ ١٥٦.

(٥٠) الثعالبي: الاقتباس من القران الكريم ١٤٨/٢.

(٥١) العقد الفريد ٤/ ١٥٦.

(٥٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار: ٣/ ١٠٠ والثعالبي: خاص الخاص: ٩١ ونسب التوقيع ليحيى.

(٥٣) المصري: زهر الآداب: ١/ ٣٦٦.

واعتذر رجل الى جعفرفقال له:

" قد اغناك الله بالعذرمنها عن الاعتذار الينا واغنانا بالمودة عن سوء الظن بك (٥٤)".

وفي رقعة آخرى تنصَّلَ إليه من ذنب (٥٥):

"تقدّمت لك طاعة، وظهرت منك نصيحة، كانت بينهما نَبْوة، ولن تغلب سَيئةٌ حسنتين".

ووقَّعَ على كتابٍ لعيسى بن ماهان، وكان قد اعتذر إليه فيه من أشياء بلغته عنه (٥٦):

كأنَّا وقد كُنَّا صديقاً مصافياً ... تباعد بيننا فدام إلى الحشر

وإلى منصور بن زياد في أمر عاتبه فيه (٥٧):

"لم نزرعك لنحصدك".

وإلى بعض إخوانه (٥٨):

"إذا وضح العذر لم يكن لسوء الظن مكانٌ إلاَّ لمن أراد التّجنّي".

وحين رفعت إليه رقعة تتضمَّنُ أنَّ فلاناً دعاني إلى طعامه، فأحضر من آلات الخاصة، وطعامهم ما يدلُّ على عِظَم الحال، وكثرة المال فوقَّع عليها (٥٩):

"لم نحمدك على نصيحتك، وذممناه على سوء اختيار الإخوان وعلى رقعة لمحبوس (٦٠): إنَّ العدوان أوبقه، والتوبة تطلقه".

ووقَّعَ على كتاب الفضل بن الربيع (٦١):

"كثرة ملاحاة الرجال ربَّما أراقت الدماء".

وعلى رقعة رجل سأله الاستعانةَ به، وكان له به معرفة (٦٢):

---

(٥٤) تاريخ بغداد ٧/ ١٥٣.

(٥٥) العقد الفريد ٢/ ٢٧٢ والزمخشري: ربيع الأبرار ١/ ٤٤٧ وفي رواية: قد تقدمت طاعتك ونصيحتك، فإن ثبت منك هفوة، فلن تغلب سيئة حسنتين. نهاية الأرب ٣/ ٢٦١ وخاص الخاص: ٩٠ وزهر الآداب: ١/ ٣٦٦ مع بعض الاختلاف.

(٥٦) الوزراء والكُتَّاب: ٢٠٥.

(٥٧) العِقد الفريد: ٤/ ١٥٦.

(٥٨) ديوان المعاني: ٢/ ٩٦.

(٥٩) تحفة الوزراء للثعالبي: ١٤٧.

(٦٠) الوزراء والكتاب: ٢٠٥ ووفيات الأعيان ١/ ٤٧٥ والكامل في التاريخ. أوبقه: أهلكه والعقد الفريد ٤/ ١٥٦.

(٦١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ١٥٦ ولاحاه ملاحاة ولحاء نازعه.

"قد رأيناك فما أعجبتنا، وبلوناك فلم نرضَ الخبر".

ووقّع على رقعة لرجل سأله ولاية (٦٣):

"لا أولّي بعض الظالمين بعضاً".

وفيمن استأذنه في الحج (٦٤):

"من سافر إلى الله أنجح".

ولما سعى علي بن عيسى بن ماهان بالفضل بن يحيى رمى الرشيد بالكتاب إلى جعفر فقال له أجِبهُ فوقّع جعفر على ظهره (٦٥):

"حُبِّبَ إلينا الوفاءُ الذي أبغضته، وبغّض الغدر الذي أحببته، فما جزاءُ الأيامِ أن تُحسِنَ ظنَّكَ بها، وقد رأيت غدراتها، ووقعاتها عياناً واختياراً والسَّلام".

وفي قصة رجل شكا عزوبة (٦٦):

"الصوم لك وجاء".

وفي قصة محبوس (٦٧):

"لكل أجلٍ كتاب".

وقدم رجلٌ إليه رقعة ذكر فيها أنّه قصده بحكم الأمل، والرجاء فوقّع على ظهرها (٦٨).

"هذا يمتّ بحرمة الأمل، وهي أقرب الوسائل، وأثبت الوصائل، فليعجّل له من ثمرة ذلك عشرون ألف درهم، وليمتحن ببعض الكفاية، فإن وجدت عنده، فقد ضم إلى حقه حقاً، وإلى حرمته حرمةً، وإن قصُرَ عن ذلك فعلينا معوَّله، وإلينا مؤمله، وفي ما لنا سعة".

وإلى بعض عمّاله (٦٩):

---

(٦٢) الوزراء والكتاب: ٢٠٥ ووفيات الأعيان ١/ ٤٧٥ أبو أحمد العسكري: المصون في الأدب: ١١٢ ونسبه ليحيى في رقعة رجل استعمله فخان والأغاني: ١٠/ ٥٤-٥٥ نسبه لعائشة بنت طلحة.

(٦٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ١٥٦.

(٦٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ١٥٦.

(٦٥) الجهشياري: الوزراء والكتاب: ٢٠٥.

(٦٦) العقد الفريد ٤/ ١٥٦.

(٦٧) العقد الفريد ٤/ ١٥٦ والوزراء والكتاب ٢٠٥. ووفيات الأعيان ١/ ٤٧٥ والكامل في التاريخ: ٥/ ١١٦ وخاص الخاص ٩١ ونسب التوقيع ليحيى.

(٦٨) الوزراء والكتاب: ص٢٠٥ وابن خلكان: وفيات الأعيان: ١/ ٤٧٤-٤٧٥ معول: اعتمد واتكل.

"اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدُكَ عندنا".

وفي قصة مستمنحٍ قد وصله مراراً (٧٠):

"دع الضّرع يدرّ لغيرك كما درَّ لك".

وإلى عامل قصَّر في رجل من بطانته يوصيه (٧١)

"إنَّه رغب إلى شعبك، فارغب في اصطناعه".

ووقع في رقعة مستميح (٧٢):

"ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده"[فاطر٢].

ووقع الى صاحب ديوانه (٧٣):

"احسن الى الاكره فانهم الفعلة الذين يعملون والفلاحون الذين يزرعون قد جعل الله ايديهم لنا طعاما والسنتهم سلاما فظلمهم حرام" "وما عند الله خير وابقى افلا تعقلون"

٣. رسائل البرامكة

ازدهرت كتابة الرسائل بجميع أنواعها: الديوانية والإخوانية والأدبية في العصر العباسي الأول[١] بعد أن مهَّدَ لها عبد الحميد الكاتب [٢] إمامُ كُتَّابِ عصر بني أمية، فاقتدى به الكُتَّابُ من بعده، فوجدوا من الخلفاء العباسيين ووزرائهم كُلَّ عَوْنٍ وتشجيع، وكثروا كثرةً عظيمة، حتى قيلَ إنَّ الدولة العباسية دولة الكُتَّاب، كما كانت الدولة الأموية دولة الشعراء.

---

(٦٩) العقد الفريد ٤/ ١٥٦.

(٧٠) العقد الفريد ٤/ ٥٦١ وخاص الخاص:ص٩١ ونسب التوقيع ليحيى.

(٧١) العقد الفريد ٤/ ١٥٦ الشعب: القبيلة العظيمة.

(٧٢) الثعالبي:الاقتباس ١٤٨/٢.

(٧٣) المرجع السابق ١٤٨/٢.

(١) إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي: ص٢٢٠ وما بعدها.

(٢) هو: عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني عامر الكاتب من أهل الشام، كان إماماً في الكتابة والعلم والأدب أطالَ رسائله، واستعمل التحميدات، حتى ضُرِبَ به المثل. فقيل: فتحت الرسائل بعبد الحميد، وخُتِمَت بابن العميد ، بلغت رسائله ألف ورقة ، وكان كاتباً لمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، قتل مع مروان سنة ١٣٢ في قرية بوصير من أعمال الفيوم بمصر راجع وفيات الأعيان ٢٢٨/٣-٢٢٩.

فأسندَ الخلفاء كتابة رسائلهم إلى من نبغ من الكُتَّاب، فكان على رأس من أوكل إليهم ذلك البرامكة فلقد نالوا عمادة هذه الصنعة، بعد أن فاقوا كثيراً من كُتَّابِ عصرهم، وبذلك حازوا على شهرةٍ واسعة، فعرف الأدباء قدرهم، وأشادوا برسائلهم؛ لما تحلَّت به من تعابير فنية، حيث تأنقوا في صياغتها، فاختاروا ما فَصُحَ من الألفاظ، وما حسُنَ من الأساليب، والمعاني، وطرزوها بألوان البديع حتى غدت مظهراً من مظاهر الجمال الفني، والبراعة الأدبية ففاقوا في كتابتها جميعَ من عاصرهم؛ لهذا وضعهم ابن النديم على رأس قائمة الكُتَّاب المترسلين الذين رويت رسائلهم [٣]، فاقتفى الكتاب أثرهم، ونهجوا نهجهم، وتأثَّرُوا بهم، ولم يكن لهذه الكتابة مثيلٌ قبل منتصف القرن الثاني الهجري إلاَّ في نطاقٍ ضيِّق [٤]؛ ولذلك اعتبر البرامكة من أكبر الدعائم في ازدهار هذا اللون من الفن، وتوطيد دعائمه؛ وقد بلغوا من المهارة في كتابتها ما دفع ببعض الكتاب إلى القول: بأنَّ البرامكة مهَّدُوا السبيلَ لطبقة أهل القلم، وأنَّهُم كانوا من أهم العوامل في شيوع السجع في الرسائل الديوانية بل، وفي رسائل كل من يتولى الكتابة لهم غيرَ أنَّ ذلك لم يطرد في جميع ما كانوا يكتبون [٥]، وكان لنبوغهم في كتابة رسائلهم مصدر خيرٍ لهم وبركة؛ ولهذا عزا ابن عبد ربه، وابن الأبَّار ما وصلوا إليه من غنى، ومجد مؤثّل، وشهرة واسعة إلى براعتهم وتقدُّمِهم في فن الكتابة [٦].

ومع هذا فإنَّهم لم يمارسوا جميعَ أنواعَ الرسائل، ولم يصلوا إلى ما وصل إليه غيرُهم في المنشورات، والعهود المطوَّلة والرسائل الديوانية [٧] فلعلَّ هذا يعودُ إلى عدم تفرغهم لمثل هذا اللون من الفن [٨] لانشغالهم في تصريف شؤون الدولة على عكس ما كان عليه الكتاب قبلهم أمثال عبد الحميد الكاتب في العصر الأموي وابن المقفع في العصر العباسي وغيرهما؛ لأنَّ الخلفاء كانوا يأمرونهم بكتابة رسائلهم في أمرٍ معين ثم يقومون بأنفسهم أو بواسطة وزرائهم

---

[٣] ابن النديم: الفهرست: ص١٢٤.

[٤] الشكعة: معالم الحضارة: ص٢٢٤.

[٥] راجع كتاب: العصر العباسي الأول: ص٤٧٥ لشوقي ضيف.

[٦] العِقد الفريد: ٤/ ١٦٩ وابن الأبار: أعتاب الكتاب: ص١٠٨.

[٧] الكتابة الديوانية: هي ما يتولاه كتبة الوزارات في عصرنا الحاضر ومن الدواوين: ديوان الرسائل والتوقيعات وديوان الخراج والنفقات وديوان الضياع والاقطاعات وديوان الجيش، وديوان الشرطة وغيرها: السباعي بيومي: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي: ص١١٠.

[٨] حجاب: مظاهر الشعوبية في الأدب العربي: ص٣٧٥.

بالتعديل والزيادة والنقص؛ لهذا اكتفى البرامكة برسائلهم القصيرة [٩]، كما اتخذوا لهم الكتبة لينوبوا عنهم فجعل يحيى بن خالد: يوسف بن القاسم كاتباً له، فكان يخلفه على التوقيع في داره، ودار أمير المؤمنين الرشيد، ودواوين الأزمَّة [١٠] فمن البرامكة الذين برعوا في كتابة رسائلهم القصيرة: خالد بن برمك، وولده يحيى وحفيداه: الفضل وجعفر.

---

[٩] حجاب: مظاهر الشعوبية في الأدب العربي: ص٣٧٦. وبرانق: البرامكة في ظلال الخلفاء: ص١٥٦-١٥٧.

[١٠] الصولي: أخبار الشعراء المُحدِثين من كُتَّاب الأوراق: ص١٥٦.

وأمَّا خالد بن برمك:

فقد بلغ من المهارة في الكتابة ما جعل كبار الكُتَّابِ يجمعون على أنَّه لم يبلغ أحد من ولده مبلغه في كتابته، وفصاحته [١١]؛ لذلك أسنَدَ إليه الإشراف الكامل على الدواوين الحكومية، ثم تولَّى الوزارة بعد ذلك، ومِمَّا يؤسَفُ له أنَّهُ لم يصلنا شيءٌ من رسائله حتى يمكننا الحكم عليها.

وأمَّا يحيى بن خالد:

فقد كان كاتباً بليغاً، فعرف المهدي قدره: ونبوغه الأدبي، فولاَّهُ رسائل ولده هارون ولي العهد حين أسنَدَ إليه ولاية بلاد المغرب كلها، وأذربيجان وأرمينية [١٢]، كما أعجب الرشيدُ ببلاغته عندما كان يكتب رسالةً لولده الفضل فقال[١٣]: "لقد أبلغت يا أبتي" وهذا ما دفع الكُتَّاب إلى أن يتخذوا رسائله نموذجاً لمراسلاتهم، فنهجوا نهجها، واقتبسوا ألفاظها، وتأثروا بمعانيها [١٤].

وكان الجاحظ فيما يبدو شديد الإعجاب به. لهذا نسَبَ بعض كتبه إليه في مستهل حياته الأدبية؛ كي تحوز على إقبال القُرَّاء على قراءتها، والاستفادة منها [١٥]. ولمَّا ولِّي يحيى وزارة هارون الرشيد لم ينفرد وحده بالكتابة، فاتخذ ولديه الفضل وجعفراً لمساعدته، وزاد في صدر كتبه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، يقول الجهشياري [١٦]: "وكان أول من زادَ في الكتب: وأسأله أن يصلّي على محمد عبده، ورسوله، وأنشأ في ذلك كتاباً ذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام".

ولشدة ولعه بالرسائل، ومعرفته بأهميتها، اهتمَّ بالبريد، ونظَّمَهُ ورتَّبه ترتيباً حسناً على الصورة التي كان عليها أيام الأمويين، فجعل البغالَ في المراكز لنقل رسائل الخلافة، وأصحابِ الخبر بعد

---

[١١] وفيات الأعيان ٦/ ٢٢٠، وخزانة الأدب للخطيب البغدادي ٣/ ٢١٠، ومروج الذهب ٣/ ٦٨.

[١٢] البداية والنهاية. ١/ ١٤٦.

[١٣] ياقوت الحموي: معجم الأدباء: ٢٠/ ٥.

[١٤] الجاحظ: رسائل الجاحظ: ص٣٤٩-٣٥٠.

[١٥] الجاحظ: المحاسن والأضداد: ص٤.

[١٦] الوزراء والكُتَّاب: ص٧٧، ومحاضرات الأدباء: ١/ ٩٦. وفي رواية أنَّ الرشيد أحدث هذا عند نزوله الرقة وجعله في صدور كتبه. الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٦٩ حوادث ١٨١ والبداية والنهاية ١٠/ ١٧٧.

أن أشارَ يحيى على الرشيد بذلك مُبيِّناً فائدته، وأنَّهُ صلاحٌ لملكه، فأخذ الرشيد بمشورته وأمره باعتماد ذلك[١٧].

وأمّا الفضل بن يحيى: فكما عرفنا كان من أهلِ البلاغة والفصاحة، لكنه لم يصِلْ في بلاغته إلى ما وصل إليه يحيى وجعفر[١٨]، فاتخذ من يساعده في كتابة رسائله أمثال: يوسف بن القاسم[١٩]؛ لهذا فإنّ ما وصلنا من رسائله كان قليلاً.

وأما جعفر بن يحيى: فقد كان من الكتاب المترسلين، الذين برعوا في كتابة رسائلهم فاحتلت رسائله مكانة مرموقة في نفوس الأدباء والكتاب فقالوا إنَّه بلغ من المهارة، والبلاغة بحيث لم ير مثله[٢٠]، حتى ضرب ببلاغته الأمثال، وقد شهِدَ له بذلك جَمْعٌ غفيرٌ من الكُتَّاب، فقد روى الصولي في كتابه: أخبار الشعراء المحدثين[٢١]: أنَّ الكُتّاب اجتمعوا عند أحمد بن إسرائيل، فتذكَّروا الماضين من الكُتَّاب، فأجمعوا على أنَّ جعفراً كان من أزكي كُتَّاب الدولة، وأجمعهم لمحاسِنِ الكتابة من ذكاءٍ وخط، وفطنة".

---

[١٧] تاريخ الأمم والملوك ٩/ ٣٤٥، وابن خلدون: العبر ٣/ ٤٤٩ والقلقشندي: صبح الأعشى ١٤/ ٣٦٨-٣٦٩.

[١٨] ابن النديم: الفهرست: ص١٢٤.

[١٩] الصولي: أخبار الشعراء المحدثين: ص١٥٨. وجمهرة رسائل العرب ٣/ ١٧٩.

[٢٠] الأغاني ٤/ ١٥٣٩.

[٢١] أخبار الشعراء المُحدِثين: ص٢٠٦-٢٠٧.

وهذه بعض رسائل البرامكة :

من رسائل يحيى بن خالد:

من رسائل يحيى بن خالد تلك الرسالة التي كتبها إلى: علي بن عيسى بن ماهان بعد أن حدث بينهما من الجفوة والتقاطع والتدابر ما جعل علي يرسل أبا نوح إلى يحيى ليستكشف له ما في نفسه، فقال في رسالته [٢٢]:

" ينبغي أن تكون على يقين أنّي بك ضنين، أريدك ما أردتني، إن نَبَوْتَ عني، ما كان ذلك بي وبك جميلاً يحسُن عند إخواننا، فإن وقعت المقادير بخلاف ذلك، لم أعْدُ ما يجب، والذي هاجَني على الكتابة إليك أنَّ أبا نوح معروف بن راشد سألني أن أبوحَ لك بما عندي، والله يعلم أنّي ما تبدَّلت، ولا حُلْتُ عن عهد، جمعنا الله وإيَّاكَ على طاعته، ومحبة خليفته بجوده، وقدرته ".

وكتب رسالة قصيرة إلى ولده جعفر ناصحاً ومحذراً من عواقب الدخول في حياة الرشيد، لكنَّه لم يجِدْ منه أُذُنَاً صاغيةً، ولا قلباً واعياً فحدث بينهما جفوة، وقد قال في رسالته [٢٣]: "إنّي إنَّما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك، وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا شوى لها".

وكتب رسالة إلى الرشيد يتنصَّلُ فيها من ذنبٍ لم يقترفه، ودعاه أن لا يأخذه بجريرة غيره فقال [٢٤]: "إن كان الذنب يا أميرَ المؤمنين خاصَّاً، فلا تعمّ بالعقوبة فإنَّ لي سلامة البريّ، ومودة الولي (ولا تزر وازرة وزر أخرى)[الانعام ١٦٤].

فوقَّع الرشيد [٢٥] على حاشية الكتاب بآيةٍ من القرآن الكريم: "قُضِيَ الأمرُ الذي فيهِ تستفتيان"[يوسف ٤١].

وكتب رسالة إلى ولده الفضل حين كان والياً على خراسان بعد أن وصل إلى الرشيد كتاب صاحب البريد ذكر فيه أنَّ الفضل يتشاغل بالصيد، وإدمان اللذات عن النظر في أمور الرَّعية،

---

[٢٢] التوحيدي: البصائر والذخائر ١/ ٦٣ الضنين: البخيل.

[٢٣] الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ١٠/ ٨٣. والجهشياري: الوزراء والكُتَّاب: ص٢٢٤-٢٢٥ وأحمد زكي: جمهرة رسائل العرب: ٣/ ٢١٩-٢٢٠. شوى: برء وبقاء من أشوى أبقى والاسم الشوى.

[٢٤] الجهشياري: الوزراء والكُتَّاب: ص٢٥٣. والأصبهاني: محاضرات الأدباء: ١/ ٢٤٣. ولم يذكر الآية ولا تزر. وأحمد زكي: جمهرة رسائل العرب: ٣/ ٢٢٠ عن المنظوم والمنثور: ١٣/ ٣٨٦.

[٢٥] الجهشياري: الوزراء والكُتَّاب: ص٢٥٣. الزغب: محاضرات الأدباء: ١/ ٢٤٣.

فألقى الرشيدُ الكتاب إلى يحيى، وهو يقول له: يا أَبتِ إقرأ هذا الكتاب، واكتب إليه كتاباً يردعه عن فعل هذا، فأخذ يحيى دواة الرشيد، فكتب إلى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد يدعوه إلى العودة إلى ما هو أزين له، وأن يسعى في طلب العلا، وأن يصبِرَ على تركِ اللذائذ وأن لا يجهر بالمعصية، وختَمَها بأبياتٍ من الشعر قيلَ بأنَّها من شعر يحيى، وقد تجاهل اليافعي ذكرها في كتابه مرآة الجِنان؛ لأنَّ الأبيات كما يراها تدعو إلى التستر باللذات بما لا ينبغي إظهاره، والظهور بالنهار بما ينبغي إشهاره كرهت ذكرها في هذا الكتاب فحذفتها لتضمنها التحريض على التستر باللذات وإيهام التنسك في إخفاء تناول الشهوات المحرمات" [٢٦].

فأعجب الرشيد ببلاغة يحيى وقال له، وهو ينظر إلى ما يكتبه: لقد أبلغت يا أبتِ.

وهذا نصُّ رسالته [٢٧]:

"حفظك الله يا بني، وأمتع بك قد انتهى إلى أمير المؤمني ما أنت عليه من التشاغل بالصيد، ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره، فعاود ما هو أزين بك، فإنَّه من عادَ إلى ما يُزَيِّنه، ويشينه لم يعرف أهل دهره إلاَّ به والسلام" وختمها بأبياتٍ منها:

أنصب نهاراً في طلاب العلا　　　واصبرْ على فقد لقاء الحبيب

فكان لهذه الرسالة أثرها الطيب في نفس الفضل، فندم على ما بدر منه وعزف عن الشراب وامتنع عن اللَّذات، وتنسَّكَ حتى قيل إنَّهُ لم يغادر المسجد بعد ذلك وقام بإصلاحات عظيمة [٢٨] وبلغ من الصلاح بحيث كان يقول [٢٩]: "لو علمت أنَّ الماءَ ينقص من مروءتي ما شربته"؛ لهذا لم يبرح الرشيد يعتب عليه لعدم مشاركته في شرب النبيذ ومسامراته.

---

[٢٦] اليافعي: مرآة الجِنان: ١/ ٤٣١.

[٢٧] ابن خلكان: الوفيات: ٤/ ٢٨-٢٩ وياقوت الحموي: معجم الأدباء: ٢٠/ ٨ والمسعودي: مروج الذهب: ٣/ ٣٦٨. الدميري: حياة الحيوان الكبرى: ٢/ ٦٢. والمخلاة ص١٢٣-١٢٤ ونسب الراغب الأصبهاني في كتابه محاضرات الأدباء ٢/ ٧٠٩ الأبيات إلى محمد بن يزيد، قيلَ إنَّ معاوية كتب بها إلى ابنه يزيد مع اختلافٍ في بعض الألفاظ والمرزباني: معجم الشعراء: ص٤٨٩ ونسب الأبيات ليحيى وقال لغيره وذكر بعض الأبيات.

[٢٨] الجهشياري: الوزراء والكُتَّاب: ص١٩١.

[٢٩] نفس المصدر: ص١٩٤ والطبري: تاريخ الأمم والملوك: ١/ ٨٣.

وكتب في الاستبطاء، والاقتضاء بأوجز لفظ، وأقل عبارة وقد وصفها الثعالبي بقوله: "ولم أسمع بأوجَزَ منه: "في شكر ما تقدم من إحسانك شاغل عن استبطاء ما تأخر عنه" [٣٠].

وحينَ أراد الرشيد أن يستفيد من كفاءة جعفر، وبلاغته، قال ليحيى [٣١]: "يا أبتِ إنّي أردت أن أجعل الخاتم الذي في يد الفضل إلى جعفر وقد احتشمت فيه، فاكفنيه".

فكتب يحيى [٣٢] إلى الفضل كلمات قليلة تغني عن الكثير، تمَّ فيها عزله قال فيها: "قد أمرَ أمير المؤمنين – أعلى الله أمره – أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك".

فقال الشاعر [٣٣]:

لم يعزلوا الأعمال عنه وإنّما عزلوا العفاف به عن الأعمال

وكتب إلى الفضل حين كان والياً على خُراسان رسالةً دعاهُ فيها أن يُعطي جسدَهُ قِسطاً من الراحة [٣٤]: "يا بني لا تغفل نصيبك من الكسل".

وقد علَّقَ ابن عبد ربه على هذه الرسالة فقال [٣٥]: " ... لأنَّ بالكسل تكون الرَّاحة، وبالرَّاحة يثوب النشاط، وبالنشاط يصفو الذهن، ويصدق الحسُّ، ويكثُرُ الصواب".

كما كتب إلى ولده الفضل أن يقضي دين كاتبه عبد الله بن سوار بن ميمون وقدره ثلاثمائة ألف درهم فقال [٣٦]:

وكُلُّكم قد نالَ شبَعَاً لبطنه وشبع الفتى لؤمٌ إذا جاع صاحبه

---

(٣٠) الثعالبي: تحفة الوزراء: ص١٤٥.

(٣١) ابن الطقطقي: الفخري: ص١٦٦ وأحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب: ٣/ ١٧٩. والحصري: زهر الآداب: ١/ ٣٦٤-٣٦٥. البيهقي: المحاسن والمساوئ: ص/ ١٨٩. والوطواط: غرر الخصائص الواضحة: ص١٢٢. والثعالبي: الكناية والتعريض: ص٥٢. وابن عبد ربه: العِقد الفريد: ٢/ ٢٧٢. وياقوت: محاضرات الأدباء: ١/ ١٧٨.

(٣٢) المصادر السابقة والزمخشري: ربيع الأبرار ١/ ٥٧٨.

(٣٣) المصادر السابقة والزمخشري: ربيع الأبرار ١/ ٥٧٨

(٣٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد: ١/ ٣٨٢

(٣٥) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣٦) الجهشياري: الوزراء والكُتّاب: ص١٩٩. البيهقي: المحاسن والمساوئ ١/ ٢٩٥-٢٩٦. زهر الآداب ٢/ ٣٨٥ زهر الآداب.

إنَّ عبد الله يذكر أنَّ عليه ديناً يخرجه منه ثلاثمائة ألف درهم، فقبل أن تضع كتابي من يدك، فأقسمت عليك لما حملت ذلك إلى منزله من أحضر مال قبلك، إن شاء الله".
وكتب إلى الرشيد من سجنه يذّكره بأنَّ كُلَّ شيءٍ زائل [٣٧]: "لا يمر يوم من نعيمك إلاَّ ويمرُّ يومٌ من بؤسي، وكلاهما إلى نفاذ".
وحين شعر بدنوِّ أجله كتب رسالةً إلى الرشيد، فاشتدَّ عليه المرض أثناء كتابتها فلم يكملها وقد جعل عنوانها.
"ينفِّذُ أميرُ المؤمنين عهد مولاه، يحيى بن خالد، ودفعها إلى السجَّان، وهو يقول له: هذا عهدي إلى أميرِ المؤمنين، فإنَّهُ وليُّ نعمتي، وأحقُّ مَنْ نفَّذَ وصيتي وهذا نصُّها [٣٨]: "قد تقدَّمَ الخصمُ إلى موقف الفصل، وأنتَ على الأثر، والله حكم عدل الذي لا يجور، ولا يحتاجُ إلى بيِّنه، وستقدم فتعلم ...".
فكان لهذه الرسالة وقْعها السيء ، في نفس الرشيد، فبقِيَ أياماً والحُزنُ بادياً على وجهه.
وردَّ على رسالةٍ وردت إليه من أيوب بن هارون بن سليمان بن علي يُعَزِّيه في مقتل ولده جعفر بما يدلّ على رضاه بقضاء الله وقدره.
"أنا بقضاء الله راضٍ، وبالخيار فيه عالم، ولا يؤاخذ الله العباد إلاَّ بذنوبهم، وما رَبُّكَ بظلاَّمٍ للعبيد، وما يعفو الله أكبر، ولله الحمد" [٣٩].
كما كتب رسالةً من السجن إلى أخيه محمد يعتبُ فيها عليه لتنكُّرِهِ له، وعدم مدِّ يدِ العونِ له في محنته – وكان الرشيد قد أمَّنه، ولم يمسّه بسوء. وهذا نصها [٤٠]: "أنكرت صديقي، وعرفت عدوي".
ومن أبرز الرسائل التي كتبها يحيى تلك الرسالة الشهيرة في استعطاف الرشيد، والتي بعث بها من غياهب السجن مُذَكِّراً له بحرمته وتربيته له، بدأها بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وأطنب فيها على غير عادته طمعاً في أن يجد منه أُذُناً صاغية غير أنَّ رسالته لم يكن لها من أثرٍ

---

[٣٧] ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/ ٩٧.
[٣٨] ابن عبد ربه: العِقد الفريد ٤/ ٢١٥ و٥/ ٦٩ والبداية والنهاية ١٠/ ٢٠٥ واليافعي مراة الجنان ١/ ٤٢٩ والازدي تاريخ الموصل ٣١٠ ووفيات الاعيان ٦/ ٢٢٨.
[٣٩] الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٨٧.
وأحمد زكي: جمهرة رسائل العرب ٣/ ٢٢٠.
[٤٠] الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص٢٤٨.

في نفس الرشيد، فلم تُحَرِّكْ منه ساكناً بل كان العكس، فقد ردَّ عليها رداً عنيفاً وصمه فيها بأسوأ النعوت.اتهمه فيها بالمخادع والزندقة والفسق وختمها بقوله: إنَّما مثلك يا يحيى ما قال الله عزَّ وجل: وضرب الله مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقاً رغداً من كلِّ مكان، فكفرت بأنعُمِ الله، فأذاقها الله لباس الجوع، والخوف بما كانوا يصنعون".

وهذا نصها [41]: وأسأله أن يُصَلِّي على محمد عبده ورسوله: لأمير المؤمنين، وخليفة المهديين، وإمام المسلمين، وخليفة رَبِّ العالمين، من عبدٍ أسلمته ذنوبه، وأوبقته عيوبه، وخذله شقيقه ورفضه صديقه، ومال به الزمان، ونزل به الحدثان، فعالج البؤس بعد الدَّعة، وافترش السُّخط بعد الرضا، واكتحل بالسُّهادِ بعد الهجود، ساعته شهر، وليله دهر، وقد عايَنَ الموت، وشارَف الفوت [42]جزعاً لموجدتك يا أمير المؤمنين، وأسفا على ما فات من قربك لا على شيء من المواهب؛ لأنَّ الأهل والمال إنَّما كانا لك وبك، وكانا في يديَّ عارية والعارية مردودة، وأمَّا ما أصبت به من ولدي فبذنبه، ولا أخشى عليك الخطأ في أمره، ولا أن تكونَ تجاوزْتَ به فوق حدِّه تفكُّر في أمري، وجعلني الله فداك، وليمل هواك بالعفو عن ذنبٍ إن كان، فمن مثلي الزَّلل، ومن مثلك الإقالة، وإنَّما أعتذر إليك، بإقراري بما يجب به الإقرار حتى ترضى، فإذا رضيت رجوتُ إنْ شاءَ الله أن يتبيَّنَ لك في أمري، وبراءة ساحتي ما لا يتعاظمك بعده ذنب أن تغفره مدَّ اللهُ في عمرك، وجعلَ يومي قبل يومك.

وختمها بأبياتٍ من الشعر قال فيها: قل للخليفة ذي الصنيعة ... الأبيات [43].

من رسائل الفضل بن يحيى:

وكان للفضل بن يحيى رسائل بليغة، لكن مِمَّا يؤسف له أن ما وصلنا منها كان قليلاً. فمن رسائله:

عندما أمرَ الرشيدُ بنقلِ الخاتم إلى أخيه جعفر ردَّ على ذلك برسالةٍ موجزةٍ قال فيها [44]: "قد سمعت لما أمر به أمير المؤمنين في أخي، وما انتقلت عني نعمة صارت إليه، ولا غرُبت عني رتبةٌ طلعت عليه".

---

[41] راجع في ذلك: غرر الخصائص الواضحة للوطواط: ص ٣٣٤-٣٣٥ والعقد الفريد ٥/ ٦٨-٦٩

[42] الفوت: موت الفوات: الفجأة.

[43] راجع الأبيات في فصل: شعر البرامكة

[44] ابن الطقطقي: الفخري: ص١٦٦ والحصري: زهر الآداب: ١/ ٣٦٤-٣٦٥ والبيهقي: المحاسن والمساوئ: ٢/ ١٨٩ وابن عبد ربه: العقد الفريد: ٢/ ٢٧٢ وتحفة الثعالبي: ١١٩ وياقوت: محاضرات الأدباء: ١/ ١٧٨

فأُعجِبَ جعفر بردِّهِ وقال [٤٥]: للهِ درُّ أخي، ما أكْيَسَ نفسه، وأظهَرَ دلائلَ الفضل عليه، وأقوى منه العقل عنده، وأوسع في البلاغة ذرعه، وأرحب بها جنابه، يوجب على نفسه ما يجب له، ويحمل بكرمه فوق طاقته".

وكان الفضل من الكرم بحيث إذا ذكر الكرم ذكر اسمه، وإذا ذكر اسمه ذكر الكرم. فمن رسائله التي تدلُّ على ما كان يتحلَّى به من جود هذه الرسالة التي كتبها إلى خلف المصري يشكره فيها على مكرمة دلَّه عليها، وكان خلف قد مرَّ بباب يحيى بن معاذ، فوجده موصداً بعد أن اختفى من دائنيه في دين لحقه مقداره: ثلاثمائة ألف درهم، فأخبر خلف الفضل، فلاذَ الفضلُ بالصمت، فلمَّا ولَّى خلف راجعاً إلى بيته، بعث الفضل إليه برسالةٍ قال فيها [٤٦]:

"إنَّكَ دلَّلتنا على مكرمةٍ، فشكرناك على ذلك، وأمَرْنا لك بمائة ألف درهم، لدلالتك، وبعثنا إليك بثلاثمائة ألف درهم لتوصلها ليحيى بن معاذ".

وكتب يوسف بن القاسم عن الفضل بن يحيى في حاجة لرجل [٤٧] فلان قد استغنى باصطناعك إياه عن تحريكي لك بأمره؛ لأنَّ الصنيعة حرمة المصطنع، ووسيلة إلى مصطنعة سيَّما عند من يُحسِنُ الصنيعة، ويستتمها مستثبّتاً للشكر عليها، والثناء الجميل بها. بسط الله بالخير يديك، ووصل بها أسبابك، وأعانَكَ عليه، وجعلك من أهله".

والوطواط: غرر الخصائص الواضحة: ص١٢٢ وربيع الأبرار ١/ ٥٧٨ والكناية والتعريض:ص٥٢ وأحمد زكي: جمهرة رسائل العرب: ٣/ ١٨٠ عن الأوراق للصولي ١/ ١٥٨

[٤٥] ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٤٠٩ وجمهرة رسائل العرب ٣/ ١٨ والفخري ص١٦٦ وزهر الآداب ١/ ٣٦٤-٣٦٥ والمحاسن والمساوئ ٢/ ١٨٩ والعِقد الفريد ٢/ ٢٧٢ ومحاضرات الأدباء ١/ ١٧٨.

[٤٦] البيهقي: المحاسن والمساوئ: ١/ ٣٢٨.

[٤٧] جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي ٣/ ١٧٩ والصولي: أخبار الشعراء المحدثين: ص١٥٨.

من رسائل جعفر بن يحيى:

كما كان لجعفر رسائله التي تدُلُّ على نبوغه وبلاغته فمن تلك: كتب إلى عمرو بن مسعدة رسالةً موجِزَةً أشبَهَ ما تكون بالتوقيع وقد وصفها القالي صاحب كتاب الأمالي: فيما يحمد من الإيجاز، وما يحتاج إليه من الإكثار [٤٨] قال فيها: "إذا كان الإكثارُ أبلغ كان الإيجاز تقصيراً، وإذا كان الإيجازُ كافياً، كان الإكثارُ هذراً" [٤٩].

وبعث برسالةٍ إلى أبيه حين أنفد إليه برْذَوناً أكثر فيها من السجع قال فيها [٥٠]: قد بعثت إليك ببرذون ليِّن المرفوع، وطئ الموضوع، حسن المجموع، طويل العذار أمين العثار".

وكتب إلى أحدِ عُمَّالِه يخبره فيها بأنَّهُ غفر له ما اقترف، وصدَّقَهُ فيما قال [٥١]: "عندنا الاغتفار لما اقترفت، وتصديق كُلِّ ما قلت، واحتججت بذكره، واعتذرت بوصفه، والإسقاط لما جحدته، والإكذاب للجور الذي اقترفته، والرجوع عمَّا أنكرته والزيادة فيما اخترته، استدعاء لك، وإن انصرفت، وحياطة لما قدَّمت، وإن ذممت وإيثاراً للإغضاء، والاحتمال، فإنَّهما أبلغ في الإصلاح، وأنجَحُ في الاستنجاح، وأسرع في التعليم، وأكبرُ في التقويم، إن احتيجَ إليه في مثلك، فمن تؤمن عليه قريحته، وتردُّه إلى الاستقامة تجربته".

وكتب إلى أبيه [٥٢]: "إنَّما حمَّلت فلاناً حاجتي؛ لأنَّهُ ضعُفَ عن حمل أياديك شكري فجعلته شاهداً على فضلك عندي، وقيِّماً بشكري لك وحدي".

وكتب [٥٣] "فإنَّ العذر إذا جاء واضحاً لم يكُن لسوء الظن مجاز، ولا لمن أرادَ التجنِّي مخلص، وما أريدُ أن ازدادَ بِكَ علماً إلى علمي".

---

[٤٨] القالي: الأمالي ١/ ٢٢٢

[٤٩] ابن قدامة: نقد النثر: ٩٦-٩٧. وابن رشيق: العمدة:ص ٢٤٢ وابن قتيبة: عيون الأخبار: ٢/ ١٧٤ والأمالي ١/ ٢٢٢ هذر يهذر. هذراً: هَذَى، وكثر في الخطأ والباطل

[٥٠] الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة لحمزة بن الحسن الأصبهاني ت٣٥١هـ تحقيق عبد الحميد قطاش طبع دار المعارف مصر وأبو هلال العسكري: ديوان المعاني ٢/ ١١٨.

المرفوع: دون العدو وفوق الموضوع.الموضوع: سير دون المرفوع.العذاران من الفرس كالعارضين في وجه الإنسان وسمي السير الذي يكون عليهما من اللجام عذار باسم موضعه

[٥١] الصداقة والصديق ص٤٢٦-٤٢٧. وأحمد زكي: جمهرة رسائل العرب ٣/ ١٩٠ عن المنظوم والمنثور ١٣/ ١٨٦.

[٥٢] أحمد زكي: جمهرة رسائل العرب ٣/ ١٧٣-١٧٤.عن المنظوم والمنثور: ١٣/ ٣٨٤.

[٥٣] أحمد زكي: جمهرة رسائل العرب: ٣/ ١٩٠ عن المنظوم والمنثور: ١٣/ ٣٨٦.

وكتب إلى رجلٍ لم يُكاتِبه[٥٤]: "لست بما صرفت إليَّ من معروفك، بأسرَّ مني بما أهديتَ إليَّ من قضاءِ الحقِّ منك، وقلة ذوي الحُرمَةِ بك، لأنَّكَ قد تصل من لا يثق، ولا يأنسُ إلاَّ بما يُعتَمَدُ عليه".

من رسائل محمد بن يحيى بن خالد :

وذكر الحصري صاحب زهر الآداب [٥٥] إنَّ محمّداً بن علي كتب الى محمد بن يحيى بن خالد وكان واليا على أرمينية من قبل الرشيد: ان قوما صاروا الى سبيل النصح فذكروا ضياعا بأرمينية قد عفت ودرست ويرجع الى السلطان مال عظيم واني وقفت عن المطالبة حتى اعرف رأيك.

فكتب اليه: قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها وسوق السعاية بحمد الله في ايامنا كاسدة والسنة السعاة في ايامنا كليلة خاسئة فاذا قرأت كتابي هذا فاحمل الناس على قانونك وخذهم بما في ديوانك فانا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ولا لاحياء الاعلام الدائرة وجنبني وتجنب بيت جرير يخاطب الفرزدق:

وكنت اذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا

وأجر أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لا علينا واعلم أنها لذة تنتهي وايام تنقضي فاما ذكر جميل واما خزي طويل.

٣- شذور من حكم واقوال البرامكة

من خلال ما قمت به من بحث وتنقيب في امهات المصادر عن ادب البرامكة واخبارهم وجدت لهم في كثير من الاحيان أقوالا مأثورة وحكما بليغة وكلمات رائعة تفيض حسنا وجمالا وفصاحة واسلوبا تتجلى فيه البراعة الادبية والكمال العقلي وهذه الاقوال تنبئ عن تجاربهم في الحياة وعما تحلوا من اخلاق عالية وبهذا بلغوا في هذا الميدان منزلة رفيعة فاقوا فيها كثيرا من ادباء عصرهم لانها صيغت في قالب جميل ومعان حلوة كما اشتملت على الوان من البديع

---

[٥٤] أحمد زكي: جمهرة رسائل العرب: ٣/ ١٧٤. عن المنظوم والمنثور: ١٢/ ٢٦٧.

[٥٥] الحصري:زهر الاداب:٢/ ٣٢١-٣٢٢ عفت ودرست كلاهما بمعنى واحد وهو: ذهبت معالمها وهما من المترادفات.

فكان لها من الايقاع الموسيقي العذب وان لم يظهر ذلك في جميع اقوالهم رغم شغفهم بـذلك. وقد شهد لهم الاعداء قبل الاصدقاء بكمالهم العقلي فمن الذين شهدوا ليحيى بذلك الرشيد فقد قال حين جاءه نبأ وفاته [(١)]:

" اليوم مات اعقل الناس واكملهم" فمن كماله العقلي: انه كان اذارأى من الرشيد ما ينكره لم يواجهه بالانكار حتى لا يغضبه وانما يضرب له الامثال ويحكي له الحكايات والاخبار عـن الملوك والخلفاء مما يحسن له مفارقة ما ينكره لانه يرى في النهي اغراء [(٢)] .

فمن الذين اشتهروا بحكمهم المأثورة من البرامكة: خالد بن برمك وولده يحيى وحفيداه: الفضل وجعفر. والحكمة ضالة المؤمن" ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلاّ أولى الألباب"[البقرة ١٧٩]. وكما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابوهريرة رضي الله عنه [(٣)] "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو احق بها" وقال الحكم بن أبان [(٤)]: " خير ما اوتي العبد في الدنيا الحكمة". ولكي نتعرف على مكانتهم في الحكم والامثال لا بد ان نعرض بعضا منها فمن تلك الحكم:

من أقوال وحكم خالد بن برمك :

لما أراد أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي بناءَ مدينةِ السلام (بغداد) استشارَ أصحابَهُ في ذلك فكان منهم: خالد بن برمك، فأشارَ عليه ببنائها وخطَّطَ لها، فاحتاجَ المنصورُ إلى بعضِ الحجارة لاستخدامها في البناء فقال لخالد: ما ترى في نقض بناء إيوان كسرى بالمدائن، وحمل أنقاضه إلى مدينتي هذه؟ فقال خالد: لا أرى ذلك يا أميرَ المؤمنين! فقال المنصور: ولِمَ؟ قال: لأنَّه علم من أعلام الإسلام يستدل به الناظر إليه على أنَّهُ لم يكن ليزال مثل أصحابه عنه بأمر دنيا، وإنَّما هو أمر دين، ومع هذا يا أميرَ المؤمنين، فإنَّ فيه مُصلَّى علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، قال: هَيْهَاتَ يا خالد: أبيت إلاَّ الميل إلى أصحابك العجم: وأمَرَ المنصورَ أن ينقض القصرَ الأبيضَ، فنقضت ناحيةٌ منه، وحمل نقضه إلى مدينة السلام، فنظر في مقدار ما يلزمهم في نقضه وحمله من مال فوجَدَ تكاليفَ نقضه يفوق تكاليف البناء بالحجارة الجديدة فدعا المنصور خالداً، وأعلمه

---

(١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٠٣

(٢) الجشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٠٢.

(٣) وفي المثل السائر لابن الاثير:١/ ٥٣ الحكمة ضالة المؤمن فهو احق بها اذا وجدها..

(٤) اسامة بن منقذ:لباب الاداب ص ٤٢٢.

بما يلزمهم في نقضه وحمله من مال وجهد، فقال: ما ترى؟ قال: يا أميرَ المؤمنين: قد كنت أرى قبل ألاَّ تفعل، فأمَّا إذا فعلتَ فإنّي أرى أن تهدمه الآن حتى تلحق بقواعده؛ لئلا يُقال: إنَّكَ قد عجزت عن هدمه فأعرض المنصور عن قوله، وأمر ألاَّ يهدم[٥].

ويرى أنَّ من يستطيع أن يمنع نفسه من خصالٍ أربع فهو جديرٌ أن لا يقع في مكروه: العجلة التي ذمَّها الله تعالى "وكان الإنسانُ عجولا" واللجاجة والعجب والتواني فقال في ذلك[٦]: "من استطاعَ أن يمنعَ نفسَهُ من أربعِ أشياءٍ، فهو خليقٌ أن لا ينزلَ به كبيرُ مكروه، العجلة واللجاجة، والعُجبُ، والتواني فثمرةُ العجلةِ الندامة وثمرةُ اللُّجاجَةِ الحيرة، وثمرة العُجب البغضة، وثمرة التواني الذل".

من أقوال وحكم يحيى بن خالد :

قال في القلم[٧]: "ما رأيتُ باكياً أحسن ضحكاً من القلم".

وفي الخط[٨]: "الخطُ صورةٌ روحها البيان، ويدُها السرعة، وقدَمُها التسوية، وجوارِحُها معرفة الفصول".وقال ايضا[٩]" "الخط سمة الحكمة به تفصل شذورها وينظم منثورها"

وفي السياسة والسلطان قال[١٠]: "مساءَلة الملوك عن حالِها من سجيَّة النوكى، فإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير؟ فقُل صبَّح الله الأمير بالنعمةِ والكرامةِ وإذا كان عليلاً، فأردْتَ أن تسألَهُ عن حالِه، فقُل: أنزَلَ اللهُ على الأميرِ الشفاءَ والرحمة، فإنَّ الملوكَ لا تسأل ولا تشمَّت، ولا تكيَّف، وأنشد:

إنَّ الملوكَ لا يخاطبونا ولا إذا ملّوا يُعاتِبونا
وفي المقالِ لا يُنازِعُونا وفي العطاس لا يشمّتونا
وفي الخطاب لا يكيِّفونا يثنى عليهم ويبجـــلونا
فافهم وصاتي لا تكن مجنونا

---

[٥] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٤/ ٤٧٨.

[٦] البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص٢١٧.

[٧] الثعالبي: خاص الخاص: ٧ وورد ما يشبه هذا القول لجعفر مع اختلاف في بعض الألفاظ: نهاية الإرَب ٧/ ٢٠ والتمثيل والمحاضرة: ص١٥٥.

[٨] الصولي: أدب الكُتَّاب: ص٤١ وياقوت الحموي: معجم الأدباء: ٢٠/ ٧.

[٩] تاريخ الامم والملوك ٧/ ٧٣..

[١٠] ابن عبد ربه: العِقد الفريد: ٢/ ١٢٤ و٤٦٠. وابن قتيبه: عيون الأخبار: ١/ ٢٠٢.

ويرى أن أعظم خصلة يجب أن يتحلّى بها الوُلاة: السياسة الصائبة، ولا تكون إلا بالعمل على طاعة الله، وأن تكون سياسته مع الرعية على ضربين: الأول: رأفة ورحمة، وبذل وتحنُّن، والأخرى غِلظَة ومُبَاعَدة، وإمساكٌ ومنع [١١].

ومن السبعة التي لا أمانَ لها: الحاكِمُ ولو قرُبَ منك؛ لهذا يقول [١٢]: لا أرحام بين الملوك، وبين أحد".

وأوصى بمداراتهم [١٣]: "إذا صحبت السلطان فدارهِ مداراة المرأة لصحبة الزوج الأحمق". ويقول [١٤]: "من صحِبَ الملوكَ يحتاج، إلى عقلٍ يهديه، وعلمٍ يُزَيِّنه، وحلمٍ يُحسِّنه، ودينٍ يسلِّمه، وخيرٍ لمن استغنى عن السلطان إلاَّ يفتقر إليه، فإنَّ ذلك ألذ له في دنياه، وأسلم له في آخرته".

ويتساءَلُ: كيف يحسن السلطان وهناكَ من المنافقين من يُزَكِّيه؟[١٥]: "العجب للسلطان كيف يحسن؟ ولو أساءَ كُلَّ الإساءة لوجد من يزُكِّيه، ويشهد بأنه محسن".

وفي التواضع قال:

"من ولِّى ولايةً فتاهَ فيها، فقدره دونها [١٦]".

"لست ترى أحداً تكبَّر في إمارةٍ إلاَّ وقد دلَّ على أنَّ الذي نالَ فوق قدره، ولست ترى أحداً تواضع في إمارةٍ إلاَّ، وهو في نفسه أكبرُ مِمَّا نالَ في سلطانه" [١٧].وقال [١٨]: "الشريف اذا تنسك تواضع والسفيه اذا تنسك تعاظم"

ولمن قال له [١٩]: والله لأنتَ أحلَمُ من الأحنف، وأحكَمُ من معاوية، وأحزَمُ من عبد الملك، وأعدَلُ من عمر بن عبد العزيز، فقال له يحيى: والله لعمير غلام الأحنف أحلمُ مِنِّي، ولسرجون

---

[١١] ياقوت: معجم الأدباء: ٢٠/ ٧.

[١٢] الجهشياري: الوزراء والكتَّاب: ٢٠١.

[١٣] الأبشيهي: المستطرف: ١/ ٨٩.

[١٤] العسكري: المصون في الأدب، ص١١٧

[١٥] الوزراء والكُتَّاب للجهشياري:ص ١٧٩ وقارن المصون في الأدب للعسكري: ص١١٦.

[١٦] الحموي:معجم الادباء:٦/ ٢٠ وابو احمد العسكري: المصون في الادب ص ١١٥ وذكر انه اخذه من قول أكثم بن صيفي وفي وفيات الاعيان ٦/ ٢٢٦ قال الحسن بن سهل: من غيرته الولاية لاخوانه علمنا أن الولاية اكبر منه أخذنا ذلك عن صاحب ديوان المكارم أبي علي يحيى والذهب المسبوك:١٦١ مع اختلاف يسير في بعض الالفاظ.

[١٧] ابن قتيبة: عيون الأخبار ٢/ ٢٦٨ والوزراء والكُتَّاب: ٢٠١.

[١٨] الغزالي: احياء علوم الدين ٣/ ٤٩٨، وفي خبر آخر الشريف إذا نقر تواضع ، والوضيع إذا نُقر تكبر ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ١/ ٦٤ قر إذا نودي باسمه .

غلام معاوية أحكم، ولأبو الزَّعزعة صاحب شرط عبد الملك أحزم، ولمزاحم قهرمان عمر أعدل مني، وما تقرَّبَ إليَّ من أعطاني فوق حقي".

فقال شبيبُ بن شيبة، راوي الخبر: فعجبتُ من سُرعة جوابه، وتعديده لمن لا يعرفه، حتى كأنَّهُ أعدَّ الجواب". لهذا كان رغم ما وصل إليه من مجدٍ متواضعاً يكره التكبُّرَ والمُتكبِّرين ولو كانوا أقرَبَ الناسِ إليه، فحين دخل ابنه الفضل مجلسه متبختراً، وكان بحضرته أبو عبد الله الواقدي، وأبو يوسف القاضي، فقال للواقدي: " ... إنَّ البخل، والجهل مع التواضع أزينُ بالرجل من الكبر مع السخاء والعلم فيا لها حسنة غطت على عيبين، ويا لها سيئة غطَّت على حسنتين كبيرتين ... ثم أردف قائلاً لأبي عبد الله: احفظه يا أبا عبد الله، فإنَّه أدبٌ كبير أخذناه عن العلماء. فالتفت أبو يوسف إلى الواقدي وقال: هكذا ينبغي أن يكون الوزراء!(٢٠).

وقال(٢١) أيضاً:

"من حقوق المروءة، وإمارة النبل أن تتواضع لمن دونك وتنصف من هو مثلك، وتستوفي على من هو فوقك، ولله درُّ النابغة حيث يقول:

ومن عصاكَ فعاقبه معاقبةً ... تنهي الظلوم ولا تقعد على ضمد

إلا لمثلك أو من أنت سابقــه ... سبق الجوادُ إذا اســتولى على الأحد

---

(١٩) المصون في الأدب: ص١١٣-١١٤ ووفيات الأعيان ٦/ ٢٢٧ وذكر الرواية مختصرة.

(٢٠) الجهشياري: الوزراء والكُتَّاب: ١٩٨ والزجاجي: مجالس العلماء: ص٢١٠ والعويري: نهاية الإرب: ٣/ ٣٧١-٣٧٢ والدميري:

حياة الحيوان الكبرى ٢/ ٦٢ وغرر الخصائص الواضحة: ص ٥٤

(٢١) المصون في الأدب: لأبي أحمد العسكري: ص١١٧.

وقال[٢٢]:

"الدنيا دول، والمال عاريَّه، ولنا بمن قبلنا أسوة، وفينا لمن بعدنا عبرة".

وقال أبو هلال العسكري: ومن النثر ليحيى[٢٣]:

"أعطانا الدهر فأسرف، ثم عطف علينا فعسف".

وقال[٢٤]:

"التعزية بعد ثلاثة أيام تجدِّد الحزن، والتهنئة بعد سنة تُجدِّدُ الفرح".

وزيد في رواية[٢٥]:

"فيا لنعيم ساعدتنا صدوره، وخاست بنا أكفاله، والروادف استبدل من الطيب خبيثاً، واستعاض من التذكير تأنيثاً. تكدر من مناهله ما صفا، وتقلص من حواشيه ما ضفا أزل ملك سليمان، فعاوده، والشمس تنحطُ في المجرى، وترتفع".

وقال:

"دخلنا في الدنيا دخولاً أخرجنا منها"[٢٦].

وقال للحسن بن عيسى بعد نكبتهم[٢٧]: اسمع مني، وافهم عني، إنَّ هذا الأمرَ لو بَقِيَ فيمن كان قبلنا لم يصل إلينا، ولو بقي فينا لم يصل إلى من بعدنا، ولا بُدَّ للأعمالِ من تصرف، وللأمور من تنقل، وقد كنا قبل اليومِ دواء، فأصبحنا داء".

وفي آداب المحادثة قال في وصيةٍ لولده[٢٨]: يا بُنيَّ إذا حدَّثكَ جليسُكَ حديثاً، فأقبل عليه، واصغِ إليه، ولا تقل قد سمعته، وإن كنت أحفظ له، وكأنك لم تسمعه إلاَّ منه، فإنَّ ذلك يكسبك المحبة والميل إليك".

---

[٢٢] الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٦/ ١٨٦ والوزراء والكُتّاب: ٢٠٣ ووفيات الأعيان ٦/ ٢٢١. وتاريخ بغداد: ١٤/ ١٢٩ والكامل لابن الأثير ٥/ ١١٦ ومعجم الأدباء: ٢٠/ ٩ وأبو الفداء: المختصر في أخبار البشر: ٢/ ١٧ والبصائر والذخائر: ١/ ١٨٧

[٢٣] الصناعتين: ص٧٢

[٢٤] الإبشيهي: المستطرف: ٢/ ٧٩٨ ط دار الجيل

[٢٥] ربيع الأبرار: الزمخشري: ١/ ٥٧٣. ضفا: سبَغَ وطالَ.

[٢٦] ابن قتيبة: عيون الأخبار: ٢/ ٣٢٩.

[٢٧] الجهشياري: الوزراء والكُتّاب: ص٢٥٨.

[٢٨] أبو عمر القرطبي: بهجة المجالس وأنس المحاسن ١/ ٤٣ بيروت.

وأوصى ابنه جعفراً فقال [٢٩]:

"لا تردَّ على أحدٍ جواباً حتى تفهم كلامه، فإنَّ ذلك يصرفك عن جواب كلامه إلى غيره، ويؤكد الجهل عليك، ولكن افهم عنه، فإذا فهمته فأجبه، ولا تعجل بالجواب قبل الاستفهام ولا تستَحِ أن تستفهم إذا لم تفهم، فإنَّ الجواب قبل الفهم حمق، وإذا جهلت فاسأل، فيبدو لك، واستفهامُكَ أجملُ بك، وخيرٌ من السكوت على العيِّ ...".

ويقول [٣٠]: ثلاثة أشياءٍ تدلُّ على عقول أربابها: الكتاب يدلُّ على مقدار عقل كاتبه، والرسول على مقدار عقل مرسله، والهدية على مقدار عقل مهديها" وقال: "ما خاطبني أحدٌ إلا هبته فإذا تكلم بين اثنتين إما أن تزيد هيبته، أو تضمحل".

وفي الحب والكره قال [٣١]:

"إذا أحببت بغير سبب، فارجُ خيرَه، وإذا أبغضتَ إنساناً بغير سبب فتوقَّ شره".

وقال [٣٢]:

"إذا كرهتم الرجلَ من غير سوءٍ أتاه إليكم، فاحذروه، وإذا أحببتم الرجلَ من غيرِ خيرٍ سبق منه إليكم، فارجوه".

وفي الصداقة والصديق قال [٣٣]:

"عندما احتاج يحيى إلى شيء فقيل له: لو كتبت إلى صديقك فلان، فقال: دعوه يكن صديقاً".

وقال [٣٤]:

"الصديق إمَّا أن ينفع، وإمَّا أن يشفع".

وقال [٣٥]:

"صاحب الرجل عامله على عِرضه".

---

[٢٩] مجلة الأمة: العدد ٤٣ السنة الرابعة رجب ١٤٠٤هـ موضوع حديقة الأمة. عن جامع بيان العلم وفضله.

[٣٠] البيان والتبيين: ٢/ ١٠١ بيروت: دار الفكر. وتاريخ بغداد: ٤/١٢٩. والفخري: ١٦٢.

[٣١] العاملي: المخلاة ص ١٥٦ واسرار البلاغة على ذيل المخلاة: ص٦.

[٣٢] الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء ٢/ ٥٤٣ و ٣/ ٣١.

[٣٣] الجهشياري:الوزراء والكتاب ص ٢٤٨.

[٣٤] تحفة الوزراء: ١٨ الثعالبي: خاص الخاص: ص٧.

[٣٥] الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك: ص١٦١.

وحدَّث محمد بن صالح الواقدي فقال [٣٦]: دخلتُ على يحيى ... فقلتُ إنَّ ههنا قوماً جاءوا يشكرون لكَ معروفاً فاقل: يا محمد هؤلاء جاءوا يشكرون معروفاً، فكيف لنا شكر شكرهم".

وقال [٣٧]: " الشكر كَفُّ النعمة".

وقال [٣٨]: "مثل الذي يعلم الناس الخير، ولا يعمل به كمثل أعمى بيده السراج يستضيء به غيره، وهو لا يراه".

وفي الحسد قال [٣٩]:

الحسود عدو مهين لا يُدرك وتره، ولا ينال ثأره إلاَّ بالمنى".

وفي الاحسان قال [٤٠]: " من لم احسن اليه فانا مخير فيه ومن احسنت اليه فانا مرتهن به"

وقيل لبعضهم قال يحيى بن خالد: الشرف في السرف فقال:قول الله احق ان يتبع" ان المسرفين هم اصحاب النار"[غافر ٤٣] [٤١].

وذكر صاحب الاقتباس من القران الكريم ١/ ١٦٩ أن علي بن يقطين رأى الحسين بن راشد واقفا بباب يحيى بن خالد حين مضى في حاجة له ورجع فراه فقال له: أنت واقف بباب هذا بعد فقال نعم وما وقف موسى بباب فرعون اكثر فبلغ ما جرى يحيى بن خالد ودخل اليه ابن راشد فقضى حاجته ثم قال يحيى بن خالد:" الحمد لله الذي لم يجعل معك عصا ولا جعلني ادعي ما ادعى فرعون فاستحيا ابن راشد ورجع".

وقال [٤٢] "ما وقع غبار موكبي على لحية رجلٍ قطّ إلاَّ أوجبْتُ على نفسي حفظه، وألزَمْتُها حقّه".

وقال [٤٣]: "انفق من الدنيا وهي مقبلة، فإنَّ الإنفاقَ لا ينقص منها شيئاً، وأنفق منها وهي مدبرة؛ فإنَّ الإمساكَ لا يُبقي منها شيئاً".

---

[٣٦] معجم الأدباء: ٥/ ٢٠.

[٣٧] الصناعتين: ص٢٨٦.

[٣٨] العاملي: المخلاة: ص١٥٦.

[٣٩] عيون الأخبار لابن قتيبة: ٢/ ١٠ وذيل الاماني والنوادر ص ٢١٢.

[٤٠] تاريخ بغداد ١٤/ ١٢٩ دار الفكر.

[٤١] الاقتباس من القران الكريم ١/ ٢٤٦.

[٤٢] الجهشياري:الوزراء والكتاب ٢/ ٧. والحموي:شهاب: معجم الادباء:٢٠/ ٧ والبصائر والذخائر:٢/ ٣٥٨.

وفي المعروف: أوصى ولده جعفراً فقال [٤٤]: "يا بني ما دام قلمك يرعد فأمطره معروفاً".

وقال [٤٥]: "إذا أردت أن تنظر إلى مروءة المرء، فانظر إلى مائدته، فإن كانت حسنةً، فاحكم له بالشَّرف، وإن رأيتَ تقصيراً فما وراءَها خير".

وقال [٤٦]:

"إذا فتحت بينك وبين أحدٍ باباً من المعروف، فاحذر أن تغلقه، ولو بالكلمة الطيبة".

وقال [٤٧]:

" رأينا شارب خمر نزع، ولصاً أقلع، وصاحب فواحش رجع، ولم نركّذ أباً صار صادقاً".

وقال [٤٨]:

"الزاهد هو الذي بلغ من حرصه في تركها حرص الحريص في طلبها".

وكان يحيى يحرص على أن لا يقضي حاجةً إلا بوعدٍ مع قدرته على الوفاء ولما سئل عن ذلك قال [٤٩]: هذا قول من لا يعرف موضع الصنائع من القلوب، إنَّ الحاجةَ إذا لم يتقدَّمها موعد ينتظر به نُجحُها لم تتجاذب الأنفس سرورها، ولم تتلذَّذ بتناولها، وإنَّ الوعد تطعّم، والإنجاز طعام، وليسَ من فاجأهُ طعامٌ كمن وجد رائحته، وتمطَّقَ به، وتطعَّمَهُ ثم طعمه، فدَعِ الحاجةَ تختم بالوعد، ليكون بها عند المصطنع حسن موقع، ولطف عمل، وحلاوةُ ذوق".

وقال [٥٠]:

"من لم يَبتْ مسروراً بوعدٍ لم يجدْ للصنيعة مطعماً".

وقال [٥١]:

---

[٤٣] البغدادي: تاريخ بغداد: ١٤/ ١٣١. وابن خلكان: وفيات الأعيان: ٦/ ٢٢٦. والإبشيهي: المستطرف: ١/ ٢٦٧ مع اختلاف في بعض الألفاظ وزاد فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ويقول: لله درّه ما أطبعه على الكرم من ذلك وأعلمه بالدنيا، ط الجيل، بيروت.

[٤٤] الإبشيهي: المستطرف: ١/ ١٦٣.

[٤٥] الحموي: شهاب: معجم الأدباء: ٦/ ٢٠

[٤٦] نفس المرجع: ٦/ ٢٠.

[٤٧] الإبشيهي: المستطرف: ٢/ ٩ وراجع محاضرات الأدباء: ١/ ١٢٢ ونهاية الإرب: ٣/ ٣٦٠ والبصائر والذخائر: ٢/ ٣٥٨.

[٤٨]) محاضرات الأدباء: ٢/ ٥١١.

[٤٩] المرجع السابق: ٢/ ٥١١ وزهر الآداب: ٢/ ٣٣٩.

[٥٠] شرح مقامات الحريري ١/ ١٤٦.

"المواعيد شباك الكرام يصيدون بها محامد الأحرار".

وقال[٥٢]:

"ومن تتبع عيوب الناس سقطت مروءته".

وقال الصولي[٥٣]: وصف يحيى بن خالد رجلاً فقال: أخذ بزمام الكلام، فقاده أسهل مقاد وساقه أجمل مساق، فاسترجع من القلوب النافرة، واستصرف به الأبصار الطامحة".

ومن وصايا يحيى: عندما ولى رجلا بعض اعمال الخراج بالسواد فدخل الى الرشيد يودعه وعنده يحيى وجعفر فقال الرشيد ليحيى و جعفر: أوصياه فقال له يحيى: وفر وأعمر وقال له جعفر: أنصف وانتصف فقال الرشيد: اعدل واحسن[٥٤]. وهناكَ مجموعةٌ من أقواله التي تأثَّرَ في معناها بالقرآن الكريم والسنة النبوية المُطهَّرة تركتها للعلم بها. فمن أرادها فعليه أن يراجع كتاب: المخلاة للعاملي.

من أقوال وحكم الفضل بن يحيى:

كما كان للفضل بن يحيى مجموعة من الحكم المأثورة، والأقوال البليغة، واللطائف البديعة، غيرَ أنّه لم يبلغ بها مبلغ أبيه، وأخيه جعفر فمن تلك:

كان الفضل يكره النميمة، فإذا جاءه من يسعى بغيره قال له[٥٥]: "إن حدَّثتنا أبغضناك، وإن كذَّبتنا عاقبناك، وإن استقلتنا أقلناك".

وحينَ مدَحَ أبوه بالجود قال[٥٦]: " وما قدر الدنيا حتى يمدح من يجودُ بكلها فضلاً عن مدح بعضها".

وهو يرى أن تصيرَ على أخٍ لك فيما ارتكبه خيرٌ لك من أن تستبدله بآخر فقال[٥٧]: "الصبرُ على أخٍ تعتبُ عليه خيرٌ من آخَرَ تستأنف مودته".

---

[٥١] العسكري أبو هلال: ديوان المعاني: ٢/ ٢٠٥. والوزراء والكُتّاب: ١١٩. والثعالبي: خاص الخاص: ٧. والعسكري أبو أحمد: المصون في الأدب: ١١٦. والتوحيدي: البصائر والذخائر: ٢/ ٦٩٧: والفخري: ص١٦٢.

[٥٢] التوحيدي: البصائر والذخائر: ٣-١/ ٥٥.

[٥٣] الحصري: زهر الآداب: ١/ ١٢٧.

[٥٤] تاريخ الامم والملوك ٩/ ٢٠٣ ط دار الفكر.

[٥٥] النويري: نهاية الإرب: ٣/ ٢٩٠.

[٥٦] الثعالبي: تحفة الوزراء:ص ١١٩ و١٤٢.

[٥٧] التوحيدي: رسالة الصداقة والصديق ص ١٥ و ص ٣٠٦.

وكان من الكرم بحيث ضرب به المثل لذلك. قال [٥٨]: "ما سرور الموعود بالفائدة كسروري بالإنجاز".

وحين سأله الرشيد عن أطيبَ ما في هذه الدنيا قال [٥٩]: رفض الحشمة، وتركُ علم الطب، فلا عيشَ لمحتشم، ولا لذّةَ لمحتم".

وقسَّمَ الناسَ إلى أربع طبقات [٦٠]: "ملوك قدَّمهم الاستحقاق، ووزراء فضلهم الفطنة، والرأي وعلية أنهضهم اليسار، وأوساط ألحقهم بهم التأدُّب، والناس بعدهم زَبَدٌ جُفاء، وسيلٌ غُثاء لكع ولكاع، وربيطة اتضاع همّ أحدهم طعمه ونومه.

وقال [٦١]: "إنَّ صاحب الرجل عامله على عرضه، وإنَّه لا عوض لحُرٍّ من نفسه، ولا قيمةَ عنده لحريته، وقدره".

فأخذ ابن أبي كامل معناه، وصاغه في بيتين من الشعر:

واعلمن إن كنت تجهله	أنَّ عرض المرء حاجبه
فـــيه تبدو محاســـــنه	وبه تبـــدو معايــــــــــبه

وحينَ قِيلَ له إنَّ جعفراً لا يجلس إلاَّ في طرف إيوانه قال[٦٢]: "الأشرافُ في الأطراف يتناولون ما يريدون بالقدرة، وينالُهم من يريدهم بالحاجة".

وقال مُبَيِّناً قيمةَ الأدب [٦٣]: "عِزُّ الشريفِ أدَبُه".

ومن وصاياه: حين أوكل تعليم ولد أمير المؤمنين: محمد الأمين إلى الهيثم بن بشر الواسطي، أوصاه فقال [٦٤]: "وليكونَنَّ أكثر ما تأخذ به وليَّ العهد تعظيم الدماء فإنِّي أحبُّ أن يشرب الله قلبه الهيبة لها، والعفاف عن سفكها".

---

[٥٨] ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٤/ ٣٠.

[٥٩] الأصبهاني: محاضرات الأدباء:ص ٢/ ٤٢٨.

[٦٠] ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان. لكع: لئيم. ربيطة: ما ارتبط من الدواب.

[٦١] رسائل الجاحظ ٢/ ٤١ وورد ليحيى قول يشبه هذا في كتاب خلاصة الذهب المسبوك: للأربلي: ص١٦١.

[٦٢] لم يرد ما ينصُّ على أنَّ الفضل قائله وربما غلب الظنُّ أنَّه هو القائل. راجع تحفة الوزراء: ص١٤١.

[٦٣] البيهقي: المحاسن والمساوئ: ٢/ ٦-١٢.

[٦٤] البيهقي: المحاسن والمساوئ: ٢/ ٤٠٢.

من أقوال وحكم جعفر:

ورويت لجعفر حكم بليغة وأقوالٌ كثيرة بلغت من الجودة والحسن ما فاق بها أهل بيته باستثناء أبيه يحيى غير أنَّ ما روي منها أقل من توقيعاته.

من ذلك: استحسن خطاً رآه فقال [٦٥]:

"الخط سمط الحكمة، به تفصَّل شذورها، وينظم منثورها".

ووجد له أربعة أسطر مكتوبة بالذهب جاء فيها [٦٦]: "الرزق مقسوم، والحريص محروم، والبخيل مذموم، والحسود مغموم".

وحين اعتذر اليه رجل مرة قال له [٦٧]: "قداغناك الله بالعذر منا عن الاعتذار الينا واغنانا بالمودة لك عن سوء الظن بك.

وبلغ جعفر من الفطنة أنَّهُ حينَ رأى الرشيدَ ينظُرُ إلى عُنُقِهِ قال: إنَّهُ يريد معرفة موقع السيف منه وقال لبعض ندمائه [٦٨]: "إنَّا نستبين ما في باطن القلوب بظواهِرِها، ونعرف محتوى العيونِ بلواحِظِها".

وكان جعفر كريماً ولكنَّهُ دون كرم أخيه الفضل، فحين قيل له [٦٩]: لا خيرَ في السرف قال: لا سرف في الخير.

وقال في المال [٧٠]:

"شرُّ المال ما لزمك إثم مكسبه، وحرمت الأجر من إنفاقه".

ولَّما قال له أشجع: دائم القليل خير من منقطع الكثير. أجابه: ونزر الوزير خير من جزيل غيره [٧١].

---

(٦٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ٦/ ١٨٦. والوزراء والكتاب: ٢٠٥. والبصائر والذخائر: للتوحيدي: ٢/ ٤٤٠. السمط: خيط النظم. الشذور: قطع من الذهب، وصفاء اللؤلؤ. وعقد مفصل جعل بين كل لؤلؤة فيه خَرَزة.

(٦٦) البصائر والذخائر ٤/ ١٨٧. وأوردَ كتاب التمثيل والمحاضرة: ص١٤٦. قولاً مثل هذا نسبه للفضل بن يحيى وقدم بعض الجمل على بعض.

(٦٧) محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين ٣/ ١١٠.

(٦٨) التوحيدي: البصائر والذخائر: ٢-١/ ١٤٨.

(٦٩) الثعالبي: تحفة الوزراء:ص ١٤٢.

(٧٠) تحفة الوزراء للثعالبي:ص ١١٩. والأصبهاني: محاضرات الأدباء: ٢/ ٥١٣.

(٧١) معاهد التنصيص ٤/ ٦٧.

وقال جعفر لمن اعتذر إليه [٧٢]: "قد أغناك الله بالعذر منا عن الاعتذار إلينا، وأغنانا بالمودة لك عن سوء الظن بك".

وقال لصديقٍ له [٧٣]: "أنتَ من جوارحي يميني، ومن سوانحي يقيني".

وقال لبعض ندمائه [٧٤]: كم لك من صديق؟ فأجابه: صديقان. فقال جعفر: "إنَّك لمثر من الأصدقاء".

وكان جعفر إذا غضب الرشيد ذكَّره بما يزيل غضبه، ففي ذاتِ يومٍ غضب الرشيد على محمد بن الأشعث غضباً شديداً لكلامٍ جرى بينهما، فخشي جعفر أن يستفزَّ الغضبُ الرشيدَ، فيدفعه إلى ما لا يُحمد، فقال: يا أميرَ المؤمنين: إنَّما تغضب لله، فلا تغضب له بما لم يغضب به لنفسه" فأقلعَ الرشيدُ عن ذلك [٧٥].

وقال للرشيدِ حينَ غضِبَ على رجلٍ ذاتَ يوم [٧٦]: "غضبت لله، فأطِعِ الله في غضبك بالوقوف إلى حال التّبين كما غضبت له".

وحينَ رأى الرشيدُ مفكراً حزيناً، قال له [٧٧]: " ... إنَّما هذا الذي أنت فيه عارضٌ عرض لك، وقد كان ملك من الملوك – يقال له بهمان – وقد كان من أَجَلِّ ملوكِ العجم، وكان حكيماً – فكان يقول: الهم مفسدة للنفس ومضلة للفهم، ومشدهة للقلب، ومن أعظم الخطأ التشاغل بما لا يمكن دفعه، وقد قالت الحكماء: بالسرور يطيب العيش، ومع الهمّ تمنّى الموت.

وقال عن الخراج [٧٨]: الخراج عمود الملك، وما استغزر بمثل العدل، ولا استنزر بمثل الظلم" وزاد صاحب المستطرف [٧٩]: وأسرع الأمور في خراب البلاد تعطيل الأرضين، وهلاك الرعية، وانكسار الخراج من الجور، ومثل السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة

---

[٧٢] الإبشيهي: المستطرف ١/ ٨٩.

[٧٣] التوحيدي: الصداقة والصديق. ص ٣٧٣.

[٧٤] التوحيدي: نفس المرجع: ص٨٠.

[٧٥] التنوخي: الفرج بعد الشدة:ص ٨٨

[٧٦] الراغب الأصبهاني: محاضرات الأدباء ١/ ٢٣٦.

[٧٧] البيهقي: المحاسن والمساوئ ١/ ٣٧٨

[٧٨] ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/ ١٣. والراغب الأصبهاني: محاضرات الأدباء: ١/ ١٦٩. والنويري: نهاية الأرب: ٦/ ٣٥. والثعالبي: التمثيل والمحاضرة:ص ١٥٦. وابن الأزرق: بدائع الملك ص٢٨٢. والثعالبي: خاص الخاص: ص٩٠.

[٧٩] الإبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف: ص١/ ١٨٤.

الأرضين مثل من يقطع لحمه، ويأكله من الجوع فهو إن شبعَ من ناحية، فقد ضعُفَ من ناحيةٍ أخرى مهما أدخل على نفسه من الضعف، والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع، ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذي يطين سطحه بتراب أساس بيته، وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين، فيتركونها، فتخرب الأرض، ويهرب المزارعون فتضعف العمارة، ويضعف الخراج، وينتج من ذلك ضعف الأجناد وإذا ضعف الجند طمع الأعداء في السلطان".

وحين خرج عبد الملك بن صالح مشيعا لجعفر،فعرض عليه حاجاته فقال له: قصارى كل مشيع الرجوع واريد أعز الله الامير ان يكون لي كما قال بظحاء العذري [٨٠]

وكوني على الواشين لداء شغبه فاني على الواشي ألدَّ شغوب

فقال جعفر: بل أكون لك كما قال جميل:

واذا الواشي وشى يوما بها نفع الواشي ما جاء يضر

---

[٨٠] تاريخ بغداد ٧/ ١٥٣.

٤- ملامح النقد الأدبي عند البرامكة

لم يبرح النقد الأدبي في مستهل العصر العباسي، وما قبله بدائيا ينبثق من الفطرة، ويعتمد على ما يملكه الأديب من حس مرهف، وذوق رفيع، دون إمعان للفكر، أو شحذ للقريحة، ومن ثم ظلت أحكامه عامة، ونظرته سطحية، كالمفاضلة بين بيت وآخر، أو الحكم على البيت الواحد، كأن يقال: أحسن بيت قالته العرب، أو أمدح بيت قاله المحدثون أو أفضل بيت قيل في كذا وكذا، أو فلان أشعر من فلان[١].....الخ

وقد يفضلون شاعراً، لانه قال بيتا نال إعجابهم، ولما تطورت الحياة الفكرية في العصر العباسي الأول، تطور النقد الأدبي تبعا لذلك وفتحت له آفاق جديدة، فلم يبق على ما كان عليه في الماضي فبلغ من التقنين والإبداع ما جعل النقاد، وعلماء البلاغة، يتحدثون عن البيان والبديع وعلم المعاني، وجمال الأسلوب، وملاءمة الألفاظ للمعاني[٢]، وصحيح الشعر ومنحوله، لكنه ظل محافظا على طابعه القديم، ولم يتحول إلى نظرة نقدية خاصة وفق مناهج مدروسة[٣]، وهكذا لم يتحرر النقاد من نظريات من سبقهم.

البرامكة والنقد:

لقد شارك البرامكة: يحيى بن خالد وولده: الفضل وجعفر في النقد الأدبي، على الرغم من انشغالهم في إدارة شؤون البلاد، لكنهم لم يتحرروا من نظريات من سبقهم من النقاد والأدباء، وقد تجلت ملامح- النقد عندهم في مناظراتهم، ومجالسهم الأدبية، ومحاوراتهم للشعراء والأدباء، ولم يلبثوا طويلا حتى خطوا بالنقد خطوات واسعة إلى الأمام، فعرفوا البلاغة والبيان، وتحدثوا عن الإيجاز والإطناب، ومتى يحسن كل واحد منهما، وبلغت أحكامهم من الدقة ان اتخذها البلاغيون نبراساً لهم يستضيئون بها في وضع علم البلاغة العربية، فكانت من

---

[١] راجع في النقد الأدبي: ص٣٠ لشوقي ضيف.وأدباء العرب في الأعصر العباسية: ص١٨٨.وزهر الأداب ١/ ١٢، وذكر صاحب زهر الآداب ١/ ١٢: أن ابن الأعرابي قال : أمدح بيت قاله المحدثون ، قول أبي نواس :

أخذت بحبل من حبال محمد ... آمنت به من طارق الحدثان

أو اي بيت أهجى ، أو أغزل ، أو أحسن تشبيهاً .

[٢] في النقد الادبي: ص ٣١.

[٣] نفس المرجع: ص٣١

الأهمية ما جعلت أبا هلال العسكري يتناول بعضا منها في كتابه (كتاب الصناعتين) بالشرح والتحليل [٤].

غير أن ما أدلى به البرامكة أقرب ما يكون إلى البلاغة منه إلى النقد الأدبي الخالص، في بعض الاحيان، كما كانوا كثيرا ما يقارنون بين شاعر وشاعر مفضلين بعضهم على بعض دون محاباة لأحد، ولوكان المخالف أمير المؤمنين [٥]. وربما جانبهم الصواب، فلم يوفقوا فيما صدر من أحكام فلعل هذا يرجع إلى هوى حبا أو كرهاً [٦]، وكما نعلم: فإن لكل جواد كبوة، ولكل سيف نبوة، ولكل شاعر هفوة. ولم يكن جميع أفراد الأسرة البرمكية في مستوى واحد في نقدهم، فقد تفاوتوا في مهاراتهم ومقدرتهم في أصدار أحكامهم لتفاوت ملكاتهم النقدية وقدراتهم العقلية وتعدد ثقافاتهم، ومدى معرفتهم بالشعر ما حسن منه، وما قبح فأصدروا أحكامهم تبعا لذلك.

من ملامح النقد عندهم هذه الشذرات:

يحيى والنقد:

تمتع يحيى بن خالد بملكة نقدية، فكان له الكثير من الأحكام الصائبة فها هو يعرف البلاغة فيقول [٧]:

"أن تكلم كل قوم بما يفهمون" ويعني بذلك مخاطبة الناس على قدر عقولهم، فمخاطبة العلماء تختلف عن مخاطبة الجهلاء، وأوساط الناس، وربما وافق قوله هذا ما قاله الفيلسوف اليوناني أفلاطون حيث عرف البلاغة بقوله[٨]: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، غير أن ما قاله يحيى ربما كان أكثر وضوحاً، وقد فسر ابن قتيبة المعنى في مقدمة كتابه أدب الكاتب، فأشار إلى وجوب وضع الألفاظ على حسب المكتوب إليه، فلا ينبغي أن يخاطب الجاهل من الناس برفيع

---

[٤] كتاب الصناعتين: ص٣٨- ص٣٩.

[٥] ضيف في النقد الأدبي:ص ٣١.

[٦] الأغاني ٢١/١٦٧ - ١٦٨.

[٧] الوزراء والكتاب: ص٢٠١

[٨] ضيف: في النقد الأدبي: ص٣٠.

الكلام، ولا من علا قدره بركيك الكلام[9]، أو بمعنى آخر: أن لا تكلم العامة بكلام الخاصة، ولا الخاصة بكلام العامة.

فمخاطبة الناس على قدر عقولهم، وإفهامهم أمرٌ محمودٌ في الإسلام فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن معاشر الأنبياء أُمِرْنا أن نُنْزِلَ الناسَ منازلهم، ونُكَلِّمَهُمْ على قدر عقولهم" رواه: أبو داود.

وقال علي رضي الله عنه: "حدثوا الناس بما يعرفون" رواه البخاري ويرى يحيى بن خالد أن "الكلام ذو فنون، وخيره ما وفق له القائل، وانتفع به السامع"[10].

ولم يكن يحيى محبا لكل إيجاز، ولا كارها لكل إطناب، فالعبرة لديه، في مقدار الفائدة في كل منهما، لهذا أثنى على كاتبين أمرهما أن يكتبا في معنى واحد، فأوجز أحدهما، وأطنب الآخر، فقال للموجز: "لم أجد موضع مزيد وقال للمطيل: لم أجد موضع نقصان"[11].

كما أثنى على كلمات قالها الشاعر العتابي: في حاجة، أوجز فيها فقال يحيى: "لقد نزر كلامك اليوم وقل، فقال له العتابي، وكيف لا يقل، وقد تكنَّفني ذل المسألة، وحيرة الطلب، وخوف الرد، فقال له يحيى: لئن قلّ كلامك لقد كثرت فوائده"[12].

وأشاد بما تحلى به العرب: تدوينا وحفظا ورواية فقال[13]: "العرب يكتبون أحسن ما يسمعون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويروون أحسن ما يحفظون". وكان ليحيى معرفة بالشعر ما حسن منه وما قبح، فحين أنشده رجل بيتا من الشعر، افتخر فيه بحسبه، وأنه من أعالي البيوتات، فإذا تمزق ثوبه من الفقر لبس ثوب الحسب:

إني امرؤ في أعالي بيت مكرمة ... إذا تمزق ثوبي أرتدي حسبي

قال له: "ما أقل غناء هذا الرداء في الكانونين"[14].

---

[9] أدب الكاتب: ص١٤، وزكي مبارك: النثر الفني ١/ ٦٩.

[10] العقد الفريد ٢/ ٢٦٦.

[11] كتاب الصناعتين: ص١٩٦

[12] معجم الأدباء ١٧/ ٢٨ والكتبي: فوات الوفيات. ٣/ ٢٢٠ تكنَّفني: أحاط بي.

[13] الثعالبي: ثمار القلوب:ص ١٩٢، والمصون في الأدب: ص١٣٨٠، والوزراء والكتاب:ص ٢٠٠ وعيون الأخبار ٢/ ١٣٠ والعقد الفريد ١/ ٣.

[14] محاضرات الأدباء ٤/ ٣٦٨.

وتاثراً بما كانت عليه أساليب النقد عند العرب قال حين سئل: عن أحسن بيت قالته العرب: أحسن بيت في وصف الدنيا قول الشاعر [١٥]:

حتوفها رصد وعيشها رنق ... وكدها نكد، وملكها دول.

وربما فضّل بعض الأبيات على أبيات أخرى دون أن يبين سبب ذلك التفضيل، فحين حجَّ ومعه أبو يوسف القاضي جاءه رجل من بني أسد، فأنشده شعراً، فقال له يحيى: ألم أقل لك ألاَّ ترجع إلى مثل هذا المعنى؟

ثم قال له: يا أخا بني أسد، إذا قلت شعرا فقل كقول الذي يقول وذكر أبياتا كان منها:

هم يمنعون الجار حتى كأنّما ... لجارهم بين السّماكين منزل

لها ميم في الإسلام سادوا ولم يكن ... كأوّلهم في الجاهلية أوّل

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا وما ... أجابوا، وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

وما يستطيع الفاعلـــون فعالهـــــــم ... وإن أحســنوا في النائبات وأجملـوا

فنالت الأبيات إعجاب أبي يوسف، فسأله عن اسم قائلها، فأجابه: مروان بن أبي حفصة يمدح معن بن زائدة....الخ. [١٦]

ووصف يحيى بن خالد رحلا فقال [١٧]: "أخذ بزمام الكلام، فقاده أسهل مقاد، وساقه أجمل مساق، فاسترجع به القلوب النافرة، واستصرف به الأبصار الطامحة".

وعندما جرت مشادة كلامية بين اليزيدي والكسائي أساء فيها اليزيدي التصرف، فقال له يحيى: "والله لخطأ الكسائي مع أدبه احب إلينا من صوابك مع فعلك [١٨]، وكان يفضل الشاعر العتابي على غيره من الشعراء سواء كان ذلك في شعره، أو رسائله لهذا أمر بنيه أن يدونوهما

---

[١٥] المصون في الأدب: ص٢٥، الحتف الهلاك والرنق: الكدر، كد: اشتد في العمل، ونكد: الشدة والإلحاح والطلب.

[١٦] طبقات الشعراء:٤٣ - ٤٤ وراجع وفيات الأعيان: ٥/ ١٩١ واعمدة ٢/ ١٤١ - ١٤٢ ومرآة الجنان ١/ ٣٩١.

لهاميم: جمع لهميم: وهو السابق الجواد. السمك:السقف والقامة من كل شئ والسماك:ما سمك به الشئ ج سمك وسمكه:رفعه مختار القاموس حرف السين.

[١٧] زهر الآداب ١/ ١٢٧ هـ مطبعة السعادة. ونسب الأبيات لأبي الخطاب البهدليّ.

[١٨] وفيات الأعيان: ٦/ ١٨٦- ١٨٧. ومعجم الأدباء ١٣/ ١٧٨- ١٧٩ ومجالس العلماء: ص٢٥٥- ٢٥٦.

الأغاني: ١٢/ ٨-٩.

في دفاترهم، وكان يحيى على علم ودراية بمختلف العلوم، ومعرفة بأربابها: لهذا قال [١٩]:
"أربعة لم يدرك مثلهم في فنونهم: الخليل بن أحمد، وابن المقفّع، وأبو حنيفة، والفزاري".

أما النقد الأدبي لدى الفضل:

فلقد كان الفضل من أروى الناس للشعر، وأجودهم طبعاً به، وأعلمهم بما حسن منه [٢٠] كما كان له دراية بمختلف فنون الأدب، لهذا لم يبرح يدلي بدلوه في شتى فنونه، فمن ذلك النقد الأدبي:

انتقد ذات يوم ما قاله أبو النضير في مدح البرامكة [٢١]:

إذا كنت من بغداد في رأس فرسخ … وجدت نسيم الجود من آل بربك

فقال له الفضل: لقد ضيقت علينا الجود، فنفى أبو النضير أن يكون قد قال البيت على الصورة التي ذكرها الفضل له، وإنّما قال:

تشـــــاغل الـــناس ببنيانـــهم … والفضـــــــل في بـنيانه جاهد
كل ذوي الفضل، وأهل النــــهى … للفـــضل في تدبيـــــره حامد

فنالت الأبيات إعجاب الفضل، فكافأه عليها، وأبدى له اعتذاره عما بدر منه عندما أخر صلته، وأنه أراد بذك ممازحته.

وحينما أنشده أبو الخطاب [٢٢]:

وجدله يا ابن أبي عليّ … بنفحة من مَلِك سخيٍّ
فإنه عَوْدُ على بديّ … فإنّما الوســـمي بالولي

لم ينل الشطر الثاني من البيت الأول إعجابه، فأشار عليه أن يبدله فيجعل بدلا منه بنفحة من نفح برمكي، فأقره أبو الخطاب على ذلك، وأخذ بقوله.

---

[١٩] الذهبي: أعلام النبلاء: ٨/ ٤٧٠ وما بعدها.

[٢٠] الوزراء والكتاب:ص ١٩٧

[٢١] الاغاني: ١٠/ ٢٠٥-٢٠٦، وابن المعتز: طبقات الشعراء: ص١٣٥.

[٢٢] كتاب الصناعتين: ص١١٠ الوسمي: مطر الربيع الأول، الوليّ المطر يسقط بعد المطر.ابو علي:هو يحيى بن خالد

ولّما مدحه مروان بن أبي حفصة، لما قام به من إصلاح بين الرشيد والهاشميين على أثر الخلاف الذي احتدم بينهم ، قال [٢٣]:

طربت فلا شلت يد خالدّية   رتقت بها الفتق الذي بين هاشم

فقال له الفضل: إن خالداً في الدنيا كثير، فإنّما يحسن بك أن تقول: برمك بدلا من خالد؛ لأن برمك ليس إلا واحدا.

وحين أنشده أبو نواس[٢٤]:

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد   هواك لعلَّ الفضل يجمع بيننا

غضب الفضل، وقطب جبينه، وأمره أن يمسك، وطلب إخراجه، ولم يعطه شيئاً، وفي رواية أخرى قال له [٢٥]: ما زدت على أن جعلتني قوّاداً. فدافع أبو نواس عن نفسه قائلاً: أصلحك الله جمع جمل لا جمع وصل[٢٦]. وأوضح ابن رشيق قول أبي نواس، فقال [٢٧]: يجمع بيننا ثم اتبع ذلك بذكر المال والسخاء فقال:

أمير المؤمنين المال في نعمائه   مهينا ذليل النّفس بالضيم موقنا

فذكر أن هذا الجمع بينه وبين محبوبته لا يكون إلا بالمال خاصة، فيجزل عطيته، فيتزوجها.

وفي نقاش جرى بين الفضل، وبين أنس بن أبي شيخ حول أبي نواس قال الفضل: ما رأيت مثل هذا الرجل، ولا أقل تمييزاً في كلامه منه، فقال أنس: إنَّ اسمه كبير، فقال الفضل: عند من ويلك؟ هل هو إلا عند سقاط مثله، وخلق يشاكلونه، وأقسم على أن لا يصحبه ثلاثاً، ولا يكلمه سبعا ما دام هذا مبلغ عقله، ونهاية معرفته وتفكيره، وأقسم مرة أخرى أن مسلماً أفضل عنده من الطبقة المتقدمة، أو يساويهم [٢٨]. ورغم كراهية الفضل لأبي نواس فقد دافع عنه حين

---

[٢٣] البيان والتبيين ٣/ ٢٨٩، وكتاب الصناعتين ص١١٠.

[٢٤] ذيل شرح صريح الغواني: ص٤٤٥، ومعاهد التنصيص، ٣/ ٥٧-٥٨.

[٢٥] كنايات الأدباء: ص٤٣، والموشح: ص٤٢٤ ووفيات الأعيان ٤/ ٣٥، ومعاهد التنصيص ٤/ ٥٢، وخزانة الأدب: ص١٥٠، وغرر الخصائص: ص١٨٧، وسر الفصاحة: ص٢٤٥.

[٢٦] في خزانة الأدب ص١٥٠، أن قيس بن ذريح قدح بن عتيق فقال له: أمسك عن هذا ما سعه أحد إلا ظنني قواداً.

[٢٧] ابن رثيق: العمدة:١/ ٢٣٥

[٢٨] ذيل صريح الغواني: ص٤٤٥، ومعاهد التنصيص ٣/ ٥٧ – ٥٨.

اتهمه الرشيد بالزندقة فقال له: يا سيدي إنه يؤمن بالبعث، ويحمله المجون على ذكر مالا يعتقد[٢٩].

جعفر بن يحيى والنقد الأدبي:

وكان لجعفر بن يحيى من العقل الثاقب، والبصيرة النافذة، والعلم الواسع، ما أهله لأن يعرف البلاغة والبيان، وأن يتكلم عن الإيجاز ما يحسن منه، وما يذم...الخ.

وقد فاق في ذلك جميع أهل بيته، فكتب في البيان إملاءات، لكنها لم تكن وافية يقول ابن خلدون [٣٠].

"إنَّ الأقدمين أوّل ما تكلموا فيه، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى، وكتب فيها جعفر، والجاحظ، وقدامة إملاءات غير وافية".

ومما أدلى به من نقد:عندما سئل عن البلاغة قال [٣١]:

"أن يكون للكلام حدّ لا يدخل فيه غيره، فقيل له مثل ماذا؟ قال: مثل قول علي بن ابي طالب رضي الله عنه: أين من سعى، واجتهد وجمع وعدَّد، وزخرف، ونجدّ، وبنى وشيدًّ، فاتبع كل حرف من جنسه، ولم يقل سعى، ونجدَّ، وزخرف وعدَّد، ولو زخرف وقال: لكان كلاما، ولكن بينهما ما بين السماء والأرض".

ولّما سئل عن حدّها أجاب [٣٢]: "التي إذا سمعها الجاهل ظنَّ أنه قدر على مثلها، فإذا رماها استصعبت عليه".

أمَّا تعريفه للبيان، فلعله كان أكثر وضوحا، فحين سأله ثمامة ابن أشرس عنه، وكان من المعجبين به أجابه بما يدل على مهارته في البلاغة العربية، فذكر عدة صفات منها: الإحاطة بالمعنى، وعدم التكلف، والبعد عن الصنعة، والبراءة من التعقيد، والغنى عن التأويل: "أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجله عن مغزاك، وتخرجه عن الشوكة، ولا تستعين عليه بالفكرة، والذي لا بد منه أن يكون سليماً من التكلف، بعيدا عن الصنعة، بريئاً من التعقيد، غنياً عن

---

[٢٩] أنظر: البيهقي: المحاسن والمساوئ ١/ ٣٨٢ – ٣٨٥

[٣٠] ابن خلدون: العبر ١/١٠٦٦.

[٣١] التوحيدي: البصائر والذكائر ١/ ٢٨٢.

[٣٢] معجم الأدباء: ١٦/ ١٢٩-١٣٠.

التأويل [٣٣]"؛ ولما لهذا القول من أهمية في علم البلاغة العربية شرحه أبو هلال العسكري بما خلاصته [٣٤]:

أن يتناول اللفظ جميع المعنى، وأن يشتمل عليه، ولا يشذ عنه، ولا يحتاج أن يعرف بشرح، أو تفسير، فإذا سمع اللفظ عرف أقصى ما يراد منه من معنى.

وكلامه هذا أشبه بكلام الأصمعي حيث قال [٣٥]: البليغ من طبَّق المفْصِل، فأغناك عنه المفسَّر ....الخ.

وكان جعفر مغرماً بالإيجاز، فبين ما يحمد منه وما يذم فقال [٣٦]: خير الكلام ما قل ودل، ولم يطل فيملّ"؛ وأوصى كتَّابه أن يكون كلامهم مثل التوقيع [٣٧]: "إن استطعتم أن يكون كلامكم مثل التوقيع، فافعلوا" ويرى أن الكلام إذا كثر اختل، فإذا اختل فقد اعتل" [٣٨]. "ولكنه لا يرى كل أطناب مذموماً، فلكل مقام مقال، وقد عبَّر عن هذا المعنى في أقوال كثيرة.

خلاصتها: إن الإيجاز أبلغ إذا أتى بالمطلوب، وكان كافيا وهو أفضل من الإكثار، أما إذا كان الإطناب أبلغ من الإيجاز، فإن الإيجاز يكون عجزاً وتقصيراً [٣٩].

وكتب إلى عمرو بن سعدة [٤٠]:

"إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً، وإذا كان الإيجاز كافيا كان الإكثار عيًّا" ووصف قول رجل فقال [٤١]: "كأنما ألفاظه قوالب لمعانيه" كما وصف قول أخر فقال [٤٢]: "كلامه –

---

[٣٣] الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ١١٨، وعيون الأخبار ٢/ ١٧٣، والعمدة ١/ ٢٤٩، والأمم والملوك ٦/ ١٨٦،وغرر الخصائص الواضحة: ص١١٣: وتحفة الوزراء ص١٣٩، والبصائر والذخائر للتوحيدي: ٢-١/ ١٢٨، وزهر الآداب ١/ ١١٨-١١٩.

[٣٤] كتاب الصناعتين: ص٤٨-٥٣.

[٣٥] قال الجاحظ: قول جعفر تأويل لقول الأصمعي. انظر العمدة ١/ ٢٤٩

[٣٦] الوطواط: غرر الخصائص: ص١٤٥.

[٣٧] ديوان المعاني ٢/ ٨٩، وأدب الكتّاب، ص١٣٤.

[٣٨] غرر الخصائص:ص١٤٥ .

[٣٩] راجع ذلك في: كتاب الصناعتين ص١٩٦ والتمثيل والمحاضرة:ص١٤٦، ومحاضرات الأدباء ١/ ٥٩، وديوان المعاني ٢/ ٨٩، وعيون الأخبار ٢/ ١٧٤، والعمدة ص١٤٢، والأمالي ١/ ٢٢٢،ونقد النثر:ص٩٦ – ص٩٧.

[٤٠] عيون الأخبار ٢/ ١٧٤، ونقد النثر ص٩٦- ص٩٧ والعمدة ص٢٤٢ والأمالي ١/ ٢٢٢ وذكر هذراً بدلا من عيًّا.

يجتزئ بأولاه، ويكتفي بأخراه يتحدَّر على الأسماع تحدّر الماء الزلال على الكبد الحرَّى"، وعندما اختصم رجلان بحضرته قال لأحدهما [٤٣]: أنت خليّ، وهذا شجي، فكلامك يجري على برد العافية، وجوابه يجري على حر المصيبة.

ولما سئل عن أوجز لفظ قال [٤٤]: "قول سليمان عيه السلام في رسالته إلى ملكة سبأ حين عرض عليها الإسلام "إنه من سليمان، وأنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا عليَّ وائتوني مسلمين" فجمع في ثلاثة أحرف: العنوان، والكتاب، والحاجة، وإظهار الوعيد، وعرض الرشاد إلى المكتوب إليهم".

وكان جعفر يفضل بعض الشعراء على بعض دون أن يبين سبب هذا التفضيل على عادة بعض النقاد في كثير من الأحيان، فها هو يتعصب لأبي العتاهية، ويفضله على غيره من الشعراء قائلاً [٤٥]: "إنه أشعر أهل عصره، وقد وافقه في هذا أبو زكريا زياد الفرّاء، فقال: هو والله أشعرهم".

وتعصب على أبي نواس، فوضعه دون منزلته، ورتبه دون رتبته، مفضلا عليه بعض الشعراء، وذلك في المناظرة التي جرت بينه وبين الرشيد، وكان موضوعها: "منزلة أبي نواس" [٤٦]. وكان الرشيد يفضله على غيره، فلم يوافقه جعفر على ذلك، مما جعل الرشيد يرفع صوته عليه، فلما جاء إسحق الموصلي احتكما إليه، لكنَّه عرَّج بهما إلى موضوع آخر رغبة منه في عدم إحراج أحد المتناظرين [٤٧]. وحرص جعفر على دراسة مختلف العلوم والاداب حتى غدا له معرفة وعلم ودراية بالكتّاب، لذلك ما برح يوازن بينهم، مبينا مكانة كل واحد منهم بكلام موجز، دون أن يوضح سبب ما ذهب إليه في ذلك فها هو يقول [٤٨]: عبد الحميد أصل، وسهل بن هارون فرع، وابن المقفع ثمر، وأحمد بن يوسف زهر".

---

[٤١] مختصر ابن الفقيه: ١٩٤.

[٤٢] المرجع السابق: ص١٩٥

[٤٣] زهر الآداب ٢/ ٣٨٧ ط مطبعة السعادة. الخلي: الفارغ، والشجي: المشغول.

[٤٤] محاضرات الأدباء ١/ ٥٨.

[٤٥] الأغاني ٤/ ١٤٤٦ ط مكتبة الشعب – مصر

[٤٦] نفسه ٤/ ١٢٢٦.

[٤٧] الأغاني: ١٧/ ٦٦-٦٧، ومعاهد التنصيص ٤/ ٦٧ – ٦٨.

[٤٨] مختصر ابن الفقيه:ص١٩٥ وضحى الإسلام:ص١٩٨ عن رسالة البلغاء

ويقول[٤٩]: "لم نر أبدع في فنه من الكسائي في النحووالأصمعي في الشعر والفزاري في النجوم وزلزل في ضرب العود.

وبعد: فلعلي فيما ذكرت قد حالفني التوفيق، فأوضحت منزلة كل واحد من البرامكة في النقد الأدبي، والمنهج الذي ساروا عليه، وما وصلوا إليه من إبداع في نقدهم، وما تحلوا به من ملكة، كان لبعضها حجر الزاوية في وضع أصول علم البلاغة العربية وتقنينها.

[٤٩] معجم الأدباء ١٧/١١٨.

الباب الثالث

دور البرامكة في نهضة الحركة الفكرية

الفصل الأول

عناية البرامكة بالعلم والأدب

اقتضت سنة الله تعالى في خلقه أن لا ينهض شعب من الشعوب، ولا أمة من الأمم إلا بالعلم النافع والسيف القاطع؛ قال الشاعر:

أروني أمة بلغت مناها   بغير العلم والسيف اليماني

لهذا عنى الإسلام به عناية عظيمة، فدعا إليه في كثير من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، فكانت أولى الآيات التي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، تدعو إلى العلم قراءة وكتابة، فقال سبحانه وتعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم" [العلق ١-٥].

وشجع على طلبه، مبينا فضله، ومنزلة العلماء في الدنيا والآخرة، بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فجعله فريضة يطالب بها كل مسلم ومسلمة، فسبق بذلك الحضارة الغربية، والشرائع الوضعية [1].

فكان لهذه الدعوة المباركة أثرها العظيم في إقبال الامة الاسلامية على مختلف الآداب والعلوم والفنون. فحرصت عليه، وفرضته على نفسها، وأخذت بأيدي العلماء إلى طريق الفوز والنجاح، لهذا أحب العلماء العلم حباً جمّاً، فأقبلوا عليه بشغف شديد، وقد عبَّر ابن المبارك عن هذا الحب حينما قيل له: "لو أن الله أعلمك بأنك تموت في العشاء، فما تصنع في يومك، فقال: أقوم وأطلب العلم".

وكان الإمام أحمد بن حنبل، رغم تقدمه في السن كثيرا ما يرى وهو يحمل المحبرة، فتعجب كل من رآه ! فقيل له: مع المحبرة فردّ قائلا: "مع المحبرة حتى المقبرة".

وسار على هذا الدرب الخلفاء والوزراء في العصر العباسي، فأموا مجالس العلم في المساجد، والبيوت، وشاركوا فيما يجري بين العلماء من مناظرات، ومناقشات، ومذاكرات، فكان الرشيد

---

[1] راجع كتاب: الرسول والعلم: للشيخ يوسف القرضاوي.

يحضر هذه المجالس في العلن تارة، وفي السر تارة أخرى [٢]، ولعل الفضل في هذا يعود إلى التربية البرمكية حيث غرس يحيى فيه حب العلم منذ نعومة أظفاره، ونشَّأه نشأة علمية وأدبية.
فكان على رأس من اهتم بذلك من البرامكة: يحيى بن خالد، وولداه: الفضل وجعفر استجابة لأمر الله تعالى، وحبا في العلم والأدب، ورغبة منهم في أن تبلغ دولتهم من العلم والتقدم والحضارة ما بلغته الأمم الأخرى مثل الفرس والهند واليونان.
لهذا عنوا بالحركة الفكرية أيّما عناية، وتتمثل عنايتهم فيما يلي:
لقد فرض يحيى على نفسه، وعلى أبنائه وجواريه تَعَلُّمَ مُختَلَفِ العُلوم [٣]، لهذا تعلَّم العلوم الشرعية واللغوية والفلسفة والفلك وعلم الصنعة واحتفى بها حتى بلغ من العلم ما جعل ابن النديم يعده من الفلاسفة الذين تكلموا في علم الصنعة، كما اهتم بعلم النجوم، ودرسه دراسة مستفيضة فبلغ من المعرفة به ما جعل إسماعيل بن صبيح يشيد بما وصل إليه من منزلة في هذا العلم [٤]. واعتنى بتعليم اولاده، لهذا أسند تعليمهم إلى كبار العلماء، فأوكل تعليم ولده: الفضل إلى العالم المجاهد: ابن المبارك [٥] والحديث إلى أبي بكر بن عياش والمغازي إلى إبراهيم بن سعد [٦].
كما أوكل تعليم ولده جعفر إلى إمام الفقهاء في عصره قاضي القُضاة أبي يوسف يعقوب الأنصاري [٧]. وتعهد أبناءه بنصائحه فدعاهم إلى تعلم مختلف العلوم [٨] وأن يأخذوا من كل فن طرفا [٩]لأنه يرى أن من جهل شيئا عاداه، وهو لا يحب أن يرى واحداً منهم يكره شيئا من

---

[٢] ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢/ ١٨٦.

[٣] الجاحظ: البخلاء:ص٢٨٥

[٤] الوزراء والكتاب: ص٢٤٩

[٥] الأغاني ١٧/ ٦٤-٦٦ ومعاهد التفحيص ٤/ ٦٥-٦٦.

[٦] الطبقات الكبير ٧-٢/ ٩١.

[٧] هو: أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي ولد سنة ١١٣ وتعلم على أبي حنيفة، ودرس علوم الشريعة، وكان صاحب حديث وشعر فاق كثيرا من أعلام الفقه في عصره، وكان من أصحاب الرأي ولي القضاء وسمي قاضي القضاة، وألف كتاب الخراج للرشيد سنة ١٨٣ وعمره تسع وستون سنة. راجع أعلام النبلاء ٨/ ٤٧٠ وتاريخ بغداد ١٤/ ٢٢٤ وقيل وعمره سبع وستون: البداية والنهاية لابي الفداء ١٠/ ١٨٨.

[٨] البخلاء، ص ٢٨٥.

[٩] البداية والنهاية ١٠/ ٢٠٤

ذلك لهذا قال[١٠] لأحدهم يوما: "عليك بكل نوع من العلم، فإنَّ المرء عدو ما جهل، وأنه يكره أن يكون أحدهم عدوا لشيء من العلم وأنشد:

تفنن وخذ من كل علم فإنما يفوق امرؤ في كل فن له علم
فأنت عدو للـــذي أنت جاهل به ولعلم أنت تتقنــه سلـم [١١]

وحبب إليهم حفظ الشعر والأدب؛ لهذا كان كثيرا ما يوصيهم بتدوين ما يسمعون من شعر رائع، وأدب رفيع وإيداعه في خزائنهم، وأن يتعهدوا ما يكتبونه بحفظ أجوده، وأن يتحفوا مستمعيهم بأحسنه [١٢]، فمن الشعراء الذين أحب شعرهم ورسائلهم العتابي لهذا قال لهم يوماً [١٣]: "إن قدرتهم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابي، فضلاً عن رسائله، وشعره فلن تروا أبداً مثله"

وحينما سأل رجلاً عن خبرة قال الرجل: افتديت مكاشفته، واشتريت مكاشرته بألف درهم" فأعجب بقوله، وأمره أن يلزم مكانه حتى يتسنى لولديه الفضل وجعفر أن يكتبا قوله [١٤].

واعتنى بنشر العلم والتعليم، ومحو الأمية في ربوع الدولة الإسلامية؛ ولهذا الغرض السامي أنشأ المدارس المجانية، أو ما يسمى بالكتاتيب للأيتام.

ودعا كثيرا من الشعراء والأدباء والعلماء إلى بغداد للمشاركة في بعث النهضة الفكرية، واهتم بالمكتبات الخاصة والعامة، فاعتنى بمكتبته الخاصة فحوت على شتى الكتب حتى بلغت من الضخامة بحيث قيل أنها تشتمل على ثلاث نسخ للكتاب الواحد، وساعد الرشيد في إنشاء بيت الحكمة في بغداد، فكان لها دورها الكبير في الترجمة ونشر العلم والادب[١٥]، واهتم بالطب فاستقدم لهذا الغرض عددا من الأطباء الهنود للقيام بما يوكل إليهم من معالجة المرضى، والأشراف على المارستان في بغداد.

---

[١٠] المصون في الادب ص ١١٥ ومحاضرات الادباء ١/ ٥١ والوزراء والكتاب:ص٢٠٢- ص٢٠٣ والبداية والنهاية ١٠/ ٢٠٤ وخلاصة الذهب ص١٦١ والمخلاة: ص٣٠.

[١١] الماوردي: أدب الدنيا والدين ص٤٧ دار الدعوة- الكويت ط الرابعة.

[١٢] وفيات الأعيان ٦/ ٢١ وتاريخ بغداد ١٤/ ٢٩، ومعجم الأدباء ٢٠/ ٢ وخلاصة الذهب المسبوك:ص١٦١.

[١٣] الاغاني: ١٢/٨-٩.

[١٤] البداية والنهاية ١٠/ ٢١١.

[١٥] راجع فضل حركة التدوين في هذا البحث

واحتضن المدارس النحوية، كمدرستي الكوفة والبصرة، وقرب زعماء المدرستين. أمثال الكسائي وسيبويه، وغيرهما، وعقد لهم المناظرات النحوية، ومنحهم من المال ما يمكنهم من مواصلة مسيرتهم العلمية، ورغبة في العلم، وتعلمه لم يخجل، وهو في سدّة الحكم، أن يسأل العلماء عمّا لا يعلم، ولو أدى ذلك إلى إجابة قد تحرجه، لأنه كان من سعة الصدر بحيث يتقبل أي نقد يوجه إليه.

فحين سأل شريكا القاضي: أن يعلمه مما علّمه الله تعالى، أجابه بشجاعة المؤمن شأن علمائنا المخلصين الذين باعوا دنياهم بآخرتهم: "إذا عملتم ما تعلمون علمناكم ما تجهلون" [16].

وكانت أسئلته من الدقة والصعوبة بحيث يتوقف بعض العلماء في الإجابة عليها، ويشعرون بالحرج الشديد والحزن والأسى، فحين لقي الفرّاء الكسائي مكفهر الوجه ذات يوم سأله عم أحزنه، فقال له:

إن الملك – يقصد يحيى بن خالد – بوجه إلي، فيسألني عن الشيء، فإن أبطأت في الإجابة عتب علي، وإن بادرت الإجابة لا آمَنُ الزَّلَل، فقال له الفرَّاءُ كالمُمْتَحِن: يا أبا الحسن، من يعترض عليك؟ قل ما شئت، فأنت الكسائي، فأخذ الكسائي لسانه بيده وقال: قطعه الله إذاً إن قلت ما لا أعلم [17].

وهذا يدل على مقدار ما وصل إيه علماؤنا الأبرار من أمانة علمية قلما توجد في أمة من الأمم، كما يدل على اهتمام يحيى بأمور دينه، ورغبته في تعلم العربية وإتقانها.

وكان لاهتمام يحيى بالعلم وتعلمه أثره في أبنائه، فلم يأل الفضل جهده في أن يتعلم، ويستوعب، ويثبت ما يروى من شعر رائع، وما يطرق سمعه من أدب رفيع [18].

فحين أنشده الأصمعي شعراً لأبي نواس قال: قاتله الله ما أشعره يا غلام أثبتها [19].

ولّما أنشده والد علي بن الجهم بيتي أخي بني عامر:

وداع دعا إذا نحن بالخَيْف من منى	فهيج أحزان الفؤاد ولا يدري
دعا باسم ليلي غيرهـــــا وكأنما	أطار بليلي طائرا كان في صدري

فدعا غلامه أن يكتبهما له [20].

---

[16] أمالي المرتضى ١/ ٢٨٣

[17] القفطي: أنباه الرواة ٢/ ٢٦٦. والبداية والنهاية ٢/ ٢٠٢. والأنباري: نزهة الألباء: ص٤٧.

[18] زهر الآداب ٢/ ١٠٧٣ وطبقات الشعراء ص٢١٦، والبداية والنهاية ١٠/ ٢١١.

[19] طبقات الشعراء: ص٢١٦.

كما اهتم بحركة التدوين فأنشأ مصنع الورق في بغداد، لسد حاجة الأدباء والعلماء، والدارسين وأرباب الكتابة من الورق [٢١]، واعتنى بمجالس العلم والأدب، فكان يستمع لكل شاعر يريد إنشاده ما نظم من عيون الشعر مهما كثر عددهم.

كما كان لاهتمام يحيى بالحركة الفكرية أثرها الكبيرفي ازدهارها.واهتم بتربية اولاده تربية علمية كان لها أثرها العظيم في حياة جعفر العلمية، والأدبية وفي الحركة الفكرية عامة، فقد أحب جعفر العلم والأدب والفن فتعلم مختلف العلوم بشغف شديد ملك عليه قلبه ووجدانه؛ لهذا ظل يتردد على بيت الحكمة في بغداد، يصحبه ثمامة بن أشرس [٢٢].

واعتنى البرامكة عموما وجعفر خصوصا بعلم الصنعة واشتغلوا به بعد أن درسوه دراسة مستفيضة، معلقين عليه آمالا عريضة، لهذا وثق جعفر صلته بجابر بن حيان حتى بلغ من العلم به ما جعله يحاوره ويجادله، وهذا ما أثبته جابر في كتابه الخواص.

وكما كان ليحيى بن خالد معرفه بعلم النجوم، فقد شاركه في هذا العلم ولده جعفر حتى بلغ من العلم به وبالأخص علم الأسطرلاب [٢٣] ما جعله يتنبّأ بنكبتهم، لكن هذا التنبأ لم يجده شيئاً لأن الحذر لا ينجي من القدر.

وشارك جعفر أباه في تعلم الفلسفة والعناية بها، فبلغ من المهارة ما دفعه إلى أن يتجرأ على النظام عندما ذكر له أنه نقض كتاب أرسطاطاليس فقال له متحدياً كيف وأنت لا تحسن أن تقرأه، فما كان من النظام إلا أن أخذ يذكر شيئاً من كتابه، وينقضه بحذق ومهارة، فأثار ذلك إعجاب جعفر وتقديره [٢٤].

واعتنى جعفر بالشعر والشعراء وتسقط أخبارهم، فها نحن نراه يسأل سعيد بن وهب عن المكان الذي تأدب فيه أبونواس، فأجابه قائلاً: بالبصرة [٢٥].

---

[٢٠] البداية والنهاية: ١٠/ ٢١١.

[٢١] صبح الاعشى ١/ ٤٦٦.

[٢٢] الجاحظ: البخلاء: ٢٨٥.

[٢٣] الإسطرلاب: جهاز استعمله المتقدمون في تعيين ارتفاع الأجرام السماوية، ومعرفة الوقت والجهات الأصلية: المعجم الوسيط: ١/ ١٧ وقداصبح احد الاجهزة الاساسية عند العرب فتفننوا في صناعته: الموسوعة العربية الميسره.

[٢٤] أحمد أمين: ضحى الإسلام ٣/ ١٢١

[٢٥] طبقات الشعراء:ص٢٠٢.

وكان يختار جواريه من ذوات الأدب والظرف[٢٦]، فإذا أراد شراء واحدة منهن أجرى لها اختباراً، ومن ذلك نراه عندما عرضت عيه إحدى الجواري، ليشتريها، وكانت شاعرة فقال لها، قولي في معنى بيتي زهير:

هو الجواد فإن يلحق بشأوهما　　على تكاليفـــه فمثـــله لحقا

أو يسبقاه على ما كان من مهـــل　　فمثل ما قدّما من صالـــح سبقا

فأجابته قائلة:

بلغت أو كدت يحيى أو لحقت به　　فنلتما خالدا في شأو مستبقتال

لكن مضى وتلا يحـــــيى فأنت له　　فقـــلّلت دون الركض بالعنق[٢٧]

واعتنى جعفر بالخط العربي فكان يمارسه حتى بلغ من الإجادة به والمهارة بخطوطه بحيث قيل[٢٨] أنه من أزكى كتاب الدولة في الخط العربي. لهذا عندما قرأ كتاباً نال خطه استحسانه وقع عليه قائلاً[٢٩] "الخط خيط الحكمة، ينظم فيه منثورها، ويفصل فيه شذورها".

ومن عنايته بالخط وولعه به نراه وقد بعث ذات يوم إلى محمد بن الليث يستوصفه الخط فقال[٣٠]:

"أما بعد: فليكن قلمك محرّفا لا متينا، ولا رقيقاً، ضيق القلب، فابره برياً مستوياً كمنقار الحمامة، اعطف بطنه، ورقق شفرتيه، وليكن قرطاسك رقيقاً مستوى النسج محرف السخاءة، مستويا من أحد الطرفين إلى آخره، فليست تستقيم السطور إلا فيما كان كذلك، وليكن أكثر مطك في أطراف القرطاس الذي فيه يسارك، وأقله في الوسط، ولا تمط في الطرف الآخر، والمط نصف الخط، ولا يقوى عليه إلا العاقل".

---

[٢٦] التنوخي: الفرج بعد الشدة: ص٣٩٧.

[٢٧] أمالي المرتضى ١/١٠١-١٠٢، العنق: دون الركض فلعله أراد بذلك أنه تباطأ عن اللحاق بأبيه وجده تحشما ولو أراد اللحاق بهما لسبقهما.

[٢٨] أخبار الشعراء المحدثين:ص٢٠٦- ص٢٠٧.

[٢٩] زهر الآداب ١/٣٦٦.

[٣٠] رسائل العرب ٣/ ٨٣ وشرح المقامات ١/ ٢٤٤. محرفا: حرف الشيء أماله. يقال حرف القلم مطه محرفا ما ل وعدل، السخاءة: القشرة

الفصل الثاني

رعاية البرامكة للحركة الفكرية وتشجيع أربابها

لقد عمل البرامكة بكل استطاعتهم، أثناء توليهم الوزارة على نهضة الحركة الفكرية، ومد يد العون والمساعدة لأرباب العلم والأدب، وتشجيع كل من نبغ في أي علم من العلوم والفنون والآداب، وأنزلوهم من أنفسهم منزلة كريمة، فكانوا لهم الصديق والقريب؛ لأن قرابة العلم في نظرهم لا تعد لها قرابة، وقد عبر جعفر عن ذلك حين تشفع إليه رجل بزمام الأمل، وحسن الظن، وقرابة العلم فقال[1]: " ما ذكرت فواجب حقا، وعاقد فرضا، ورحم العلم أحسن قرابة، وألطف ظؤرة"؛ لهذا فتحوا لهم أبواب قصورهم فجاءوا إليهم من كل حاضرة وبادية، يحدوهم الأمل ويبعثهم الرجاء، فلم يمنعهم حر الصيف ولا زمهرير الشتاء، ولا وعثاء السفر، خاصة من قرب محله من عاصمة الخلافة بغداد، مثل شعراء ما بين النهرين، فلم يتخلف واحد منهم باستثناء بعض شعراء العرب، ممن استنكفوا عن التكسب بشعرهم، أو لاعتبارات سياسية أو مذهبية، أو ظروف شخصية[2] يصعب التغلب عليها.

كما لم يحل بينهم، وبين الوصول إليهم كثرة الحجَّاب[3]، ومن لم يأتهم طوعاً، بعثوا في طلبه، ليقيم في كنفهم، وينال رعايتهم ومساعدتهم، فكان يجد هؤلاء من البرامكة كل ترحيب، وحسن استقبال دون أن يفرقوا بين أجناسهم، ومعتقداتهم، وبين عدو يهجوهم، أو صديق يمدحهم، فكان منهم: العلماء، والأطباء، والأدباء، والشعراء، والمذاكرون، والمؤلفون، والمترجمون، فنافسوا الرشيد في ذلك، فكانوا من الكثرة بما لم يسبق أن وقف أحد على باب ملك أو وزير بمثل عدد من وقف على أبوابهم.

وبهذا ازدحمت بهم طرقات بغداد، واكتظت بهم شوارعها، وتنافسوا في الوصول إليهم، لتقديم ما جادت به قرائحهم، وما أنتجوا من أعمال فكرية، فكافأهم البرامكة على ذلك، وأغدقوا عليهم الأموال، ومنحوهم الهبات والهدايا والجوائز، وخصصوا للكثير منهم رواتب شهرية،

---

[1] محاضرات الأدباء ٢/ ٥٦٨ ظؤرة: العاطفة على ولد غيرها، المرضعة له في الناس وغيرهم للذكر والأنثى: مختار القاموس حرف الظاء.

[2] بروكمان: تاريخ الأدب العربي ٢/ ٦٨.

[3] جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ٥/ ١٥٧.

واستخدموهم في الدواوين والولايات، كل واحد على حسب كفاءته تشجيعا لهم، وبراً بهم، وقد شهد لهم بهذا كثير من الأدباء والشعراء والعلماء، يقول الأصمعي [٤]: "إنه ما حضر مجلسا ليحيى وولديه: الفضل وجعفر، إلا وقد انصرف من عندهم بالحياء العظيم له ولإخوانه"، ويقول ابن الفقيه[٥]: ولأهل خراسان أجواد مبرزون، وأنجاد مشهورون لا يجارون، ولا يبلغ شأوهم منهم: البرامكة لا نعلم أن أحدا قرب من السلطان قربهم، ولا أعطى عطاءهم، ولا صنع صنيعهم، ولا اعتقد بيوت الأموال في خزائن الخلفاء مثل عاقدهم" لأن عطاءهم بلغ من الكثرة ما لا ينفد في أيام أو شهور أو سنوات، وقد بالغ الثعالبي فذكر في كتاب لطائف المعارف ص٢٢، أن عطاءهم لا ينفذ أبد الدهر.

وبذلك فاقوا الأمويين في كثرة ونفاسة عطائهم، لأن أُعطِيَاتِهم كانت دنانير من الذهب، أو دراهم من الفضة، أو إحدى الضِياع أو البيوت، أو تخوت من الثياب [٦]، أو جواري. بينما كانت هبات الأمويين في كثير من الأحيان شاة أو بعيراً، أو فرسا، وما شابه ذلك شأن أهل البادية.

ويقول ابن المعتز [٧]: "وهكذا كانت عادة آل بربك فيمن يتصل بهم رحمهم الله، فما خلفوا بعدهم من شق غبارهم في الجود والكرم والبر والعطاء والإحسان".

وقد مكنهم من ذلك ما بين أيديهم من أموال الدولة ينفقون منها كيفما شاءوا دون حسيب أو رقيب، و لا عجب في هذا فخزائن الدولة كانت تكتظ بعشرات الملايين من الدنانير كل عام، أو بما يقدر بسبعة آلاف قنطار من الذهب [٨].

وإليك أخي القارئ هذه العجالة عن تشجيع كل واحد من البرامكة:

من تشجيع خالد بن برمك:

أما خالد بن برمك، فقد شجع أهل الفكر على مختلف تخصصاتهم، فكان منهم العلماء، والأدباء، والشعراء وغيرهم، فمنحهم الأموال الجزيلة، والهدايا النفيسة فبلغ عطاؤه من الكثرة بحيث لم يكن له جليس إلا وأسدى إليه معروفا: ضيعة أو دار أو عقاراً او أرضا أوقفها على

---

[٤] ابن المعتز: طبقات الشعراء: ص٢١٤.

[٥] مختصر ابن الفقيه: ص٣١٧، أنجاد جمع نجد: الشجاع الماضي فيما يعجز غيره.

[٦] طبقات الشعراء: ص١٥٧ وحضارة الإسلام لجوستيان: ص١٣٧، التخوت: جمع تخت: وعاء يصان فيه الثياب.

[٧] طبقات الشعراء: ص١٥٧.

[٨] قيمة القنطار من الذهب: ثلاثون ألف درهم عن مجلة لانسيون آداب "الأمة العربية" الصادرة في ١٩٣٨م.

أولاده، أو مالا يوفي بحاجاتهم ما امتد بهم الأجل أو أمة أنجبت له الأولاد أو عروسا أدى مهرها أو دابة حمله عليها [٩].

غير أن عطاءه لم يكن وفق قاعدة معينة، فربما أعطى الشاعر على بيت واحد من الشعر ألف درهم [١٠] أو خمسة آلاف درهم [١١]، أو مثلها كلما وفد عليه [١٢] ولم يقف تشجيعه على النواحي المادية فحسب بل تجاوز ذلك إلى ما هو معنوي، فها نحن نراه تأخذه الأريحية فيطلق على من يفد إليه الزّوار، بدلا من السؤّال؛ لأنه رأى فيهم أرباب العلم والأدب، فكان لهذه التسمية أثرها الطيب في نفوسهم أكثر من عطائه [١٣].

من تشجيع يحيى بن خالد:

أما يحيى بن خالد فقد تأثّر بأبيه، وسار على دربه، فرعى الحركة الفكرية، فتألّف قلوب أهلها، فلم يدع ذا موهبة إلا وقد أحاطه بعطفه وحبه، وشمله برعايته، واتحفه بكثرة عطاياه، وعظيم هباته، وسني جوائزه، أو قلده إحدى الوظائف الحكومية.

فغدا بذلك معقد آمالهم، ومحط رحالهم، فتوجه إليه كل أرباب الفكر، وكل من له حاجة، فزخرت بهم داره، واعتركت الخيول حول فنائه [١٤].

فقال مروان بن أبي حفصة [١٥]:

سمت نحوه الأبصار منا ودونه ... مفاوز تغتال النياق بها السَّفر

فمن الذين أعطاهم أموالا جمة سلم الخاسر وذلك على قصيدته:

بقاء الدّين والدّنيا جميـــــعا ... إذا بقي الخليفة والـــــوزير

---

[٩] راجع التاريخ الكبير: لابن عساكر ٥/ ٢٨ والجهشياري: ص١٥٠- ١٥١ وابن قتيبة عيون الأخبار ١/ ٣٣٩ ومختصر ابن الفقيه: ص٣١٧.

[١٠] الأغاني ٣/ ١١٩ ط مكتبة الشعب – مصر.

[١١] الأغاني ٣/ ١٠٣٠

[١٢] الأغاني ٣/ ٤٠٣٨، وغرر الخصائص الواضحة ص٢٠٥، وتاريخ الموصل: ص٢٢٨،وديوان بشار ٣/ ١١٩ – ١٢٠.

[١٣] الوزراء والكتاب: ص١٥٠-١٥١ الكتابة والتعريض: ص٤٢ –٤٣ والأغاني ٣/ ١٠١٩، وتحفة الوزراء: ص١٥٥ – ١٦٠. ونسب تاريخ بغداد هذا القول للفضل بن يحيى وقال سموهم الزوار ولزمهم هذا الاسم ١٢/ ٣٣٦.

[١٤] الفخري: ص١٦٩.

[١٥] الوزراء والكتاب: ص٧٩. السَّفر: قطع المسافة، جمعها أسفار. مختارالقاموس.

حتى بلغ ما نال من عطائهم ومن عطاء الرشيد عشرات الألوف[١٦]، فقال[١٧]وقد غمره الفرح والسرور: أنا الرابح ولست الخاسر، وقد أدَّت كثرة عطاياه لهم إلى انقطاع الكثير من الشعراء إليهم، وأعطى العتابي مبلغا من المال وجاريته خلوب على أبيات من الشعر وكانت من ذوات الشعر والأدب، حتى بلغت من المهارة في ذلك أنّها كانت تجالس الأدباء، وتناقض الشعراء[١٨].

وأعطى أبان اللاحقي أموالاً كثيرة مكافأة له على نقل كليله ودمنه شعرا، وحين اشترك سيبويه في المناظرة التي جرت بينه وبين الكسائي أعطاه مبلغا من المال تشجيعا له[١٩] ومنح جبريل بن بختيشوع – طبيب جعفر الخاص – أموالاً كثيرة، وضيعة، وأعطى العالم: عبد العزيز بن عمران بن عبد العزيز الأعرج أموالا جمة.

ووضع راتبا شهريا لسفيان بن عيينة، لهذا كان يتوجه إلى القبلة بعد نكبة البرامكة داعيا الله تعالى بقوله[٢٠]: "اللهم إنه كفاني مؤونة الدنيا، فاكفه مؤونة الآخرة".

وأعطى غير هؤلاء أموالاً كثيرة يصعب حصرها وذكرمن نالوا مآثرهم.

ولم يقتصر عطاؤه على من يفد إليه فحسب، وإنما تجاوزهم إلى كل من يعترض طريقه، أثناء ذهابه وإيابه فكان يعد صررا في كل واحدة منها مئتا درهم لهذا الغرض. فاستقل أحد الشعراء ما أعطاه، فأنشد أبياناً منها[٢١]:

ياسمي الحصور يحيى	أقيمت لك من فضل ربنا جنتان
كل من مر في الطريق عليكم	فله من نوالكم مائتان
مائتا درهم لمـــــثلي قليل	وهي للفــــــارس الوهـــان

---

[١٦] الأغاني ٢١/ ١٧٠، والبداية والنهاية ١٠/ ١٨٨، فقد بلغت أربعين ألفاً، وقيل:أكثر من ذلك ، نصفها من البرامكة، الأغاني ٢١/ ١٧٩، والذهب المسبوك: ص٤٥

[١٧] الوشّاء: الموشي، أو الظرف والظرفاء ص٤٨.

[١٨] الوزراء والكتاب ص٢١١ والصولي: أخبار الشعراء المحدثين، ص٢ الأغاني ٢٠/ ١٠٧٩ وأعتاب الكتاب ص٨٢ وطبقات الشعراء ص٢٤١.

[١٩] القنطي: أنباه الرواة: ص٢، والاغاني ٢٠/ ١٧٩.

[٢٠] ولد سفيان بن عيينة الهلالي بالكوفة نقله أبوه إلى مكة كان عالماً حجة بارعاً في الحديث ت ١٩٨ دفن بالحجون. وفيات الأعيان ٢/ ٢٢٨.

[٢١] البغدادي: تاريخ بغداد ١٤/ ١٢٩ والوزراء والكتاب:ص٢٧٨.

فأرسل إليه عشرين ألفاً أخرى.

فأخذ أصحاب الحاجات وغالبيتهم العظمى من أرباب الفكر: شعراء، وأدباء، وعلماء، وغيرهم. يترصدون خروجه من بيته لينالوا عطاءه حتى غدا ذلك عادة لهم، فكان يحيى يقابلهم بالبشر والسرور، وببشاشة الوجه وفي أحد الأيام خرج مبكرا على غير عادته، فلم يجد واحداً منهم، فتمثل قول القائل:

وليس أخو الحاجات من بات نائماً ولكن أخوها من يبيت على وجل

وبذلك أنفق أموالاً كثيرة بلغت في العام الواحد عشرين ألف ألف [22]: فكان لعطائه أثره فيهم، فأصبحوا في رغد من العيش ورفاهية مما دفع أشجع السلّمي إلى القول [23]:

كفاني كفاه الله كلَّ ملمَّة طلاب فلان مرَّة وفلان

فأصبحت في رغد من العيش واسع أقلّب منه ناظـــري ولساني

من تشجيع الفضل بن يحيى:

كما شجع الفضل بن يحيى كثيراً من العلماء ، والأدباء والشعراء وكل أرباب العلم، وأصحاب الفكر، فظل يستقبل كل من يفد إليه استقبالا حسنا، ويتحفهم بالأموال والضياع والثياب والجواري، فانضوى إليه الكثير منهم حتى فاق في ذلك أهله؛ لأنه كان أبسطهم يداً، وأشدهم عزيمة، وأكثرهم كرما، وخاصة إذا مدحه شاعر [24].

وقد ضرب بكرمه الأمثال فقيل: حاتم الإسلام، وحاتم الأجواد، وحدّث عن البحر ولا حرج، وعن الفضل ولا حرج [25].

فقال نصيب الأصفر [26]:

كانت تطول بنا في الأرض نجعتنا فاليوم عند أبي العبَّاس ننتجع

إن ضاق مذهبنا أو حـــل ساحـــتنا ضنك وأزم فعند الفضل متسع

وقال آخر [27]:

---

[22] ابن خلدون: العبر ١/ ٣١٧.

[23] الأغاني: ١٧/ ٥٨-٥٩ والعاملي: معاهد التنصيص ٤/ ٦٣ والصولي: أخبار الشعراء المحدثين ص٨٨- ص٨٩.

[24] الوطواط: قرر الخصائص الواضحة:ص٢٠٦

[25] الثعالبي: ثمار القلوب:ص٢٠٣.

[26] الأغاني: ١٩/ ٧٠ – ٧٣. نجعتنا: طلب المعروف، الضنك: الضيق في كل شي، أزم: شدة القحط.

ما لقينا من جـــــــود ابن يحيى ترك الناس كلُّهم شعـــــراء

وقال أبو نواس [28]:

اطلت عطايـــــــاه نزارا واشرقت على حمير في دارها ومـــراد

وقد علق ابن المعتز على إحدى عطاياه، فقال [29]:

"وكذا كانت عادة آل برمك فيمن يتصل بهم – رحمهم الله – فما خلَّفوا بعدهم من شقَّ غبارهم في الجود والكرم، والبر والعطاء والإحسان"؛ لهذا انقطع إليه الكثير من: العلماء، والأدباء، والشعراء، وأرباب الفكر منهم: سلم الخاسر، والنضر بن أبي النضر، وبرزخ العروضي، والخريمي، وغيرهم حتى أولئك الذين عرفوا بحربة الفكر، أو من اتهموا بالزندقة أمثال: هشام بن الحكم الرافضي [30].وكان قد الف كتبا كثيرة يتناول بعضها علم الكلام والخلافة .

وحبا في الشعر والشعراء كان الفضل يجلس معهم طويلاً يستمع إلى قصائدهم، واحدا بعد الآخر دون كلل أو ملل، ثم يأمر لهم بالجوائز [31].

وحين خرج يحيى بن عبد الله العلوي على الرشيد في بلاد فارس ولِّى مهمة القضاء عليه، فانطلق إليه، وعسكر بين النهرين، فأمه الشعراء، فأخذ كل واحد منهم يلقي عليه ما جادت به قريحته، فأعطاهم أموالا جمة، فلما توسلوا إليه بالشعر زادهم، وفرق فيهم أموالاً كثيرة[32].

وعندما كان بأرمينية تكاثر من وقف ببابه حتى بلغ عددهم أربعة آلاف رجل [33]، فكان منهم العلماء والأدباء والشعراء والزوار وفي خراسان أقبل عليه الزوار والكتاب، ففرق فيهم أموالاً بلغت عشرة آلاف ألف درهم [34]. ولما عاد إلى بغداد أقبل اليه الشعراء مهنئين بسلامة العودة،

---

[27] الأغاني: ١٩/ ٧٠ – ٧٣.

[28] أنظر القصيدة في ديوان أي نواس: ص٤٧١ – ص٤٧٣.

[29] ابن المعتز: طبقات الشعراء ص١٥٧.

[30] برانق: البرامكة في ظلال الخلفاء:ص٣٥.

[31] الأغاني: ٢١/ ١٦٦.

[32] البداية والنهاية: ١٠/ ٣.

[33] تاريخ بغداد ١٢/ ٣٣٦ والصولي: أخبار الشعراء المحدثين: ص٣.

[34] الوزراء والكتاب: ص١٩١.

فأنشدوه قصائدهم وأشادوا بكرمه وأياديه، فلما عجز عن سماع كل ما نظموا من الشعر أمر من يجيز قصائدهم، ويعطي كل واحد منهم حسب منزلته [٣٥] وجودة قصيدته.

وقد بلغ عطاؤه الألف ألف، والخمسمائة ألف، ونحو ذلك كما كان يفرق البدر بخواتيمها دون أن يفض واحدة منها، وبذلك أنفق أموالا كثيرة يصعب حصرها [٣٦].

فقال حفص بن مسلم [٣٧]:

كفي بالفضل بن يحيى بن خالد　　　وجود يديه بخل كلِّ بخيل

ولما رزقه الله مولودا أقام في يوم سابعة حفلا مهيبا قرأ فيه الحاضرون آيات من القرآن الكريم، ثم أقبل عليه اشعراء مهنئين ومبشرين بطالع المولود، فأمر أن تنثر عليهم الدنانير المطيبة بالمسك، ثم أعطى كل من حضر [٣٨] فدخل عليه الشاعر ابو النضر وكان لا يعلم بذلك فلما وقف بين يديه وشاهد المهنئين يهنئونه نظما ونثرا انشد ارتجالا:

ويفرح بالمولود من آل برمك　　　بغاة الندي والسيف والرمح والنصل

وتنبسط الآمال فيه لفضله

ثم ارتج عليه فلم يدر ما يقول فبادر الفضل يلقنه "لا سيما ان كان من ولد الفضل" فنالت بديهته استحسان الحاضرين وامرله بصلة [٣٩].

ولم يكن عطاؤه لأهل الفكر وفق قاعدة معينة، فقد يعطي على البيت الواحد تارة وعلى القصيدة الواحدة تارة أخرى شأن ابيه في ذلك.

ومن ذلك أعطى الشاعر: محمد بن يزيد الدمشقي في حفل عشرة آلاف دينار بعد أن أنشده بيتاً من الشعر [٤٠].

وأعطى أعرابياً على بيتين من الشعر أربعين ألف دينار [٤١].

---

[٣٥] نفسه ص١٩٢، ووفيات الأعيان ٤/ ٢٩.

[٣٦] البدر جمع بدرة: كيس فيه ألف أو عشرة الاف أو سبعة الاف دينار.

[٣٧] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٦٥ والبداية والنهاية ١٠/ ١٧٣ وابن مسكويه: العيون والحدائق: ص١٩٦.

[٣٨] نهاية الأرب ١٢/ ٣٣٧ ومرآة الحنان: ص٤٣٣ – ٤٣٦، والأغاني ٥/ ٢٤ و١٠/ ٢٠٥، والمحاسن والمساوئ ٢/ ١٤٧.

[٣٩] بدائع البدائه للازدي ص١١٨.

[٤٠] مرآة الجنان ١/ ٤٣٣ – ٤٣٦.

ومنح والد علي بن الجهم ثلاثين ألف على بيتين أنشدهما ثم كتبهما له وأجرى عليه راتبا شهريا مقداره عشرة آلاف من الورق وأسلفه مبلغاً من المال [٤٢].

وأعطى الشاعر: عبدالله بن أيوب التميمي الكوفي ثمانية آلاف حين مدحه، ثم سأله أن ينشده شيئاً مما نظمه من الشعر، فأنشده بعضاً منه [٤٣].

وأعطى أحمد بن يوسف ثلاثين ألف درهم على أبيات ثلاث بدأها بقوله:

أبا العبـــاس دعوة مستمـــيح   لجودك فاز بالبيــع الربيـــــح

فكتب إليه لو زدت في المقال لزدناك في المال [٤٤]، وأعطى مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم، وكسوة، وحمله على دابة، مكافأة له على أربعة أبيات من الشعر منها [٤٥]:

ألم تر أن الجود تحدَّر من لدن آدم   تحدر حتى صار في راحة الفضل

وحين مدحه احد الشعراء اعطاه عشرة آلاف دينار، فبكى الرجل فسأله عم يبكيه أستقلالا لها؟ فأجابه، لا والله ولكن أبكي أن الأرض تأكل مثلك، أو تواري مثلك [٤٦].

وكافأ أبا الحجناء – نصيب الأصغر – ثلاثين ألف درهم، على أبيات منها:

عند الملوك مـــــضرة ومنافـــــع   وأرى البرامك لا تضر وتنــفع

فأعجب الفضل بشعره، فقال: إذا قلتم فقولوا مثل هذه الأبيات وإذا مدحتم فامدحوا بمثل هذا الشعر [٤٧].

ولما أنشد إسحق الموصلي الأبيات قال: يا أبا محمد: كأنّي والله لم أسمع هذا القول إلا الساعة، فجدد للشاعر صلته، ولإسحق لحفظه الأبيات بما مقداره ثلاثين ألف درهم [٤٨].

---

[٤١] نفسه ١/ ٤٣٦ – ٤٤٠ وحديقة الأفراح لإزالة الأتراح: للشرواني: ص٢٥٠ وما بعدها.

[٤٢] ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٢١١، الورق الدراهم المضروبة وهي مثلثة تقول الورَق والورِق والورق بسكون الراء جمع اوراق ووراق.

[٤٣] الأغاني ١٨/ ٤٧٦- ٤٧٧ و ١٨/ ١٦٨

[٤٤] أخبار الشعراء والمحدثين ص١٥٩.

[٤٥] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ١٧٢، والأزدي: تاريخ الموصل: ص٣٨٠ – ص٣٨١.

[٤٦] البداية والنهاية ١٠/ ٢١١ والصولي: أخبار اشعراء المحدثين: ص٦٥

[٤٧] الأغاني: ٢٠/ ٨٠-٨١ وطبقات الشعراء:ص١٥٥ وفيات الأعيان ٤/ ٣٥ والوزراء والكتاب: ص٢٠٣.

[٤٨] الأصبهاني: الأغاني ٢٠/ ٨٠ – ٨١

كما دأب على إيهابهم الجواري على نظمهم الشعر، فقد أهدى لمسلم بن الوليد جارية لنظمه خمسة أبيات، وهو يقول له خذها بورك لك فيها[٤٩].

وكما شجع على نظم الشعر شجع على إنشاده وحفظه أيضا، فحين أنشده الأصمعي شعرا لأبي نواس أعطى كل واحد منهما ألف دينار[٥٠]، وأعطى أبا ثمامة الخطيب عشرين ألفا على كل بيت أنشده حتى بلغ ما إعطاه مائة ألف درهم منها:

عصمت حكومته جماعة هاشم ... من أن يجرد بينهما سيفان[٥١]

كما شجع على التئام المجالس الأدبية والعلمية في بيته، فكان يعطي كل من يشارك فيها، وربما اعتذر لمن لم يعطه شيئا، فحين لم يعط الأصمعي شيئا في مجلس مذاكره عقده الرشيد في قصره. اعتذر إليه قائلا: لولا أنه مجلس أمير المؤمنين، ولا يأمر فيه أحد غيره لدعوت لك بمثل ما أمر به أمير المؤمنين[٥٢] وفي مجلس آخر وكان الجو بارداً أعطاه ثوباً ثمينا من الوبر يتناسب مع فصل الشتاء وجوربا[٥٣] كما اعطى العديد مالاً كثيراً.

من تشجيع جعفر بن يحيى:

ونهج جعفر بن يحيى نهج أسرته في رعاية الحركة الفكرية وتشجيع أربابها، فأقبلوا إليه من كل حدب وصوب، ليستمطروا جوائزه فكان عطاؤه لا يقل عن عطاء الرشيد[٥٤]: ولهذا الغرض أمر أن تضرب دنانير من الذهب وزن كل دينار ثلاثمائة مثقال، وطبع عليها صورة وجهه[٥٥]، ولما أرسل إليه أبو العتاهية البيتين التاليين:

وأصفر من ضرب دار الملوك ... يلوح على وجهه جعفر

يزيـد على مائة واحـــداً ... متى تعطه مـعسرا يوسر

---

[٤٩] ذيل شرح ديوان صريع الغواني: ص٣٨٢

[٥٠] طبقات الشعراء: ص٢١٤

[٥١] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٥٥.

[٥٢] العقد الفريد ٥/ ٣١٧ وأمالي المرتضى ٢/ ١٣ والتنوفي: الفرج بعد الشدة: ص٢٣٨.

[٥٣] ابن المعتز طبقات الشعراء: ص٢١٤.

[٥٤] طبقات اشعراء: ص١٥٧.

[٥٥] تاريخ بغداد ٧/ ١٥٦ المثقال وزنه: اثنان وسبعون حبة من شعير الوسط : فقه الزكاة للقرضاوي ١/ ٢٥٣.

أمر أن ينقش على صفحتي الدينار اسمه والبيتان [٥٦]، وفي رواية أخرى [٥٧]:

ثلاث مئـــــين يكن وزنه   متى يلقه معـــــسر يوسر

وقد وجد منها بعد النكبة أربعة آلاف دينار في بركة داره الواقعة في سويقة جعفر [٥٨].

ومما يروى عن تشجيعه لأرباب الفكر ما يلي:

حينما احتفل بإحدى أعياد النيروز متأثرا بعادات الفرس، وتقاليدهم أعطى كل ما أهدي إإليه إبراهيم الموصلي وابنه إسحق، وسلم الخاسر فاقتسموه أثلاثاً، فكان مما اهدي إيه تمثال، فأراد أن يحتفظ به لنفسه، فأبي وقال: لا والله ما هكذا تفعل الأحرار، يقوَّم، ويهدي ثمنه ولما قوم بلغ ثمنه ألفا دينار فأعطاهما مقدار ما قوم به [٥٩].

وكان لا يتواني في إعطاء كل من نظم شعراً يمدحه.

فمن ذلك:

منح مروان بن أبي حفصة: ألفا وستمائة دينار على شعر أضافه إلى مرثيه لمعن بن زائدة [٦٠].

وحين ولّي خراسان مدحه الشعراء فكان منهم: أشجع السلمي، فاستحسن شعره فأعطاه ألف دينار، وخاطبه مخاطبة الأخ لأخيه، فاق به شعره فقال: له أشجع كفاني جودك ذل السؤال، فأعطاه ألفا أخرى [٦١].

ولما خرج إلى الشام حين انتدبه الرشيد للقضاء على الفتنة التي نشبت هناك بين النزارية واليمنية، كان أشجع يلازمة، فيعطيه كل أسبوع مائة دينار طوال بقائه ببابه [٦٢] كما أعطاه مائتي دينار،

---

[٥٦] تاريخ بغداد ٧/ ١٨٦ والبداية وا لهناية ١٠/ ١٤٦ والإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص١٥٠، ومحاضرات الأدباء ٢/ ٥٠٠، والوزراء والكتاب ص٢٤١ وغرر الخصائص الواضحة ص٣٣٤

[٥٧] تاريخ بغداد ٧/ ١٥٦، وغرر الخصائص الواضحة ص٣٣٤

[٥٨] الوزراء والكتاب: ص٢٤١.

[٥٩] الأغاني: ٢١/ ١٩٠-١٩١

[٦٠] الأغاني: ٢١/ ١٩٠ – ١٩١.

[٦١] طبقات الشعراء ص٤٥- ص٤٦، ووفيات الأعيان ٥/ ٢٥١ – ٢٥٢ وزهر الآداب: ١/ ٣٦٦ – ٣٦٧، وأخبار الشعراء المحدثين:ص٨٦، والمحاسن والمساوئ ١/ ٣٩٧ ومرآة الجنان ١/ ٣٢٠ وتاريخ بغداد ٧/ ١٥٣، وذكر أنه أعطى أبا علقمة الثقفي عشرة آلاف درهم لإنشاده الشعر

[٦٢] العباسي: معاهد التنصيص ٤/ ٥٩ وما بعدها ، والأغاني: ١٧/ ٣٢-٣٣.

ولأعرابي مائة على شعر أنشداه[٦٣]، وأعطاه مرة أخرى ثلاثة الاف، فعتب عليه، أنه أعطى أبا النضير عشرين ألفا، ومروان بن أبي حفصة ثلاثين ألفا فأعطاه عشرين ألفا أخرى[٦٤]؛ تطييبا لخاطره، وتشجيعا له.

ولم يقتصر عطاء جعفر على من ينظم الشعر، وإنما شمل من يقرأه له أيضاً، فحين ترك ابن مناذر قرض الشعر، لأمر لا نعرفه خيَّره بين أن يعود إلى نظمه، وإما أن يقرأه عليه، فإن عاد إلى نظمه أعطاه خمسين الفاً، وإن قرأه أعطاه عشرة آلاف فاختار قراءته[٦٥].

كما حرص على تشجيع كل من يحضر مجالسه الأدبية والعلمية؛ لهذا أعطى الأصمعي مكافأة قدرها: خمسمائة ألف درهم لحضوره مجلساً من مجالسه[٦٦] مما جعل الأصمعي يلهج بالثناء عليه[٦٧]، وقد تأثر أحد الشعراء لكثرة عطاياه فبكى وقال يا مخارق إذا عاشرت، فعاشر مثل هؤلاء[٦٨].

ولم تقف جهود البرامكة على بذل الأموال والجوائز والهبات على الشعراء فحسب، وإنما وقفوا معهم في السراء والضراء فأخذوا بأيديهم إلى دار الخلافة مدافعين عنهم، ومتشفعين لهم عند الرشيد.

فكان منهم الشاعر: كلثوم بن عمرو العتابي، وكان منقطعاً إليهم، وقد اختص بجعفر، ولما اعتنق مذهب المعتزلة، نما خبره إلى الرشيد، وكان الرشيد لا يؤمن بالاعتزال، فاغتاظ منه، وأراد القبض عليه، ومعاقبته، فاختفى عن الأنظار وضاقت عليه الارض بما رحبت، وأظلمت الدنيا في وجهه، فولى هارباً إلى اليمن، فعانى من المشقة والألم والبؤس والهوان، وقد عبر عما لاقاه ببيتين من الشعر عن قصيدة له فقال:

ما زلت في غمرات الموت مطرحا ... يضيق عني فسيح الرأي من حيلي

فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لي ... حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

---

[٦٣] أخبار الشعراء المحدثين:ص٧٩ والوزراء واكتاب ص٢٣٦ وتاريخ بغداد ٧/ ١٥٨ والاغاني٦٣-٦٦.

[٦٤] العباسي: معاهد التنصيص ٤/ ٦٧، وأخبار الشعراء المحدثين:ص٧٧ – ص٧٩ وقيل أعطاه مائة وللأعرابي ضعفها.

[٦٥] الأغاني ١٧/ ٤٩.

[٦٦] الوزراء والكتاب: ص٢٠٦.

[٦٧] خبار الشعراء المحدثين ص٨٦، ٨٧ الأغاني ٥/ ٢٦.

[٦٨] طبقات الشعراء ص٢١٤.

فلما علم يحيى بن خالد بما يعانيه تشفع له عند الرشيد، وذكر له من أخباره ما حبب الرشيد به، فمنحه الأمان، وأبدى رغبته في أن يستمع منه ولداه الأمين والمأمون، فلبى طلبه، فعظمت منزلته لديه، وحصل على جوائزه وهداياه (٦٩).

وأوصل الفضل بن سهل إلى الرشيد – وكان الفضل يدين بالمجوسية – فأثنى عليه عند أمير المؤمنين، مبينا ما يتمتع به من معارف وآداب جمة، مما حبب الرشيد به، فقال له: أدخل علي هذا الغلام المجوسي، فلما مثل بين يديه، أعجب بحلاوة لسانه، وعذوبة حديثه، وعلو كعبه في الأدب، فضمه لابنه المأمون (٧٠).

وأوصل الفضل بن يحيى الشاعر إبان اللاحقي: إلى الرشيد بعد أن ارتحل إلى بغداد فاحتلّ لدى البرامكة مكانة عظيمة، ومنزلة عالية، وغدا شاعرهم المفضل، وصديقهم الحميم، ومفرق جوائزهم على الشعراء، وكان يعتب عليهم، لأنهم لم يعملوا على إيصاله إلى الرشيد ليحظى بما حظي به غيره من الشعراء أمثال: مروان بن أبي حفصة، فلبوا رغبته، وأوصلوه إلى الرشيد بعد أن نظم قصيدة نالت إعجاب الفضل فقال له:

ما يرد على أمير المؤمنين شيء أعجب من أبياتك، وقد بدأها بقوله:

نشدت بحق الله من كان مسلماً.

فأعجب الرشيد بقصيدته، ونالت استحسانه، فكافأه عليها بعشرين ألف درهم، وحظي عنده، وجعله من خواص (٧١).

كما أوصل الفضل بن يحيى صديقهم الشاعر: منصور النمري إلى الرشيد، بعد أن كاتبهم من الشام طالباً منهم، أن يذكروه للرشيد، فلبى الفضل ما يطمح إليه، فأخبر الرشيد بأمره، وأثنى عليه، مبدياً ما يتمتع به من مواهب، فطلب الرشيد منه أن يتولى إحضاره، فجاء به إليه (٧٢)، وأوصل الفضل بن يحيى: أشجع السلمي إلى الرشيد، فمدحه بقصيدة نالت إعجابه،

---

(٦٩) وفيات الاعيان ٤/ ١٢٢-١٣٣، وزهر الأداب ٢/ ٦٢٠ والوزراء والكتاب: ص٢٣٣، والأغاني: ١٢/ ١٣ ومعجم الأدباء ١٧/ ٢٧، والتنوخي: الفرج بعد الشدة: ص٣٤٦ – ٣٤٧.

(٧٠) الوزراء والكتاب: ص٢٣١ والجاحظ:المحاسن والمساوئ ص٩-١٠.

(٧١) راجع القصيدة في كتاب الأغاني: ٢٠/ ١٨٥-١٨٦.

(٧٢) نفس المرجع ١٢/ ٣٦ و١٣٢.

واستحسانه، فتقدم عنده، وأصبح من المقربين إليه، فأغدق عليه من المال؛ ما جعله في رغد من العيش [٧٣].

واختار جعفر الأصمعي للرشيد وأوصله إليه بعد أن فضله على اللغوي الشهير أبي عبيدة، فحصل منه على أموال كثيرة [٧٤].

أثر التشجيع في رفع مستوى أهل الفكر:

فكان لتشجيع البرامكة لأهل الفكر، وعنايتهم بهم، ورعايتهم لهم، وإغداق الأموال عليهم، أثرها العظيم في رفع مستوى معيشتهم، ورفاهية الكثير منهم وهذا ما دفع الجاحظ إلى القول[٧٥]: "من صادق الكتّاب أغنوه، ومن عاداهم أفقروه".

فلبس العلماء والأدباء والمفكرون في تلك الفترة أجمل الثياب، وأحسن الحلل منها الوشي والمقطفات، والأردية، وغير ذلك [٧٦].

ولبس الكسائي الجِّربانات العظام، فلما رءاه بعض علماء الكوفة، وقد غير لباسه قال له متعجبا يا أبا الحسن: ما هذا الزي؟ فقال: أدب من أدب السلطان لا يثلم دينا، ولا يدخل في بدعة، ولا يخرج عن سنة" [٧٧].

ومن لم يكن له لباس يليق بمكانته أرسل إلى البرامكة طالبا منهم أن يمدوه بأحسن الثياب، فمن الشعراء الذين أرسلوا إلى البرامكة طالبين منهم أجمل الثياب: أبو قابوس الحيري، فقد بعث إلى جعفر بن يحيى طالباً منه: سراويل فارسية واسعة، وقميصا يلبس مع القنطان، وجبة وأردية من خز، وكان قد كساه قبل ذلك، فوجدها غير كافية فرغب في المزيد منها فقال:

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا ... رأيت مباهاة لنا في الكنائس

ولو كان ذاك المطرف الخز جبّة ... لباهيت بها أصحابي في المجالس

---

[٧٣] الأغاني ١٧/ ٧٧-٧٨ والعباسي: معاهد التنصيص ٤/ ٦٣ وفيات الأعيان ١/ ١٩٦ وذكر أن الذي أوصله هو الفضل بن الربيع عندما قال له: انه أشعر أهل هذا الزمان، وقد اقتطعه البرامكة منك

[٧٤] الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص١٧٥.

[٧٥] البيان والتبيين ١/ ٢٨١.

[٧٦] نفسه ٣/ ١١٥. الوشي: الثوب من كل لون والمقطفات هي قطيفة: وهي دثار مخمل وفي مختار القاموس: الجمع: قطائف وقطف. مادة القاف. الجربانات: القمصان.

[٧٧] القفطي: أنباه الرواة ٢/ ٢٦٦.

فلا بدّ لي من جبة من جباكم ... ومن طيلسان من جياد الطيالس

ومن ثوب قوهي وثوب غلالة ... ولا بأس أن تبعث ذاك بخامس

إذا تمت الأثواب في العيد خمسة ... كفتك، فلم تحتج إلى لبس سادس

فلبى طلبه وأرسل إليه عشر قطع من كل صنف (٧٨).

وركب الأصمعي البراذين المطهَّمة، فلما نكب البرامكة، وأبعد عن بغداد؛ لعلاقته الحميمة بالبرامكة ركب حماراً دميما، فتعجب كل من رءاه فقيل له أبعد براذين الخلفاء تركب هذا فقال:

أبت إلا أطرافا بودها ... وتكديرها الشرب الذي كان صافيا

شربنا برنق من هواها مكدَّر ... وكيف يعاف الرنق من كان صاديا (٧٩)

فكان لهذا أثره في نفوس الشعراء والأدباء، وأرباب العلوم، والفنون فأحبوهم حبا جماً، وتفانوا في خدمتهم وأنسوا بهم، وأحبوا مجالسهم، وودوا لو يفتدوهم بالنفس والنفيس، وقد عبَّر عن هذا الحب بعض أشياعهم:

فهذا الطبيب الهندي منكه يقول ليحيى بن خالد: بعد أن جاء من بلاده، وتعرف عليه، وعظمت مكانته عنده.: "لو أمكنني تخليف الروح عندك لفعلت" (٨٠)، وكتب سهل بن هارون إلى جعفر، وكان من الموالين للبرامكة(٨١):

إذا ما أتى يوم يفرّق بيننا ... فموت فكن أنت الذي يتأخر

وقال أبو زكار المغني حين رأى السياف يتأهب للإطاحة برأس جعفر: أنشدك إلا ألحقتني به! فقال له متعجبا: وما رغبتك في ذلك، فأجابه: أنه أغناني عن سواه بإحسانه، فما أحب أن أبقى بعده (٨٢).

---

(٧٨) الوزراء والكتاب ص٢١٠ – ص٢١١ والبغدادي تاريخ بغداد: ٧/ ١٥٧. والمُطْرف: بضم وكسر الميم واحد المطارف. وهي أردية من خز مربعة لها أعلام. القوهي: ضرب من الثياب البيض، غلالة: ثوب يلبس تحت الدرع

(٧٩) ربيع الأبرار للزمخشري: ١/ ٥٩٤. رنق: كدر. صاديا الصدى: العطش

(٨٠) محاضرات الأدباء ٢/ ٤٠٧.

(٨١) الصداقة والصدق ص٣٦٤.

(٨٢) الأغاني ٦/ ٤٤٦.

ووفاء للبرامكة: أقسم محمد بن إبراهيم الإمام، بالإيمان المؤكدة من طلاق وعتاق وحج أن لا يقف على باب أحد بعد البرامكة، ما دام فيه عرق ينبض، ونفس يتردد، فوفى بما عاهد الله عليه [٨٣].

وعندما حلت النكبة بالبرامكة، وأودع يحيى وبنوه في السجن، تشفع لهم بعض الشعراء، منهم: أبو نواس [٨٤] رغم ما بينه وبينهم من جفوة بسبب ما قيل عن مجونه، وأبو قابوس الحيري [٨٥]، وكان نصرانيا من أهل الحيرة، وكان منقطعا إليهم، فنظم قصيدةً يتشفع فيها للفضل ويمدحهم منها هذه الابيات:

أمين الله هب فضل بن يحيى ... لنفسك، أيها الملك الهمام

وما طلبي إليك العفو عنه ... وقـد قعد الوشاة به وقاموا

أرى سبب الرضا عنه قويا ... على الله الزيادة والتمام

نذرت على فيه صيام حول ... وإن وجب الرضـــى وجب الصيام

فكان لهذا التشجيع أثره في ازدهار الحركة الفكرية حيث أقبل المفكرون من علماء وشعراء وأدباء وكتّاب ومؤلفين ومترجمين وغيرهم على تثقيف أنفسهم. بمختلف الثقافات فقرأؤا شتى الكتب، لينهلوامن معينها، كي يحصلوا على جوائز، البرامحكة ويحتلوا مراكز مرموقة في الدواوين، ومكانه عالية لدى الخلفاء والوزراء، فبرزت صفوة من العلماء والأدباء والشعراء، والكتاب وغيرهم، فأثروا النهضة الفكرية، وانطلقوا بها إلى الأمام، فظهرت المؤلفات العلمية والأدبية والفلسفية، والمترجمات، وعقدت المجالس العلمية والأدبية، وغير ذلك. بما لا مثيل له في تاريخ الحضارات، مما يعتبر مفخرة للأمة الإسلامية على مدار التاريخ.

وبهذا كان البرامكة حاملي لواء الحضارة والتقدم. فجزاهم الله خير الجزاء على ما قدموا وأحسن الله إليهم كما أحسنوا لأهل الفكر، وأصحاب القلم.

---

[٨٣] الفخري: ص١٦٤ – ص١٦٥.

[٨٤] راجع ديوان أبي نواس: ٤٥٤ وعيون الأطباء لابن قتيبة ١/ ٢٢٧ والجاحظ، الحيوان: ٣/ ٦٣ – ٦٤ والراغب الأصبهاني: محاضرات الأدباء ١/ ١٨٤.

[٨٥] تاريخ بغداد ٧/ ١٥٧ – ١٥٨ ونسب العمدة ١/ ٦٠ للرفاتي ابيات تتفق مع ابياته ورسائل الثعالبي ١/ ٦٠، والأغاني: ١٥/ ٨٠ وخلاصة الذهب المسبوك ص١٤٨ والدميري: حياة الحيوان الكبرى: ٢/ ١٠٧، ومحاضرات الأدباء ٤/ ٥٣٢.

الفصل الثالث

دور البرامكة في ازدهار الشعر وتطوره

نشأ الشعر العربي فيما يبدو في عهد مبكر، مع أول من تكلم العربية؛ لأنه يعبر عن أحاسيس النفس، ومشاعر الفؤاد؛ لهذا قرضه كثير من أهل الجزيرة رجالا ونساء وأطفالا؛ لأن العربي شاعر بطبعه، والشعر متأصل فيه ومفطور عليه؛ فهو لأنه مرهف الإحساس، يشدو بشعره في حله وترحاله، وعند كل مشهد يثيره؛ لهذا غدا ديوان العرب، وسجل أمجادهم، وفضائلهم وسلمهم وحربهم، بل ومرآة حياتهم كلها: الأدبية، والعقلية، والحضارية، والاجتماعية، وقد برع فيه كثير من الشعراء، حتى غدا أحدى الفنون الأدبية الجميلة، فروى جيلا عن جيل، فكان منه المعلقات، والمذهبات، وغير ذلك[1]، وتعددت أغراضه وفنونه، فكان منه الحماسة والفخر، والغزل والمديح والرثاء، والهجاء، والعتاب والوصف وغير ذلك، وكثر الشعراء، فكان لكل قبيلة شاعرها المفضل، يذب عن حماها ويذيع فضائلها[2]، لهذا كانوا يقيمون اسواقا يتبارى فيها الشعراء ينشرون فيها فضائلهم ويحتكمون الى كبار الشعراء فكان من هذه الاسواق سوق عكاظ الذي كان يعقد كل عام وبهذا عظمت مكانة الشعروسمت منزلته.

ولما جاء العصر العباسي الأول أقبل الشعراء على قرضه بشوق شديد، واعتنوا بتهذيبه وتنقيحه، كي يحوز على إستحسان أرباب الدولة من خلفاء ووزراء، وعلى رأسهم البرامكة، وبذلك نما وترعرع، وتطورت فنونه فكان منه الشعر التعليمي مستخدمين له أخف الأوزان العروضية، فأصبحت ألفاظه تجمع بين الجزالة والرصانة والدقة والعذوبة[3]؛ لهذا فإننا إذا تجولنا في حدائق الشعر في هذا العصر، لا نجد فيه ما ينبوا على الذوق، أو يستهجن على السمع، أو يستعصى على الفهم.

---

[1] الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية: ص٢٦٣. الفن ومناهجه في الشعر ص١٤٨.

[2] راجع العمدة لابن رشيق ١/ ٨٢

[3] ضيف: العصر العباسي الأول: ص١٤٧. الجزيل: خلاف الركيك من الالفاظ والرصانة الرصين،المحكم الثابت.

كما هجرالشعراء كثيرا من الألفاظ البدوية الجافة، والتعابير الجاهلية (٤)، والمعاني القديمة التي كانت سائدة في العصور السابقة مؤثرين عليها ما سهل من الألفاظ الفصيحة كما تناول مظاهر الحياة الحديثة. وبهذا واكب الشعر الحياة العباسية الجديدة، فكان صورة مصغرة لما عليه هذا العهد من تطور سواء كان ذلك في الميدان السياسي، أو الاجتماعي، أو الحضاري، كما ظل يواكب حياة الخلفاء والوزراء وأخص بالذكر حياة البرامكة، وما يكتنفها من شدة ورخاء، وما يرفلون به من رفاهية ونعيم، وما يتقلدون من مناصب عالية. فتناول الشعراء في شعرهم وصف السهول الخصبة، والمروج الموشاة بمختلف ألوان الزهور، والرياض الغنّاء، والبرك والحدائق والمتنزهات، وأدوات الكتابة، كالأقلام والمحابر والسكاكين التي تبرى بها الأقلام والألواح، ومجالس العلم والأدب والغناء، وغير ذلك من مظاهر الحياة الجديدة (٥)، ولا يفوتني أن أذكر أن الشعر تناول الحياة العقلية في ذلك العهد، من زهد وفلسفة وزندقة وفسق، وبهذا أصطبغ الشعر بالصبغة الحضارية الجديدة.

وإذا بحثنا عن الأسباب التي تكمن وراء نهضة الشعراء، ومن يقف وراءها، لا يعوزنا البحث طويلا فقد كان أعظم من وقف وراءها هم البرامكة، حيث قاموا بتشجيع الشعراء وإغداق الأموال والهدايا عليهم، وبهذا وجد الشعر من التشجيع ما لم يلق في العصور الماضية (٦).

فقد عمل البرامكة: خالد بن برمك، وولده يحيى، وحفيداه الفضل وجعفر، بجد واجتهاد طوال تسلمهم سدّة الحكم على ازدهارالشعر، ورواجه في ربوع الوطن الإسلامي، فأنزلوا الشعراء من أنفسهم منزلة الصديق والقريب، فضموهم إلى حاشيتهم، وقربوهم منهم، وأتحفوهم بالهدايا والهبات كلما نظموا أبياتاً من الشعر، او قاموا بإنشادها.

وفتحوا لهم أبواب قصورهم يطرقونها متى شاءوا، وأنّى أرادوا، فرد هؤلاء الشعراء الجميل إليهم، فأطلقوا لعقائرهم العنان تشدو بمدحهم وتشيد بجهودهم، فكان البرامكة الأذن الصاغية التي لا تفتر عن سماع ما يلقى عليهم من قصائد طنانة. وهذا يعود إلى ما تحلوا به من ملكة شعرية، وحب للشعر والأدب وولع بهما.

---

(٤) تاريخ الادب العربي في الأعصر العباسية ص٤١.

(٥) راجع: العصر العباسي الأول: لضيف ص١٣٨ وما بعدها وتاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية ص٤٠، ومعالم الحضارة الإسلامية: للشكعة ص٢٨٣

(٦) حجاب: معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ص٤٤

وبهذا وجد الشعراء، في نظم الشعر وإنشاده مصدرا من مصادر عيشهم، فتكسَّبوا به، ووجدوا في البرامكة مرتع أحلامهم، ومعقد آمالهم، وكما قيل: من صادق الكتاب أغنوه؛ ولهذا راج الشعر بين الناس، وعمرت سوقه، وحملت الشعراء وعامة الشعب على الاقبال عليه والعناية في قرضه وهذه سنة الله في خلقه أن يروج من فنون الآداب ما لأرباب السلطان ولع به، والناس على دين ملوكهم.

وتكاثر الشعراء في هذه الفترة حتى بلغوا من الكثرة ما جعل نصيب الشاعر يقول مادحاً الفضل أبن يحيى [٧]:

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء

وقال أبو العذافر [٨]:

علم المفحمين أن ينطقوا الأشعار منا والباخلين السـخاء.

ديوان الشعر:

ولمّا وجد الشعراء من البرامكة كل عناية ورعاية وتشجيع أقبلوا إليهم من كل حدب وصوب، فأمطروهم بشعر المديح، فكانوا من الكثرة بحيث عجز البرامكة عن سماع كل ما جادت به قرائحهم، مما دفعهم إلى إنشاء ديوان الشعر، سنة ١٨٤ هـ على الأرجح [٩] وحددوا واجباته فيما يلي:

ان يتولى مهامّه أهل الأدب:

- الاستماع إلى قصائد الشعراء مهما بلغت من الكثرة.
- أن يميزوا بين الشعر الجيد، والشعر الرديء، بين الغث والسمين، وأن يسقطوا ما يرون إسقاطه، وأن يرشحوا منه ما يحسن عرضه على البرامكة.

---

[٧] الثعالبي: ثمار القلوب ص٢٠٣ والجراح: الورقة ص٤، ومحاضرات الأدباء ٢/ ٣٨٣ والكتبي: فوات الوفيات ٤/ ٢٠٥ والأغاني ٢٠/ ٨١، وابن خلكان وفيات الأعيان ٤/ ٣٥، والهشياري: الوزراء والكتاب: ص١٩٥، والجاحظ: الحيوان ٣/ ١١٧.

[٨] وفيات الأعيان ٤/ ٣٦ والوزراء والكتاب: ص١٩٥ والورقة ص٤ ومحاضرات الأدباء ٢٠/ ٣٨٣.

[٩] غربناوم: دراسات في الأدب العربي:ص١٤٩

- تحديد قيمة الجائزة التي يستحقها كل شاعر حسب جودة قصيدته [10]، مما دفع الشعراء إلى مراجعة قصائدهم قبل عرضها على ديوان الشعر، وأن يتناولوها بالتنقيح والتهذيب.

وقد اسند رئاسته إلى الشاعر: إبان اللاحقي [11]، فوضع الفضل تحت تصرفه مالا جزيلاً لهذا الغرض [12]، فكان إبان يثبت ما يجوز على رضاه، ويسقط ما يراه غثا [13]، ثم قام الفضل بعزله عن هذا المنصب وذلك بعد أن تحامل على أبي نواس فأسقط شعراً له، ووضعه دون منزلته ومنحه مرتبة دون مرتبته التي يستحقها [14]، فكافأه على قصيدته درهما زايفا ناقص الوزن، وهو يقول له [15]: إني أعطيت كل شاعر على مقدار شعره، وهذا أوفر نصيبك عندي"، فاغتاظ أبو نواس، ولم يرض بحكمه، فهجاه هجاء مرًّا، اتهمه فيه بالزندقة والإلحاد، فدافع عن نفسه، معددا فضائله، فهجاه مرة ثانية هجاء مقذعاً فلما بلغ جعفرا هجاؤه قال [16]. قد وصفه بخمس خلال لا تقبله السفلة على واحدة منها، فكيف تقبله الملوك، فقيل له: لقد كذب عليه، فتمثّل قائلا:

قد قيل ذلك إن حقا وإن كذبا ... فما اعتذارك من شيء إذا قيلا

فأقيل عن هذا المنصب واختفت أخبار هذا الديوان، فلم يذكر المؤرخون عنه شيئاً بعد ذلك.

وهناك رواية أخرى تشبه هذه الرواية ذكرها الجهشياري في كتابه مفادها [17]: "أن الفضل بن يحيى عندما عاد من خراسان بعد أن ولاه الرشيد عليها سنة ١٧٦ هـ، أحب الرشيد أن يكرمه، فدعا الشعراء إلى مدحه، والخطباء إلى الترحيب بمقدمه، فتكاثروا على بابه، فعجز عن الاستماع

---

[10] الأغاني ٢٠/ ١٨٠ وابن الأبار: أعتاب الكتاب ٨١-٨٢ وطبقات الشعراء ص٢٠٢، والصولي: أخبار الشعراء المحدثين ص٣٣، والعقد الفريد ٤/ ٢٠٣

[11] هو إبان بن عبد الحميد بن لاحق من أهل البصرة/ وكان شاعراً مكثراً انتقل إلى بغداد واتصل بالبرامكة، وتوثقت صلته بهم، وعلت منزلته لديهم، فكان لا يفارق جعفرا، نقل ليحيى بن خالد كتاب كليلة ودمنة شعرا، ت٢٠٠ هـ أنظر الزركلي: الأعلام ١/ ٢٠ – ٢١.

[12] العقد الفريد ٤/ ٢٠٣ – ٢٠٥، والوزراء والكتاب: ص٢١١ – ص٢١٢، وطبقات الشعراء: ص٢٠٢.

[13] طبقات الشعراء ص٢٠٢، وأخبار الشعراء المحدثين ص٣٣.

[14] الأغاني: ٢٠/ ١٨٠

[15] العقد الفريد ٤/ ٢٠٣، والوزراء والكتاب: ص٢١١ – ص٢١٢، وطبقات الشعراء: ٢٠/ ١٨٠

[16] طبقات الشعراء:ص٢٠٣ – ص٢٠٤.

[17] الوزراء والكتاب: ص١٩٢.

إليهم جميعا، فكلف أحمد بن يسار الجرجاني أن يستقبلهم ليستمع إلى قصائدهم، وأن يميز بين جيدها ورديئها، وأن يكافئ كل واحد على حسب ما تستحق قصيدته، فقام بذلك، فميز الشعر، وقدّر العطايا، وأغدق الأموال على الشعراء، ولما قدَّم: أبو نواس شعره، قال هذا لا يستحق قائله درهمين" وقد عزا الجهشياري هذا الحكم إلى مبغضي أبي نواس ومنهم داود بن رزين، ومسلم بن الوليد، وإبان اللاحقي، وأشجع السلمي، وغيرهم، حيث حرضوًا عليه، وطلبوا من الجرجاني أن يضع من شعره، وأن لا ينزله منزلة نظرائه من الشعراء، واستعانوا في إقناعه: بغالب بن السعدي لما يجمع بينهما من روابط متعددة، فحط من شأن أبي نواس، مما أوغر صدره فهجاه، كما هي عادة الشعراء، إذا غضبوا، أو حرموا شيئاً فقال فيها:

بم أهجوك لا أدري   لساني فيك لا يجري

ولما علم الفضل بذلك استرضى أبا نواس، وطيَّب خاطره، ومنحه من المال حتى أرضاه، وأقصى الجرجاني عن هذا المنصب.

ولا ندري أكان ذلك قبل إنشاء ديون الشعر أو بعده. فإذا أخذنا بما ذكره: غرنباوم في كتابه: دراسات في الأدب العربي ص١٤٩، يمكننا القول: أن ذلك كان قبل انشاء ديوان الشعر.

دعوة البرامكة الشعراء إلى نظم الشعر:

كما كان للبرامكة دورهم في ازدهار الشعر حيث استخدموه في حل بعض المشكلات السياسية، والاجتماعية التي يستعصي حلها إلا بواسطته فمن تلك:

عندما نقض نقفور ملك الروم الصلح الذي أبرمه مع المسلمين سنة ١٨٧هـ، لم يتجرأ أحد من حاشية الرشيد إخباره بذلك خوفا من غضبه، كما استعجم على وزيره يحيى بن خالد ولم يستطع مفاتحته، فأوكل الأمر إلى الشعراء، فأبوا ذلك، فأخذ الشاعر أبو محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بالمكّي [١٨]على عاتقه مفاتحة الرشيد بأبيات من الشعر بدأها بقوله:

نقض الذي أعطيته نقفور   فعليه دائرة البوار تدور

---

[١٨] تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٩١ وقيل أن القائل هو الحجاج بن يوسف التميمي، وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء ٢/ ٨٢، أن القائل هو عبدالله بن يوسف التميمي: استعجم: لم ينطق بكلمة.

فوقع الخبر على قلب الرشيد وقوع الصاعقة، فقال: أو قد فعل نقفور ذلك؟ وقال مخاطبا يحيى: قد علمت أنك اختلفت في إسماعي هذا الخبر على لسان المكي، ولم يتردد الرشيد في إعداد العدة، ومهاجمة نقفور في عقر داره حيث مدينة هرقلة، فمن الله عليه بالنصر، والفتح المبين [١٩].

كما جعل البرامكة للشعر وظيفة اجتماعية، ووسيلة لرأب الصدع، وجمع الشمل بين المتحابين، فكان يحيى كثيرا ما يحث الشعراء على نظم الشعر لحل هذه المشكلات، وقد ظهر هذا من خلال عدة حوادث منها:

حين غضب الرشيد على جاريته: ماردة، فتقاطعا رغم وشائج الحب التي تربط بينهما، فرغب في رأب الصدع، وأن تعود المياة إلى مجاريها، فلما علم يحيى بما يعانيه الرشيد من مرارة الهجران، ولواعج الحب، أراد أن يكون رسول وفاق بينهما فدعا العباس بن الأحنف، فجاءه إلى دار الرشيد، فطلب منه أن ينظم شعرا يضع فيه حدا لهذا الخصام، حيث أن كل واحد منهما عاتب على الآخر، ويأبى الاعتذار لصاحبه، فهي بدالة المعشوق تأبى، وهو بعز الخلافة، وشرف الملك، وقد اختاره لهذه المهمَّة لأنه خير من يقوم من الشعراء الظرفاء بذلك، فنظم أبياتاً بدأها بقوله [٢٠].

العاشقان كلاهما متغضب ... وكلاهما متوجد متعتب

صدّت مغاضبة وصد مغاضبا ... وكلاهما مما يعالج متعب

راجع أحبتك الذين هجرتهم ... إن المتيَّم قلما يتجنب

فكان للأبيات وقعها لدى المحبين فعادا إلى سابق عهدهما.

---

[١٩] الوزراء والكتاب:ص١٠٧ وتاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٩١ – ٦٣ والأغاني: ١٧/ ٩٠ والقلقشندي: مآثر الأناقة في معالم الخلافة ١/ ١٩٥ – ١٩٦ وصبح الأعشى: ١/ ١٩٢ وابن الأثير: المثل السائر: ٢/ ٢٤٤، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٦٢ والغراء: الرسل والملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة:ص٤٢ – ص٤٣.

[٢٠] القصة طويلة: راجع في ذلك: العقد الفريد ٦/ ٣٨٥ – ٣٨٨ ووفيات الأعيان ١/ ٤٣، و٣/ ٢١، والأغاني ٥/ ٦٨ – ٦٩، والنجوم الزاهرة ٢/ ١٢٦، ومرآة الجنان ص٤٢٠ – ص٤٢١، ومعاهد التنصيص للعباسي ١/ ٥٤ – ٥٥.

وقيل [٢١] أنه كان ليحيى جارية تدعى خلوب تحظى بمستوى عال من العلم والأدب؛ لهذا ما برحت تجالس الأدباء، وتناقض الشعراء فحينما جاء الشاعر العتابي، رغب يحيى في سماع شعره، فقال لها: سليه: لإبطائه عنا، فقالت للعتابي: قل على هذه القافية:

إذا شئت أن تقلى فزر متواترا   وإن شئت أن تزداد حباً فزر غبًّا

فأجابها قائلا:

بقيت بلا قلب لأني هائم   فهل من معير يا خلوب بكم قلبا

ومضى ينشد شعره إلى أن ختم الأبيات ببيتها، فأعجب يحيى بشعره، واهتز طربا، وقال له: لله أبوك أحسنت! خذ بيدها، فهي لك، ومنحه مكافأة مالية.

كما كان ليحيى بن خالد جارية أخرى تدعى خنساء، وكانت شاعرة تتسم بالظرف، فبينما كانت في مجلسه، دخل عليه بعض الشعراء، فطلب منه أن يمازحها ويداعبها بشعره، فقال فيها بيتين استهلهما بقوله:

خنساء يا خنساء حتى متى   يرتفع الناس وتنحط

فردت عليه قائلة:

وكيف منجاي وقد حفَّ   بحر هوى ليس له شط [٢٢]

وبلغ بيحيى حب الشعر والرغبة في سماعه أنه كان كثيراً ما يطلب من الشعراء أن ينشدوه ما نظموا من شعر جيد، فمن ذلك [٢٣]:

حينما دخل أبو نواس على يحيى ذات يوم، طلب منه أن ينشده بعضا من شعره فأنشده:

إني أنا الرجل الحكيم بطبعه   ويزيد في علمي حكاية من حكى

أتتبع الظرفاء أكتب عنهم   كما أحدّث من أحبّ فيضحكا

---

[٢١] الوشاء: الموشى: أو الظرف الظرفاء ص٤٨.

[٢٢] الزجاج: الأمالي: ٩٨ وطبقات الشعراء ٣٣١ – ٣٣٢، ونسب الأبيات الى شارد ة المخنث مع اختلاف في بعض الألفاظ.

[٢٣] الحصري: جمع الجواهر ١/ ٢٦ وزهر الآداب ١/ ١٦٢ – ١٦٣.

فقال يحيى يا أبا علي: إن زندك ليوري بأول قدحه، فارتجل قائلا:

أما وزند أبي علي إنه زند إذا استويت سهل قد حكا
إن الإله لعلمه بعباده قد صاغ جدك للسماح ومنحكا
تأبى الصنائع همتي وقريحتي من أهلها، وتعاف إلا منحكا

وحين دخل يحيى بستان داره تصحبه جاريته: دنانير فرأي جمال الورد وبهجته فقال لها أجيزي[٢٤]:

الورد أحسن منظرا فتمتعوا باللحظ منه

فقالت على الفور:

فإذا انقضت أيامه ورد الخدود ينوب عنه

فنال قولها إعجاب يحيى، فأمر لها بمال جزيل[٢٥].

اما الفضل بن يحيى فسار على نهج أبيه فشجع على نظم الشعر وإنشاده فمن ذلك: حينما كان على رأسه إحدى وصائفه من اللاتي حباهن الله بالحسن والجمال، وكان عنده الشاعر: مسلم بن الوليد، فأخذ مسلم يختلس النظر إليها – والنظر سهم مسموم من سهام إبليس – فلحظ الفضل ذلك، وعرف أن قلبه قد علق بها، فبادره بالقول: قد وحياتي يا أبا الوليد أعجبتك، فقل بها أبياتا حتى أهبها لك، فأجابه متغزلا في أبيات منها:

إن كنت تسقين غير الراح فاسقيني كأسا ألذ بها من فيك تشفيني

فاستحسن الفضل أبياته، وسر بها، فقال له: خذها بورك لك فيها، ثم أرسلها إليه مع بعض خدمه[٢٦].

---

[٢٤] علي بن ظافر الأزدي: بدائع البدائه ص٩١ تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم.

[٢٥] بدائع البدائة للأزدي ص٩١.

[٢٦] ذيل شرح ديوان صريح الغواني، مسلم بن الوليد

أما جعفر: فقد أخذ على عاتقه طوال حياته تشجيع الشعراء على نظم الشعر، وإنشاده؛ رغبة منه في نهضة الشعر، فمن ذلك:

لَمَّا غضب الرشيد على جارية له، وأقسم على مقاطعتها، ثم ندم على ما بدر منه، فطلب من جعفر أن يأتي له بشاعر ليزيد على بيتين قالهما:

صدَّ عنّي إذ رآني مفتتن ... وأطال الصدَّ لَمَّا أن فطن

كان مملوكي فأضحى مالكي ... إنَّ هذا من أعاجيب الزمن

فأرسل جعفر في طلب أبي العتاهية – وكان سجينا بعد أن فضَّله على غيره من الشعراء لإعجابه به، ولما مثل بين يديه، أبدى له رغبة في أن يزيد على بيتي الرشيد، ثم أمر له بصلة سنية، فسر لذلك سرورا عظيما وقال:

الآن طاب القول، وأنشد ابياتا منها:

عزة الحبّ أرته ذلتي ... في هواه وله وجه حسن

فقال الرشيد: أحسنت والله، وأصبت ما في نفسي[٢٧]:

ورغبة في نهضة الشعر وازدهاره كان جعفر كثيرا ما يطلب من الشعراء أن ينشدوه ما نظموا من شعر جيد تخليداً لذكرى من قيل فيهم، فحينما مدحه مروان بين أبي حفصة ذات يوم، طلب منه أن ينشده مرثيته في معن بن زائدة والتي منها:

وكان الناس كلهم لمعن ... إلى أن زار حفرته عيالا

فلما فرغ من إنشاده كافأه عن معن مما دفعه إلى أن يزيد عليها أبياتاً يمدحه فيها منها:

نفحت مكارما عن قبر معن ... لنا مما تجود به سجالا[٢٨]

وعندما كان بالصالحية، وبرفقته الشاعر: أشجع السلمي، جاءه أعرابي من بني هلال يبثه شكواه، بكلام فصيح، استدرَّ به عطفه، فسأله عم إذا كان ينظم الشعر، فأجابه أنه كان ينظمه وهو حدث، وقد تركه بعد ان تقدم سنه، وأصابته الشيخوخه فطلب منه أن ينشده لشاعرهم حميد بن ثور، فأنشده قائلا:

---

[٢٧] الأغاني: ٤/ ١٢٨٨

[٢٨] طبقات الشعراء: ص٤٥ – ص٤٦ ، وفيات الأعيان ٥/ ٢٥١ – ٢٥٢، ومرآة الجنان لليافعي ١/ ٣٢٠: وزهر الآداب ١/ ٣٩٧. سجالا: السجل، الدلو العظيمة المملوءة.

لمن الديار بجانب الحمس[29] لمحط ذي الحاجـــات بالنفس

حتى أتى على آخر القصيدة ثم طلب منه أن يصف موضعهم فقال:

قصور بالصالحية كالعذارى لبسن ثيابهن ليوم عرس

ومضى ينشد شعره حتى آخر الأبيات، فقال جعفر: كيف ترى صاحبنا يا هلالي؟ فقال الأعرابي: أرى خاطره طوع لسانه وبيان الناس تحت بيانه، وقد جعلت له ما تصلني به فقال جعفر: بل نفدك يا أعرابي ونرضيه فكافأهما[30].

وكان من سياسة جعفر بن يحيى العمل على أن لا يهجر الشعراء قرض الشعر، لأنه يرى في قرضه مكسبا للنهضة الشعرية والأدبية فمن ذلك ما يرويه سفيان بن عيينة قائلا: كلمني ابن مناذر بعد أن هجر الشعر أن أكلم له جعفراً، فكلمته، فقال: إن أحب أن يعود إلى الشعر أعطيته خمسين ألفاً، وإن أحب أن أعطيه على قراءته أعطيته عشرة الآف، فذكرت له ذلك، فقال آخذ على القراءة فإني لا آخذ على الشعر وقد تركته[31].

المجالس البرمكية:

وكان لما يعقده البرامكة في بيوتهم من مجالس ومناظرات أدبية وعلمية يشارك فيها العلماء والأدباء، وأصحاب المذاهب، والرأي على مختلف توجهاتهم، وآرائهم السياسية والفلسفية والعلمية أثرها في نهضة الشعر لما اشتملت عليه من محاورات بين أهل الكلام من معتزلة وإمامية وغيرهم، فتسرب ذلك إلى الشعراء وغيرهم، فاكتسب الشعر كثيرا من معانيهم، وخواطرهم فتطورت أغراضه وظهر فيه أثر هذه المجالس في خصب الخيال، وبراعة الفكر[32]، وحسن البيان، وجمال الأسلوب. ولعل أكثر ما تأثر به الشعر ما دار في الندوة التي عقدها يحيى في بيته والتي حضرها كبار العلماء في عصرهم، فتناولوا فيها مختلف المواضيع الكلامية الفلسفية كما تناولوا موضوع العشق[33]، فظهر أثرها واضحا في فن الغزل[34].

---

[29] الحمس: لقب قريش وكنانة وجديلة ومن تابعهم في الجاهلية لتحمسهم في دينهم..

[30] الصولي: أخبار الشعراء المحدثين ص٧٧ – ٧٩. والأصبهاني: الأغاني ١٧/ ٦٣ – ٦٤.

[31] المصدر السابق: ص١٧ – ٤٩.

[32] طه حسين: من تاريخ الأدب العربي ٢/ ١٣٩، والمجموعة الكاملة لطه حسين ٢/ ٣٥٤

[33] غزبناوم: دراسات في الأدب العربي: ص٨٧.

[34] راجع مروج الذهب ٣/ ٣٧١ – ٣٧٢ ووفيات الأعيان ٤/ ٢٦٦.

فعند المقارنة بين آراء المتحدثين في هذه المجالس، وما ورد على لسان العباس بن الأحنف في شعره نرى الانسجام الفكري بينه وبينهم[٣٥]، وبذلك تطورت أغراض الشعر في هذا العصر واشتمل على معانٍ جديدة، وعبارات رقيقة وأسلوب مونق، وديباجة مشرقة وخيال بديع[٣٦].

وعلى الرغم أن شعراءنا الأوائل قد نظموا فنوناً شتى من الشعر إلا أنهم لم يمارسوا جميع فنونه لعدم الحاجة إليها في ذلك الوقت، ولما تطورت الحياة العقلية والعلمية والأدبية استدعت الحاجة إلى ابتداع فن جديد لم يكن للعرب عهد به من قبل، وهو الشعر التعليمي لسهولة حفظه، وخفة وزنه [٣٧]، وصاغوا في هذا الفن الجديد كثيراً من المعارف الإنسانية كالتاريخ والأمثال، والقصص الخيالية وبعض العلوم.

ولعل أول من حفز الشعراء ودعاهم إلى ذلك هم البرامكة [٣٨]، لأنهم احتاجوا إلى حفظ بعض الكتب والأمثال، والحكم والآداب، فأمر يحيى بن خالد، أن ينظم الشعر التعليمي لتحقيق غرضه، وكان في البدايه قد وقع اختياره على أبي نواس طالبا منه أن يترجم له كتاب كليلة ودمنة شعراً، فاعتذر عن ذلك؛ لانشغاله، وعدم تفرغه لمثل هذا العمل، فتحول إلى شاعرهم المقرب إبان اللاحقي، وكان صديقا لهم، ومفرق جوائزهم على الشعراء فاستجاب لطلبه، وانقطع لذلك ملتزما بيته لا يغادره، حتى انجز عمله في أربعة أشهر، بلغ عدد أبيات الكتاب ما يقارب الخمسة آلاف بيت[٣٩] فبلغ فيها من الإجادة بحيث قيل [٤٠]: (لم يقدر أحد من الناس أن يتعلق عليه بخطأ في نقله، ولا أن يقول ترك من لفظ الكتاب أو معناه) وذكر الصولي: "أن كل كلام نقل إلى الشعر، فالكلام أفصح منه إلا كتاب كليلة ودمنة" [٤١].

---

[٣٥] ضيف العصر العباسي الأول ص٤٦٤.

[٣٦] راجع كتاب الفن ومذاهبه في الشعر: ص١٤٨

[٣٧] حجاب: معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول: ص٩٩.

[٣٨] اختلف الباحثون في تاريخ ظهور الشعر التعليمي، فهناك من يرى أنه نشأ في أواخر العصر الأموي مثل أراجيز رؤبة والعجاج وغيرهما، وهناك من يرى أن الأراجيز ليست شعراً تعليمياً، وإنما هي شعر لغوي. هدارة: اتجاهات الشعر العربي:ص٣٥٦.

[٣٩] طبقات الشعراء: ١٤٠ – ١٤١ الأربلي:خلاصة الذهب المسبوك: ٤٨١ وذكر أنه نظمه في ثلاثة أشهر. عدد أبياته أربعة عشر ألف بيت.

[٤٠] طبقات الشعراء:ص٢٤٠ – ٢٤١.

[٤١] أخبار الشعراء المحدثين ٢٢١.

ويعتبر هذا الكتاب أول كتاب تم ترجمته من النثر إلى الشعر، فاختار إبان من الأوزان ما سهل، مبتدعا أوزانا جديدة لم يكن للعرب بها عهد من قبل، وهو قالب المزدوج [٤٢].

ومما يؤسف له أنه لم يصلنا من الكتاب إلا سبع وأربعون بيتاً ذكرها الصولي في كتابه الأوراق [٤٣].

وقد بدأ الكتاب بقوله:

هذا كتـــــــــاب أدب ومحنة	ذاك الذي يدعى كليلة ودمنة
فيه احتيـــــــالات وفيه رشد	وهو كـــــتاب وضعته الهند
فوصـــــــــفوا آداب كل عالم	حكايـــــة عن ألسن البهائم

وعندما قدم الكتاب ليحيى فرح بهذا الإنجاز العظيم وكافأه عليه مكافأة حسنة [٤٤]، مما حفزه إلى مواصلة التأليف شعراً على نمطه، ثم انتقل من نقل الكتب المترجمة إلى وضع الكتب في الفقه الإسلامي، والتاريخ والحكمة والقصص، والعلم وغير ذلك.

ونظم قصيدة سماها: ذات الحلل، ضمنها تاريخ الخليقة، ومختلف الموضوعات العلمية إلى أن انتهى بعلم المنطق، فتأثر به الشعراء وساروا على نهجه، فنظموا في شتى ضروب العلم، فخلفوا لنا كثيرا من فنون النحو والفقه والطب والمنطق والتاريخ وكل ماجاءت به الشرائع.

ونظم أبو العتاهية في الدعوة والإرشاد، والوعظ [٤٥]، وفي الحكم والأمثال قصيدة سماها ذات الأمثال بلغ عدد أبياتها أربعة آلاف بيت[٤٦]. ثم تتبع الشعراء خطاهم في مختلف العصور [٤٧] وساروا على منوالهم.منهم محمد بن ابراهيم الفزاري فقد نظم في علم النجوم والاصمعي في ذكر الملوك والجبابرة وغيرهم.

---

[٤٢] المزدوج: لا يلتزم فيه الشاعر قافية واحدة، وإنما جعل لكل بيت قافية خاصة به وتتقابل في شطريه

[٤٣] راجع الابيات في كتاب أخبار الشعراء: كتاب الأوراق جمع: ج هيورت:ص٩١.

[٤٤] كافأة يحيى على ذلك عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار، واكتفى جعفر بأن يكون راويه، فتصدق بثلث ما أعطي، راجع كتاب أخبار الشعراء المحدثين ص٢

[٤٥] جرجي زيدان: تاريخ آداب العرب ٣/ ١٥٦ العصر العباسي الأول:ص١٩١، حجاب: معالم الشعر واعلامه في العصر العباسي الاول ص١٠٢

[٤٦] تاريخ أداب العرب ٣/ ١٥٦ وهدارة اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: ص٣٥٩.

[٤٧] راجع فصل: الترجمة في هذا البحث

كما كان للبرامكة أثرهم غير المباشر في الشعر فحينما قتل جعفر رثته جاريته بكلام على وزن شعبي فاعلن مستفعلن مرتين أو على وزن فاعلاتن مرتين وهي تقول يا مواليا بكلام فصيح فسمي بهذا الإسم، ثم تحول هذا الشعر بعد ذلك إلى العامية[٤٨].

الترجمة:

كما كان للترجمة أثرها في الحياة العقلية عامة، في العصر العباسي الاول، كان لها اثرها في الشعر العربي خاصة، بعد ان اهتم بها البرامكة فأولوها عنايتهم ورعايتهم، فأغدقوا الاموال والهدايا والجوائز على كل من يترجم كتابا عن شتى اللغات الهندية والفارسية واليونانية والرومية، فتم ترجمة كثير من الكتب في فترة وجيزة.

فانكب الشعراء يتدارسونها ويلتمسون فيها المعرفة ليغذوا بها عقولهم فيظفروا بالمتعة الثقافية المنشودة لأن الشعراء وجدوا في هذه المترجمات كثيرا من الوان الادب والفلسفة والعلم وغيرذلك، فصاغوها في قصائدهم. ونقلوا ما وجدوا فيها من حكم وامثال في عيون قصائدهم. فمن الشعراء الذين تأثروا بكتب الترجمة ابو العتاهية في شعر الزهد وبشار بن برد في المشورة وابو نواس في علم الطبائع، وابان اللاحقي في نظمه كليلة ودمنة شعرا فكان لذلك اثره فيما صاغه الشعراء من حكم وامثال ،وتأثر الشعراء بكتابي الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع و بما نقله من تجارب فارس وحكمهم، وما ابدوا من وصايا سواء ما تعلق بالمشورة او الصداقة والصديق ، او السياسة ، وآداب السلوك ، وتأثر صالح بن عبد القدوس بأمثال الوزير الفارسي بزرجمهر حتي قيل إنّه اقتبس الف مثل للعجم .

كما كان لتأثير الكتب المترجمة عن الثقافة اليونانية أعمق الاثر في شعر الشعراء ، فظهر الفكر الفلسفي ، وابواب المنطق ، وما يتناول من اقيسة وادلة ،بعثت الشعراء على استنباط ما يتعلق بالمعاني واستكشاف دقائقها .

وهناك الكثير من الشعراء شحذوا قرائحهم ، واذهان من حولهم من الشعراء ،فنظموا قصائدهم ،فكانت صورة معبرة عن محصولهم الفكري من الثقافات المتعددة [٤٩].

وهكذا كان لاهتمام البرامكة بالترجمة ، والاخذ بأيدي المترجمين اثره الواضح في الشعر العباسي .

---

[٤٨] راجع كتاب العصر العباسي الاول فصل ازدهار الشعر لشوقي ضيف.

[٤٩] راجع الفصل الرابع:ازدهار الشعر في كتاب العصر العباسي الاول لشوقي ضيف: ص١٣٨-٢٠٠.

مجالس الغناء :

وكما كان للمجالس الادبية والعلمية اثرها في الشعر العربي ، كان لمجالسهم الغنائية اثرها في ازدهار الشعر ونهضته ، لان كثيرا منها و التي يحضرها الرشيد والبرامكة يحيى بن خالد واسحاق الموصلي ما تنقلب الي مجالس أدبية رائعة (٥٠). كما وان كثيرا من مجالس الغناء يتناول الحاضرون فيها الشعر والقصص والفكاهات والنوادر والملح ، والنقد الادبي وغير ذلك (٥١). فأدى ذلك الى اشتهارالكثيرمن شعر المحدثين بين عامة الشعب ، وتداول شعرهم وروايته وشيوعه بين كثير من الناس ، وهذا مما دفع ببعض الكتاب الى القول (٥٢):" ان الغناء كان العامل الاول والاخير في انتشار شعر المحدثين "

كما كان لمساهمة القيان اثرهن الكبير في ازدهار الشعر ورواجه بين مختلف الاوساط، لأنَّ كثيرا منهن قد بلغن من العلم والادب والشعر مبلغا عظيما ، لان أربابهن قد اعدوهن لهذا الغرض اعدادا متميزا ، فكان ابراهيم الموصلي يقوم بتعليم ثمانين جارية ضروبا مختلفة من الادب والغناء (٥٣).

وحذا حذوه ولده اسحق ، فما برح يقوم بتعليمهن الشعر والغناء (٥٤). وكذلك فعل ابن جامع ، ويزيد بن العوراء ، وبعض الجواري ممن يحسن ذلك (٥٥).

وما ذلك الا بسبب ما وجدن من التشجيع والاهتمام من البرامكة ، والمبالغة في ارتفاع اثمان من يجدن الشعر والغناء ، لان الكثير منهن برعن في قرض الشعر امثال عنان جارية الناطقي ، وسكن جارية محمود الوراق، ودنانير جارية البرامكة ، وخلوب وخنساء جاريتا يحيى بن خالد وغيرهن ، كما كان لهذه الجواري الاثر الكبير في شيوع الرقة والظرف في الشعر والشعراء ، ووضوح المعاني تبعا لرقة مشاعرهن واحاسيسهن واذواقهن (٥٦). وهكذا كان

---

(٥٠) مروج الذهب للمسعودي:٣/ ٣٦٤-٣٧٠.

(٥١) السباعي: من روائع حضارتنا ص١٦٣ وضيف:العصر العباسي الاول.

(٥٢) ضيف: العصر العباسي الاول ص ٦٣

(٥٣) نفسه ص ٦٢.

(٥٤) حجاب: معالم الشعر واعلامه ص ١٦.

(٥٥) ضيف: العصر العباسي الاول ص ٦٢.

(٥٦) بروكلمان: تاريخ الادب العربي ١/ ١١

للبرامكة الاثر العظيم في ازدهار الشعر بسبب تشجيعهم للغناء والمغنيين حتى بلغوا مكانة عالية في الغناء والشعر .

وخلاصة القول: فقد كان لسياسة البرامكة التي انتهجوها، في مختلف الميادين أثرها الواضح في ارتقاء الشعر وتطوره سواء من حيث المعاني، أو النظم أو الصياغة، أو القوافي والأوزان، لأن القافية في نظر الشعراء تشكل عبئا ثقيلاً عليهم تمنعهم من التحليق في سماء الشعر، مما يضطر بعض الشعراء إلى التكلف، والاسفاف في نظمه [٥٧]، في بعض الاحيان لذلك؛ استحدث الشعر التعليمي، كما كان للبرامكة دورهم في تطور الشعر في حياتهم، كان لهم أثرهم بعد مماتهم، فاستحدث شعر المواليا.

---

[٥٧] راجع كتاب معالم الشعر وأعلامه لحجاب ص١٢٥.

الفصل الرابع

دور البرامكة في ازدهار النثر الادبي وتطوره

ازدهر النثر الأدبي في العصر العباسي الأول، وتطور تطوراً رائعاً، وتعددت فنونه، فكان منه العلمي والتاريخي والقصصي والأدبي والفلسفي والرسائل بشتى ألوانها: الديوانية، والاخوانية، وعلى المؤلفات في السير والتاريخ والآداب والعلوم، مما يدل على الجدة والتطور والنماء، فكان بهذا أكثر تطوراً من الشعر، وبذلك حقق كثيراً من الرقي العقلي، والتقدم الفكري، والازدهار الأدبي بما لم يسبق له مثيل(١).

وصيغ بعبارات أدبية بديعة، وأساليب لا غموض فيها، ولا تعقيد، وألفاظ منمقة جميلة تجمع بين الجزالة والرصانة (٢).

وكثر الكتاب في هذه الفترة كثرة عظيمة، حتى غدت الدولة العباسية حلبة الكتاب، مثلما كانت الدولة الأموية حلبة الشعراء (٣).

وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن الأسباب الكامنة وراء ذلك؟ فمن غير المشكوك فيه ان هناك أسباباً من أبرزها فيما أحسب:

١- أدب البرامكة:

فمن المعروف أن البرامكة كانوا أرباب فصاحة وبلاغة وأدب، فكان لهم القدح المعلّى فيما دبجوا من توقيعات ورسائل احتلوا بها مكانة عالية فاقوا فيها كثيراً ممن عاصرهم من الكتاب والأدباء، فنالوا من الشهرة حتى ضرب ببلاغتهم الأمثال، لهذا أقبل الكتاب والأدباء على قراءة أدبهم ودراسته، فتأثروا به وساروا على نهجه حتى قيل إنهم كانوا الممهدين لطبقة أهل القلم، بعد عبد الحميد الكاتب، وأساتذة مدرسة البديع(٤).

---

[١] طه حسين: من حديث النثر والشعر ص٢٨،وضيف:العصر العباسي الأول ص٤٤١-ص٤٤٢.

[٢] فروخ: تاريخ الأدب العربي ص٤٥ وضيف: العصر العباسي الأول ص٤٤٢، الجزل والجزيل: خلاف الركيك من الألفاظ والرصين: المحكم الثابت

[٣] أخبار أبي تمام ص١١٩

[٤] ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي ص١٩٦-١٩٧

فمن الكتاب الذين تأثروا بالبرامكة: عمرو بن سعدة، وابن سيابه، والحسن بن سهل، وغيرهم كثير، ويظهر هذا التأثر واضحاً في توقيعاتهم ورسائلهم، فمن ذلك:
عندما تقدم غلمان جعفر بن يحيى إليه طالبين منه زيادة رواتبهم ألقى الكتاب إلى كاتبه عمرو بن مسعدة، فوقع عليه قائلاً:(٥)
"قليل دائم خير من كثير منقطع" فنال هذا التوقيع إعجاب جعفر، فضرب بيده على ظهره، وقال له: أي وزير في جلدك.
كما نسب مثل هذا القول إلى أنس بن أبي الشيخ مع يحيى بن خالد فقال له يحيى: قد فاض منها رائحة الوزارة(٦).

ولكي ندرك مدى التشابه بين أسلوب عمرو بن مسعدة، وأسلوب جعفر يحسن بنا أن نعرض هذه الرسالة التي كتبها عمرو إلى الحسن بن سهل، فقال فيها(٧): أما بعد: فإنك ممن إذا غرس سقى، وإذا أسس بنى، ليستقيم تشييد أسه، ويجتني ثمار غرسه، وثناؤك عندي قد شارف الدروس، وغرسك مشرف على اليبوس، فتدارك بناء ما أسست وسقي ما غرست إن شاء الله".
ففي ظلال هذه الرسالة يتضح لنا ما يلي:
تأثره بأسلوب جعفر، حيث تأنق في رسالته، فبناها على السجع، كما يظهر ولعه بالإيجاز، ودقته في اختيار ألفاظه (٨)، شأنه في هذا شأن جعفر في رسائله، ورغم قلة كلماته، فإنها تتضمن كثيراً من المعاني.
كما يبدو أثر البرامكه واضحاً للعيان في تلك الرسالة التي كتبها إبراهيم بن سيابة ليحيى بن خالد معتذراً له عما بدر منه، وكان قد هجاه في قصيدة أودت إلى القطيعة بينهما، وقد بلغت

---

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤٧٦ ومحاضرات الأدباء ٢/ ٥٩٣.

(٦) الثعالبي: خاص الخاص ص٩١.

(٧) معجم الأدباء: ١٦/ ١٣٠-١٣١ الدروس جمع درس: محي، ومشف: مشرف.

(٨) ضيف: العصر العباسي الأول ص٥٥٥.

الرسالة من الحسن لانتقاء ألفاظها، واختيار معانيها، وكثرة السجع، وحسن الصنعة ما جعل أهل بغداد يحفظونها عن ظهر قلب، ولا عجب في هذا فقد قال فيها(٩):

"للأصيد الجواد الواري الزناد، الماجد الأجداد، الوزير الفاضل، الأشم الباذل اللباب الحلاحل، من المستكين المستجير، البائس الضرير، فإني أحمد الله ذا العِّزة القدير، إليك والى الصغير والكبير، بالرحمة العامة، والبركة التامة.

أما بعد: فاغنم واسلم، واعلم إن كنت تعلم، إنَّه من يرحم يُرحم، ومن يحرم يُحرم، ومن يحسن يغنم، ومن يصنع المعروف لا يعدم (جوازيه)، وقد سبق إليَّ تغضبك عليَّ...الخ.

ويبرز من سياق هذه الرسالة تأثره ببلاغة البرامكة، سواء من حيث جمال الأسلوب، أو حسن العبارة، أو روعة الصنعة أو الاهتمام بالبديع، أو المبالغة في التمجيد والتعظيم شانه في هذا شان جعفر عندما عاد من الشام، بعد أن قضى على الفتنة هناك، وأصلح بين المتخاصمين، فأسرف في مدح الرشيد (١٠).

كما تأثر طلاب الحاجات ببلاغة البرامكة وفصاحتهم، لهذا رأيناهم يتأنقون في رسائلهم مستخدمين بعض ألوان البديع(١١) ، وإن لم يكن ذلك مطرداً في جميع ما يكتبون شأنهم في هذا شأن البرامكة، وقد ظهر هذا واضحاً في قول رجل ليحيى بن خالد عندما سأله عن ولده، فقال(١٢): تركته وماء الحياء يتحدر من أسارير وجهه، وسيول الجود سائلة من فروج أنامله، ولآلئ العلم متناثرة من ميازيب منطقه.

---

(٩) البيان والتبيين ٣/ ٢١٥ ط دار الجيل، الأصيد: الذي يرفع رأسه كبرا اللباب:الخالص المحض. الحلاحل: السيد الضخم المروءة. واري الزناد يكون في الكرم وغيره من الخصال الحميدة هامش البيان والتوحيدي: البصائر والنظائر ٢-٢/ ٣٦٩ واحمد زكي: جمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٧١-٣٧٢.

(١٠) راجع: خطب البرامكة في هذا البحث

(١١) الفن ومذاهبه في النثر ص١٩٦-١٩٧.

(١٢) محاضرات الأدباء ١/ ٢٨٤

٢ الدواوين(١٣):

كما كان للبرامكة دورهم الذي لا يمكن تجاهله في تنظيم الدواوين الحكومية، وتطويرها، وابتكار بعضها، والإشراف عليها بما ينوف على سبعة عشر عاماً من حكمهم (١٤).

ولعل أول من اعتنى بأمرها: خالد بن برمك، فقد ظل قيماً على إدارتها، وتنظيمها، فجعلها على غرار النظام الساساني، وصبغها بصبغته، ودوَّن الحساب في دفاتر خاصة بعد أن كانت تكتب في صحف متفرقة مما قد يعرضها للضياع والتلف (١٥).

وقد أهله لهذا درايته الواسعة، ومعرفته بالشؤون المالية والحسابية، وخبرته الواسعة في الإدارة، مما جعل هذه الدواوين على خير ما يرام(١٦). وتابعه ولده يحيى، فسار على نهجه، فنظمها تنظيماً رائعاً ظل معمولاً به إلى عهد السلاجقة، مع قليل من التغيير والتبديل(١٧)، وقد بلغت هذه الدواوين من الكثرة والانتشار في ربوع الدولة الإسلامية بحيث لم يقتصر وجودها على عاصمة الخلافة وحدها، وإنما امتدت إلى سائر الولايات الإسلامية، بفضل جهود البرامكة.

فكان من هذه الدواوين: ديوان التوقيع، وديوان المظالم، وديوان الجند، وديوان بيت المال وديوان البريد، وديوان الزمام، وغيرها (١٨).

واختار البرامكة للعمل في هذه الدواوين كبار الكتاب، فكانوا يجرون الاختبارات لكل من أراد العمل فيها، ليقفوا على مدى صلاحيته وكفاءته في صياغة رسائله، والتثبت مما يتحلى به من بلاغة وفصاحة، واستيعابه لشتى الثقافات، وأهليته لتولي هذا المنصب، واشترطوا فيمن يتولى العمل في هذه الدواوين أن يتمتع بالفطنة، والتبحر في الفقه الإسلامي، ومعرفة الحساب، والفلك وغير ذلك (١٩).

---

(١٣) الدواوين جمع ديوان: وهي كلمة عربية وقيل بل فارسية، وهو الدفترة أو السجل، أو مجمع الصحف، أو الأصل الذي يرجع إليه. وهي تشبه الوزارات في عصرنا الحاضر

(١٤) عبد الوهاب علوب: تاريخ الجزيرة العربية والإسلام ص٢٠٧

(١٥) أبو الخشب: تاريخ الأدب العربي ص١٩٠

(١٦) النظم الإسلامية ص٥٧ لإبراهيم الخطيب وزميله

(١٧) المرجع السابق ص١٩٠

(١٨) نفسه ص١٩٠

(١٩) تاريخ بغداد ١٢/ ٣٣٦-٣٣٧ والوزراء والكتاب ص٢٠٥ ووفيات الأعيان ١/ ٢٧٤

وقد بين أبو هلال العسكري ما تحتاج إليه الكتابة الجيدة فقال(٢٠): "تحتاج إلى أدوات جمّة، وآلات كثيرة من معرفة العربية، لتصحيح الألفاظ وإصابة المعاني، والى الحساب، وعلم المساحة، ومعرفة الأزمنة والشهور والأهلة وغير ذلك".

وحين تقدم إبان الاحقي إلى جعفر طالباً إحدى الوظائف عرض عليه مؤهلاته التي تؤهله ليتولي مثل هذا المنصب فقال في قصيدة له (٢١):

كاتب حاسب أديب خطيب ناصح راجح على النصاح

شاعر مفلق أخف من الـر يشة مما تكـون تحت الجناح

....الخ القصيدة.

لذلك أسند البرامكة إلى كبار الكتاب إدارة شؤون الدواوين، كما أوكلوا إليهم تعليم صغار الكتاب، وتثقيفهم، والأخذ بأيديهم، وتقديم النصائح لهم، حتى يرتقوا بالنثر الفني، وبذلك غدت هذه الدواوين أشبه ما تكون بالمدارس، أو الجامعات يتلقى فيها صغار الكتاب العلم والأدب وغير ذلك، فإذا لمسوا في الكاتب البراعة الكتابية والأدبية، قدَّموا له المساعدة والتشجيع، فأوصلوه في كثير من الأحيان إلى الخليفة، أو إلى وزرائه من البرامكة، وعندئذ يلمع اسمه، ويسطع نجمه، ويعلو في الخافقين شأنه(٢٢). وربما اختاره البرامكة لتولي أحد الأعمال لهم(٢٣). وما كان البرامكة ليختاروا إلا من عظمت فصاحته، وسمت بلاغته، وتنوعت معارفه، وتعددت ثقافاته، ومن توسموا صلاحيته لشغل مثل هذا المنصب(٢٤). ومن توافرت فيه صفات الكمال الخلقي أيضاً، لهذا كان يحيى يوصي بنيه، فيقول لهم(٢٥) ، "لا بد لكم من كتاب، وعمال وأعوان، فاستعينوا بالإشراف، وإياكم وسفلة الناس، فإن النعمة على الإشراف أبقى، وهي بهم أحسن، والمعروف عندهم أشهر، والشكر منهم أكثر".

---

(٢٠) كتاب الصناعتين ص١٦٠

(٢١) طبقات الشعراء ص٢٠٢ والصولي: أخبار الشعراء المحدثين ص٢٢ والعقد الفريد ٤/ ٢٠٣-٢٠٥ وتاريخ بغداد ١٢/ ٣٣٧-٣٣٨

(٢٢) ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ص٢١

(٢٣) صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص٢٠٣ وتاريخ الإسلام السياسي ٢/ ٢٦٣

(٢٤) احمد أمين: ضحى الإسلام ١/ ١٦٧

(٢٥) الوزراء والكتاب ص١٧٩

ومن اجل ذلك عمل كثير ممن يرغب في تولي العمل في هذه الدواوين على تثقيف أنفسهم بمختلف الثقافات الإسلامية والعربية والأجنبية، وبالأخص فلسفة اليونان وحكمة الهند ودراسة الفقه الإسلامي، وما يتعلق بشؤون الحكم والأخلاق(٢٦)وغير ذلك من شتى المعارف والثقافات.

وكان أكثر هؤلاء الكتاب ينحدرون من أصل فارسي، لمكانتهم البلاغية وجمعهم لشتى الثقافات والمعارف حتى تفوقوا على كثير من بلغاء العرب(٢٧) في عصرهم، ولعل البرامكة توسموا في هؤلاء الإخلاص والمحبة لهم، فأمنوا جانبهم، لذلك قربوهم منهم.

فمن الكتاب الذين استخدمهم خالد بن برمك، وشملهم بحبه وعطفه ورعايته: سعيد بن عمرو بن حصين بن قيس(٢٨)، ومسعدة بن سعد بن صول (٢٩) وغيرهما.

واستخدم يحيى بن خالد كثيراً من الكتاب منهم:

احمد بن يوسف، فكان يخلفه على الدواوين في قصره، وقصر الرشيد، ويحيى بن سليمان، ومحمد بن أيمن، وعبد الله بن عبده، ويوسف بن سليمان، وأبو صالح يحيى بن عبد الرحمن(٣٠)، وسهل بن هرون، وكان من الملازمين له، كما يتولى حمل أرزاق العامة بين يديه(٣١) ، والأحول المحرر، وكان يناط به تحرير الكتب النافذة من السلطان إلى ملوك الأطراف، وقد أهله لذلك معرفته بمعاني الخط، وأشكاله، فتكلم عن رسومه، وقوانينه، وجعله أشكالاً مختلفة.

وإبراهيم البربري المحرر. فكان يقوم بمثل ما يقوم به الأحول المحرر، وحميد بن مهران، وقد ظل يتولى الكتابة لهم طوال حكمهم، والخليل بن احمد، وكان من ابرع الكتاب (٣٢) والليث بن

---

[٢٦] ضيف: العصر العباسي الأول ص٤٦٦ والبلاغة تطور وتاريخ ص٢١

[٢٧] ضحى الإسلام ١/ ١٦٧

[٢٨] وفيات الأعيان ٢/ ٤١٥

[٢٩] نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب ص٥٣

[٣٠] الوزراء والكتاب ص١٧٨

[٣١] راجع كتاب أعتاب الكتاب ص٨٦-٨٨

[٣٢] هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم المكنى بأبي عبد الرحمن الفراهيدي: شيخ النحاة، تعلم عليه سيبويه، وهو من كبار العلماء، وله الفضل في ابتداع علم العروض، من مؤلفاته: كتاب العين في اللغة العربية. ومن صفاته: الصلاح والتقوى والوقار والكمال وحسن الخلق والزهد والظرف. وصف بأنه من أكتب الناس، وأنه كان نابغاً في الأدب. ولد سنة ١٠٠ هـ ومات سنة ١٧٠ هـ بالبصرة. راجع: البداية والنهاية ١٤/ ١٦١ ونور القبس: ص٥٩٥

نصر بن سيار، وقد أشيد بما وصل إليه في فن الكتابة، فقيل إنّه من اكتب الناس، وسعيد بن الحسن بن وهب بن سعيد، ومنصور بن زيادة، وعبد الله بن سوار، وكان يتولى الخط بين يديه، ومن المعجبين به، وغير هؤلاء كثير.

واستخدم الفضل بن يحيى في الكتابة له: أبا علي الحسن بن البحباح البلخي، ومحمد بن عبد الله بن حرب، وغيرهما.

كما استخدم جعفر بن يحيى من الكتاب: أنس بن أبي شيخ، ووهب بن سعيد بن الحسن ابن وهب، وعمرو بن مسعده، فقيل إنه بلغ من المكانة لديه بحيث استخلصه لنفاسه فاتخذه للتوقيع بين يديه، وغير هؤلاء من الكتاب.

٣- المجالس الأدبية والعلمية:

وكان للمجالس الأدبية والعلمية والمذاكرات التي يعقدها البرامكة في قصورهم، أو قصر الرشيد تأثيرها الكبير، والذي لا يمكن إغفاله في نهضة النثر الفني، وازدهاره، لأنه كان يحضرها جهابذة الأدب، وأرباب القلم على اختلاف تخصصاتهم من فقهاء وشعراء وأدباء وعلماء، ونحاة ومتكلمين، فيتحاورون ويحتدم النقاش والجدال بين أصحاب الملل والنحل والمتكلمين والفقهاء. كل واحد منهم يدلي بدلوه في مختلف العلوم والآداب بكلمات منمقة، وأداء بديع، وأسلوب رائع، فغدت مجالس البرامكة تكتظ بالمتناظرين من أشهرهم أبو الهذيل العلاف ت٢٣٠ هـ والنظام وغيرهما فكانت هذه المجالس مدارس علم، وملتقى ثقافات مختلفة، وحضارات متنوعة حتى أصبح ما يدور فيها من مختلف المواضيع، وما يجري من حوارات، ومناظرات من أهم الفنون الأدبية، فأدّى ذلك إلى تأثر الكتّاب بمعانيهم وأساليبهم، وبراهينهم وتعليلاتهم، وبذلك أثرت هذه المجالس النثر الفني، وجعلت من العقل العربي عقلاً علمياً و محلقاً في سماء العلم والمعرفة (٣٣).

٤- النقل والترجمة:

وكان للترجمة أثرها في ازدهار النثر الفني وتطوره، وتعدد فنونه، كما كان لها أثرها في الشعر، كما ذكرت سابقاً ويعود الفضل في الترجمة إلى البرامكة، حيث عملوا طوال توليهم الوزارة

---

[٣٣] ضيف: العصر العباسي الأول ص٤٦١

والدواوين على نقل تراث الأمم السابقة إلى العربية (٣٤)، فتم ترجمة العديد من الكتب في مختلف العلوم والآداب. ومنها آداب فارس الاجتماعية، والأخلاقية، ونظم الحكم، وعلوم الهند وفلسفة اليونان، فأقبل على تدارسها جمع غفير من العلماء والأدباء، فتفاعلت هذه الثقافات مع العربية، وانصهرت في بوتقتها، فكان لذلك الأثر الأكبر في رقي الحياة العقلية، وانتعاش الحركة الفكرية والأدبية خاصة فن الكتابة، فظهر فيها أمثال: بزر جمهر أحد الوزراء الفارسيين، كما ظهر أثر الترجمة في كثير من المعاني والتراكيب. وخصب الخيال وبراعة التفكير (٣٥)، وارتقاء أساليب الجدل والمناظرة، والأقيسة المنطقية وإجراء المقارنات في شتى المواضيع(٣٦). وقوة الحجة والبرهان، وصقل الفكر وتهذيب الذوق، وتمكّن الفقهاء من استنباط الكثير من الأحكام الشرعية (٣٧). كما امتزجت الكتابة بحكم الهند وفارس، وفلسفة اليونان، كما ظهر أثر الفلسفة اليونانية في مذهب المعتزلة فتكلموا في العرض والجوهر والحركة والسكون، والكمون والوجود والعدم والنفس والروح وإدراك الحواس، والكم والكيف، والقدم والخير والشر... الخ. (٣٨) واقتبس النثر كثيراً من الألفاظ الأعجمية، وعربت بعض الألفاظ العلمية والفلسفية، فأدى ذلك إلى ظهور صيغ جديدة، لا عهد للعربية بها من قبل(٣٩). وكثر استخدام المحسنات البديعية كالسجع شأن الفرس الذين كانوا مولعين بهذا اللون من الفن.

وبعد: وهكذا كان أثر البرامكة في النثر الفني واضحاً للعيان ويشار إليه بالبنان، ولم يقتصر على عصر دون عصر، ولا جيل دون جيل، بل امتد إلى ما هو أبعد من ذلك، فلم تتوقف مسيرة النثر الفني، وظل الكثير من الكُتّاب يحملون لواءه، وبخاصة من تربوا في كنفهم، واستظلوا

---

(٣٤) راجع: فصل النقل والترجمة في هذا البحث

(٣٥) الخضري: الموجز في تاريخ العلوم عند العرب ص٨٦

(٣٦) ضيف: الفن ومذاهبه في النثر ص١٢٤-١٢٥ والعصر العباسي الأول ضيف ص٤٤٨. والموجز في تاريخ العلوم ص٨٦ وأبو الخشب: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ص١٣٦. وتاريخ الفلسفة العربية لجميل صليبا ص١١٢

(٣٧) العصور الوسطى ٣/ ١٣٦

(٣٨) ضيف: العصر العباسي الأول ص٤٤٢

(٣٩) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص١٢٤-١٢٥ والعصر العباسي الأول، لضيف ص٤٤٨ والموجز في تاريخ العلوم ص٨٦ وتاريخ الفلسفة العربية ص١١٢ وتاريخ الأدب العربي لأبي الخشب ص١٣٦

بظلهم، ونهلوا من معين فصاحتهم وبلاغتهم، أمثال: الفضل بن سهل ذي الرياستين صاحب التوقيعات الرائعة البليغة، والخليل بن احمد، وغيرهم من الكتاب المبدعين، لذلك لم يستطع الرشيد وهو يتسنم سدّة الحكم، ويملك الدنيا بأسرها من مشرق الشمس إلى مغربها أن يستغني عن الذين خدموا البرامكة وعاشوا في كنفهم، وعملوا معهم بجد وإخلاص (٤٠).

وقد أشار الجهشياري في كتابه الرائع: الوزراء والكتاب إلى ذلك فقال(٤١): " إنَّه لَمَّا نكب الرشيد البرامكة قال: أريد أن استعمل قوماً لم يعملوا معهم، فقيل له: لا تجد أحداً لم يكن يخدمهم، فاختار أشف -أفضل- من وقع في نفسه من عيون أصحابهم، فقلد محمد بن إبان خراج الأهواز وضياعها، وقلد علي بن عيسى بن يزدانيروذ خراج فارس وضياعها. وولى الفيض بن أبي الفيض الكسكري خراج كسكر وضياعها، وولى الخصيب بن عبد الحميد مصر وضياعها".

وبهذا ظل النثر الفني شاهداً عبر العصور على ما بذل البرامكة من جهود عظيمة في سبيل نهضتة، وازدهاره، وتعدد ألوانه وفنونه.

---

(٤٠) دائرة المعارف الإسلامية ٦/٥٥٨

(٤١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٥٤

الفصل الخامس

دور البرامكة في حركة التدوين

التدوين إحدى النعم التي أنعم الله تعالى بها على عباده، فلولاه ما عرف دين، ولا أخلاق، ولا ازدهرت حضارة، لأنه إحدى الدعائم الأساسية في تقدم الإنسانية، ونشر العلوم، والآداب، وتشييد الحضارات في مختلف العصور.

ولولاه لبقيت الإنسانية تحبو في مجال ضيق من العلم، والمعرفة والتقدم، وما عرفنا إلا النزر اليسير مما حققت الإنسانية من انجازات، وما تحلت به من قيم وأخلاق في غابر العصور.

لهذا فاق التدوين الصروح السامقة،و القصور المشيدة: لأنه لا يعتريه ما يعتري الأبنية من تصدع واندثار على مر الأيام.

وبالتدوين ينتقل العلم والمعرفة من أمة إلى امة، ومن لغة إلى لغة ومن جيل إلى جيل (١).

وحسبنا ما قال الله تعالى: "نون والقلم وما يسطرون" القلم/ ١.

وقوله "اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم". العلق ١-٥.

وقد عرف الخلفاء والملوك والوزراء والعلماء وأرباب الفكر أهميته منذ فجر الإسلام، فاهتموا به أيّما اهتمام، فكان على رأس هؤلاء في العصر العباسي الأول: الرشيد والأسرة البرمكية: خالد بن برمك، وولده يحيى، وحفيداه: الفضل وجعفر، لأنهم كانوا جهابذة البلاغة والفصاحة، وأرباب القلم، وحملة مشعل العلم والمعرفة، ولهذا قاموا بجهود كبيرة في سبيل نهضته وازدهاره:

فقد دعوا أرباب القلم إلى تقييده، وتأليف الكتب والمصنفات (٢)، وترجمة تراث الأمم الغابرة.

وشجعوا المؤلفين والمترجمين وأرباب الفكر في شتى ضروب العلم والمعرفة ، فأغدقوا عليهم الأموال والهدايا والجوائز، فكان لهذه السياسة أثرها في ازدهار حركة التدوين، فغدت العلوم

---

(١) الجاحظ: كتاب الحيوان ١/ ٧٥.

(٢) التصنيف: جعل الكلام أصنافاً مميزة، والتأليف: إيقاع الألفة بين الكلام مع التمييز بين الأنواع، وبهذا يتبين لنا أن التصنيف أعم من التأليف، وقد يستعمل أحدهما مكان الآخر، راجع كشف الظنون:حاجي خليفة

والمعارف تعول عليه بعد أن كانت تعتمد على الحفظ (٣). فتم في فترة وجيزة تصنيف عدد كبير من الكتب فكان منها المؤلفة والمترجمة فغدت من الكثرة بحيث يصعب إحصاءها، ومن الإتقان بما لم يصنف مثلها في أمة من الامم(٤) ، وبما لم يشهد التاريخ لها مثيلاً، مما تعتبر مفخرة للأمة الإسلامية في الوقت الذي كانت أوروبا غارقة في غياهب التخلف وترتكس في حماة الجهل، وتحارب العلم والعلماء، وتقيم محاكم التفتيش.

وقد دون أسماء الكثير منها في بطون الكتب، وفهارسها مثل: كتاب الفهرست لابن النديم، وكتاب كشف الظنون لحاجي خليفة، وغيرهما.

وقد اشتمل التدوين في العصر العباسي الأول على نوعين منه: الأول: التأليف، والثاني: النقل والترجمة.

وسأتحدث بعون الله تعالى عن دور البرامكة في أزدهار كل واحد منهما:

١- التأليف والتصنيف

لم يأل البرامكة جهداً في سبيل نهضة حركة التأليف والتصنيف في شتى العلوم المختلفة في الشريعة والآداب والعلوم والفلسفة والفلك والاجتماع والتاريخ والجغرافيا، وغير ذلك. فدعوا أرباب الفكر إلى تأليف الكتب، وأجزلوا لهم العطايا والهبات تشجيعاً لهم، فتسابق المؤلفون إلى ذلك، يحدوهم الأمل، ويبعثهم الرجاء للحصول على رضاء الله تعالى أولاً، وطمعاً في نوال البرامكة ثانياً، فكثر عدد المؤلفين حتى بلغوا من الكثرة، بما لا يمكن تقدير عددهم!!

فمن العلماء الذين ظهروا في تلك الفترة وقاموا بتأليف الكتب:

الشافعي ومالك، وابن حنبل، وأبو يوسف القاضي، وأبو الحسن الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني، والواقدي صاحب المغازي ويحيى الفراء، وأبو سعيد الأصمعي، وهشام بن أبي النضر الكلبي، والحسن بن الخصيب، ومحمد بن الليث، وجابر بن حيان الكوفي، وسيبويه والخليل بن احمد وغيرهم كثير.

وتجاوز عدد ما ألف في هذه الفترة كل تقدير ولم يقتصر التأليف على علم معين، وإنَّما شملت شتى العلوم والفنون ، وقد ألف للبرامكة عدد من الكتب .

---

(٣) الأتابكي: النجوم الزاهرة، ١/ ٣٥١

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى. ١/ ٤٦٧

فمن الكتب التي ألفت ليحيى بن خالد:

كتاب الجوامع في الفقه الإسلامي: لأبي يوسف القاضي، وهو من الكتب المهمة، لأنه قد اشتمل على أربعين كتاباً ضمنها المؤلف رحمه الله اختلاف الناس، والرأي المأخوذ به، وقد أشاد ابن النديم به، فذكر أن له قيمته العلمية (٥)، وكتاب في المواعظ والآداب والحكم ألفه: محمد بن الليث (٦)، وكتاب في ملل الهند وأديانها، ألفه أحد العلماء بأمر من يحيى بن خالد (٧)، وكتاب المنثور ألفه علي بن يحيى بن غالب، وقيل أن الذي ألفه: إسماعيل بن محمد المنجم(٨)، وكتاب آخر اسمه المنثور، ألفه الحسن بن الخصيب(٩)، وكتاب العطر ألفه أحد العلماء (١٠).

وألف لجعفر بن يحيى عدد من الكتب منها:

كتاب النوادر قام بتأليفه: الأصمعي بعد أن تجاوز الخمسين سنة من عمره، وقد نال هذا الكتاب إعجاب العلماء فتأثروا به، وألفوا على منواله(١١).

وكتاب النوادر في اللغة ألفه: أبو محمد بن يحيى اليزيدي (١٢)، وقد نهج فيه نهج الاصمعي(١٣) ، في كتابه وكتاب الملوكي في النسب ألفه أبو النضر هشام بن الكلبي(١٤) ، وكتاب أغراض الصنعة في الكيمياء ألفه جابر بن حيان الكوفي(١٥) ، والذي دفعه إلى تأليفه أنّه كان يجمع بينه وبين جعفر صداقة وثيقة، فأراد التقرب إليه بتأليف هذا الكتاب، لما يعلم من

---

(٥) الفهرست: ص٢٠٣

(٦) نفسه: ص٣١٥

(٧) نفسه:ص٢٧٦.

(٨) القفطي: تاريخ الحكماء ١/ ١٦٥. نفسه: وأخبار العلماء ١/ ١٦٥

(٩) الفهرست: ص٣١٧.

(١٠) نفسه: ص٣٤٥

(١١) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ١٤/ ١٤٧ واليغموري: نور القبس ص٨٠، والأزهري: تهذيب اللغة (مقدمة الكتاب) ١٢/ ١٥

(١٢) نور القبس ص٨٠ والقفطي أنباه الرواة ٣/ ٢٤٠ و ٤/ ٢٦، وابن الأنباري: نزهة الألباء: ص٥٣-٥٤

(١٣) نزهة الألباء ص٥٣-٥٤ وتاريخ بغداد ١/ ١٤٧ ونور القبس ص٨٠، ووفيات الأعيان ٦/ ١٥٣، والقفطي: أنباه الرواة ٤/ ٢٦

(١٤) وفيات الأعيان ٦/ ٨٣ ومعجم الأدباء ص١٩٠-١٩٢

(١٥) الفهرست ص٣٥٥-٣٥٦

اهتمام جعفر بهذا النوع من العلم، وقد عده ابن النديم من العلماء به لهذا أدرج اسمه في قائمة أسماء الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة.(١٦)
كما ألف للبرامكة كتاب اسطقس الأس الأول، ومعناه العنصر الأول، وهذا ما ذكره ابن النديم(١٧) لكنّه لم يذكر اسم مؤلفه ولمن ألف له من البرامكة.

٢- النقل والترجمة

وكما كان للبرامكة دورهم في التأليف، كان لهم أيادٍ في النقل والترجمة، وكما تعلم فإن الترجمة ظهرت في العصر الأموي، ولكن على نطاق ضيق، ثم نمت وترعرعت خلال العصر العباسي الاول(١) ، وذلك بفضل الخلفاء العباسيين، ووزرائهم، وأخص بالذكر البرامكة الذين عملوا جاهدين، فأخذوا على عاتقهم بعث الحركة الفكرية، والاهتمام بالنقل والترجمة، لتغذية هذه الحركة.
فأمروا بترجمة الكثير من ذخائر الأمم الفرس والهند، واليونان والرومان، دون ان يتعصبوا لثقافة معينة، حتى لو كانت هذه الثقافة ثقافة أجدادهم، ومما يؤيد قولنا هذا أن ما نقل عن الفارسية يعتبر قليلاً بالنسبة لما نقل عن اللغات الأخرى، ولعل هذا مما دفع ببعض الكُتّاب إلى إنكار اثر الفارسية في اللغة العربية (٢). على الرغم أن أكثر العلماء ينتمون إلى أصول فارسية. لأنهم اسبق الأمم إلى التأليف، وأعظمهم حضارة (٣)، ونحن بدورنا لا يمكننا إنكار أثر الفارسية في اللغة العربية، لأن كلمة ترجمة (ترجمان) لم تعرف إلا بعد تعريبها عنها (٤).
ومع هذا فإن بعض الكتاب تشكك أن يكون البرامكة والعباسيون من أنصار الثقافة الفارسية، أو المتحمسين لها (٥).

---

(١٦) الفهرست ص٣٥٣

(١٧) نفسه ص٣٥٥-٣٥٦

(١) راجع الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٥٠٤

(٢) طه حسين: حديث الشعر والنثر ص١٨ وما بعدها وجب دراسات في حضارة الإسلام ص٩٢

(٣) العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٢٤٣ وأحمد أمين: ضحى الإسلام ص١٩١-١٩٢

(٤) الصولي: أدب الكتّاب ١٨١

(٥) دراسات في حضارة الإسلام ص٩٢ وتاريخ التمدن الإسلامي ٣/ ٢٢٨

كما وان البرامكة لم يقتصروا على ترجمة لون واحد من العلم لهذا فقد أمروا بنقل كل ماله صلة بالأدب، والعلوم الطبية والفلكية والفلسفية والاجتماعية وغير ذلك.

لهذا جلبوا إلى بيت الحكمة في بغداد كثيراً من الكتب الهندية والفارسية واليونانية والرومانيـة، وكل ما وقع في أيدي المسلمين من تراث حضاري في خزائن انقره وعمورية وسائر بلاد الروم، أثناء الفتوحات الإسلامية، واتخذوا لها المترجمين في بيت الحكمة، وجعلوا لكل فرع من فـروع الترجمة من يتولى رئاسة التراجمة، وبذلك تم ترجمة الكثير من الكتب، وقـد سـجلت أسماؤهـا وأسماء مترجميها في فهارس الكتب.

ولعل من أعظم ما دفع بالبرامكة إلى الترجمة، والاهتمام بها حبهم للعلم، ورغبـتهم في اقتنـاء أمهات الكتب في شتى فنون المعرفة، لهذا كانت مكتبة يحيى بن خالد تعج بشتى الكتب حتى قيل أنها اشتملت على ثلاث نسخ للكتاب الواحد (٦).

كما كانوا تواقين لأن تبلغ دولتهم من العلم والتقدم والرقي إلى ما وصلت إليه الأمم الأخرى، وبذلك يرتفع شانهم وتعلو منزلتهم في ربوع الدولة الإسلامية.

فكان لهم ما أرادوا، غير أن بعض الكتـاب زعـم أن ذلـك يرجـع إلى دوافـع شـعوبية، وهـو تعصبهم لثقافة أجدادهم(٧) ، فلو صح هذا القول لاقتصروا على ترجمة الكتب الفارسية دون غيرها من اللغات، ونحن لا ينتابنا شك بأن تأثير اليونانية أبعد غوراً حيث ظهر الفكر الفلسفي وأدلته، وأقيسته، فكان له تأثيره في الفرق الإسلامية، وفي الفقه الإسلامي مـن حيـث طريقـة الاستنباط.

وقد تمثلت سياسة البرامكة في بعث حركة الترجمة على ما يلي:

فقد جلبوا الكتب عن شتى اللغات لترجمتها، وشجعوا المترجمين فأغدقوا الأموال والهدايا على كل من يترجم كتاباً، فكان جعفر بن يحيى يعطي زنة الكتاب المعرب ذهباً (٨). وسكّ نقـوداً من الذهب لهذا الغرض زنة كل دينار مائة دينار ودينار، وذلك لتشجيع أرباب الفكر من علماء وشعراء ومؤلفين و مترجمين.

---

[٦] الجاحظ: الحيوان ١/ ٦٠

[٧] شبلي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٣/ ٢٤٩ وحجاب: مظاهر الشعوبية في الأدب العربي ص٣٧١ والحوفي: تيارات ثقافية ص١٧٨

[٨] المدور: حضارة الإسلام في دار السلام ص١٦٠

وأحاطوهم بعنايتهم ورعايتهم، وقربوهم من مجالسهم و من مجالس الخلفاء، بقطع النظر عن أديانهم ومعتقداتهم، وأجناسهم فكان منهم الهندي والفارسي والمجوسي والصابئي والنصراني وغيرهم، مما حفزهم إلى ترجمة كثير من الكتب (٩).

وقد مكّن البرامكة من تنفيذ سياستهم هذه ما منحوا من سلطات واسعة تعطيهم حق التصرف بما تحت أيديهم من أموال الدولة، دون حسيب او رقيب، وسار المأمون فيما بعد على خطاهم بفضل التربية البرمكية التي رضع لبانها.

وبذلك سبق المسلمون الحضارة الغربية بعدة قرون، ولولا إرادة الله تعالى ثم ما قام به المسلمون من اختراعات ومكتشفات لما وصلت الإنسانية إلى ما وصلت إليه في عصرنا الحاضر. فالأوروبيون مدينون للحضارة الإسلامية فلولاها ما عرفوا الحضارة الهندية واليونانية وغيرهما.

كما وأن نقل العلوم والآداب كان باختيار وانتقاء وتفكر وتدبر وتفهم، وأعمال للفكر، ثم قام العلماء بدراستها وشرحها وتفسير ما غمض منها وتصويب ما فيها من أخطاء، لأن النقلة كانوا من السريان وهم لا يؤمن جانبهم، لأنهم كانوا كثيراً ما يدسون في ثنايا الكتب التي يقومون بترجمتها أموراً ليست منها، وربَّما بدَّلوا وغيروا أو حذفوا حسب أهوائهم الدينية والمذهبية، وثقافتهم. ولا ننسى أن نقول بأن المسلمين أخذوا من كل أمة أحسن ما لديها من ثقافة(١٠) ، ولم يحاربوا العلم في يوم من الأيام كما فعلت أوروبا في محاكم التفتيش، وما صنع القوط في الحضارة الأندلسية، وما فعل التتار في الحضارة العباسية.

فمن اللغات التي أستهوت المسلمين للأخذ عنها: الفارسية والهندية، واليونانية والرومية.

اللغة الفارسية:

اهتَّم يحيى بن خالد بالترجمة عن الفارسية، فجلب مجموعة من الكتب الفارسية إلى بيت الحكمة في بغداد، وعين لها من يجيد الترجمة عنها، فكان من أبرزهم:

محمد بن الجهم البرمكي، وأبو نوح مسلم الحراني صاحب خزانة الحكمة، وزادويةً بن شاهويةً الاصفهاني، وبهرام بن مردان، وموسى بن عيسى الكردي، وعمر بن الفرخان، وأبو حفص

---

(٩) راجع فصل تشجيع البرامكة للحركة الفكرية

(١٠) عبقرية العرب في العلم والفلسفة لمنصور جردان ص١٧-١٨

الطبري، والفضل بن نوبخت وسهنل بن نونجت، والفضل بن سهل، وعلان الـشعوبي، وأبـو سهل وغيرهم. فترجموا كثيراً من الكتب عن هذه اللغة حتى يخيل لبعض الكتاب أنّه لا يوجد كتاب واحد منها إلا وقد ترجم إلى العربية(١١).

فكان لهذه المترجمات أثرها الكبير فيما استحدث من نظم سياسية وإدارية في الدولة العباسـية، وصبغها بالصبغة الساسانية (١٢).

وهذا ما دفع ببعض الباحثين إلى القول بأن البرامكة كانوا أعظم من حمـى الثقافـة الفارسـية، ونشرها في مختلف أمصار الدولة العباسية(١٣).

وهناك اتجاه آخر يزعم أن من المشكوك فيه أن يكون العباسيون من أنصار الثقافة الفارسية، أو أن يكون نبلاء خراسان –البرامكة– في القرن الثاني الهجري من المؤيدين والمتحمسين للتقاليد الساسانية (١٤).

كما هناك من ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فقال: انه لا يوجد للثقافة الفارسية أثـر كـبير في العربية، وأنها لا تعدو أن تكون واسطة من وسائط الثقافة(١٥).

اللغة الهندية:

واهتم البرامكة بالترجمة عن الهندية، ويرجع ذلك لسببين الأول: ما عرف عن الهنود من شهرة واسعة في علوم الحساب والنجوم والفلسفة والطب، والصناعات المختلفة ومنها العقاقير الطبية (١٦)، وغير ذلك، وإشتهار عدد من علمائهم في مختلف العلوم حتى قيـل: إنهـم مـن الأمـم الأربع التي تتمتع بصفات ممتازة.(١٧)

وقد كتب غوستاف لوبون الفرنسي كتاباً تحدث فيه عن حضارة الهند عنوانه حضارات الهنـد بلغ عدد صفحاته إحدى وثلاثون وسبعمائة، قام بنقله: عادل زعيتر.

---

[١١] ضيف: الفن ومذاهبه في النثر ص١٢٤

[١٢] خفاجي وزميله: فن الأدب العربي وتاريخ ص٥٣

[١٣] ضيف: العصر العباسي الأول ص٣٢٧

[١٤] دراسة في حضارة الإسلام ص٩٢ وتاريخ التمدن الإسلامي ٣/ ٢٢٨

[١٥] طه حسين: من تاريخ الأدب العربي ٢/ ٣٥

[١٦] رسائل الجاحظ ص٧٣ والشكعة: معالم الحضارة الإسلامية ص١٢٧-١٢٩

[١٧] المرجع السابق: ص١٢٧ وراجع كتاب حضارات الهند: غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر

الثاني: تأثرهم بثقافة جدهم برمك الأصفر، حيث تعلم مختلف العلوم الهندية عندما هربت به أمّه وهو طفل صغير إلى قشمير.

وبذلك كان البرامكة أول من اهتم بعلوم الهند، وهذا ما ذكره محمد بن اسحق حيث قال: (١٨)

" إن الذين عنوا بأمر الهند في دولة العرب، واهتموا بإحضار علمائها، وحكمائها هم: يحيى بن خالد، وجماعة البرامكة ".

فقد أرسل يحيى بن خالد إلى الهند طالباً أشهر كتبهم ليقوم المترجمون بترجمتها، كما طلب مجموعة من أطبائها الأفذاذ ليتولوا مهمة علاج أرباب الدولة، ومن هم في حاجة إلى العلاج من عامة الشعب.

فمن العلماء الذين استقدموا إلى بغداد لهذا الغرض على ما ذكره الجاحظ في كتابه البيان والتبيين (١٩): منكة العالم الطبيب، وبازيكر، وقلبرقل، وسندباذ وغيرهم، فتولوا العمل في البيمارستان الكبير ببغداد، كما تولوا النقل عن الهندية إلى العربية والفارسية بعد أن استعربوا، مشاركين في ذلك مستعربة الهند في نقل مؤلفاتهم، وبالأخص ما كان يتعلق بعلم الطب والعقاقير، كما أمر يحيى بترجمة ما يحملون في جعبتهم من أفكار علمية، وكتب جاءوا بها(٢٠).

كما ذكر ابن النديم أسماء هؤلاء النقلة في إحدى فصول كتابه الفهرس (٢١)، منهم: منكة، وابن دهن، كما تولى بالإضافة إلى ذلك رئاسة بيمارستان البرامكة وأمر بترجمة صحيفة مطولة في القواعد البلاغية، وقد سجلها الجاحظ في كتابه البيان(٢٢).

وتم ترجمة بعض كتب الأسمار، والقصص الخرافية، لأنها تجد القبول لدى العامَّة، وما برحت محببة إليهم، وما زالوا مولعين بها إلى يومنا هذا.

اللغة اليونانية:

واعتنى البرامكة بترجمة كتب اليونان، فكان أكثر المتحمسين إلى ذلك جعفر بن يحيى، وجماعة من أهل بيته، لما عرف عن اليونان من حكمة وفلسفة، وكان جل اهتمام البرامكة بما لديهم من

---

[١٨] ابن النديم: الفهرست ص٣٤٥

[١٩] البيان والتبيين ١/ ١٠٦

[٢٠] الفهرست: ص٣١٢ و٤٢١

[٢١] الفهرست ص٢٤٤-٢٤٥ وقيل كنكة او كبكة

[٢٢] البيان والتبيين ١/ ٩٢

كتب الطب والحكمة والفلسفة، فأمروا بتعريبها، وتحريرها، وإصلاح ما وقع فيها من أخطاء(٢٣).

لهذا كان جعفر يبتاع صحف فلاسفتهم، ويأمر النقلة بترجمتها(٢٤) ، كما أمر بإعادة ترجمة بعضها رغبة منه في أن تكون أكثر دقة، واتقاناً ومن ذلك كتاب المجسطي (٢٥) لبطليموس.(٢٦)

واستخدم البرامكة لتحقيق غرضهم في الترجمة جماعة من السريان، فكانوا همزة الوصل بين اليونانية والعربية. ولعل السبب في استخدام هؤلاء السريان دون غيرهم يعود إلى معرفتهم اللغة اليونانية (٢٧).

فكان لهذه الترجمات الأثر الأكبر في حفظ معاني تلك الكتب بعد أن ضاعت أصولها فيما بعد. ولولا إرادة الله أولاً ثم هذه المترجمات ما وصل إلينا شيء من حضارات هذه الأمم، ومن علومها كما ذكرت سابقاً.

اللغة الرومية:

أما الترجمة عن الرومية، فقد كان قليلاً لذلك لم تذكر لنا المراجع التي اطلعت عليها إلا ترجمة كتاب واحد في الزراعة، لم يذكر اسمه(٢٨).

وقد شملت الترجمة عن اللغات المختلفة شتى العلوم والمعارف الإنسانية فكان منها الطبية والفلكية والفلسفية والزراعية، والأدبية وغير ذلك.

العلوم الطبية:

اهتم البرامكة بترجمة العلوم الطبية وأولوها عنايتهم رغبة منهم في أن يستفيد منها الأطباء في معالجة المرضى، وبخاصة أرباب الدولة: الخلفاء والوزراء، بل وعامة الشعب، فأنشئوا لهذا الغرض البيمرستان (٢٩) على أسس علمية، وأسندوا رئاسته إلى ابن دهن أحد التراجمة عن

---

(٢٣) وفيات الأعيان ٢/ ٢٠٦

(٢٤) حضارة الإسلام في دار السلام ص١٦٠

(٢٥) ابن النديم: الفهرست ص٢٦٧-٢٦٨ وكشف الظنون لحاجي خليفة ٢/ ١٥٩٤

(٢٦) وبطليموس: عالم فلك ورياضة وجغرافيا وفيزيقيا ومؤرخ يوناني مصري نشأ بالإسكندرية ت بعد ١٦١ وله كتاب المجسطي في الفلك والرياضة، راجع الموسوعة العربية الميسرة ص٣٨١

(٢٧) أحمد أمين: فجر الإسلام ص٢٩

(٢٨) البيان والتبيين: ١/ ٩٢

(٢٩) ذكرت الموسوعة العربية الميسرة أن الرشيد أنشأ بيمارستان راجع ص٤٧٢

اللغة الهندية (٣٠). ونقل منكة بناء على طلب يحيى بن خالد كتاب السموم، وهو خمس مقالات للطبيب الهندي شاناق، كما أمر أبا حاتم البلخي بنقله وتفسيره(٣١)، ودعا إلى نقل إحدى الكتب التي تتعلق بالأدواء، ومعرفة علاجها(٣٢).

علم الفلك:

واهتم البرامكة بتعلم علم الهيئة –علم الفلك– وترجمة ما كتب فيه، لما له من أهمية لاتصاله بالشعائر الدينية، كمعرفة أوقات الصلوات والحج والصيام، والأعياد وغير ذلك، وقد بلغ يحيى بن خالد وولده جعفر منزلة رفيعة في هذا العلم، وقد أشاد إسماعيل بن صبيح بما وصل إليه يحيى في ذلك (٣٣)، وربما فاق جعفر أباه في هذا العلم. لمعرفته الاسطرلاب، وما فتئ البرامكة يعقدون مجالسهم العلمية، فيتناولون فيها حركات الكواكب وأسمائها بطرق هندسية رائعة، وهذا ما دفع بيحيى إلى أن يأمر أبا نوح سلم الحراني صاحب بيت الحكمة –وهو من التراجمة المشهورين– إلى ترجمة كتاب المجسطي(٣٤)، لصاحبه بطليموس الفلوذي الحكيم (٣٥). ضمَّنه صاحبه القواعد التي يتوصل بها إلى إثبات الأوضاع الفلكية والأرضية مع ذكر أدلتها التفصيلية. (٣٦)

وقد أشاد به العلماء واعتبروه من أشرف ما صنف في علم الهيئة (٣٧)، لأنّه بلغ من الجودة بحيث قيل: أنه أحاط بهذا العلم من جميع جوانبه، وأنّه أحد الكتب الثلاثة التي لم يصنف مثلها قط(٣٨).

---

(٣٠) الفهرست ص٢٤٤-٢٤٥

(٣١) ابن خلخل: طبقات الأطباء ص٤٧٥

(٣٢) رفاعي: عصر المأمون ص٣٨٩

(٣٣) الفهرست ص١٢٠

(٣٤) المجسطي معناه الأعظم في اللغة اليونانية

(٣٥) عالم مصري من علماء الرياضة والفلك وهو غير بطليموس الطبيب وغير بطليموس الفيلون الطبيعي، وكان على مذهب المشائين ت١٧٠م على وجه التقريب، فكان لكتبه الأثر الطيب في تطور علم الفلك عند العرب في العصر العباسي، من كتبه: الكواكب الثابتة، وكتاب الأنواء وكتاب الأربع مقالات راجع كتاب: تاريخ العلوم عند العرب: الفروخ ص١٥٧.

(٣٦) كشف الظنون ٢/ ١٥٩٤

(٣٧) الفهرست ص١٢٠

لذلك كان لهذا الكتاب تأثيره فيما ألف بعده من الكتب التي تتعلق في هذا المجال؛ لهذا اهتم به يحيى وأمر بترجمته، وتفسيره وإخراجه، فترجمه جماعة من المترجمين، فلم تعجبه ترجمتهم فندب لهذا الغرض: أبا حسان وأبا نوح: سلم الحراني صاحب بيت الحكمة لإعادة ترجمته، فأتقناه، واجتهدا في تصحيحه، فأحضرا من يجيد النقل، فاختبرا نقلهم، وأخذا بأفصح الألفاظ وأصح المعاني (٣٩).

وهناك من يقول أن يحيى بن خالد قام بتصحيح الكتاب بنفسه(٤٠)، رغم عدم تفرغه لمثل هذا العمل، كما قام الحجاج بن مطر بنقل الكتاب أيضاً (٤١).

وأمر يحيى بن خالد عبد الرحمن الصوفي ان يتولى ترجمة كتاب الكواكب والصور عن اليونانية، وهو ما يسمى بالنقل القديم (٤٢)، وقيل(٤٣) انه نقل عن السريانية، وفسَّر أيوب وسمعان زيج بطليموس لمحمد بن خالد(٤٤).

علم الفلسفة:

واهتم البرامكة بالفلسفة أيضاً، وابدوا عنياتهم لما يسمى بعلم الصنعة في الكيمياء، وعلقوا عليه آمالاً في تحويل بعض المعادن إلى ذهب، ولذلك درسوه دراسة مستفيضة حتى بلغ يحيى من العلم بهذا الفن ما جعل ابن النديم يعده من الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة (٤٥).

كما بلغ جعفر بن يحيى من العلم بهذا الفن انه كان يحاور فيه جابر بن حيان بعد أن توثقت العلاقات بينهما، وعظمت صلته به، وهذا ما أثبته جابر في كتابه الخواص(٤٦).

لهذا عزا بعض الكتاب ما يرفل به البرامكة من غنى وثراء إلى اشتغالهم بعلم الصنعة. (٤٧)

---

(٣٨) أخبار العلماء ص٦٩

(٣٩) كشف الظنون ٢/ ٩٤ والفهرست ص١٤٠ و٢٦٧-٢٦٨ وتاريخ الحكماء ص٩٧-٩٨ وأخبار العلماء ص٦٩

(٤٠) تاريخ الحكماء ١/ ٩٧-٩٨، وأخبار العلماء ص٦٩، والفهرست ص٢٦٧-٢٦٨

(٤١) الفهرست ص٢٦٨

(٤٢) كرلو: علم الفلك ص٢٢٦

(٤٣) نفس المرجع: ص٢٢٦

(٤٤) الفهرست ص٢٢٤

(٤٥) الفهرست ٣٥٣

(٤٦) راجع كتاب مختار رسائل جابر ابن حيان ط مصر وتاريخ الفكر العربي لإسماعيل مظهر ص٨٤

(٤٧) الأمين: أعيان الشيعة ص٩٥-٩٦

كما قام يحيى فيما قيل بترجمة بعض كتب الفلسفة منها: ايساغوجي الذي يعتبر مدخلا لعلم المنطق، ونقل مجموعة أخرى قام بترجمتها، محمد بن عبد الله بن المقفع[48]، ثم تولى ترجمتها له أبو نوح مسلم الحراني صاحب بيت الحكمة[49].

وقد بلغ جعفر من العلم بالفلسفة أنه درس إحدى كتب ارسطو طاليس، وقد بلغ به الولع في علم الفلسفة أنه كان يبتاع صحف فلاسفة اليونان، ويأمر من يقوم بترجمتها. [50]

علم الزراعة:

واهتم البرامكة بالزراعة، فأنشأوا السدود، والحياض، وحفروا الأنهار؛ لهذا طلب يحيى بن خالد من بطريق الإسكندرية أن يتولى نقل كتاب عن الرومية يتناول فيه صاحبه علم الزراعة فتم ترجمته [51].

---

[48] ابن خلخل: طبقات الأطباء والحكماء ص٤١٣

[49] عبد الله ابن المقفع: للخرساني ص١٦١-١٦٢

[50] حضارة الإسلام في دار السلام ص١٦٠

[51] البيان والتبيين ١/ ٩٢

علم الأدب:

لقد اهتم يحيى بن خالد بترجمة الكتب الأدبية اهتماماً كبيراً. فأمر المترجين بترجمة بعضها، فتم في عهدهم ترجمة صحيفة طويلة في قواعد البلاغة، دوّنها الجاحظ في بيانه (٥٢)، وقصة السند، وقصص أخرى في الأسمار والخرافات (٥٣)، وكتاب كليلة ودمنة، ترجم عن الفارسية، وهو من الكتب التي تتعلق بإصلاح الأخلاق، وتهذيب النفوس، وقد اجمع على جودته فقال ابن أبي اصيبه (٥٤): لا نظير له في معناه".

وكان الكتاب قد ترجم عن الهندية إلى الفارسية، ومن ثم إلى العربية في عهد المنصور، وقيل: أنه ترجم في عهد المهدي سنة ١٦٥ هـ، وهناك من الكتّاب من أنكر ذلك بحجة أن عصر المنصور لم يكن عصر ازدهار الترجمة، ورجحوا أن تكون الترجمة في عهد الرشيد(٥٥) ، وسواء ترجم في عهد المنصور، أو المهدي، أو الرشيد، فقد كان للبرامكة الفضل في ترجمته، فقد أمر يحيى بن خالد أبا عبد الله الاهوازي أن يترجم له الكتاب مرة أخرى، ولم يكتف يحيى بترجمة الكتاب نثراً، فأمر إبان اللاحقي أن يترجمه له شعراً ليسهل عليه حفظه، فقام إبان بما طلب منه فالتزم بيته لا يغادره لمدة أربعة اشهر (٥٦)، وبلغ عدد أبياته خمسة آلاف بيت (٥٧)، فأجاد ترجمته بحيث قيل انه لم يستطع احد أن يخطئه في نقله، أو أن يقول انه ترك من لفظ الكتاب، أو معناه شيئاً، وقال الاربلي (٥٨): إن كل كلام نقل إلى الشعر، فالكلام أفصح منه إلا هذا"، ولما قدمه إلى يحيى سر به سروراً عظيماً، فكافأه عليه، كما كافأه ولداه الفضل وجعفر (٥٩).

---

(٥٢) البيان والتبيين ١/ ٩٢

(٥٣) ابن النديم: الفهرست ٤٢٤

(٥٤) ابن أبي أصيبعه: طبقات الأطباء ص٤١٣

(٥٥) الخرساني: عبد الله بن المقفع ص٢٥٣ ط الدار القومية للطباعة والنشر

(٥٦) الأغاني ٢٠/ ١٧٩-١٨٠ وابن الابار: أعتاب الكتاب: ص٨١ والذهب المسبوك:ص ١٤٨، وأخبار الشعراء المحدثين: ص٢ وذكر انه نظمه في ثلاثة أشهر

(٥٧) طبقات الشعراء: ص٢٤٠-٢٤١ وقال الاربلي: خلاصة الذهب المسبوك: ص١٤٨، وأخبار الشعراء المحدثين: ص٢ أنه بلغ أربعة عشر ألف بيت

(٥٨) خلاصة الذهب المسبوك ص١٩٨

(٥٩) أخبار الشعراء المحدثين ص٢

ولم تقف جهود البرامكة على ترجمة ما لم يسبق ترجمته من الكتب، وإنما أمر يحيى بإعادة ما تم ترجمته من الكتب، أو مراجعتها حرصاً منه على المزيد من الدقة والاتقان(٦٠) ، فكان منها كتاب المجسطي لبطليموس (٦١).

وهكذا كان للبرامكة دورهم العظيم في ترجمة العديد من الكتب، ومراجعة ما تم ترجمته ليكون أقرب إلى الكمال مما هي عليه.

ولم يكتف البرامكة بتأليف الكتب وترجمتها، وإنما اتخذوا الوسائل التي تساعد على ذلك، والأخذ بأيدي المؤلفين والمترجمين، لهذا قاموا بعدة خطوات في هذا السبيل من أبرزها:

---

(٦٠) مجلة العربي عدد ٢٤٥ سنة ١٤٩٩ هـ مقال للدكتور علي الراعي

(٦١) تاريخ الحكماء ١/ ٥٣-٩٨ وأخبار العلماء: ٦٩ والفهرست ص١٢ وص٢٦٧-٢٦٨

صناعة الورق- حوانيت الوراقين- المكتبات:

صناعة الورق:

اهتم البرامكة بصناعة الورق كي يوفروا للمؤلفين والمترجمين وكتاب الدواوين والعلماء، وطلاب العلم، ما يحتاجون إليه من ورق-الكاغدر- بأرخص الأثمان.
فأنشأ الفضل بن يحيى أول مصنع لإنتاج الورق في بغداد وذلك سنة ١٧٨هـ الموافق ٧٩٤م (٦٢)، وتولى بنفسه الإشراف عليه(٦٣) ، وبذلك توفر الورق في ربوع دولة الخلافة، وانتشر على نطاق واسع لخفة وزنه، ورخص ثمنه، فاستعاضوا بذلك عن الكتابة على الجلود، والقراطيس (٦٤) وورق البردى الذي يدل على الرفه لارتفاع ثمنه(٦٥) ، وبهذا غدا ثلاثة أنواع من الورق سمي أحدها بالورق الجعفري، نسبة إلى جعفر البرمكي(٦٦) ، فساعدت صناعة الورق على انتشار التأليف والترجمة والكتابة بسهولة ويسر (٦٧)، فجرى تعميمه، واستخدامه في الدواوين الحكومية، بأمر من جعفر بن يحيى لاشرافه الكامل على هذه الدواوين، حتى سمي بالسلطان لعموم نظره، ومن ثم جرى استخدآمه في جميع الامصار(٦٨) ، وقد وصف ابن خلدون حركة التأليف وصناعة الورق في تلك الفترة فقال(٦٩): " طما بحر التأليف، والتدوين، وكثر ترسيل السلطان، وصكوكه وصناعة الرق... وأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد، وصنعه وكتبت فيه رسائل السلطان، وصكوكه، واتخذه الناس من بعده متحفاً لمكتوباتهم السلطانية، والعلمية، وبلغت الإجادة في صناعته إجادة عظيمة.

---

[٦٢] ول ديورانت: قصة الحضارة ٢-٤/ ١٧٠ وحتى تاريخ العرب المطول ٢/ ٥٠٣

[٦٣] ابن خلدون: العبر ١/ ٧٧٥-٧٧٦ وابن سعد الطبقات الكبير ٧-٢/ ٩١

[٦٤] ول ديورانت: قصة الحضارة الإسلامية ٢-١٧٠١ وضيف: العصر العباسي الأول: ص١٠٣، ودراسات في حضارة الإسلام ص٢١٦

[٦٥] جب: دراسات في حضارة الإسلام ص٢٩٦

[٦٦] الموسوعة العربية الميسرة مادة ورق ٢/ ١٩٤٨ ط دار إحياء التراث العربي

[٦٧] ول ديورانت: قصة الحضارة الإسلامية ٢-٤/ ١٧٠

[٦٨] حتى تاريخ العرب المطول ٢/ ٥٠٣

[٦٩] العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٧٥٥-٧٥٦، طما: كثر، واشتد، الرّق بالكسر جلد رقيق وهو ضد الغليظ، الكاغد: القرطاس معرب

ومن ثم انتقلت صناعته إلى أوروبا:صقلية، واسبانيا، الأندلس، وايطاليا، وفرنسا (٧٠).
وهكذا كان للبرامكة الفضل الأكبر بعد الله تعالى في انتشار صناعته في العالم الإسلامي وأوروبا، مما أدى إلى ازدهار حركة التأليف والترجمة بل والحركة الفكرية عامة.
وبهذا كان المسلمون أكثر تقدماً من أوروبا، وأعظم حضارة.

حوانيت الوراقين:

ولما ازدهرت حركة التأليف والترجمة في مختلف العلوم والفنون والآداب، لتوفر الورق، وأقبل الناس على اقتناء الكتب، ونسخها، وتجليدها، وتصحيحها وقراءتها فاستدعى الأمر إلى إنشاء حوانيت الوراقين، ومهمتها تتلخص في نسخ المؤلفات، وتجليد الكتب والسماح لروادها بالمبيت فيها للقراءة لمن يصعب عليه شراء إحدى الكتب لغلاء ثمنها، وبذلك غدت أشبه ما تكون بالمطابع في عصرنا الحاضر، بل أكثر من ذلك لأن المطابع في عصرنا الحاضر تقتصر على طبع الكتب ونشرها وتصحيح الأخطاء، وبهذا راجت مهنة الوراقة، وكثر الوراقون لتحقيق رغبة الدارسين والقراء في بغداد وغيرها من الامصار (٧١)، وأصبح في بغداد سوق يسمى سوق الوراقين.
كما اتخذ بعض العلماء والمثقفين من يورق له لنسخ بعض المؤلفات التي نالت إعجابهم، وبخاصة إذا كانت من تأليفهم، فاستخدم الفضل بن يحيى أبا جعفر: احمد بن محمد بن أيوب الوراق البغدادي، ليورق له ما هو في حاجة إليه من الكتب(٧٢).

---

(٧٠) ول ديوارنت: قصة الحضارة ٢-٤/ ١٧٠

(٧١) ابن خلدون: العبر ١/ ٧٥٥-٧٥٦ والقلقشندي: صبح الأعشى ١/ ٤٦٧

(٧٢) ابن سعد: الطبقات الكبير ٧-٢/ ٩١

إنشاء المكتبات:

ولما للعلم من أهمية كبرى، استدعى الأمر إنشاء المكتبات الخاصة والعامة، ليسهل على أرباب الفكر القراءة والاطلاع والتأليف، فكان ليحيى بن خالد مكتبة خاصة و بلغت من الضخامة بحيث حوت على الكثير من الكتب حتى قيل أنها اشتملت على ثلاث نسخ للكتاب الواحد(٧٣).

بيت الحكمة:

ولمّا كان هناك من الدارسين والمثقفين ليس بمقدورهم اقتناء بعض الكتب التي يحتاج إليها استدعت الحاجة الى إنشاء المكتبات العامة، لهذا رأينا الخليفة هارون الرشيد ينشئ بمساعدة البرامكة مكتبة بيت الحكمة في بغداد فكانت من الضخامة بحيث يصعب إحصاء ما فيها من كتب، وبما لا تقدر قيمتها بثمن، وهي تعتبر أول مكتبة في العالم الإسلامي بهذا الحجم حيث اشتملت على أمهات الكتب المؤلفة والمترجمة (٧٤).

واسند يحيى أمانتها إلى يوحنا بن ماسويه (٧٥)، ورتب له كتّاباً حاذقين يتولون الكتابة بين يديه(٧٦) ، وجلب إليها عدداً لا يستهان به من الكتب الهندية، والفارسية، واليونانية، والرومية، مما وقع في أيدي المسلمين أثناء الفتوحات الإسلامية للمدن الرومية، والهندية، وغيرها، واشتملت على مختلف كتب العلوم، والآداب، كما ضمت داراً للترجمة تم فيها ترجمة كثير من الكتب في شتى العلوم (٧٧).

وكان جعفر بن يحيى يرتادها بصحبة ثمامة بن أشرس، للإشراف عليها، وتفقد ما تحتاج إليه، وتلبية رغبات القائمين عليها.

وهكذا كان للبرامكة دورهم في نهضة حركة التدوين، فأثروا المكتبة العربية بأمهات الكتب المؤلفة والمترجمة بعد أن أولوها عنايتهم ورعايتهم.

---

(٧٣) الجاحظ: الحيوان ١/ ٦٠

(٧٤) صبح الأعشى ١/ ٤٦٦

(٧٥) ابن خلخل: طبقات الأطباء والحكماء ٢٤٦ والقفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢٤٨-٢٤٩.

(٧٦) السباعي: من روائع حضارتنا: ١٩١ والزيات: وحي الرسالة ٣/ ٣٤-٣٥ ط الثالثة سنة ١٣٨١هـ

(٧٧) تاريخ التربية: ص١٨٢

وتطورت هذه المكتبة في عهد المأمون بفضل تربية البرامكة له، فاشتملت على مجمع ومرصد فلكي وبذلك غدت من أعظم المعاهد العلمية والثقافية في العالم (٧٨)، وجامعة عتيدة لطلاب العلم والأدب ومنارة شامخة، كان لها دورها في النهضة الفكرية في العالم الإسلامي، حيث أقبل عليها طلاب العلم والمعرفة من كل فج عميق، لينهلوا من معينها(٧٩) ، وظلت تؤدي رسالتها الخالدة إلى أن داهمها التتار فقضوا عليها، فأصبحت خراباً يباباً، وأثرا بعد عين، ولم يبقَ من رسمها إلا الاسم (٨٠).

(٧٨) تاريخ العرب مطول: ١/ ٣٨٥

(٧٩) قصة الحضارة في العالم ٢-٤/ ١٧٨

(٨٠) القلقشندي: صبح الأعشى ١/ ٤٦٦

الفصل السادس

المجالس البرمكية

لقد كان لدعوة الإسلام إلى العلم والأدب أثرها الكبير في استجابة المسلمين لنداء ربهم، فأقبلوا على مجالسه في المساجد، وبيوت العلماء، وما أن بزغ فجر العصر العباسي حتى تطورت هذه المجالس، فكانت تعقد ايضاً في قصور الخلفاء والوزراء، وأخص بالذكر قصور البرامكة.

فكان لهذه المجالس أعظم الأثر في ازدهار الحياة العقلية والفكرية، واشتمالها على شتى ألوان الأدب والعلم بعد أن أضاف البرامكة إلى نشاطهم السياسي والإداري والتنظيمي: النشاط الأدبي والعلمي والغنائي.

فكان من هذه المجالس: المجالس العلمية والأدبية والغنائية.

١ - مجالس البرامكة العلمية والأدبية.

دأب البرامكة في هذا العصر على عقد مجالسهم العلمية والأدبية في قصورهم، أو في قصر الخلافة وربما تجاوزوا ذلك إلى ما هو أرحب، حيث الفيافي الشاسعة، و الحدائق الغناء أثناء غدواتهم وروحاتهم. وما برح يشارك في هذه المجالس فطاحل العلماء وجهابذة الأدباء، والمذاكرون، وأرباب الفكر من كل لون وجنس على اختلاف عقائدهم وأدبائهم، ومذاهبهم، وتوجهاتهم (١).

فكان الحاضرون من العلماء والأدباء يتناولون شتى فنون العلوم والآداب والآراء المذهبية والعقائدية والسياسية، وفي الشعر والأدب(٢) ، والفلسفة والفلك وغير ذلك.

ولم يكن لهذه المجالس زمن محدد تعقد فيه، فقد تكون أسبوعية، أو حسب الظروف والمناسبات، وما يستجد من أحداث.

---

[١] الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية ص١٠٩ وضيف: العصر العباسي الأول ص٤٥٧

[٢] مروج الذهب للمسعودي: ٣/ ٣٧١-٣٧٢، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤/ ٢٦٦

فكان لهذه المجالس التي تعقد في القصور بهجتها ورونقها من حيث الأثاث فقد أسرف البرامكة في ذلك أيمَّا إسراف، ففرشت بالمفروشات الفخمة والأثاث الرائع الثمين، مما يدل على رفاهية البرامكة (٣)، وإسرافهم، ولعلَّهم أرادوا بذلك إحياء أمجاد أجدادهم القدماء في زخرفهم وزينتهم وترفهم، مخالفين في ذلك تعاليم الإسلام الخالدة التي تدعو إلى البساطة وعدم الإسراف حتى في الطعام والشراب، فقال سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: "...وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين". الأعراف ٣١.

ولعلهم في هذا أرادوا أيضاً مجاراة الرشيد في مجالسه، والتي كانت من الفخامة والروعة بحيث قيل أنها لا مثيل لها.

فمما روى عن وصف إحدى هذه المجالس، و ذكر ما اشتملت عليه من أثاث فاخر ما ذكره الاصمعي في وصف مجلس للفضل بن يحيى فقال (٤):

".... إنَّه كان من أروع المجالس من حيث المفروشات والرياش، وأنه التأم في بهو فرش بالفراء الثمينة، وقد جلس الفضل على سرير مصنوع من العاج بعد أن لبس أجمل الثياب، وكانت من الفراء المبطنة بالخز، وبين يديه كانون مصنوع من الفضة، وفوقه حجر من الذهب في وسطه تمثال أسد في عينيه ياقوتتان وصينية وسطها إبريق فرعوني، وكأس كأنها جوهرة...الخ".

فإذا كان هذا وصف لإحدى مجالس الفضل، فما بالك بمجالس جعفر؟ وهو كما قال الاصمعي: أكثر أشراف عصره ترفاً وتأنقاً(٥).

ومما ينبغي التنبيه إليه: أن هذه المجالس كانت تعقد في جو مفعم بالحرية الدينية والسياسية، ولعل ما يدور فيها من مختلف الموضوعات يشبه ما يجري في النوادي والروابط الأدبية في عصرنا الحاضر. إلا أنهم كانوا أكثر حرية، ومحاورة ونقاشاً، ومما يعزز قولنا هذا انه في إحدى المجالس التي عقدها يحيى في قصره، والتي حضرها كبار المفكرين على اختلاف مللهم ونحلهم، وتوجهاتهم المذهبية والحزبية تناول الحاضرون شتى الموضوعات، فتحدثوا عن الإمامة وعن الوجود والعدم والحدوث والعشق وغير ذلك (٦)بأسلوب علمي، وفيما يبدو كان كلامهم يقال ارتجالاً دون إعداد مسبق، مما يدل على تمكنهم ومهارتهم، ومقدرتهم على تناول شتى المواضيع

---

[٣] الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٦٧

[٤] ابن المعتز: طبقات الشعراء ص٢١٤

[٥] الجاحظ: البخلاء:ص٤٠٣

[٦] ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٦٦، ومروج الذهب للمسعودي ٣/ ٣٧١-٣٧٢

التي يودون الحديث فيها، وبراعتهم في صياغة أفكارهم، كما كانوا من الشجاعة بحيث لا يخافون لومة لائم (٧).

وظل ما يدور في هذه المجالس نموذجاً طيباً لملكة النقاش والمحاورة والمناظرة دون أن يتعصبوا لمذهب معين، أو نشاط حزبي، أو الخروج عن قواعد الآداب الإسلامية العظيمة، فإذا جادلوا بالتي هي أحسن استجابة لأمر الله تعالى (٨). فكان ما يتناولونه في هذه المجالس يعبر بصدق عما في الحياة العباسية من توجهات سياسية وحزبية، ومذاهب فكرية، وحرية في الرأي، وما وصلوا إليه من نهضة فكرية.

ولم يقف البرامكة موقف المتفرج مما يدور فيها من خواطر، وإنَّما كانوا يشاركون فيها مشاركة تنم عما يتمتعون به من معرفة وعلم، ولم يجدوا غضاضة في مخالفة من يناظرونهم، حتى لو كان المناظر خليفة المسلمين نفسه، وربما احتكموا إلى من له علم ودراية فيما يتناظرون فيه(٩).

ومن هذه المجالس التي يعقدها البرامكة: مجالس يحيى بن خالد ومجالس ولديه: الفضل وجعفر.

مجالس يحيى بن خالد:

لقد اتخذ يحيى من بيته مثابة لندواته ومجالسه، فكان يكتظ بالمتناظرين لهذا عين هشام ابن الحكم قيّما عليها، وربما عقد مجالسه في قصر الخلافة، أو في أماكن أخرى حسب الظروف والمناسبات، وكان يشارك المتناظرين في مناظراتهم، مشاركة العارفين، لأنه صاحب أدب وعلم وفلسفة،لذلك كان ينسق ويحاور ويرجح إذا احتكم إليه المتناظرون بأسلوبه الأدبي الواضح الجلي (١٠).

فمن مناظراته التي عقدها ما ذكره الأزدي(١١) أنّه ناظر أهل الموصل بشأن ما يدفعون من خراج لكن الازدي لم يتطرق إلى فحوى هذه المناظرة.

وذكر ابن طيفور(١٢) أن يحيى ناظر الرشيد في قوس جلاهق، غير أنه أيضاً لم يذكر شيئاً مما جرى في تلك المناظرة، كما لم يذكر شيئاً عمن حضرها من أرباب الفكر، ولمن كانت الغلبة.

---

[٧] جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ٤/ ١٦٤

[٨] الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية ص١٠٩

[٩] راجع الأغاني: ١٧/ ٦٦-٦٨، ومعاهد التنصيص للعباسي ٤/ ٦٧-٦٨

[١٠] وفيات الأعيان ٤/ ٢٦٦، ومروج الذهب ٣/ ٣٧١-٣٧٢

[١١] تاريخ الموصل ص٢٧٦

وناظر الهادي في ولاية العهد:

يقول ابن الطقطقي(١٣): "ومن آراء يحيى السديدة ما قاله للهادي، وقد عـزم علـى ان يخلـع أخاه هارون من ولاية العهد ويبايع لابنه جعفر بن الهادي... فخلا الهادي بيحيى... وحادثه في خلع هارون أخيه والمبايعة لجعفر ابنه، فقال له يحيى:

"يا أمير المؤمنين: إن فعلت حملت الناس على نكث الأيمان، ونقض العهود، وتجرأ الناس على مثل ذلك، ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد في بيعته".

ولما أحضره مرة أخرى، وفاوضه في خلع الرشيد ومبايعة ولده جعفر، قال له يحيى: "يا أمـير المؤمنين لو حدث بك حادث

الموت وقد خلعت أخاك، وبايعت لابنك جعفر، وهو صغير دون البلوغ، أفترى كانت خلافته تصح، وكان مشايخ بني هاشم يرضون ذلك، ويسلمون الخلافة إليه؟ قال لا قال يحيـى: فـدع هذا الأمر حتى يأتيه عفواً ولو لم يكن المهدي –أبوه- بايع لهارون لوجب أن تبايع أنت له، لئلا تخرج الخلافة من بني أبيك"، فاقتنع الهادي برأيه وصوبه. وجعل ولاية العهد في هارون.

وروى المسعودي وابن خلكان (١٤) طرفاً من المنـاظرة العلميـة الـتي عقـدها يحيـى في بيتـه، فحضرها كبار المفكرين، وارباب الآراء، والنحل من أهل الاسلام وغيرهم، ممن برعوا في فن المناظرة، فكان منهم: الإمامي، والخارجي، والمعتزلي أمثال:

علي بن الهيثم إمامي المذهب، ومن مشهوري متكلمة الشيعة، وأبو مالك الحضرمي من فرقـة الخوارج والشراة (١٥) وأبو محمد بن الهذيل العلاف من فرقة المعتزلة، وشيخ البصريين (١٦)، وهشام بن الحكم الكوفي، شيخ الأمامية، وكبير الصنعة في عصره (١٧)، وابراهيم بـن يـسار النظام المعتزلي من نظار البصريين، وغيرهم، فأدلى كل واحد من الحاضرين بدلوه، فبلغ عـدد

---

(١٢) كتاب بغداد ص١٢

(١٣) الفخري: ص١٥٩-١٦٠

(١٤) مروج الذهب ٣/ ٣٧١-٣٧٢ ووفيات الأعيان ٤/ ٢٦٦

(١٥) الشراة: الذين شروا آخرتهم بدنياهم وقد سموا أنفسهم بهذا الاسم.شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ص٢٢٩ وما بعدها

(١٦) وفيات الأعيان ٤/ ٢٦٥ والأعلام ٧/ ٣٥٥

(١٧) راجع كتاب الأعلام مادة الهاء

المتكلمين ثلاثة عشر عالماً، فتحدثوا في هذه المناظرة عن القدم، والحدوث والظهور والكمون، والإثبات والنفي والحركة والسكون والإمامة نص أم اختيار إلى غير ذلك من الموضوعات الكلامية والفلسفية والففقهية٨(١٨)، ثم دعاهم إلى الحديث عن العشق، فأجابوا بما يشبه ما قال أفلاطون وسقراط عن عاطفة الحب مما يدل على تغلغل الفلسفة اليونانية في الحياة العباسية وتفاعلها بين طبقة المفكرين(١٩).

ولعل هذا هو الذي دفع ببعض الكتاب الغربيين إلى القول: بأنهم أجابوا بنظريات الفلاسفة القدماء من اليونانيين (٢٠)، ومهما يكن الأمر، فإن هذه المناظرة تدل على مهارة هؤلاء العلماء في صياغة أفكارهم، وتفرعها واستنباط المسائل من أقوال أئمة الفقهاء، ومن أهل السنة والشيعة، وأرباب المذاهب الإسلامية المختلفة، وأهل الكلام في الإمامة أهي نص أم اختيار!!.

ومن المناظرات اللغوية التي رتب لها يحيى أيضاً، وأدارها بنفسه تلك المناظرة التي جرت بين سيبويه والكسائي في بيت يحيى وقيل في قصر الرشيد في علم النحو، وحضرها جمع غفير من أهلن العلم، وكبار أئمة اللغة والأدب، كما حضرها ولدا يحيى: الفضل وجعفر، وكان سيبويه قد حضر من بلده إلى يحيى مؤملاً بعد أن سمع عنه فاقترح على يحيى أن يجمع بينه وبين الكسائي ليناظره في النحو، فتردد يحيى في تلبية رغبته ونصحه ان لا يفعل، لمكانة الكسائي في بغداد، فهو شيخها وقارئها، ومؤدب ولد أمير المؤمنين الرشيد، كما وأن جميع من في بغداد يتعصبون له، فأبى إلا الالتقاء به، ومناظرته، فلما نما خبره إلى الرشيد أمر يحيى أن يجمع بينهما، فلبى رغبته ورتب لذلك يوماً يجتمعان فيه، فغدا سيبويه إلى دار يحيى لملاقاة الكسائي، فوجد الفرّاء، وهشاماً والأحمر ومحمد بن سعدان قد سبقوه إلى ذلك، فقعد يحيى والفضل وجعفر، ومن حضر على فراش، فسأل الأحمر والفرّاء سيبويه في النحو، وسيبويه يجيب، فأكثروا عليه السؤال، فتبرم من ذلك، وقال لست أكلمكما أو يحضر صاحبكما حتى أناظره، فجاء الكسائي، ومعه خلق كثير من العرب، وجرت المناظرة، فاختلفا فيما بينهما، فقال يحيى: اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما فمن يحكم بينكما؟ وهذا موضع مشكل، فقال الكسائي: إن العرب قد جاءوا من كل حدب وصوب، ومن كل صقع، وهم فصحاء الناس، وقد قنع بهم أهل البصرة والكوفة، فليسألوا فقال يحيى وجعفر، لقد أنصفت، وأمر بإحضارهم، فأيّدوا الكسائي فيما

---

[١٨] وفيات الأعيان: ٤/ ٢٦٦ والبخلاء ص٤٠٣

[١٩] ضيف: العصر العباسي الأول ص٤٦٣

[٢٠] جوستنيان: حضارة الإسلام ص٧٨

ذهب إليه، فأقبل يحيى على سيبويه وقال له: قد تسمع أيها الرجل، فخضع سيبويه واستكان، فأقبل الكسائي على يحيى، وقال له: أصلح الله الوزير إنّه وفد عليك من بلده مؤملاً، فإن رأيت ألا ترده خائباً، فأمر له بعشرة آلاف درهم(٢١).

مجالس الفضل بن يحيى:

كما كان للفضل بن يحيى مجالسه العلمية والأدبية، ومذكراته، ومناظراته، التي ما فتئ يعقدها في بيته، والتي لا يحضرها إلا خاصة القوم، ومن تلك المجالس ما قاله اليافعي في كتابه مرآة الجنان(٢٢) ، كان الفضل " إذا جلس للناس مجلساً عاماً لم يحضر مجلسه إلا العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والكتاب والمذاكرون". منهم: الأصمعي واسحق الموصلي، وإسماعيل بن صبيح، وعبد الملك بن صالح، ومحمد بن يزيد العقيلي، وغيرهم، كما كان له مجالسه الأدبية والشعرية الخاصة حيث كان الشعراء يقبلون عليه منشدين عيون قصائدهم، فلا يبرح مجلسه حتى يستمع إليهم جميعا، دون أن يعتريه كلل أو ملل، مهما بلغوا من الكثرة(٢٣).

وكان كثيراً ما يرسل في طلب المذاكرين، ليسمروا عنده منهم: إسماعيل بن صبيح والأصمعي، فيتحول المجلس إلى ندوة أدبية رائعة واحتفاء بهم كان يقدم لهم الطعام و الذي يبلغ من الفخامة ما لم ير مثله عند ملك أو وزير(٢٤).

فمن مذكراته:

أرسل ذات يوم في طلب الأصمعي ليسامره، فاستهل الأصمعي حديثه ببيت من الشعر من قصيدة لأبي نواس، فطلب منه الفضل أن يكمل الأبيات، فاستجاب له، فأنشده حتى وصل إلى قول الشاعر:

---

[٢١] راجع: المناظرة بتفاصيلها، وما قيل فيها في الكتب الآتية: معجم الأدباء ١٣/ ١٨٢، وطبقات النحويين اللغويين ص٦٨ و٧٠-٧١ وأنباه الرواة ٢/ ٣٤٨ و٣٥٨، ومجالس العلماء: ص٨-١٠، وأمالي الزجاجي ص٢٣٩-٢٤١، والفهرست ص١٧٧ وأبو الفدا: المختصر في أخبار البشر: ٢/ ١٥ ونور القبس ص٢٨٨-٢٨٩ وحياة الحيوان الكبرى، ٢/ ١١٨

[٢٢] مرآة الجنان ١/ ٤٣٦-٤٣٧ وحديقة الأفراح لإزالة الأتراح للشرواني ص٢٥٠، وأعلام الناس للإتليدي ص١٣٨

[٢٣] الأغاني: ٢/ ١٦٦

[٢٤] ابن المعتز: طبقات الشعراء:ص٢١٤

ألم تر أنَّ المال عون على الندى   وليس جواد معدم كبخيل

فطرب الفضل لذكر الكرم، فقال: قاتله الله ما أشعره!! ثم دعا غلامه ان يثبت ما قال(٢٥).

وفي مجلس آخر التأم للمذاكرة ضم كلا من: إسماعيل بن صبيح، وعبد الملك بن صالح، واسحق الموصلي، فاستهل الفضل حديثه بقوله: "حدثنا الخليل بن احمد أن قيصر ملك الروم بعث إلى قس بن ساعدة أسقف نجران، فلما دخل عليه، ومثل بين يديه، حمد الله وأثنى عليه .... فبدأ حديثه بسؤاله عن أفضل الأشربة، والأطعمة، وأفضل الحكمة، وعن الحلم، وأفضل المال، ثم سأله عن النجوم، وهو يجيب ثم تطرق إلى قول الشعر، فمما قال:

"هيهات ما احد لنا مضى قدره   يدري كم الأرزاق والآجال

إلا الذي فوق السماء مكانه   فلوجهه الإكرام والإجلال"

ثم سأله عن زجر الطير، فأجاب بكلام طويل (٢٦). وشارك الفضل الرشيد في مجالسه التي كان يعقدها في قصره فكان يدلي بدلوه، مما يدل على تبحره في العلم، واهتمامه بضروبه المختلفة، ومعرفته بشتى فنون الآداب.

ففي إحدى هذه المجالس التي ضمت الرشيد والأصمعي، والفضل، كانت الشموع تضيء أرجاء المكان، والخدم يطوفون حول الرشيد، فتوجه الأصمعي بحديثه إلى الرشيد حتى تطرق إلى ذكر المنصور، فأثنى عليه، فأعجب الفضل بقوله، فقال له: أحسنت بارك الله فيك، فمثلك يؤمل لهذا الموقف!!، فدعا الرشيد الأصمعي أن يعرج ثانية إلى قول الشعر، فوصف الجمل وأطال في ذلك، فضاق الفضل ذرعاً، فقال له: مالك تضيق علينا ليلتنا هذه بذكر جمل أجرب؟ فمازحه الرشيد بقوله: اسكت هي التي أخرجتك من دارك، فأزعجتك من قرارك، وسلبتك تاج ملكك، فماتت، فعملت جلودها سياطاً يضرب بها قومك ضرب العبيد!! وقهقه. ثم قال للفضل: لا تدع لنفسك، والتعرض لما تكره، فقال الفضل: لقد عوقبت على غير ذنب، والحمد لله فقال الرشيد: أخطأت في كلامك يرحمك الله، لو قلت واستغفر الله قلت صواباً، وإنما يحمد

---

[٢٥] نفسه ص٢١٤

[٢٦] راجع ذلك في: المحاسن والمساؤى للبيهقي، ٢/٦-١٢، وأنباه الرواة ٢/ ٣١٤ و٢/٣٥٨، وطبقات النحويين ص٦٨، وذكر كتاب شرح مقامات الحريري ٢/ ٦٩ جزءاً منها

الله على النعيم، ومضوا في مذاكراتهم، حتى اكتنف الرشيد الملل، فانفض المجلس (٢٧)، كما كان للفضل مجالسه الشعرية والتي كان يحضرها الشعراء.

مجالس جعفر بن يحيى:

لقد كان جعفر كثير الشغف بعقد مجالسه العلمية، والأدبية، شأنه في ذلك شان أبيه يحيى بن خالد وأخيه الفضل بن يحيى، فكان منها الأسبوعية ومنها حسب ما يستجد من مناسبات وظروف فكان يحضرها عدد من أهل الفكر، وأرباب المناصب الرفيعة في الدولة، ومن الذين يتولون العمل في الدواوين الحكومية، وخاصة كبار الأدباء والمفكرين، و العلماء والشعراء منهم: أبو يوسف القاضي، والأصمعي، وجابر بن حيان، والنظام وغيرهم كثير.

فكان الحاضرون يتناولون شتى المواضيع التي يودون الحديث فيها، وأثبتوا من الشجاعة بحيث لا يخافون لومة لائم وما برح جعفر يشارك فيما يجري من أحاديث ومن حوار ومناظرات، مما يدل على سعة علمه، وما يتمتع به من عقل ثاقب، وبراعة في الحوار والجدال والمناقشة ومن شجاعة في الرأي مهما كانت العواقب التي قد تترتب على ذلك.

ففي إحدى مجالسه جرى الحديث عن أبي مسلم الخراساني، وكيف بطش بأعداء العباسيين، فاستطاع نقل الخلافة من الأسرة الأموية إلى الأسرة العباسية بعد أن سفك دماء ستمائة ألف نفس!!، ولعل في هذا الرقم مبالغة إلى حد كبير .

فعقب جعفر على ذلك قائلاً(٢٨):

"وإنما الرجل من ينقل الدولة من قوم إلى قوم بغير سفك دم".

وفي هذا القول من الخطورة ما يدل على شجاعة جعفر، وعدم مبالاته بما يترتب على ذلك من غضب الرشيد، أو تشكك في نوايا البرامكة، رغم أن ما يدور في هذه المجالس ليس سراً خافياً على سمع الخليفة وبصره، بل وعن عامة الناس، وهم في كل عصر تواقون إلى سماع ما يجري في القصور من حكايات وأخبار خاصة إذا كان الحديث ينبعث من مجالس البرامكة.

---

(٢٧) راجع تفصيل ما دار في هذا المجلس من مذاكرة في المراجع التالية: العقد الفريد ٥/ ٣٠٩-٣١٧ وأمالي المرتضى ٢/ ٩-١٣، ونور القبس: ص١٢٩-١٣٢، والفرج بعد الشدة ص٢٣٨-٢٤٠ ونسب ما دار في هذا المجلس إلى الرشيد والأصمعي وجعفر

(٢٨) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ٤/ ١٦٤

وكان لجعفر علم ومعرفة بعلم الصنعة، وقد ظهر هذا واضحاً في مناظرته لـصديقه جـابر بـن حيان(٢٩).

كما كان له علم بالآثار العقلية اليونانية ومنها كتب ارسطوطاليس.

وقد اثبت ذلك جابر بن حيان (٣٠) في كتابه الخواص (٣١) كما أجرى حواراً مع النظام حول كتاب لارسطوطاليس، قام النظام بنقضه، فأراد جعفر إثارته ليطول الحديث، فقال لـه كيـف وأنت لا تحسن أن تقرأه!!.

مما دفع بالنظام إلى أن ينقضه مسألة مسألة، فأثار ذلك إعجاب جعفر ودهشته!!.

ولم يكتفِ بعقد مجالسه الخاصة، وإنما كان يشارك الرشيد مجالسه أيضاً.

وبعد هذا العرض الموجز عن مجالس البرامكة، وما يدور فيها من مناظرات ومذاكرات تتناول مختلف المواضيع الفكرية يمكننا القول إن هذه المجالس كانت منـارات علـم و مراكـز إشـعاع، ومدارس فكر؛ لهذا كان لها دورها في نهضة الحياة الفكريـة في العـصر العباسـي الأول حيـث اقتبس الشعراء والكتاب والأدباء كثيراً من المعاني التي تناولها العلماء والأدباء في مجالسهم، كما اقتبسوا كثيراً من براهينهم وأساليبهم مما جعل العقل العربي عقلاً يحلق في سماء العلم والمعرفة والفلسفة، ويستقصي كل ما قيل وكتب في الموضوع الواحد، (٣٢) من مواضيع تشتمل على دقائق المعاني وما وضح من البراهين.

كما تأثرت الكتابة النثرية بكثير من معانيهم، وخيالهم، وألفاظهم الفلسفية، وكل ما يدور في هذه المجالس من آثارعقلية ونقلية حتى غدت من أهم الفنون النثرية، مما جعلها تشغل كثيراً من خاصة القوم وعامتهم.

مجالس البرامكة الغنائية

استهوى الغناء بعض الناس في نهاية العصر الأموي، وبداية العصر العباسي، وشغفوا به شغفاً عظيماً، ملك عليهم مشاعرهم ووجدانهم، فلعل هذا يعود إلى ما اشتمل عليه من شعر بديع، وأدب رفيع، ومعان رائعة وألفاظ عذبة، وخيال يجوب سماء الفكر والمعرفة، وألحان تبعث في

---

[٢٩] راجع كتاب: مختار رسائل جابر بن حيان مكتبة الخانجي القاهرة.

[٣٠] راجع: ترجمة جابر بن حيان في كتاب وفيات الأعيان ١/ ٢٧٥

[٣١] راجع كتاب مختار رسائل جابر بن حيان

[٣٢] ضيف: العصر العباسي الأول ص٤٥٧-٤٦٤

النفس البهجة والسرور، بالإضافة إلى ما فيه من لهو وتسلية تقشع السآمة والملل، عند مرضى النفوس، ممن ضعف عندهم الوازع الديني؛ لأن الغناء رقية الزنا.

لهذه الأسباب ولغيرها انتشر الغناء انتشار النار في الهشيم، فكان لبغداد نصيب الأسد من ذلك. فقد استقطب الخلفاء والوزراء، كثيراً من المغنين ، فكان على رأس من اهتم بالغناء : المهدي والهادي والرشيد ووزرائهم البرامكة.

ولعل الرشيد كان من أكثرهم ولعاً به واهتماما بأمره، وإقبالاً على مجالسه واحتفاء بالمغنين والمغنيات، لهذا جعلهم مراتب وطبقات، رغم ما عرف عنه من تقوى وكثرة عبادته وحجه وجهاده.

وشاركه في ذلك البرامكة، فالتأمت في قصورهم مجالسه، فكان لهم القدح المعلّى في ازدهاره وانتشاره في بغداد، وكان قد ارتحل من قبل الكثير من المغنيين من الحجاز إلى عاصمة الخلافة في بغداد، فوجد هؤلاء من التشجيع والرعاية ما جعلهم يقبلون على الغناء بشغف شديد، يحدوهم الأمل، ويبعثهم الرجاء إلى نوال العطايا والجوائز والهبات من الرشيد ووزرائه فاستقطب ذلك المغنين، فاقبلوا على الغناء جماعات و وحدانا.

فكان لهذه السياسة التي انتهجها البرامكة ما لا يمكن إنكار أثره البالغ في انتشار الغناء في ربوع بغداد، وظهور ضروب مختلفة من الأصوات والألحان والأنغام والموسيقى، كما برع المغنون براعة عظيمة في أغانيهم.

ولعل الذي كان يدفع بالبرامكة إلى الاهتمام بالغناء بالإضافة إلى ما ذكرت آنفاً إلى تأثرهم بأجدادهم من أهل فارس، لأن الفرس مولعون باللهو والغناء(١)، ولا عجب في هذا، فإن العرق دساس، كما ورد في الحديث الشريف، كما اتخذه البرامكة للترفيه عن أنفسهم من عناء العمل المنوط بهم في إدارة شؤون البلاد والتصدي للمؤامرات التي يحيكها أعداء الخلافة، فكان البرامكة يعقدون مجالسه فيحضرها أنبه المغنين والقيان، وأحسنهم غناء وأجودهم لحناً، وامهرهم في العزف، والضرب على الطبل والدف أمثال: اسحق الموصلي، وإبراهيم الموصلي، ومعبد الصغير مولى بني يقطين، وأبو زكار، وفريدة، وفليح بن العوراء، وابن جامع، وحكم الوادي، ودنانير جارية البرامكة، وعليه بنت المهدي بالإضافة إلى عدد آخر من الجواري والقيان.

---

(١) حجاب: معالم الشعر وإعلامه في العصر العباسي الأول ص١٤

وحرص يحيى بن خالد أن تكون الصدارة لمغنيه في كل لون من ألوان الغناء، كما تنافس المغنون فيما بينهم ليحصلوا على ما يتوقون إليه من الظهور والشهرة والغنى والجاه.
فمما يروى (٢) أن يحيى بعث ذات يوم في طلب المغنيين: فليح بن العوراء، وحكم الوادي، وابن جامع، فاتفق فليح وحكم على أن ينزلا من مكانة ابن جامع، وأن يضعاه في منزلة دون من منزلته، وذلك بأن يصبح كل واحد منهما إذا غنى صاحبه بقوله: هكذا يكون الغناء!!.
وفي المساء أرسل يحيى بن خالد إلى جاريته دنانير يدعوها إلى المشاركة في حضور مجلسهم، وفي نهاية اللقاء تم توزيع الهدايا عليهم.
ورغبة من البرامكة في بلوغ جواريهم مستوى رفيعاً في الغناء حرصوا على تعليمهن ضروباً مختلفة منه، فكان يحيى بن خالد يطلب من مغنيه إبراهيم الموصلي أن يتولى دنانير بالإرشاد والتقويم، وان يبين لها ما كان نشازاً من الألحان، أو ما فيه نغمة شاذة حتى تصل في غنائها إلى المستوى الذي يليق بها (٣).
فكان يعرض عليه ما يعجبه من الأصوات والغناء رغم ما يتمتع به من الفطنة والعلم والدراية بالأصوات بحيث يستطيع أن يميز بين صحيحها وسقيمها، وقد شهد له بهذا إبراهيم الموصلي عندما قال له ذات يوم(٤) إن ابنتك دنانير قد عملت صوتاً أعجبني، وأعجبت به أيضاً فقلت لها: لا تعجبي به حتى أعرضه على أبي اسحق، فقال إبراهيم: والله ما في معرفة الوزير أعزه الله، ولا بغيره من الصنائع مطعن، وإنّه لأصح العالم تمييزاً، واثقبه فطنة، وما أعجبه إلا وهو صحيح حسن (٥).
ولم يكن قول إبراهيم الموصلي ليحيى مجاملة له، وإنّما كان يعبر عن الحقيقة بصدق، لأن يحيى رغم انشغاله في تصريف أمور الدولة كان يحرص أشد الحرص على معرفة أجود الغناء، وأحسن أنواعه، وأفضل المغنيين، لهذا نراه يسأل مغنيه ابن جامع عن أحسن المغنيين غناء، فأجابه: من أطرب الخاشع، وأفهم السامع(٦).

---

(٢) الأغاني ٤/ ١٥٧٦-١٥٧٧
(٣) الأغاني:٥/ ١٨٩٢-١٨٩٣
(٤) الأغاني:٥/ ١٨٩٢-١٨٩٣
(٥) الأغاني ٥/ ١٨٩٢-١٨٩٣
(٦) الراغب الاصبهاني: محاضرات الأدباء ٢/ ٧١٨

ولم ينفرد يحيى بمعرفة ما حسن من الغناء والألحان، فقد شاركه في ذلك ولداه الفضل وجعفر، وكان الفضل على علم ودراية بقواعده؛ لهذا ظل يحرص على معرفة أجود المغنين وأحسن الغناء، فقد سأل إبراهيم الموصلي ذات يوم عن أجود الناس غناء، فقال له من الرجال أم من النساء؟ فرد عليه قائلاً من الرجال، فقال إبراهيم: ابن محرز، فقال الفضل فمن النساء؟ فأجابه ابن سريج (٧). ومن هنا ندرك ما يكنّه يحيى وولداه الفضل وجعفر من حب للغناء، وولع به رغم أن الغناء من حبائل الشيطان، وإن سمي في هذا العصر بغير اسمه (الفن)، لهذا ظل يرحب بهم، ويفتح لهم أبواب قصره، ليطرقوا مجلسه في أي وقت يشاءون، فكان منهم: إسحق الموصلي، ولما انقطع عنه لأمر لا يعلم عاتبه على ذلك، فأخبره إن خادمه نافذ منعه من الدخول عليه فأصدر أمره بالسماح له بالدخول إليه متى يشاء، وفي أي وقت يريد (٨)

وأما جعفر بن يحيى: فقد كان من أكثر أهله شغفاً بالغناء، وأعظمهم ولعاً به؛ لهذا حرص عليه أشد الحرص، فكان يعقد مجالسه في بيته، فإذا تعذر عليه ذلك حضرها في مجلس الرشيد، ولا عجب في ذلك.

فقد بلغ من المهارة والعلم بأصواته، وضروبه وإيقاعه وألحانه مبلغاً عظيماً، وكان يمارس الغناء، والضرب على الطبل، وقد شهد له بذلك اسحق الموصلي فقال (٩): "لم أرَ قط مثل جعفر بن يحيى ،كان له فتوه وظرف وأدب وحسن غناء، وضرب بالطبل، وكان يأخذ بأجزل خطر من كل فن من الأدب والفتوة".

ومما يدل على مهارته وعلمه بالألحان ما رواه صاحب كتاب الأغاني (١٠): أن إبراهيم الموصلي غنى الرشيد ذات يوم لحناً من شعر طريح بن إسماعيل:

قد طلب الناس ما بلغت فما نالوا، ولا قاربوا، وقد جهدوا

---

(٧) برانق: في ظلال الخلفاء ص١٧٨-١٧٩. وقد عده من النساء لأنه كان يتشبه بهن، وقد لعن الرسول صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال

(٨) رسائل الجاحظ ص٤٣-٤٤ والأغاني٥/ ١٥٢ وص٢٢٦ وجمع الجواهر في الملح والنوادر ص٣٣-٣٤ للحصري والوزراء والكتاب ص٢١٢

(٩) الأغاني: ٥/ ٢٢٨

(١٠) الأغاني: ٤/ ١٥٣٩-١٥٤٠، المروري: جمع مروراء وهي الفلاة البعيدة المستوية، الحداة: جمع حاد: المغني للإبل فلم يليموا: لم يأتوا بما لا يلامون عليه

فاستحسن الرشيد اللحن والشعر، فطلب منه أن يعيد اللحن عليه مرة أخرى، فأعاده، فازداد إعجابه واستحسانه، فمنحه مكافأة قيمة على ذلك، فما كان من جعفر إلا أن قال: قد والله يا سيدي أحسن، ولكن اللحن مأخوذ من لحن الدلال الذي غناه في شعر أبي زيد:

من ير العـــير لابن أروى   على ظهر المروري حداتهن عجال

فأما الشعر، فنقله طريح من قول زهير:

سعى بعدهم قوم ليدركوهم   فلم يفعلوا، ولم يليـــــمو ولم يألوا

فانتاب اسحق العجب من علمه بالألحان والأشعار، لأن اللحن كان أشبه ما يكون بلحن الدلال، وكان قد غاب عنه معرفة اللحن، فأصاب إبراهيم الغم لذلك رغم معرفته بـاللحن، فكان ذلك أشد عليه من ذهاب أمر الشعر مع أنه يغـني الـصوتين، ويحفـظ الـشعرين، وكـان يفضل زلزل في ضرب العود على غيره، لأنه لا يرى مثله في هذا النوع من الفن (١١).

وبلغ به حب الألحان انه كان يأمر من يجيدون اللحن أن يتولوا وضعها لبعض الأشـعار فها هو يأمر اسحق الموصلي أن يضع له لحناً لهذين البيتين من الشعر مدحه الشاعر فيهما:

وكنت إذا أذن عليك جرى لنا   تجلى لنا وجه أغر وسيم

علانـــــية محمودة وسريرة   وفعل يسر المعتفين كريم

فلبى رغبته، ووضع له لحناً(١٢).

وبلغ بجعفر التوافق بينه وبين الرشيد انه إذا طرب احدهما طرب الآخر وإذا استحسن أحدهما الغناء استحسنه صاحبه(١٣).

وزعم انه استخف بهما الطرب، والنشوة ذات يوم إلى ما هو أبعد من ذلك، فقاما يرقصان في إحدى مجالس الغناء أمام علية بنت المهدي عندما غنت لهما (١٤)، ونحن ينتابنا الشك في صحة هذه الرواية، لأنه مما يعرف عن الرشيد انه كان كامل العقل، عرف بتقواه وصـلاحه، وكثـرة عبادته من صلاة وزكاة وحج وجهاد، فكيف يليق به، وهو يتبوأ كرسي الخلافة أن يستخف به

---

(١١) معجم الأدباء: ١١٨/١٧

(١٢) الأغاني: ٥/ ٢٤٤

(١٣) برانق: البرامكة في ظلال الخلفاء

(١٤) التوحيدي: نهاية الأرب ٢١٧/٤-٢١٨

الطرب، فيقوم بالرقص أمام أخته، وأن يسمح لها بالغناء أمام رجل أجنبي، لأن الرقص يدل على الخفة والطيش!!

ولو سلمنا بصحة الرواية، فلعل هذا الرقص أشبه ما يكون بالعرضة السعودية.

وما برح جعفر في مجالس لهوه يهيئ له ولندمائه ثياباً من حرير، ذات ألوان مختلفة أشبه ما تكون بألوان الطيف، فكان منها الحمراء والصفراء والخضراء(١٥). كما كان يقدم لهم الخلوق ليتطيبوا به (١٦).

ولم يكن ليسمح لأحد بالدخول عليه في مجالس المنادمة إلا إذا كان من ندمائه، فإذا التأم الجمع، خففت العيدان بمختلف ألوان الألحان، وكان أثناء ذلك لا يتوانى عن تلبية حاجات ندمائه مهما بلغت من الكثرة(١٧).

وظل جعفر يحب الغناء، ويحرص على حضور مجالسه حتى اللحظات الأخيرة من حياته، فحين داهم مجلسه مسرور الخادم يريد الإطاحة برأسه وكان في معيته الطبيب ابن بختيشوع وأبو زكار يغنيه قول الشاعر:

فلا تحزن فكل فتى سيأتي   عليه الموت يطرق أو يغادي (١٨)

ولعل هذا اللهو هو الذي دفع بيحيى إلى اتهام لرشيد بإفساد دنيا جعفر واتهام جعفر بإفساد آخرة الرشيد(١٩).

ولشدة ولع البرامكة بالغناء، ومجالسة ما فتئوا يشجعون المغنين والمغنيات، فيغدقون عليهم الأموال والهدايا والثياب والجواري والدواب، ويرحبون بهم ويستقبلونهم أحسن استقبال. فمما يذكر في ذلك أن يحيى أعطى إبراهيم الموصلي ذات يوم ألف دينار ودابة بسرجها ولجامها مكافأة له على غنائه وألحانه، فقال له: جزاك الله خيراً، فإنك تأتي الأنفس وهي شوارد فتقرها،

---

(١٥) الفخري ص١٧٠

(١٦) الوزراء والكتاب ص٢١٢ الخلوف: نوع من الطيب

(١٧) وفيات الأعيان: ١٥/ ٣٣٠ والوزراء والكتاب ص٢١٢ والفخري ص١٦٦-١٦٧. والتنوخي الفرج بعد الشدو ص٦٣ والعقد الفريد ٥/ ٧٢-٧٣ والأغاني ٥/ ٢٢٩. والازدي: تاريخ الموصل ص٢٦٢ واليافعي: مرآة الجنان ٤٠٦-٤٠٧

(١٨) البداية والنهاية ١٠/ ١٩٧ والفخري ص١٧٠ يغادي: الغدو قبل طلوع الشمس

(١٩) راجع فصل نكبة البرامكة

والأجواء وهي سقيمة فتصحها، فزاده ألفاً أخرى، وكان إبراهيم قد غناه هـذين البيـتين مـن الشعر تمثل يحيى بالبيت الأول منهما:

هوى بتهامة وهوى بنجد   فابتلى التهائم والنجود

فزاد إبراهيم عليه البيت التالي:

أقيم بذا وأذكر عهد هذا   فلي ما بين ذين هوى جديد (٢٠)

وحينما سخط يحيى عليه في أحد الأيام لأمر بلغه عنه، غناه بيتي الشاعر: عباس بن الأحنـف والذي يقول فيهما:

بالله يا غضبان ألا رضيت   أذاكر للعهد أم قد نسيت

لو كنت أبغي غير ما تشتهي   دعوت أن تبلى كما قد بليت

ووضع لهما لحناً، فكافأه عليهما بألفي دينار، ودابة بسرجها ولجامها، فكان لهذه المكافأة أثرها الطيب في نفسه، فقدَّم إليه واجب الشكر وقبل يده، فزاده ألفين آخرين، وهو يعتذر إليه بضيق ذات اليد، وأنه لولا ذلك لضاعف المكافأة له،ومناه أن يعطيه في الأيام القادمة:

"... ولكن الدهر بيننا مستأنف جديد" (٢١).

ونهج الفضل نهج أبيه، فما برح يشجع المغنيين، فيمنحهم الأموال الجزيلة فمن ذلك:

أعطى اسحق الموصلي عندما شد الرحال إلى خارسان ألف دينار، وضمه إلى حاشيته بعـد أن غناه البيتين التاليين:

فراقــك مثل فراق الحياة   وفقــدك مثل فقد الديم

عليك السلام فكم من وفا   أفارق فيك وكم من كرم

ولم يكتفِ الفضل بسماع البيتين، فسأله أن يحليهما بصنعة، وأن يودعهما لدى من يحسن الغناء من المرافقين، رغبة منه في حدوث الأنـس والطـرب، كلمـا تاقـت نفاسـه إلى سمـاع الغنـاء، فأعطاهما لأحد المغنين، فكان يكافئه كلما غناهما له(٢٢).

(٢٠) الأغاني ٥/ ١٢ تهامة: مكة المكرمة، نجد: النجد ما اشرف من الأرض الجمع أنجاد ونجود، والنجد: الطريق الواضح مختار القاموس

(٢١) راجع الأغاني: ٥/ ١٣-١٤

واتخذ جعفر أسلوباً مماثلاً لأسلوب أبيه وأخيه الفضل، فما انفكَّ يشجع المغنين والمغنيات، ويقدم لهم الكثير من الهدايا والجوائز والهبات والمكافآت والرواتب الشهرية،كلما غنوه.
وربما زادهم في العطاء عما أمر به الرشيد، فحين أمر الرشيد لإسحق الموصلي أن يدفع له مبلغاً من المال، رأى جعفر أن ذلك لا يتناسب ومكانة الرشيد، فزاده عما أمر به بما يقدر بخمسة آلاف (٢٣).

وحينما غناه مملوكه ماهر بيتاً من الشعر أجازه عليه، فأراد الرشيد وجعفر ان تزداد متعتهما، ويطول أنسهما، فبعثا في طلب أبي العتاهية(٢٤) ، -وكان سجيناً- فأمراه أن يزيد بيتاً ثانياً عليه (٢٥).
والسؤال الذي ينبغي أن يطرح: هل كانت هذه المجالس تقتصر وظيفتها على الغناء وحده دون غيره من الفنون؟
فمما روته كتب الأدب والتاريخ أنها لم تتناول الغناء وحده، فقد كانت كثيراً ما تنقلب إلى مجالس أدبية رائعة، ومما يؤيد ذلك أن مجلساً ضم الرشيد ويحيى بن خالد واسحق الموصلي تحول من مجلس للغناء والطرب إلى مجلس أدبي رائع(٢٦) ، وكان كثيراً ما يتناول فيها الحاضرون الشعر والقصص والفكاهات والنوادر والملح، والنقد وغير ذلك(٢٧).
فكان لهذه المجالس أثرها في عالم الشعر والأدب، وتداول شعر المحدثين وروايته.
كما كان لمساهمة القيان أثرها في انتشار الغناء وشيوعه في أرجاء بغداد، وما بعدها. بعد أن أجدن في غنائهن، وأمتعن في ثقافتهن، لأنهن كن يتمتعن بثقافة واسعة بفضل العناية بهن، فعلى سبيل المثال كان إبراهيم الموصلي يعتني بأمرهن، ويتولى تعليم ثمانين جارية الأدب

---

[٢٢] الأغاني: ٥/ ١٢٨-١٢٩ الديم جمع ديمة، وهو مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق

[٢٣] الأغاني ٥/ ١٩

[٢٤] أبو العتاهية: أحد الشعراء المجيدين وقد اشتهر بشعر الزهد وقد حصل على أموال كثيرة من الرشيد والبرامكة فقدر ما خلفه بعد موته بأربعة وعشرين ألف ألف درهم، الأغاني: ٤/ ١٢٨٧-١٢٨٨.

[٢٥] شرح مقامات الحريري ٤/ ١٤٨

[٢٦] المسعودي: مروج الذهب ٧/ ٣٦٩-٣٧٠

[٢٧] السباعي: من روائع حضارتنا ص١٩٣ وضيف العصر العباسي الأول ص٦٣

والغناء(٢٨) ، وكذلك كان يفعل اسحق الموصلي بالإضافة إلى تأديبهن وتعليمهن الغناء (٢٩).

وبهذه السياسة التي انتهجها البرامكة والرشيد وحرصوا عليها وشجعوا المغنين والقيان كان لها أعظم الأثر في انتشار الغناء في ربوع بغداد والبراعة في الفنون والألحان والضرب على الطبل والدف.

يقول هـ.ج. سارمر (٣٠) "فلعب خالد البرمكي، وابنه يحيى البرمكي، وحفيداه جعفر والفضل البرمكيان دوراً هاماً في نشر الفنون، وخاصة الموسيقى في العصر الذهبي".

وكما كان للغناء ايجابياته كان له سلبياته، والتي ما كان ينبغي أن تكون في دولة ترفع شعار الإسلام، مما دفع ببعض الكتاب الغربيين إلى المبالغة في اتهام الدولة العباسية بتضييع صلتها بالاسلام(٣١).

---

(٢٨) ضيف: العصر العباسي الأول ص٦٢

(٢٩) حجاب: معالم الشعر وأعلامه ص١٦

(٣٠) تاريخ الموسيقى العربية ص١١٠. وراجع كتاب تاريخ الإسلام: لحسن إبراهيم

(٣١) معالم تاريخ الإنسانية ٣/ ٦٦٠-٦٦١

الفصل السابع

البرامكة والفكر الشعوبي

ما الشعوبية؟ وإلام تدعو؟ ومتى نشأت؟ ومن يقف وراءها؟ وهل للبرامكة دور فيها؟ أسئلة نطرحها. ونود الإجابة عليها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

الشعوبية نسبة إلى شعوب، وهي نسبة غير قياسية، وهم فريق من العجم يقوم على العصبية الجاهلية أو كما يقول بعض الباحثين أنها حركة قومية، لم يكن لها عقيدة معينة، ومبادئ محددة غير أنّه من أهدافها التخلص من سيطرة العرب (١)، أو كما قال الجاحظ (٢) أساسها العصبية التي لا تبقى دينا إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية.

ولذلك تعصبوا على العرب، ولم ينسبوا لهم فضلاً، بل حطوا من شأنهم(٣) ، فعابوا عليهم أموراً منها: الاعتماد على العصي في خطبهم، واتكاءهم على أطراف القسي كما عابوا عليهم بداوتهم، وحياتهم الخشنة، وأنه ولا حضارة لهم ولا مدنية، لأنهم كانوا يعانون في جاهليتهم من الجهل والتخلف، فهم أمة أمية بنص القرآن الكريم: {هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لقي ضلال مبين} الجمعة / ٢، وأنه لم يكن لهم دولة ولا حضارة لا مدنية، وعقدوا مقارنات بينهم وبين الأمم الأخرى: كالأكاسرة والقياصرة والفراعنة وغيرهم(٤). وأن جميع الأمم لهم السيادة عليهم في العلم والحضارة لذلك وأنهم لا ميزة لهم على غيرهم من الأمم، لأن الإسلام دين

---

(١) الشعوبية وأثرها في الشعر العربي، محمود صالح (مخطوط).

(٢) البرامكة والعلويون ص ٥٤ عن رسالة الجاحظ في بني أمية ص ٢٩٩ والمقريزي: النزاع والتخاصم ص ١٠١.

(٣) هامش البيان والتبيين ٣/ ٥، والشعوبية وأثرها في الشعر العربي، محمود صالح ط ٢ مخطوط.

(٤) ضيف: العصر العباس الأول: ٧٥ -٧٦ وأحمد أمين ضحى الإسلامي ١/ ٤٩، والعالم الإسلامي في العصر العباس الأول ص ٨٥.

الإنسانية كلها لا دين العرب وحدهم(٥)، ولو بحثنا عن تاريخ نـشأتها فيمكننـا القـول انهـا نشأت في العصر الأموي نتيجة لما قيل عن سوء معاملة الأمويين للموالي، وغمطهم لحقوقهم التي شرعها الله تعالى، وعدم مساواتهم بالعرب في الحقوق و الواجبات، واثقال كواهلهم بكثرة الضرائب؛ مما أوغره صدورهم خاصة عند من اسلموا حديثاً، ولم يتذوقوا طعم الإيمان.

كما كان للانتصارات التي حققها المسلمون على الفرس أثرها في نفوس بعض الموالي فتمنوا زوال ملكهم، وإن يأتي اليوم الذي ينقضون فيه على الدولة غير اننا نقول ان ما ذكـر عـن الأمويين الواقع يكذب ذلك ، الأنّه لم يكن الأسلوب المتبع عند جميع الأمويين، فلكل قاعـدة شواذ، فقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من أحسن الخلفاء في معاملة أهـالي الـبلاد المفتوحة، لهذا كتب لأحد ولاته(انما ارسلنا هداة ولم نرسل جباة)، كما ذكر المؤرخون أنه قدّم بعض الموالي على غيرهم من العرب. فجعل القضاة في مصر لثلاثة من المفتين اثنان منهم كانا من الموالي. ولما أنكر عليه ذلك قال: ما ذنبي إن كانت الموالي تسمو بأنفسها صـعدا وأنـتم لا تسمون.(٦)

وكذلك فعل غيره من الأمويين، مما أثار استغراب الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك فقال: العجب لهذه الأعاجم كان الملك فيهم، فلم يحتاجوا إلينا، فلمّا ولينا لم نستغن عنهم(٧).

وتساءل ذات يوم فقال: " ألا تعجبون من هذه الأعاجم احتجنا إليهم في كل شـيء حتـى في تعلّم لغاتنا منهم(٨) ".

وهذه هي المساواة التي نادى بها الإسلام، لأنه أرسل رحمة للعالمين لا لفريق دون فريق، ولا أمة دون أمة، وخيرية هذه الأمة تعود إلى إيمانهم بالله تعالى وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكـر، ولا فضل لها على غيرها من الأجناس إلا بهذا، لأنه لا فضل العربي على عجمي إلا بالتقوى.

---

(٥) ضحى الإسلامي ١/ ٤٩ وما بعدها.

(٦) اتجاهات الشعر ص ٨٥ عن خطط المقريزي.

(٧) محاضرات الأدباء ١/ ٣٤٩.

(٨) نفس المصدر ١/ ٣٤٩.

ورغم هذا فإنّه عندما طرق سمع الموالي الدعوة لآل البيت هبوا لنصرتها والانخراط في صفوفها، فكان منهم خالد بن برمك، فقد كان أحد الدعاة لآل البيت في خراسان، وأحد قادتها الذين أبلوا بلاء حسناً حتى انتصر العباسيون على الأمويين، فكان له ولأبنائه من النفوذ ما لا يمكن إنكاره، وعرف العباسيون ما للموالى من فضل في قيام الدولة العباسية، وما قدّموا من خدمات عظيمة فنصّبوا كثيراً منهم في أعلا المناصب حتى غدت الدولة العباسية أعجمية خراسانية بعد أن كانت عربية أموية (٩).

وهذا ما شجع كبار الكتاب من الشعوبيين على الخروج عن صمتهم وأن يظهروا نزعتهم الشعوبية المنحرفة، وأن يعيبوا على العرب أموراً وأن يتعالوا عليهم ولم يقفوا عند الحرب الكلامية فحسب، فقاموا بنقل بعض الكتب عن أجدادهم والتي تدعو إلى الإلحاد ، كما ألفوا عدداً من الكتب شنوا فيها هجوماً شنيعاً على العرب، وحرباً شعواء على كل ما هو عربي، وأشادوا بأمجاد أمتهم، وما حققوا من انجازات، وما شيدوا من حضارة، وتقدم في مختلف ضروب العلم والفن والعمارة عبر تاريخهم الطويل (١٠)

فمن الكتب التي ألّفها الشعوبيون:

انتصاف العجم من العرب وكتاب فضل العجم على العرب لسعيد بن حميد البختكان ووضع الهيثم بن عدي كتباً في مثالب العرب منها: المثالب الصغير، والمثالب الكبير، ووضع سهل بن هارون، وهو أحد صنائع البرامكة، وصاحب بيت الحكمة في عهد المأمون رسائل في ذم عادات العرب، ممّا يدل على الإغراق في شعوبيته (١١)، و ألف علان الشعوبي: الميدان في المثالب، وألف أبو عبيدة معمر بن المثنى وهو من أصل يهودي كتباً كثيرة منها: لصوص العرب، وأدعياء العرب وفضائل الفرس، وألف ابن الكلبي كتاباً في المثالب وابن غرسية رسالة في تفضيل العجم على العرب، ووضع النضر بن شميل الحميري، وخالد بن مسلمة المخزومي كتاباً في مثالب العرب(١٢). والهيثم بن عدي كتب في مثالب العرب وكتاباً فيه طعن على

---

[٩] راجع ما ذكر عن الشعوبية في كتاب، البيان والتبيين للجاحظ. وكتاب: أبو جعفر المنصور ص ٤٣والفن ومذاهبه ضيف ص ١٢٢

[١٠] من تاريخ الأدب العربي ٢/ ٢٩-٣٠، والعقد الفريد ٣/ ٢.

[١١] الفهرست: ١١٣.

[١٢] الفهرست: ص ١١٨.

أشراف العرب، كما قام بعضهم بوضع القصص التي تعيب على العرب وتنقص من شأنهم من وتشيد بتاريخ العجم.

ولم يكن جميع الموالي يحملون هذه الأفكار الهدّامة، فهناك من تصدي لهؤلاء، ولم يذهب إلى ما ذهبوا إليه، لأنهم آمنوا بالإسلام عقيدة وشريعة و سلوكاً ، فالتزموا بمبادئ الإسلام التي تسوي بين جميع الأجناس، وتهدم جميع الفوارق الطبقية والجنسية والعصبية والقومية، فكل الناس لآدم وآدم من تراب (١٣). ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.
فقاموا بالرد على هؤلاء المتطرفين من دعاة الشعوبية، بدافع من عقيدتهم الإسلامية.

فمن الذين تصدوا لهؤلاء الشعوبين، وفندوا أباطيلهم: ابن قتيبة والجاحظ والهمداني وغيرهم من العرب والعجم، كما قام عدد من لكتاب الشعوبين بالرد عليهم، فكان لذلك أثره في حركة النقد، ونضوج ملكة الجدال والمناظرة (١٤).

فتمخض عن الشعوبية أضرار كبيرة كان منها الزندقة، فأصبحت الزندقة والشعوبية كلمتان مترادفتان يكمل بعضهما بعضا (١٥).

موقف البرامكة من الشعوبية

ويبقى السؤال ما موقف البرامكة من الشعوبية والشعوبيين؟ وهل كانوا من المؤيدين لهم؟ فإذا لم يكونوا كذلك، فلماذا لم يتصدوا لهم فيلجموا أفواههم؟
هناك من الكتاب من أرجع ذلك إلى دوافع شعوبيه، وأنهم كانوا يذكون نارها فيمن حولهم من الفرس (١٦) بل وتأييدهم فيما ذهبوا إليه(١٧)، لهذا نكل الرشيد بهم، وأستأصل شأفتهم (١٨).

---

[١٣] أحمد أمين ضحى الإسلام ١/ ٤٩ والعالم الإسلامي في العصر العباس ص ٨٥ العصر العباس والأول ص٧٤-٧٥.

[١٤] راجع رد الشعوبيين علي ابن قتيبة في كتاب العقد الفريد ٣/ ٣٢٣ وما بعدها.

[١٥] راجع كتاب: تاريخ الإلحاد في الإسلام ص ٥٥.

[١٦] ضيف العصر العباسي الأول ص ٧٦.

[١٧] حضارة الإسلام ص ٨٨.

[١٨] مظاهر الشعوبية في الأدب العبي ٣٧٥ - ٣٧٦.

ولعل هذا الاتهام يعود إلى وقوف البرامكة من ذلك موقف المتفرج، فتركـوا الـشعوبيين يشرقون ويغربون. دون أن يأخذوا على أيديهم ويصدوهم عن انحرافهم، بل قربوا كثيراً منهم وأغدقوا عليهم الأموال، والهدايا، فانقطع الكثير إليهم، كما أسندوا إليهم المناصـب الرفيعـة، فكان منهم " كبار الكتَّاب والشعراء، مما جعلهم يمعنون في شعوبيتهم البغيـضة فمـن هـؤلاء: سهل بن هرون، والحسن بن سهل، والفضل بنن سهل، وعلان الشعوبي، ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبان اللاحقي وأبو يعقوب الخريمي، ومحمد بن الليث الخطيب، وسـعيد بـن حميـد البختكان، وغيرهم.

لذلك أُتهم البرامكة، بالشعوبية، فمن الذي اتهموا البرامكـة بالـشعوبية، والميـل إلـيهم المنصور حين قال لوزيره خالد بن برمك عندما استـشاره في هـدم إيـوان كـسرى لاسـتخدام أنقاضه في تشييد مدينة السلام، فأشار عليه أن لا يفعل، لأنهُ علم من أعلام الإسلام، يستدل به الناظر على أنّه لم يكن ليزال مثل أصحابه عنه بأمر دنيا، وإنما أمر دين،ومع هذا ففيـه مـصلى علي رضي الله عنه، فقال المنصور " رأيت يا خالد إلاّ الميل إلى أصحابك العجـم(١٩). ومـع ذلك لم يخش أن يجيش الجيوش من الفرس، ويعلن العـصيان المسلح، ويـنقض علـى عـرين الخلافة عندما ولاه خراسان، كما أتهم أعداء البرامكة يحيى بن خالد بذلك حين اجتمع بعض الدهاقنة (رؤساء الفلاحين) – مطالبين أن يؤخر النيروز (٢٠)عن موعده المقرر شهرين حتى لا يلحق الـضرر بـالمزارعين "فكـاد أن يـستجيب لهـم لـولا أن أعـداؤه اتهمـوه بالتعـصب للمجوسية (٢١).

وردَّ الرشيد على الفضل بن يحيى رداً لا يخلوا مـن القـسوة في مجلـس أدبـي حـسين تطـرق الأصمعي إلى ذكر الجمل فأطال، فقال له الفضل مالك تضيق علينا ليلتنا بذكر جمـل أجـرب،

---

[١٩] تاريخ بغداد ١/ ٤١٣ – ٤١٤ و٤١٩ وروح الذهب ١/ ٢٨٥ -٢٨٦ والعيون والحدائق ٢٥٦ ونهاية الأدب ١/ ٣٨٠ وثمار القلوب ومختصر ونسب ذلك إلى الرشيد مع يحيى بن خالد ويبدو أن هذا تقحيف الكتاب، لأن من نية السلام بنيت في عهد المنصور والفخري ص ١٢٥.

[٢٠] النيروز أو النوروز فارسية ومعناه اليوم الجديد وهو أول أيام السنة الشمسية الإيرانية وهو اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس – آذار – من السنة المسيحية، وهو من أكبر الأعياد الفارسية. المعجم الوسيط.

[٢١] البيروني الآثار الباقية ص ٣٢ وبلوغ الأدب ١/٣٤٨-٣٤٩.

فقال الرشيد: أسكت هي التي أخرجتك، من دارك، وأزعجتك من قرارك، وسلبتك تاج ملكك ثم ماتت، فعملت جلودها سياطاً بضرب بها قومك ضرب العبيد(٢٢) ، ثم قهقه وقال: لا تدع نفسك والتعرض لما تكره، فقال الفضل لقد عوقبت على غير ذنب والحمد لله .

وقد تشكك بعض الباحثين في صحة الرواية، لأنّه يستبعد أن يصدر مثل هذا القول من الرشيد لمن أخلصوا له، وتولو أموره كلها (٢٣)، وكان لهم الفضل في توليه الخلافة.

كما عارضه الرشيد مرة أخرى حين أخذ خادمة يلبسه النعل في قدمه، فأوجعه، فأثنى الفضل على صناعة العجم: وأنها لا تحدث ما أحدثه عقب النعل في قدمه فرد عليه الرشيد قائلا: :هذه نعلي ونعل آبائي رحمة الله عليهم، وتلك نعلك ونعل آبائك، ولا تزال تعارضني في الشيء، ولا أجعلك بغير جواب يمضك(٢٤) ".

وانظر إلى ما يستشف من هذه المناظرة التي دارت ما بين فارسي وعربي في حضور يحيى بن خالد، فقال الفارسي ما احتجنا إليكم في عمل ولا تسمية، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا في أعمالكم، ولا لغتكم حتى أن طبيخكم، وأشربتكم، ودواوينكم وما فيها على ما سمينا ما عرفتموه كالاسفيداج و... إلخ.

وأخذ يعدد، فسكت العربي. فقال يحيى للعربي: "قل له أصبر لنا تملك كما ملكتم ألف سنة بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج إليكم، ولا إلى شيء كان لكم(٢٥) ".

كما كان لجعفر مجلسه الأسبوعي والذي لا يحضره إلا كبار الكتَّاب من أبناء شيعته من الفرس(٢٦) الأمر الذي من شأنه أن يذكي نار الشعوبية والغيرة والحسد ، والحساسية بين

---

(٢٢) العقد الفريد ٥/ ٣٠٩-٣١٧ وأمالي المرتضي ٢/ ٢-١٣ ونور القبس ١٢٩-١٣٢ والفرج بعد الشدوة: ٢٣٨-٢٤٠ وذكر ـ أن مجلس ضم جعفراً.

(٢٣) السلقاني: الأصمعي الراوية ص ٦٨ – ٦٩.

(٢٤) نفس المراجع السابقة والصفحات.

(٢٥) أدب الكتَّاب ص ١٩٣.

(٢٦) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ٤/ ١٦٤.

الأجناس، فالأولى أن تكون جلسة مفتوحة لجميع الاجناس حتى يعم الإخاء والوئام بين العرب وغيرهم.

كما يؤخذ على البرامكة إفساحهم المجال: لأرباب الملل والنحل، ليتناظروا في مجالسهم في مواضيع قد تشعل نار الفتنة، وتؤجج العداوة بينهم.

فكان الأولى بيحيى، وهو الحكيم والمفكر أن لا يسمح لهذه المهاترات أن تكون في دولة الخلافة "وأن لا تستمر، ولا للشعوبيين أن يتمادوا في غيهم الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إل تفتت، الأمة، وذهاب سلطانها، وشيوع الفتن، وظهور القوميات، وأن لا تكون هذه الكتب والمناظرات إلا لخير الإسلام والمسلمين.

وأخذ على البرامكة تعصبهم لثقافة أجدادهم (٢٧)، فبذلوا جهودا في سبيل ترجمة الكثير من كتبهم، ونشرها، وأنَّ غرضهم من ذلك لم يكن خدمة العلم والأدب (٢٨). وهذا القول مردود على أصحابه، لأنَّ البرامكة لم يقصروا الترجمة على التراث الفارسي وحده فحسب، إنما شمل جميع الثقافات: الفارسية والهندية واليونانية والرومية، وبذلك لم يفرقوا بين لغة ولغة، كما وأن ما ترجم عن الفارسية اقل مما ترجم عن اليونانية . أو الهندية.

ومما يؤخذ عليهم أيضاً أنّهم سمحوا بنشر وترجمة الكثير من الكتب التي تضر بعقيدة الأمَّة، والتي من شأنها نشر الزندقة والإلحاد، وكان الأولى تقنين الكتب وأن لا يسمح بنشر إلا ما فيه خير الأمة وتقدمها وصلاحها.

كما أخذ على البرامكة أنّهم اتخذوا واستخدموا كثيراً من الفرس في الدواوين، حتى غصت بهم، وهذا ما جعل الجاحظ كبير الكتاب في عصرهم يقول: (٢٩) "دولة بني العباس أعجمية خراسانية".

---

(٢٧) مظاهر الشعوبية في الأدب العربي ص ٣٧١.

(٢٨) البرامكة والعلويون ص ٨٨-٨٩.

(٢٩) حسن أبو محمد العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٧٦.

ولا نريد أن نظلم البرامكة: فلعل الذي حفزهم إلى ذلك ما تحلى به الكتاب من الفرس من بلاغة وفصاحة، ومعرفة بشتى الثقافات التي تؤهلهم لشغل تلك المناصب، حتى بذوا وسبقوا العرب في ذلك، وحازوا على قصب السبق.

كما توسم البرامكة فيهم الحب والإخلاص لهم، والتفاني في خدمتهم، فامنوا جانبهم، فاستعانوا بهم وقربوا النابغين منهم. ولعل بعض الأدباء من العرب انزلقوا في متاهات الشعوبية مثلما انزلق فيه الشعوبيون الآخرون فتعصبوا لعروبتهم بعد أن رأوا السباب والشتائم تنهال على كل ما هو عربي وربما هذا ما دفع بالبرامكة إلى الاستعاضة عن الكتّاب العرب بكتّاب من الفرس، أو ربما لم يجدوا من العرب من يسد مسد الكتّاب من الفرس، لذلك لم يجبر الرشيد بعد نكبة البرامكة من الكتاب من يسد مدهم.

كما لا يعيب البرامكة أنهم استقطبوا أرباب الفكر مهما كانت جنسياتهم، فاغدقوا عليهم الأموال والهدايا، لأنهم فيما يبدو أرادوا بذلك أن ينالوا ثقتهم ومحبتهم، ولالتفاف حولهم وقد أفصح يحيى عن سياسته تلك حين سأل مؤدب ولده إبراهيم عنه (٣٠). كما سأل كتابه وأصحابه، ومن لهم معرفة وإطلاع على أحواله فقالوا:

" قد بلغ من الأدب كذا، ونظر في كذا، وقد اتخذنا له من الضياع كذا وبلغت غلته كذا! فقال: ما عن هذا سألت، إنّما سألت هل اتخذتم له في أعناق الرجال مننا، وحببتموه إلى الناس: قالوا لا قال: فبئس العشراء أنتم، وهو إلى هذا أحوج مما فعلتم" وأمر أن يفرق خمسمائة ألف درهم على الناس(٣١).

وقد كان لاستعانة البرامكة بأبناء البلاد المفتوحة والاختلاط الذي حصل على أوسع نطاق أثره الكبير في الحياة العربية حيث تأثروا بعاداتهم وتقاليدهم، فدخل كثير من نظمهم في الحياة الإسلامية (٣٢). فسار الخلفاء والوزراء على نهجها في سياسية الحكم (٣٣) ونظام

---

[٣٠] مات إبراهيم بين يحيى وهو دون العشرين من عمره.

[٣١] الوزراء والكتّاب ص ١٨٠.

[٣٢] حنيف : الفن ومذاهبه في النثر :١٢.

[٣٣] الأدب الفارسي ص ٩٨.

التشريفات، والدواوين وكل ما يدور في البلاط الفارسي (٣٤) واحتفلوا بالأعياد الفارسية كعيد النيروز، وقدّموا الهدايا بهذه المناسبات (٣٥) وأقاموا الموائد الفاخرة التي لم ير مثلها، وشيدت القصور الشامخة: وخطط خالد بن برمك مدينة السلام على شاكلة الطراز الفارسي فكانت مستديرة الشكل على الصورة التي كانت عليها مدينة المدائن حاضرة الدولة الساسانية، وبنى المنصور مقره على هيئة الطراز المعماري للقصور الفارسية ضمت عددا من الأواوين على شكل إيوان كسرى.

كما تأثروا بهم في إقامة مجالس الغناء والطرب، وتشجيع المغنين والمغنيات وظهرت ملامح الديانات السابقة كالمانوية والمجوسية والزرادشتية واضحة في شعر بعض الشعراء كشعر الزهد عند أبي العتاهية(٣٦).

ونحن لا نحمّل البرامكة وحدهم مسؤولية ما حدث في الحياة العباسية من سلبيات، فالرشيد يتحمل وزر ذلك أيضاً، لأن واجبه أن يحفظ عقيدة الأمة وأخلاقها كما هو واجب المسلمين جميعاً، فكل مسلم على ثغرة من ثغور الإسلام، فيجب أن يقوم كل مسلم. بواجبه وأن لا يؤتي الإسلام من قبله فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول في حديث رواه عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما:

"كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته... إلخ"، الحديث الشريف رواه الشيخان والترمذي.

---

(٣٤) دائرة المعارف الإسلامية ٦/ ٥٥٧

(٣٥) الفخري ص ١٢٥

(٣٦) الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية ص ١٣٦.

الباب الرابع
الشعر في موكب البرامكة

الفصل الأول
عتاب الشعراء على البرامكة

شعر العتاب من الفنون الشعرية القديمة، وقد نظمه الشعراء قديما وحديثا، فكان منه ما يعتبون فيه على أحبائهم من البرامكة بحكم الأمل والمحبة، وهذا الشعر الذي نظموه يوضح مدى الارتباط بين الشعراء والبرامكة، كما يوحي بما وصلت إليه العلاقات من مسالك موصدة نتيجة لأحداث طارئة، ومواقف معينة يتبد فيها ما عساه أن يكون تقصيراً من البرامكة في إسداء عطاء، أو عدم مجاملة في عيادة مريض وهذا ما دفع ببعض الشعراء ممن رأوا في البرامكة تقصيراً في حقهم إلى معاتبتهم عتاباً رقيقا رقة أنسام، الصباح، ومداعبتهم بلطف طمعاً في رأب الصدع، لأن العتاب يجب أن يمارس بحذر خشية أن ينقلب إلى عكس ما يرجى منه، فيؤدي إلى القطيعة والوحشة والجفاء(٣٧). وربما يؤدي إلى مشاجرات ومشاحنات، عندما يمارسه كثير من الجهلاء، لذلك لا يكون العتاب في كل الأمور يقول الشاعر (٣٨):

إذا كنت في كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي تعاتبه

والبرامكة شأنهم شأن البشر يصيبون ويخطئون، فالكمال لله تعالى وحده فقد يقع من البرامكة بعض القصور في حق النزر القليل من الشعراء والأصدقاء لكثرة أشياعهم، وعدم القدرة على القيام بواجب الصداقة والأخوة، لكثرة الأعباء المنوطة بهم، والتي حولت ليلهم إلى نهار، مما دفع بهؤلاء الشعراء إلى العتاب عليهم طالبين الوفاء برفدهم، وخاطبين ودهم

---

(٣٧) العمدة ٢/ ١٦٠.

(٣٨) المستطرف في كل فن مستظرف ١/ ٢٠٢

وألفتهم لذلك ارتفعت عقائرهم تشدو بشعر العتاب، وفيما يبدو فإن شعر العتاب كان قليلاً لما عرف عن البرامكة من الجود والكرم حتى ضرب بكرمهم الأمثال؛ لهذا لم يتركوا مجالا لمن يعتب عليهم، بعد أن قطعوا السنة الشعراء بكثرة عطاياهم من وألفوا القلوب بحسن استقبالهم وجميل معاملتهم.

وقد رأيت أن لا أغفل هذا اللون من الأدب لصلتة بحياة البرامكة، ولا بد أن يذكر الشيء وضده، حتى تتضح الصورة، ويظهر ما فيها من ظلال، ولما له من أثر في الحياة الأدبية والفكرية في المجتمع الإسلامي.

فمن شعر العتاب هذا الشعر الرقيق رقة الماء الزلال ما قاله بشار بن برد معاتباً خالد بن برمك بعد أن أمر له بعشرين ألفا فتأخر عليه في الوفاء، مما جعل بشارا يقول لقائده:
اقمني حيث يمر، فأوقفه في طريقة، فلما مرَّ به تعرض له وأمسك بزمام بغلته وأنشد قائلا(٣٩):

أظلّت علينا منك يوماً سحابةٌ	أضاء لها برق وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يجلي فييأس طامعٌ	ولا غيثها يأتي فتروى عطاشها

فكان لهذا العتاب الرقيق أثره الطيب في نفس خالد فقال: له : "لا تبرح حتى تؤتى بها".
وحين وعد يحيى أشجع السلّمى وعداً، فتأخر في الوفاء به عاتبه على ذلك.
فقال (٤٠):

رأيتك لا تستلذ المطِـــال	وتوفي إذا غـدِر الخائـن
فماذا تؤخر من حاجتـي	وأنت لتعجيلـها ضامـن ؟
ألم تر أن احتـباس النوا	ل لمعروف صاحبه شائن

ولّما لم يجد منه استجابة لما طلب عاتبه، فأغلظ في عتابه حيث قال:

---

(٣٩) المستظرف ١/ ٣١٩ وغرر الخصائص الواضحة ص ٢٢٢ وذكر أنه أعطاه عشرة لآلاف درهم.
(٤٠) أخبار الشعراء ص ٨٩ والأغاني ١٧/ ٧٧.

رويدك إن عزَّ الفقر أدنى | إليَّ مـــــن الثراء مع الهوان
و مـــاذا تبلغ الأيام منّي | بريب صروفها ومعي لساني

فغضب جعفر وقال: ويلك يا أشجع هذا تهدُّد فلا تعد لمثله و كلم أباه فقضى حاجته.

وعتب على يحيى شاعر آخر كان يختلف إليه ويمدحه، فغاب عنه أياماً لعله أصابته، فلم يفتقده، ولم يتوجه بالسؤال عنه فلمّا عافاه الله تعالى وشفي من علته كتب إليه هذه البيات معاتبا(٤١):

أبهذا الأمير أكرمـــك اللـــ | ـه وأبقـــاك لي بقـاء طويلاً
أجميلا تراه أصـــــلحك اللـــ | ـه لكـــيما أراه أيضـــا جميلاً
أنني قد أقمت عنك طـــويلا | لا تُــرى مُنفذاً إلـــيَّ رسولا
ألذنب فما علمت سوى الشكـ | ـر لما قد أولــــــيته جزيـلاً
أم ملالاً فما علــمتك للحـا | فظ مثلي على الزّمَـان ملولاً
قد أتى اللّهُ بالصـــلاح فما أنـ | كرت ممَّا عهــــدت إلاّ قليلاً
وأكلت الدُرَّاج وهـــو غـذاء | أفلت علَّتي عليه أفـولا(٤٢)
وكأنّي قدمــــــتُ قبلك آتيـــ | ـك غدا إن أجِدْ إليك سبيلاً

فردَّ عليه يحيى بأبيات من الشعر(٤٣).

وعتب أحد الندماء على الفضل بن يحيى لنسيانه له بعد أن أبتاع جارية حسنة الغنـاء حـسنة الصوت مليحة في طباعها، فشغلته عنه، فكتب إليه قائلاً(٤٤):

أخرجت السوداء ما كان في | قلبـــك لي من شدة الحبِّ
فإن يدُم ذا منك لا دام لـــي | متُ من الإعراض والكرْبِ

---

(٤١) القصر الفريد ٢/ ٤٨٨ – ٤٤٩

(٤٢) الدُرَّاج : نوع من الطير.

(٤٣) الأبيات ذكرتها في شعر البرامكة.

(٤٤) الأغاني ٥/ ٢٨٣ – ٢٨٤ ونسبه إلى دهمان إلاّ أنّه قال: أنه لم يدرك خلافة الرشيد ورجح الخبر مع أحد ولديه: زبير أو عبدالله أو الدهمان مع غير الفضل.

فما كان من الفضل إلا أن ضحك وأرسل في طلبه، ووصله وعاد إلى ما كان عليه سابقاً من الأنس.

وعتب أبو علي البصير عليه فأنشده(٤٥):

وُصف الصدُّ لمن أهوى فصد	وبدأ يَمزحَ بالَهْجـــــرِ فجـدّ
ماله يعدل عـــــنيّ وجههْ	وهو لا يعدلهُ عنــــديَ أحـدْ
لا تريدوا عزَةَ الفضـــل ومنْ	يطلب العزّة في خيس الأسدْ (٤٦)
ملكٌ ندفــــع ما نخشى به	وبهِ نصلحُ منّا ما فســـــدْ
يُنجز الناسُ إذا مـــا وعدوا	وإذا ما أنجز الفضـــــل وعـدْ

كما عتب أشجع السلّمى على جعفر بن يحيى حين أعطاه ثلاثة آلاف درهم بينما أعطى مروان أبي حفصة ثلاثين ألف درهم، وأعطى أبا البصير عشرين ألفاً عندما مدحوه، وكان هذا أول اتصال أجراه أشجع به، فكتب إليه بهذه الأبيات يعتب فيها عليه(٤٧):

أعطيت مـــروان الثلا	ثين التي ذلّـــت رغائبه
وأبا البصـــير وإنّمـا	أعطيتـــني منهم ثلاثـة
ما خانني حوك القريض	ولا اتهمت سوى الحداثة

فهزت هذه الأبيات أعطاف جعفر، وكان يتأثر بكل شعر رائع فأمر له بعشرين ألف درهم أخرى تطييباً لخاطره.

وعتب الشاعر عبد الله بن محمد بن أبي عينية على محمد بن يحيى لأنهّ بخل عليه، وقابله بتبرم وازورار وجفاء، دون أن يحدث منه بادرة سوء، فحسب ذلك يعود الى تعصبه عليه لأنه عربي، وقد قيل بأنَّ محمدا كان متعصباً على العرب. فقال معاتباً بهذه القصيدة(٤٨):

---

(٤٥) زهرة الآداب ١/ ٣٢٠ - ٣٢١.

(٤٦) خيس الأسد: عرفيه. وقيل موضع للأسد.

(٤٧) معاهد التنصيص ٤/ ٧١ - ٧١ - ٧٢

أسلم وإن كان فيك عني قبض لكفيك وازورار (٤٩)

تلحظني عابساً قطوباً كأنما بي إليك ثارُ

لو كان أمراً عنيت فيه يجوز لي فيه اعتذار

أو كنتُ سآله صريعاً لحان منّي لك الفرار (٥٠)

أو كنت نذلاً عديم عقلْ لا منصَبٌ لي ولا نجار (٥١)

أو لم أكنْ حاملاً بنفسي ساتحمل الأنفس الكبار

وأنني من خيار قومي وكلُ أهلي فتى خيارُ

عَذرتُ إن نالني جَفاءٌ فيكَ وإن نالني ضرارُ (٥٢)

لكنَّ ذنبي إليكَ أنّي قحطانُ لي الجدُّ لا نزارُ

عليك منّي السلام هذا أو ان ينأى بيَ المزار

ما كنتُ الاّ كلحم ميْتٍ دعا إلى أكله اضطرار

راحتْ على الناس لابن يحيى محمدِ ديمةُ غِزارَ

ولم يكنْ ما أنلت منه بقدر ما يتجلى الغبار

قد أصبح الناس في زمان أعلامه السفلة الشرار

يستأخر السابق الذكيُ فيه ويستقدم الحمار

وليس للمرء ما تمنيٌّ يوماً وما إن له اختيار

ما قدَّر الله فهو أتٍ وفي مقاديرْ الخيارُ

وعتب أحمد بن يوسف علي موسى بن يحيى ضمن جانحة مشتاقاً إليه فحجب عنه فأنصرف عاتباً وكتب إليه هذه الأبيات :

أتيك مشتاقاً وما لي حاجةٌ سواه وشكري في اللقاء موفر

فلم أر إلا آذناً متلوِّناً يقدّم رجلاً مرة ويؤخر

ومن دونه بابٌ يلوح خلاله صفائح ساج المسمر

---

(٤٨) الأغاني ١٨٤٩ - ٠ الورقة من ١ ذكر الأبيات ٩-١١-١٢ ونسبها لابن عنبة وزاد بهاً هذا البيت. ما بعد خمس مضت سنوها لبانة لي ولا أنتظار

(٤٩) ازورار: عدل وانحراف.

(٥٠) مسآله: كثير السؤال.

(٥١) النجار: الأهل والحسب.

(٥٢) ضرار : ضرر

فأبتُ بما لو يستقل ببعضـــه — إبان الحـــز الشاهق المتوعـر

ولست بآت أو أرى منك صولة — يذلُّ لها وإلى الحجاب ويقصر

كما عتب عليهِ عمر بن شبة حين ذهب إليه زائراً لقضاء حق عليه فحال دون ذلك الحجَّاب. فرجع خائباً فقال هذه الأبيات من قصيدة يائية(٥٤):

آيتيك زائراً لقضـــاء حقّ — فحال الستر دونك والحجابُ

وعندك عصبةٌ منهم أخٌ لي — كأنٌ إضــــاءه الآل السرابُ

ولست بواقعٍ في قذْر قوم — إذا كرهوا كما وقـــعَ الذُباب

(٥٤) نور القبس ص ٢٣١.

الفصل الثاني

هجاء بعض الشعراء للبرامكة

كثيراً ما ترددت في إثبات هذا الفصل، لما اشتمل عليه من ألفاظ لا تتناسب مع مكانة بعض الشعراء، وحق لي أن أتردد، لأنّ، المسلم ليس بفاحش ولا بذيء، وفي نهاية المطاف رأيت أن أثبته، لما اشتمل عليه الشعر من ملح، بديعة، وجمل بليغة مع مراعاة حذف بعض الألفاظ التي لا يليق بالمسلم أن يتفوه بها.

وكما نعلم فإن الأسلوب الذي انتهجه البرامكة مع الشعراء يدل على الحنكة السياسية، وهي سياسة الاستقطاب، وكسب الأعوان والأنصار، ومن هذا المنطلق أغدقوا الأموال والعطايا عليهم ليظفروا بحبهم، ولينالوا تقديرهم، ومديحهم، لأن البرامكة كانوا مغرمين بحب المديح والثناء، وربما أرادوا بذلك بالإضافة على ما ذكرته في فصل سابق قطع السنة الشعراء عن هجائهم والتحريض عليهم.

غير أن هناك من الشعراء من شذ عن القاعدة، فلم يروا بدًّا من هجائهم ولعلَّ هذا يرجع اللأسباب التالية:

الحسد والغيرة لما وصل إليه البرامكة من مكانة عالية، ومنزلة رفيعة، فكل صاحب نعمة محسود، لذلك هجاهم البعض رغبة في شفاء سخائم نفوسهم، والوقيعة بهم، وربما أرادوا إزالتهم من سدة الحكم وهذا أمر طبيعي.

يقول الجاحظ(١): "وإذا بلغ السيد من السؤدد، الكمال حسدْه من الأشراف من يظن أنّه الأحق به". إل أن يقول: " ومن طلب عيباً وجده، فإن لم يجده عيباً وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه، ويحمله عنه".

---

(١) الجاحظ: الحيوان ٢/ ٦٣

ولعل أعظم من كان يحرض عليهم عدوهم اللدود: الفضل بن الربيع، فقد كـان عـداؤه لهمـا مستحكماً، لتقصيرهم في تلبية رغباته: ولعله كان يختلق الرقاع المشفوعة بشعر الهجاء ، فيقدمها إلى الرشيد بأسماء مجهولة محرضاً علـيهم(٢) وشـاركهم في ذلـك بعـض الـشعراء ممـن مـدح البرامكة ثم انقلب، عليهم هاجياً محرضا وربما واصفا اياهم ببعض الصفات التي من شأنها أن توقع بهم، وتعرضهم إلى مالا يحمد عقباه، كاتهامهم بالكفر والزندقة، أو الفـسق والفجـور، وشرب الخمر، وعدم الوفاء بالعهد، والبخل، ... إلخ.

وربما كان هجاء بعض الشعراء أشبه ما يكون بالمزاح والمداعبة سـرعان أن يعـود قائلـة إلى مدحهم، والثناء عليهم أمثال الشاعرين أبى نواس، وأبى الهول الحميري.

فمن الشعراء الذين ارتفعت عقائرهم بهجاء البرامكة والتحريض عليهم خاصة بعد نكبتهم:

أبو نواس، والعتابي/ أبو سماعة المعيطي/ والراسبي، وابن عنبسة، وأبو الشمقمق، ولعل هناك آخرين، لم تصلنا أسماؤهم، كما لم يصلنا شعرهم لعدم، الجهر به إما بدافع الخوف مـنهم، أو طمعا في نوالهم.

أمّا أبو نواس، فقد هجا البرامكة أقذع الهجاء، وكان أكثر هجائه لجعفر رغـم كثـرة عطايـا البرامكة له وإحسانهم إليه، ولعل الذي كان يدفعه إلى ذلك تجهم البرامكة في بعض الأحيان في وجهه، لما ذكر عن مجونه، فها نحن نرى الفضل بن يحي يعامله معاملة قاسية عندما مدحه أبـو نواس قائلاً (٣)

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هواك لعلّ الفضل يجمع بيننا فغضب الفـضل، وقطـب جبينه، وعبس في وحهه، فدعاه أن يكف عن ذلك، وأمر بإخراجه، ولم يعطه شيئاً. وفي روايـة أخرى قال له بعد أن ساء فهمه لهذا لبيت(٤) : ما زدت على أن جعلتني قواداً..... "

---

(٢) راجع فصل نكبة البارمكة.

(٣) انظر الى كتاب الفهرست ص٣٣٨ وابن عساكر: التاريخ الكبير ٥/ ٢٨، وتاريخ الأمم والملوك ط الحسينية ١٠/ ٨٠، وثمار القلوب ص٣١٦، والفرق بين الفرق ص٢٧٠

(٤) نفس المراجع والصفحات والأجزاء.

لأن أبا نواس طلب منه كما فهم من البيت أن يجمع بينه وبين محبوبته (٥).

لهذه الأسباب رأيناه يغري الرشيد بهم، ويطلب فيما يبدو إهلاكهم عندما تحسر على الهادي - أخ الرشيد - والربيع بن يونس - وزير المنصور الآن الله تعالى لم يمد في عمريهما حتى يقـضيا على البرامكة. لكن أبياته لا تجد فيها مسحة من الجمال غير الوزن والقافية.

فها هو يقول في قصيدته(٦):

إني لولا شقـــــاء جدى	ما مات موسى كذا سريعاً
ولا طوته المنـــــون حتى	أرى بني برمـــــك جميعـاً

إلى أن يقول:

هذا زمان القرود فاخضع	وكن لهم سامعاً مطيعــــاً
كأنهم قــــد اتــى عليهم	ما غال يعقوب والربيعــــا

كما هجاهم فوصفهم بالشرك والإلحاد، فلعله أراد بهذا إثارة الناس ضدهم، وإيجاد الذريعـة للفتك بهم، وإن من أسوء الهجاء أن يطعن المرء في عقيدته، وأن يتهم في دينه.

كما اتهمهم بحب المادة، وأن الرغيف إلههم المعبود رغـم مـا يعـرف القاصـي والـداني عـن كرمهم، وأنهم لا يعبأون بالماديات، لأنهم جبلوا على الجود، وطبعوا عليه.

وفي ذلك يقول(٧):

لبني البرمكيّ قصر منيف	وجمال وليس فيهم حنيف
دارهم مسجد يؤذن فيهـا	لاتقاء وليس فيها كنيــف
فإذا أذّنوا لوقت صــلاة	كرَّروا لا إلهّ إلاّ الرغيف

[٥] راجع فصل ملامح النقد عند البرامكة.

[٦] راجع القصيدة في ديون أبي نواس.

[٧] ديوان أبي نواس ص ٥٥٥ .

واتهم الأصمعي البرامكة - رغم عفة لسانه، ومحبته لهم - بالإشراك بالله تعالى، والإيمان بالمحوسبة فقال(٨):

إذا ذكر الشرّك في مجلس	أنارت وجوه بني برمك
ولو تليت عندهم آيــــة	أتوا بالأحاديث عن مَزْدك

وهجا أبو سماعة المعيطي خالد بن برمك رغم إحسانه إليه "كما هجا إبنه يحيى ذاكراً أنّهما كانا على غير دين الإسلام، وأنّهما لو كانا مسلمين على دينه ما استصغرا شأنه.

(٨) الحافظ: البيان والبيتين ٣/ ٢٨٦، وابن قتيبة: المعارف ص ٣٨٢ وعيون الأخبار ١/ ٥١. ومحاضرات الأدباء ٤/ ٤٢٣. والوزراء والكتاب ص ٢٠٦ ـ البدء والتاريخ ٦/ ١٠٦.

فقال(٩)

زرت يحيى وخالداً مخلصــاً	لله ديني ما استصغرا بعض شأني
فلو أني ألحدت في الله يوماً	ولو أنيَّ عبدت ما يعـــبدان
ما استخفا فيما أظن بشأني	ولأصبحت منهــمـــا بمكـــان
إنَّ شكلي وشكل من جحد	اللّه وآياتـــه لمختـــلفـــان

وقال شاعر آخر (١٠) إن يحيى وأبنه الفضل قد شرداه لا لشيء سوى إيمانه بالبعث والنشور:

شردني فضل ويحيى وما	أذنبت ذنبا غير ذكـــر المعـاد
آمنت بالله، ولم يؤمــــنا	فطرداني خــــــيفة في البـلاد

وقال أيضا (١١):

آمنت بالله ولم يؤمنوا	فكان زادي عندهم شـــر زاد
أقول قولا قاله خائف	مطرد قلبي كثــير الســـــــهاد

...الخ الأبيات.

وقال العتابي بعد أن انحرف عنهم وكانوا قد تشفعوا له عند الرشيد إن البرامكة يتآمرون على الإسلام، وأنهم أصابوه بجرج لا يندمل، ون سيوفهم ما زالت تقطر دماً(١٢):

إنَّ البرامك لا تنـــــنك أنجيه	بصفحة الدِّين من نجواهم ندب
تجرّمت حجج منهم ومنصلهم	مخرَّج بدم الإســـلام مخـــتضب

---

(٩) ابن عساكر: التاريخ الكبير ٥/ ٢٨.

(١٠) نفس المرجع ص ٤١٢.

(١١) زهر الآداب ٢/ ٦١٢، والبديع لان المعتز ص ٦٣٦ النجي" المتناجون وهي المار والجمع أنجية.

(١٢) البيان والتبيين ٣/ ٢٧٨ وعيون الأخبار ١/ ٥.

وقال شاعر آخر(١٣) مشهرا بحيي، وأنّه يبني المساجد لا إيماناً برسالتها، وإنما ليزجي أوقات فراغه:

إنَّ الفـــــراغ دعانـــــي إل أبتـــــناه المساجـــــد
وإن رأيـــــــــي فيهـا كرأي يحـــــــــي بن خالد

وهجا أعرابي من بني هلال الفضل بن يحيي حين ذم الضب، وشاركه الحاضرون في ذمه فأثار ذلك حفيظة الأعرابي، فخرج مغضباً، وهو بنشد قائلا(١٤):

وعلج يعاف الضب لؤماً وبطنه وبعض إدام العلج هام ذباب
ولو أن ملكاً في الملأ ... أمه لقالوا لقد أتيت فصل خطاب

وهجا أبو نواس جعفرا بن يحيى فقال(١٥):

لقد غرَّني من جعفر حسن بابــه ولم أدر أنَّ اللؤم حشـــــو إهابة
فلست وإن أخطأت في مدح جعفر أول إنسان....... في ثيابـــــه

(١٣) جاحظ: الحيوان ٦/ ٩٠ – ٩٢ للعلج/ الرجل من الكفار العجم.

(١٤) الوزراء والكتاب ٢١٥ ومحاضرات الأدباء ٢/ ٣٩٠ فيذك البيت الثاني، وديان أبي نواس ٥٥٥ والكشكول ٢/ ٣٠٢ – ٢٠٣.

(١٥) الجاحظ ، الحيوان ١/ ٢٦١ والبيان والتبين ١/ ٦٩ وطبقات الشعراء ١٥٤، وأخبار الشعراء أو الأوراق ص٣ وقد نسب الأبيات إلى إسماعيل بن بشر اللاحقي.

وهجا أبو الهول الحميري بعض البرامكة فقال(١٦):

أصبحت محتاجاً إلى الضربَ ... في طلبي المعروف من كلب
قد وقَّح السبُّ وجهـــــه ... فصار لا ينحـــاش للسُّـب

واتهم بعض الشعراء البرامكة بالبخل، فكان ممن اتهم بذلك جعفر ومحمد بن يحيى بن خالـد على الرغم من كرم جعفر، وإن لم يبلغ في كرمه منزلة أبيه وأخيه الفضل لأنه كـان أقـل ثـراء منهما، فمن الذين اتهمو جعفراً بذلك أبو نواس، ولكنَّه لم يسمه بالاسم، وإنما كنى عنه بعرض الوجه، وطول العنق/ لهذا اختلق لبس الجربانات لطول رقبته، والعرب كانت تمـدح الرجـل بطول حمائل السيف فقالوا طويل النجاد، وتمدح المرأة بقولهم بعيدة مهوى القرط، وذكر أنه لم يعطه شيئا، على مدحه فقال(١٧):

قالوا امتدحت، فماذا اعتضت قلت لهم ... خرق النعال، وابلاء السراويــل
قالوا: قسمٌ هذا... فقلت لهـــــم ... وصفي له يعدل التصريح في القيل

وقال مستخدماً بعض الألفاظ التي لا تليق بشاعر بذَّ أقرانه من الشعراء(١٨):

عجبت لهارون الإمام، وما الذي ... يــود ويرجــو يا خلقه السّلـق
قفا خلف وجهٍ قد أطيل كأنه ... قفا ما لك يقضي الهموم على يثق

وأعظم زهواً من ذباب على... ... وأبخل من كلب عفورعلى عرق

---

(١٦) الوزراء والكتاب ٢١٥ ومحاضرات الأدباء ٢/ ٣٩٠ فيذك البيت الثاني، وديان أبي نواس ٥٥٥ والكشكول ٢/ ٣٠٢ – ٢٠٣.

(١٧) ديوان أبو نواس ص ٥١٩، والبيان والتبيين ٢/ ٢٨٩ والشعراء ٢/ ٨١٤ وورد في عيون الأخبار ١/ ٢٧٣ الثاني والثالث والخامس والحيوان ١/ ٢٣٩ ذك الثاني والثالث وديوان المعاني ١/ ٢٠٥ وذك الشعر الأخير من البيت الثاني،السلق:الذئب، بثق: سرعة اندفاع الدمع وبثق: منبعث الماء. العرض في، العظم الذي أخذ عن أكثر لحمة.

(١٨) البيان والتبيين ٣/ ٢٨٦ – ٢٨٧ وعيون الأخبار ١/ ١٤٢ وابن الفقيه مختصر كتاب البلدان ص٥٠٢

أرى جعفراً يزداد بخلا وذمة إذا زاده الرحمن في سعة الرزق
ولو جاء غير البخل من عند جعفر لما حسبته الناس إلا من الحمق

وقال بعض الشعراء(١٩) :

لعـــــــن الله ال برمــك اني صرت من اجلهم اخا أسفار
أن يك ذو القرنين قد مسح الار ض فأني موكل بالعيـــــار

وقال أبو الينبغي عباس بن طرخان(٢٠) أبيات على مرأى ومسمع من يحيى بن خالد وابنيه الفضل وجعفر فذكر فيها أنه رغم حسن صحبته للبرامكة، فأنه ما زال يشتري الخبز، ويكتري البيوت والعقارات، مما جعل البرامكة يعجلون له العطاء الجزيل:

صحبت البرامــك عشراً ولآ وبيتي كراء وخـــبزي شرا
أمحمد لـــــولا النبي محمد وشرائع الاســـلام والايمان
ما كان فيك لغاسل من مغسل يا طاهراً في الســر والاعلان
شتـــــان بين محمد ومحمد حي امات وميت احـــياني
فصحبت حي في عطايـا ميت ورجعت مشتملا على الخسران

وهجا شيخ من الأزد محمد بن يحيي بعد أن امتدحه، ولم يعطه شيئا فقال (٢١):

أقلني يا محمـــد بن يحيي مقال لم أكن فيه صـدوقا
جعلتك فيه ذا مجد وبأس وتلك مقالة بك لن تليقا
فلست بضائر أبدا عدوا ولست بنافع ابـداً صديقا

لأن محمد بن يحيى ممن اتهم بالبخل ، فقد قيل أنّه كان ينهج نهجاً خاصاً، مخالفاً ما دأب عليه أهله من البر والعطاء والجود والكرم(٢٢) ، فهو بخيل في نظر من عاشره وهذا ما ذكره المـبرد

(١٩) الوزراء والكتاب ص٢٠١ – ٢٠٢ .
(٢٠) ذيل الأمالي والنوادر ص٢٢٠
(٢١) الورقة ص ١٠٠ والبخلاء ص ٣٤٤.
(٢٢) البخلاء ص ٣٤٤.

حيث قال(٢٣): "وكان محمد بن يحيى بن خالد ممسكاً غير مشبه لأهله". فعندما سأل يحيى بن خالد وقيل الرشيد الجماز (٢٤) وكان يختص به عن مائدته فقال: فتر(٢٥) في فتر وصحافة منقورة من حب الخشخاش، وبين قديمه وبين الرغيف نقدة جوزة، فقال له يحيى فمن يحضره؟ قتل الكرام الكاتبون، قال فمن يأكل معه؟ قال: الذباب.

وقيل له (٢٦): إنك خاص به، وثوبك مخرقٌ قال: ما أقدر على إبرة أخيطه بها، ولو ملك محمدٌ بيتاً والله ثم جاءه جبريل، وميكائيل ومعهما يعقوب النبي يضمنان له عنه إبرة، ويسألانه إعارته إياها ليخيط بها قميص يوسف (عليه السلام) الذي قد من دبر ما فعل".

لهذا قال رزين العروض فيه(٢٧).

لو أنَّ دارك أنبتت لك واحتشت	إبراً يضيق بها فضاء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبــرة	ليخيط قدَّ قميصه لم تفعــل

وقال الشاعر المختمّ الرُّسي يهجو محمد بن يحيى بعد أن صحبه، وأنفق معه مائة ألف درهم، وكان المختمّ قد كسبها من محمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر، ولم يعوضه محمد عنها شيئاً(٢٨)،

أمحمــــــد لولا النبي محمدا	وشرائع الاســــلام والإيمان
ما كان فيك لغاسل من مغسل	يا طاهــــرا في السـر والاعلان
شتان بين محمــــــد ومحمد	حي أمات وميـــــت أحـياني

[٢٣] الوزراء والكتاب ص٢٤٢ والعقد الفريد ١/ ١٨١ وبدائع السلك ص ٤٢٨ والامتاع ٢/ ١٥٨ والوطواط غرر الخصائص الواضحة ٢٣٥.

[٢٤] الوزراء والكتاب ص ٢٤٢ والوطواط: عزز الخصائص الواضحة ص ٢٣٥.

[٢٥] المستطرف ١/ ١٧٢ وبدائع السلك ث ٤٢٨ والورقة : ص٤١.

[٢٦] الوزراء والكتاب ص ٢٤١ - ٢٤٢ والورقة ولم يذكر الأبيات ص ٩٩.

[٢٧] جمع الجواهر ص٧٨ والورقة ص٤١ والمتطرف ١/ ١٧٢ والوطوط: غرر الخصائص الواضحة ٢٣٥ وبدائع السلك ص٤٢٨

[٢٨] معجم البلدان مادة النوبهار ٨/ ٣٢٢ -٣٢٣.

فصحبت حيا في عطايـــا ميت   و رجعت مشتملا على الخسران .

وقد نفى بعض الأدباء أن يكون محمد بخيلا حقا، وأنَّ ما ذكر عن بخله إنما كان بالنسبة لأخويه الفضل وجعفر واستخدم الشعراء في هجائهم أسلوب الموازنة بين البرامكة وأعـدائهم فـذموا البرامكة ومدحوا أعداءهم، فمن هؤلاء أبو الهول الحميري، فقد وازن بين الفضل بـن يحيـى، والفضل بن الربيع، فمدح لفضل بن الربيع فذكران آثاره المساجد، وذم الفضل بن يحيى فذكر آثاره: النوبهار الذي كان يتعبد فيه أهل الشرك والكفـر وتعظـم فيـه الـنيران، أو تعبـد فيـه الأصنام.

فقال(٣٠):

فضلان ضمهما اسم	وشتّت الأخبار
آثار فضـــــل الربيع	مساجـــد ومنار
وفضـــــل يحيى ببلخ	آثـــاره النوبهار
وما ســـــواه إذ ما	أثيـــرت الآثار
بيت يوقـــــد به فيه	ويعـــبد الجبار
وبيت شـــــرك وكفر	به تعظـــــم نار

ومن العجب إنَّ أبا الهول هذا جاء إلى الفضل يعد ذلك فقال له الفضل بأي وجه تلقاني؟ فقال ه بالوجه الذي ألقى به الله عزّ وجلّ، وذنوبي إليه أكثر، وأعظم، فضحك الفضل ووصله .

(٣٠) الوزراء والكتاب ص١٩٣، وابن خلكان ص٤/ ٢٩ – ٣٠ وعيون الأخبار ٢/ ٢٩ والمخلاة ص٢٧٢.

الفصل الثالث

مديح الشعراء للبرامكة

تبوأت الأسرة البرمكية مكانة مرموقة، ومنزلة رفيعة، وجاهاً عريضاً في ظلال الخلافة العباسية، فتولوا مناصب عدّة : الوزارة والإمارة، والإشراف الكامل على الدواوين، وتحلوا بكثير من الخلال الكريمة: كالفصاحة والبلاغة والوفاء والمروءة والنجدة والشجاعة والكرم و ... الخ .

وكان الكرم من أبرز مناقبهم، فقد أغدقوا الأموال والهدايا والجوائز على أرباب الفكر من شعراء وأدباء وعلماء ، وكل من شد إليهم الرحال، وأقام في كنفهم، وأشاد بمناقبهم حتى غدت كلمة برمكي تعني في بعض الولايات الإسلامية الجود والكرم . (١)

وقد أجمع المؤرخون قديماً وحديثاً على أنّه لم يكن في الدولة العباسية أكرم منهم (٢) فكانوا بذلك أكرم من الرشيد، وأكثر عطاء .

وقد أشاد الجاحظ كبير الكتاب في عصرهم بكرمهم فقال (٣) : " فلقد كانت أيامهم رياض الأزمنة، ولقد انجبر بهم خلق كثير، فسقيا لهم ورعيا " وقال المأمون الخليفة العباسي (٤) " ليس لهم مثيل في الكرم " وأثنى عليهم ابن المعتز فقال (٥) : " فما خلفوا بعدهم من شقّ غبارهم في الجود والكرم والبر والعطاء والإحسان " .

ومما يذكر عن كرمهم : أنّهم كانوا يخرجون ليلاً، فيدقّون الأبواب، ليقدموا لأصحابها صررا من المال، تحتوي كل صرة منها على ما بين الثلاثة آلاف والخمسة آلاف . وربما طرحوها على أعتاب بيوتهم، فاعتاد أصحابها إذا انجلى الليل، وطلع النهار، المبادرة إلى أبواب منازلهم، وكلهم شوق لأخذ ما طرح من صرر (٦) وبذلك غدا ذكرهم على كل لسان، وحفلت كتب

---

(١) حتى تاريخ العرب مطول ١/ ٣٦٧.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦/ ٢٨٣.

(٣) البغدادي : تاريخ بغداد ١٤/ ٢٣٠

(٤) وفيات الأعيان ٣/ ٤٧٤

(٥) طبقات الشعراء ص ١٥٧

(٦) البهيقي : المواسن والمساوئ ١/ ٣١٦ – ٣١٧

الأدب والتاريخ بقصص كرمهم، وكانت أشبه بقصص ألف ليلة فوجد الشعراء مادة خصبة لنظم قصائدهم، فأمطروهم بالمدح والثناء يحدوهم الأمل والرجاء في الحصول على المزيد من نوالهم، لأن الشعر كان يستثير أريحية البرامكة، ويستدر عطاءهم، وهو كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٧) " من خير صناعات العرب الأبيات، يقدّمها الرجل بين يدي حاجته يستنزل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم ".

كما أرادوا أن يقدّموا واجب الشكر لمن قدّموا إليهم معروفاً، فكثر المدّاحون لهم حتى لم يبق شاعر فيما بين النهرين إلاّ ومدحهم، لأن البرامكه كانوا مغرمين بحب المدح والثناء (٨) ، لذلك اشتروا ألسنة الشعراء، شأنهم في هذا شأن الرشيد حيث كان يشتري المديح بأغلا الأثمان (٩) ولما عجزوا عن سماع كل ما قيل فيهم أنشأوا ديوان الشعر، لهذا الغرض .

ولم يكتف البرامكة بمدح الشعراء لهم، وإنما أغروا الشعراء في مناسبات كثيرة إلى مدح الرشيد (١٠)، ليزدادوا قرباً منه، فتعظم منزلتهم لديه، ولينتزعوا ما في قلبه من حسد وغيرة تجاههم . وقد بلغ ما قيل في مدحهم من الجودة، وفصاحة الألفاظ، وصدق العاطفة، وحلاوة المعنى، وحسن الصياغة ما يكاد أن يكون آثارا خالدة وقد أشادوا في شعرهم بما تحلى به البرامكه من مناقب عالية، وتاريخ عريق وهو يعبر عما وصل إليه الشعراء في ذلك العهد من تقدم ورقي وازدهار.

وظل الشعراء يستهلّون قصائدهم بمقدمات غزلية، والتباكي على الأطلال دأب الشعراء الجاهليين (١١) .

فمن الشعراء الذين مدحوا البرامكه : بشارين برد، ومحمد بن مناذر، وسلم الخاسر، و مسلم بن الوليد، وأشجع السلمي، ونصيب الأصغر، وأبان اللاحقي، ومروان بن حفصة، وأبو

---

(٧) البيان والتبيين ٢/ ٢٥٦ والعقد الفريد ٥/ ٢٧٥ وابن رشيق : العمدة : ١/ ٨٢ والراغب الاصبهاني : محاضرات الأدباء ١/ ٤٤١.

(٨) البهيقي : المحاسن والمساوئ ١/ ٣١٨

(٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ١/ ١١٣

(١٠) برانق : البرامكة في ظل الخلفاء ص ١٤١ والأغاني ١٢/ ٣٦

(١١) أمراء الشعر العربي : ٢٥٧ وبروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية : ص ١٩٠

ثمامة الخطيب، وعنان جارية الناطقي، وأبو فراس، وابو قابوس، وأبو بصير، وسهل بن هارون، وغيرهم كثير يصعب حصرهم .

فمن البرامكه الذين نالوا شرف مدح الشعراء لهم : خالد بن برمك، وولده يحيى بن خالد، و حفيداه : الفضل وجعفر .

من مديح الشعراء لخالد بن برمك :-

تمتع خالد بن برمك بخلال كريمة منها : السخاء وكثرة الكرم والإحسان ، كما كان جليلاً فاضلاً حازماً يقظاً في الحرب بليغاً فصيحاً، نبيلاً (١٢) فمما قيل عن كرمه : أنه لم يدع أخاً إلاّ وأسدى إليه معروفاً، أو بنى له بيتاً، أو وهب لأولاده مالاً يعيشهم أبد الدهر ، أو جارية أنجب منها الأولاد (١٣) ، وفي ذات يوم أعطى ثيابه لمن كان في مجلسه، ولم يبق له منها إلاّ طيلسان خلق .(١٤)

حتى لامه السّناح على كثرة عطائه، فأجابه (١٥) : " لم أر شكري يحيط بنعم أمير المؤمنين، فاستعنت بألسنة الناس عليها " .

وقد مدحه كثير من الشعراء بقصائد لم يصل إلينا منها إلا القليل !! فمن تلك القصائد هذه الأبيات، من مديح بشار له(١٦):

حذا خالد في جوده حذو برمك	فجود له مستطرف وأثيل

وقال أيضاً : (١٧)

حلبت بشعري راحتيه فدرّتا	سماحا كما درَّ السّحاب مع الرعد
وثغر كأفواه الأسود سددته	بسمر القنا والبيض والقُرح الجرد

---

(١٢) الوزراء والكتاب : ص ١٥٠

(١٣) ابن عساكر : التاريخ الكبير ٥/ ٢٨ وعيون الأخبار ٦/ ٣٣٩ والوزراء والكتاب ص ١٥٠-١٥١

(١٤) البهيقي : المحاسن والمساوئ ٣١٨/١ والطيلسان : ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف، أو يحيط بالبدن خال من التفصيل والخياطة

(١٥) الوطواط : غرر الخصائص : ص ١٦٢

(١٦) الأغاني : ٣/ ١١٩ حذى واحتذى: اقتدى به وأثيل : أثل يأثل أثولا وتأثل : تأصل

(١٧) راجع ديوان بشار ٣/ ١١٩-١٢٠ وغرر الخصائص الواضحة : ص ٢٠٥ والأزدي : تاريخ الموصل : ص ٢٢٨ والقنا جمع قناة الرمح

و قال ايضاً :

لست بكفي كفّه أبتــغي الغنى ولم أدرِ أنّ الجود من كفه يعدي

وعندما كان ببلاد فارس استمطر بشار رفده في أبيات منها (١٨)

فإن تعطِ أفرغ عليك مدائحي وإن تأب لم يضرب عليّ سدادي

وقال شاعر آخر: (١٩)

وإذا حضرنا الباب عنــــد غدائه أذن الغداء لنا رغــــم الحاجب

ومدحه سهل بن هارون فقال (٢٠)

عدو تلاد المال فيــــما ينوبه منوع إذا ما منــــعه كان أحزما

---

(١٨) الأغاني ٣/١٠٤٨ والشعب ومعاهد التنصيص : ١/٢٨٨ – ٢٨٩ والأزدي : تاريخ الموصل : ص ٢٨٨ – ٢٩٩

(١٩) غرر الخصائص الواضحة : ص ١٩٧

(٢٠) ابو عمر القرطبي : بهجة المجالس وأنس المجالس ١/٢١٨

مديح الشعراء ليحيى بن خالد :

كما تحلى يحيى بن خالد بكثير من الخلال الحميدة : كالحلم والبشاشه، ودماثة الأخلاق والفصاحة والبلاغة ، والحكمة والتواضع والكرم .

وقد أثنى عليه المؤرخون والكتّاب فقال : عبد الصمد بن علي (٢١):

" ما رأيت أكرم من يحيى نفساً، ولا أحلم منه، جعل على نفسه أن لا يكافئ أحداً بسوء فوفّى " (٢٢) .

فمن كرمه : أنه كان يعد صرراً في كل صرة مئتا درهم يدفعها لمن اعترض طريقه طالباً نواله، كما أغدق الأموال على الشعراء والأدباء والكتاب، وغيرهم تشجيعاً لهم، مما جعله ممدّحا على كل لسان (٢٣)

ومن تواضعه (٢٤) : أنه كان يجلس في بيت صغير وقد كتب عليه :

كفى بملتمس التواضع رفعة ... وكفى بملتمس الغلو سفالا

فبعثت هذه الخلال الكريمة الشعراء على مدحه بما لم يمدح به غيره في زمنه فمن الشعراء الذين مدحوه : محمد بن مناذر، ومسلم بن الوليد، وحسان بن حسان، وسلم الخاسر، وأبو قابوس، وعنان جارية الناطقي، وأشجع السلمي، وأبو نواس، وأبو بصير، وسهل بن هارون وغيرهم كثير يصعب حصرهم .

---

(٢١) الوزراء والكتاب ص٢٠٣

(٢٢) البهيقي : المحاسن والمساوئ ١/ ٣١٦-٣١٧

(٢٣) الفخري ص ١٦٢ ووفيات الأعيان ٦/ ٢٢٣ وتاريخ بغداد ٤/ ١٢٩-١٣٠ والأربلي : خلاصة الذهب المسبوك : ص ١٦١ والبداية والنهاية ١/ ٢٠٤ ومرآة الجنان ١/ ٤٢٧.

(٢٤) تاريخ بغداد ١٤/ ١٢٩ والفخري : ص ١٦٢ ووفيات الأعيان ١/ ٢٢٣ والبداية والنهاية ١٠/ ٢٠٤ ومرآة الجنان ١/ ٤٢٧ والذهب المسبوك : ص١٦١

فمن الأشعار التي مُدح بها:

عندما حج الرشيد ومعه ولداه : الأمين والمأمون، ويحيى بن خالد وولداه الفضل وجعفر، فجلس الرشيد ويحيى في المدينة ، فأعطيا الناس، وجلس الأمين والفضل فأعطيا الناس وجلس المأمون وجعفر فأعطيا الناس فضربت الأمثال في كثرتها، فسمي هذا العام عام الأعطيات الثلاث (٢٥) .

فاستدرّ هذا الكرم شاعرية ابن منادر، فأشاد بكرمهم وجهادهم وحجهم في أبيات كثيرة منها (٢٦):

أتانا بنو الأملاك من آل برمك	فيا طيب أخبار ويا حسن منظر
لهم رحلة في كلّ عام إلى العدا	وأخرى إلى البيت العتيق المشهر
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت	بحيى وبالفضل بن يحيى، وجعفر
فما خلقت إلاّ لجود أكفهم	وأقدامهم إلاّ لأعواد منبر

ومدحه سلم الخاسر بقصيدة رائعة تعتبر في جودتها كما قيل: من عيون الشعر حتى زعم أن من عمل بها جاز أن يكون وزيراً، وقد بلغت أبياتها سبع وعشرون، ذكر فيها غيرته على الإسلام، وشجاعته وسماحته وسداد رأيه، وكرمه منها هذه الأبيات (٢٧)

بقاء الدين والدنيا جميعاً	إذا بقي الخليفة والوزير
يغار على حمى الاسلام يحيى	إذا ما ضيّع الحزم الغيور

إلى أن يقول :

كلا يوميك من نفع وضر	يحوط حماهما كرم وخير
وما ألهاك عما أنت فيه	نعيم الملك والوطىء الوثير

---

[٢٥] الفخري : ص١٦٢ ووفيات الأعيان ٦/ ٢٢٤

[٢٦] المرجعان السابقان وزهر الآداب ٢/ ٣٩٠ ط دار السعادة

[٢٧] راجع القصيدة كاملة في كتاب طبقات الشعراء ١/ ١٠١ الوطىء : السهل اللين المذلل للتغلب عليه ، الوثير : مراكب تتخذ من الحرير والديباج

وختمها بقوله :

فما نفعٌ كنفـــــع أبي عليٍّ ... ولا أحد يصيـــــر كما يصـير

ومدحه مسلم بن الوليد فقال (٢٨):

سألت الندى والجود حرّان أنتما ... فقالا كلانا عـــــبد يحيى بن خالد

فقلت شرى ذلك الملك قال لا ... ولكن ورثـــــنا والدا بـــعد والد

وقال مروان بن ابي حفصة (٢٩) :

إذا بلغتنا العيس يحيى بن خالد ... أخذنا بحبل اليسر وانقطع العُسر

سمت نحوه الأبصار منا ودونه ... مفاوز تغتال النياق بها الســـفر

فإن نشكر النعمى التي عمَّنا بها ... فحُقّ علينا ما بقينا له الشـــكر

ومدحه أشجع السلُمي كثيراً فمما قال (٣٠) :

أرحل إلى يحـــــــيى وأيـ ... ــقن أن دار الجـــــــود داره

يحيى أمرؤ يرجــــــى منا ... فعه، ولا يخشـــــــى ضراره

يعفو عن الذنـــــب العظيم ... وليس يعجـــــــزه انتـصاره

ووصفه في قصيدة أخرى بالأمانة وحسن النصح والتمييز والتدبير وبسط اليد فقال (٣١):

رفع الله بالخليـــــفة يحيى ... وبيحيى كســـا الخلافة نورا

رجل ناصح أمين على الملك ... يجيد التمـــــييز والتدبيـرا

بسط الله بالعــــــطايا يديه ... فحبا معدمـــا وأغنى فقيرا

---

[٢٨] مرآة الجنان ١/ ٤٢٩ والمستطرف ٢/ ٢٢٩ وثمرات الأوراق ١/ ١٢٧ الأحدب : أسرار البلاغة : ص٧ والمخلاة ٩٤: والبداية والنهاية ١٠/ ٢٠٥ – ٢٠٦ وإبن منقذ : البديع في نقد الشعر : ص ٢٣٦ مع الاختلاف في بعض الألفاظ

[٢٩] الوزراء والكتاب : ١٧٩ العيس: أكرم الإبل البيض يخالط بياضها شقرة . السفر : قطع المسافة

[٣٠] أخبار الشعراء : ص ١٢٧

[٣١] المرجع السابق : ص ١٥٦ حبا : أعطاه بلا جزاء ولا منّ

ولمّا شفي من مرض أصيب به، جاءه الناس مهنئين منهم أشجع السّلمي، فاستأذنه في الانشاد فأذن له دون غيره، فقال (٣٢):

فقد أمسى صــــلاح أبي عليّ ... لأهل الدّين والدّنيا صــلاحا
إذا ما الموت أخطأه فلــــسنا ... نبالي الموت حيث غدا وراحا

ومدحه أبو قابوس – عمر بن سليمان الحيري – فقال (٣٣) :

رأيت يحيى أتمّ الله نعــــــمته ... عليه يأتــــــي الذي لم يأته أحد
ينسى الذي كان من معروفه أبداً ... إلى الرِّجـــال ولا ينسى الذي يعدُ

ومدحه أبو بصير فقال (٣٤) :

يا طالب الجود والمعروف مجتهداً ... إعمد ليحيى حليف الجود والكرم

وقال سهل بن هارون (٣٥) :

وهوب تلاد المال فيما ينوبه ... منوع إذا ما منعه كـان أحْزَما

وأنشد اسحق بن حسان قصيدة منها (٣٦):

في كل ثغر حارس من قلبه ... وشعاع طرف لا يُفتّر سامِ

---

[٣٢] الأغاني ١٧/ ١٠٤ والشعر والشعراء ٢/ ٢٨١-٢٨٢ وأخبار الشعراء : ص٨٠

[٣٣] الوزراء والكتاب : ص ١٧٩ وزهر الآداب ٢/ ٣٤٠ والشريشي شرح مقامات الحريري : ص ١٤٦ واليافعي : مرآة الجنان ١/ ٤٢٨

[٣٤] الأغاني ٥/ ٢٣ والنويري : نهاية الأرب ٤/ ٣٣٥ – ٣٣٦

[٣٥] البيان والتبيين ٣/ ٣٥٢ ط بيروت التلاد : المال القديم الموروث . ينوبه : يعتريه من الحقوق

[٣٦] البيان والتبيين : ٣/ ٣٥٢ -٣٥٣

مديح الشعراء للفضل بن يحيى :

وكان الفضل بن يحيى من العلم والبلاغة والفصاحة، والحلم والشجاعة والمروءة والسؤدد ومن الكرم ما جعل هذه الصفة تغلب على غيرها من الصفات، فقيل: إنه أكرم أهل عصره حتى ضرب بكرمه الامثال فقيل : حاتم الإسلام، وحاتم الأجواد وحدّث عن البحر ولا حرج (٣٧):

ولا عجب في هذا، فقد كان من أبسط الناس يداً لكل من طلب صلته أو ترنّم مشيداً بصفاتهم الكريمة ، وقد شهد له بذلك كل من عرفه :

فقال المأمون (٣٨): ذهب القوم والله بالمكارم "

وقال اسحق الموصلي (٣٩) : سبحان الله الذي خلق هذا الرجل وجبله على الكرم بذ به أقرانه ، ومن غبر " .

ووصفه ابن الأثير فقال (٤٠) : " من محاسن الدنيا لم ير في العالم مثله " وأخباره في الكرم كثيرة فمن تلك :

وصل أشراف العرب ذات يوم بخمسين ألفاً من الدنانير (٤١) .

وفي خبر آخر : أمر صاحب بيت المال أن يحمل مبلغاً من المال فوراً إلى دار العامة، وأن تشق عنها البدر ، وأن تنشر وسط الدار، ثم تفرّق على زواره واحدا بعد الآخر على حسب منازلهم (٤٢) .

ولّما وليّ خراسان سنة ١٧٤ وعزم على السفر، ودعه الرشيد بنفسه، ومعه الأشراف، وأرباب الدوله، والشعراء، والكتّاب تقديرا له، فأعطى أمولاً جزيلة (٤٣)، ولما عاد وزع ألوف الألوف

---

(٣٧) الثعالبي : ثمار القلوب :٢٠٣

(٣٨) المحاسن والمساوئ ١/ ٣٣٥ - ٣٤٠

(٣٩) المرجع السابق ٢/ ٦-١٢ بذّ : غلب

(٤٠) ابن الأثير الكامل ٥/ ١٢٩

(٤١) الذهبي : ١/ ٣٠٩ ومرآة الجنان ١/ ٤٣٠

(٤٢) المحاسن والمساوئ ص ٣٤٠-٣٤١ بدر : جمع بدرة كيس مئة ألف درهم أو عشرة آلاف أو سبعة آلاف دينار

(٤٣) الوزراء والكتاب ص ١٩١

على كل من جاءه مهنئاً بسلامة العودة، بل قيل إنّ ما وزعه لا يمكن حصره إلا بتعب ومشقة (٤٤) .

وحين سافر إلى الرقة طلب من وكلائه إحصاء العائلات التي يغنيها ألف درهم، فأحصوا ثلاثمائة عائلة، فأعطاهن جميعاً، فأعرب عن سعادته عمّا قدّم ، وقال (٤٥) : " ما أكلت طعاماً أهنأ منه اليوم، وقد علمت أنّي أغنيت ثلاثمائة بيت " .

وبلغ به الكرم أنّه إذا عزم على العطاء بادر فوراً، فأعطى دون أن يتلكأ أو يؤجل . (٤٦)

ولم يقتصر عطاؤه على الفقراء والمحتاجين وأرباب الفكر، وإنما تجاوز ذلك إلى كل من دلّه على مكرمة (٤٧).

فكان لهذه الخلال الطيبة أثرها، فحفزت كثيراً من الشعراء إلى أن يلهجوا بمدحه، والثناء عليه فقال نصيب الشاعر (٤٨) :

ما لقينا من جود بن يحيى ... ترك الناس كلهم شعراء

فمن الشعراء الذين أتحفوه بشعر المديح والثناء أبو نواس، والخياط المدني والفضل بن يزيد، وأبو النضير، ومروان بن أبي حفصة، ومسلم ابن الوليد، وأبو الحجناء : نصيب الأصغر، وسلم الخاسر، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي وغيرهم كثير . فقال ابو نواس (٤٩):

أمير رأيت المال في نعـــــمائه ... ذليلاً مهين النّفس بالضيم موقنا

إذا ضنّ رب المال أعلن جوده ... بحيّ على مال الأميـــر وأذّنا

للفضل صولات في صلب ماله ... ترى المال فيها بالمهـــانة مذعنا

---

(٤٤) البداية والنهاية ١/ ١٧٣

(٤٥) محاضرات الأدباء ٢/ ٥٧٨

(٤٦) المحاسن والمساوئ ١/ ٣٢٧

(٤٧) نفسه ١/ ٣٤٠-٣٤١

(٤٨) لأغاني ٢٠/ ٨١والوفيات ٤/ ٣٥ والوزراء والكتاب ١٩٥ والحيوان ٣/ ١١٧ ومحاضرات الأدباء ٢/ ٣٨٣ والورقة للجراح ص ٤ وذكر صيّر بدلا من ترك

(٤٩) نظر القصيدة في ديوان ٤٧٤ – ٤٧٥ وورد بعض الأبيات في التاريخ الكبير لابن عساكر ٤/ ٢٦١ وذكر ابن رشيق في العمدة ببيتين من القصيدة ١/ ٢٢٨

وقال الخياط المدني (٥٠) :

لمست بكفي كفـه أبتغي الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفـه يعدي

فلا أنا مما قـد أفـاد ذوو الغنـى ... أفدت وأعداني فأتلفت ما عندي

ومدحه الفضل بن يزيد بن خالد فقال (٥١) :

ألم تر أنّ الجـود من صلب آدم ... تحدَّر حتى صار في راحة الفضل

إذا ما ابو العباس جادت سماؤه ... فيالك من طلٍّ ويالـك من وبل

وقال ابو النضير (٥٢) :

إذا كنت من بغداد منقطع الثرى ... وجدت نسيم الجود من آل برمك

ومما قاله أيضاً (٥٣) :

وللـناس معروف وفيـهم صنائع ... ولن يجبر الأحزان الاجدا الفضل

إذا ما العطـايا لم تكن برمكية ... تلك العطـايا ما تمرّ وما تحلى

وأنشد مروان بن أبي حفصة فقال (٥٤) :

لك الفضل يا فضل بن يحيى بن خالد ... وما كل من يدعى بفضل له الفضل

رأى الله فضلاً منك في الناس شـائعاً ... فسماك فضلاً فالتقى الأسم والفعل

وزادك فضلاً أن أهلك في الـورى ... كرام إذا ازدرى بذي الشرف الكهل

ولم يبق فيك الجـود للبخل موضعاً ... فأصبح يستعدي على جودك البخل

إذا كذبت أسمـاء قوم عليهم ... فاسمك صديق له شاهـد عدل

---

(٥٠) الثعالبي : ثمار القلوب : ص٢٠٣ -٢٠٤

(٥١) نفسه : ص٢٠٣

(٥٢) الأصفهاني : الأغاني : ١٠/ ٢٠٥-٢٠٦

(٥٣) لبهيقي : المحاسن والمساوئ / ١/ ٣٢٨-٣٢٩ ما يمر وما تحلي : ما يضرُّ وما تنفع

(٥٤) غرر الخصائص الواضحة : ٢٠٦ والبداية والنهاية ١٠/ ٢١١ ولم يذكر الا البيتين الأولين من القصيدة

وقال أيضاً (٥٥) :

إذا أم طفل راعها جوع طفلها دعته باسم الفضل فاستعصم الطفل
ليحيا بك الاسـلام إنك عزه وإنك من قوم صغيـرهم كهل

وقال سلم بن الوليد من قصيدة له (٥٦):

بكف ابي العباس يستمطر الغنى وتستزل النعمى ويسترعف النصل
إذا ما أبو العـباس حلّ ببلـدة ضكفاها الحيا واستجهل الخوف والمحل

وقال مسلم الخاسر (٥٧) :

سأرسل بيتا وسمت جبيـنة يقطّع أعناق البيوت الشّـوارد
أقام النّدى والجود في كل منزل أقام به الفضل بن يحيى بن خالد

ومن قصيدة أخرى (٥٩) :

له يومان يوم نـدى وبـأس كأنّ الدهـر بينهما أسير

ومدحه اسحق الموصلي فمما قال (٦٠) :

هو الفتى الماجد الميمون طـائره والمشتري الحمد بالغالي من الثمن

---

(٥٥) تاريخ : الأمم والملوك ١٠/ ٦٣ والبداية والنهاية ١٠/ ٧٢ والوزراء والكتاب :ص١٩١

(٥٦) مسلم بن الوليد : شرح ديوان صريع الغواني ص٢٦٠ – ٢٦٧ الحيا : الخصب والمطر

(٥٧) الوزارء والكتاب : ص ٢٠٤ والعقد الفريد ١/ ٣١٣ والوطواط : غرر الخصائص : ص ٢٠٦ والثعالبي : تحفة الوزراء : ص١٦٢

(٥٩) تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٦٣-٦٤ والبداية والنهاية ١/ ١٧٢ -١٧٣

(٦٠) أنظر باقي الأبيات في : وفيات الأعيان ٤/ ٢٩ والوزراء والكتاب ص ١٩١

وقال ابو الحجناء : نصيب الأصغر أبياتاً كانت من الجودة ما جعلها تطير في الآفاق، فتناقلـها الناس حتى غدت فاكهة الأدباء وقد نالت إعجاب الفضل فقال للشعراء : إذا قلتم فقولوا مثل هذه الأبيات، وإذا مدحتم فامدحوا بمثل هذا الشعر : (٦١)
منها هذه الأبيات (٦٢) :

عند الملوك مضرة ومنافع وارى البرامك لا تضر، وتنفع
إن كان شر كان غيرهم له أو كان خير فهو فيهـــم أجمع

ثم يقول :

إذا جهلت من امرئ أعراقه وقديمه فانظر إلى ما يصنـــع

وحين امتنعت بعض الأمصار في خراسان، وخرجت على الخليفة الرشيد، انتدبه للقضاء على الفتنة، ووأدها في مهدها فلمّا شخص إليها، ودعه الرشـيد والأشـراف، فبعـث فراقـه الحـزن والأسى في نفوس الشعراء، فعبر كل واحد منهم عما يجيش في صدره فقال اسحق الموصـلي : (٦٣)

فراقك مثل فـــراق الحياة وفقدك مثل افتقـاد الدِّيم
عليك السلام فكم من وفا أفارق فيك، وكم من كرم

ولما وصل إلى هناك حطم الصنم الذي يعبدونه، فاستأ منه ملوكها فأعطـاهم الأمـان (٦٤) ، وغزا ما وراء النهر وفتح مدناً كثيرة .
وحين زحف صاحب الترك في جيش عظيم، خرج لملاقاته، فكانت الغلبة للفضل، فقضي عليه واستباح عسكره، وغنم أمواله، فأشاد الشعراء بأعماله (٦٥) فمن الذين مدحوه بهذه المناسبة أشجع، فوصفه بالعلم والحلم، والسؤدد والبأس والجود فقال من قصيده (٦٦) :

---

(٦١) طبقات الشعراء : ١٥٥

(٦٢) نفس المرجع : ١٥٥-١٥٦ الأغاني ٢٠/٨-٨١ ووفيات الأعيان ٤/ ٣٥ ونسبها لمروان بن أبي حفصة والوزراء والكتاب : ٢٠٣ وقال إنها في مدح يحيى بن خالد البيت الثاني زيادة في الأغاني والوفيات

(٦٣) الأغاني : ٥/٢٢٨ -٢٢٩ الّديم جمع ديمة قطر يدوم في سكون من غير رعد ولا برق

(٦٤) اليعقوبي : البلدان : ص٢٨٨ -٢٨٩

إلى الفضل فارحل بالمديح فإنّه　　منيع الحمى معروفه ليس يمنع
وزره تزر علماً وحلماً وسؤدداً　　وبأساً به أنف الحوادث يجدع

ويقول :

إذا ما حياض الجـــود قلت مياهها　　فحوْضُ أبي العباس بالجود مترع
وإن سنة ضنت بخصـــب عن الورى　　ففي جوده مرعى خصيب ومشـرعُ
وما بعدت أرض بها الفضـل نازل　　ولا خاب من في نائل الفضل يطمع
فنعم المنادي الفضل عند ملّمة　لدفـع　　خطوب مـــثلها لـــــيس يدفـع
إليك أبا العـباس ســـارت نجائب　　لها فيم تســــــمو إليك وتنـزع
بذكرك نحدوها إذا ما تأخرت　فتمضي　　على هول المـــــــــنى وتسـرع

.... الخ القصيدة .

ولما خرج يحيى بن عبد الله العلوي بالديلم على الرشيد، ودعا لنفسه اشتدت شوكته خرج إليه الفضل في جيش عظيم، ومعه كبار القواد، فاحتال عليه الفضل، وأخذ له الأمان من الرشيد، فقدم به إلى بغداد فسر الرشيد بذلك سروراً عظيماً ٦٧(٦٧)، ودعا الناس لملاقاته والترحيب به، وأكرمه إكراماً عظيماً، وأمر الشعراء بمدحه، والثناء عليه فكثر المادحون له (٦٨) .

فقال ابو ثمامه (٦٩) :

سدّ الثغور وردّ ألفه هاشـــــم　　بعد الشتات فشعـــــبها متدان
عصمت حكومته جماعة هاشـــم　　من أن يجرد بينهـــــما سيفان

---

(٦٥) راجع المرجع السابق ٢/ ٤٠٧ – ٤٠٨ والبيان والتبيين ٣/ ٢٩٠ وتاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٥٥

(٦٦) لصولي : أخبار الشعراء المحدثين :١٤٢

(٦٧) الوزراء والكتاب : ١٨٩ والبداية والنهاية ١٠/ ١٦٧ وتاريخ الموصل ٢٧٧ والعيون والحدائق : ٢٩٣ ومآثر الانافة في معالم الخلافة ١/ ١٩٤ والمختصر في أخبار البشر ص١٣ وتاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٥٤-٥٥ وابن خلدون البر ٣/ ٤٦٣ ومقاتل الطالبيين ١/ ٤٦٨ – ٤٦٩

(٦٨) وفيات الأعيان ٤/ ٢٩ والبداية والنهاية ١٠/ ١٧٣

(٦٩) تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٥٥ وتاريخ الموصل ص ٢٧٧ والبيان والتبيين ٣/ ٢٩٠ ذكر البيت الثاني

وقال مروان بن أبي حفصة (٧٠) :

ظفرت فلا شلـت يد برمكـيـة   رتقت بها الفتق الذي بين هاشم

على حين أعيا الراتقين التئامــه   فكفوا وقالوا ليـــــس بالمتلائم

ومدحه الشعراء لأنّه نال شرف الرضاعة من أم الرشيد " الخيزران " فمن الذين مدحوه بذلك (٧١)، مروان بين أبي حفصه ، وسلم الخاسر .

فقال مروان (٧٢) :

كفى لك فضلاً أنّ أفـضل حـرةٌ   غذتك بثدي والخليـــفة واحد

لقد زنت يحيى في المشاهد كلها   كما زان يحيى خالداً في المشاهد

وقال سلم الخاسر (٧٣) :

أصبح الفضل والخليــفة هارون   ضيعي لبـــــــــان خير النساء

(٧٠) تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٥٤-٥٥ والبداية والنهاية ١٠/ ١٦٧

(٧١) البداية والنهاية ١٠/ ٢١٠ الوزراء والكتاب ١٣٦ ووفيات الأعيان : ٤/ ٢٧ ومرآة الجنان ١/ ٤٣٠ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٥/ ٢٦ والأربلي خلاصة الذهب المسبوك : ص ١٠٧

(٧٢) وفيات الأعيان ٤/ ٢٧ وابن الأثير : الكامل ٥/ ٢٦وزنسبة لأبي الجنوب والفخري : ١٦٢ وتاريخ بغداد ١٢/ ٣٣٤ والبداية والنهاية ١٠/ ٢١٠ وخلاصة الذهب المسبوك : ص ١٦٦

(٧٣) الكامل في التاريخ ٥/ ٢٦

مديح الشعراء لجعفر بن يحيى:

تمتع جعفر البرمكي بخلال طيبة من أبرزها الفطنة (٧٤) والفصاحة، والبلاغة، والأدب، والكتابة، والحكمة والشجاعة والكرم وأخبار كرمه كثيرة، عرفها كل من اتصل به، ولكنه لم يبلغ في كرمه مبلغ أخيه الفضل (٧٥) ، لأنه كان أقل ثراءً منه (٧٦) ومن أخبار كرمه التي حق للشعراء أن يمدحوه بها : ما يروى أنّه صكّ دنانير من الذهب، ليجود بها على الشعراء وأرباب الفكر، ومن يطلب عطاءه، وقد وجد بعد مقتله بعضاً منها في خزانته وأخرى في بركة داره (٧٧) ولما تزوج بابنة علي بن عيسى بن ماهان، وضع الطعام في الشوارع ليأكل منه كل من جاءه مهنئاً، وجعل الغوالي في مراكن من الذهب، ليتطيب منها من أحبّ، ويأخذ منها من يشاء . (٧٨)

لهذا مدحه كثير من الشعراء، وأثنوا عليه منهم :

أشجع السلمي، ومنصور النمري، وصريع الفواني، ومروان بن أبي حفصة، وأبو محمد اليزيدي، والأصمعي، وغيرهم كثير .

أما أشجع فقد مدحه في قصائد كثيرة روى الصولي بعضها في كتابه " أخبار الشعراء المحدثين " منها :(٧٩)

هو الغيث من أي الوجوه انتجعته ... وجدت جـــــنابا ومشرعا

فلا سعـــــة الأموال تبلغ جوده ... ولا ضيقها ينهاه، أن يتوسعا

وما زال يعلو والدا بعد والد ... إلى غاية خفاضـــــة من ترفعا

---

(٧٤) راجع فطنته في : وفيات الأعيان ١/ ٣٢٩ و ٣٤٤ و ٣٤٧ والبداية والنهاية ١٠/ ١٩٣ ومرآة الجنان ١/ ٤٠٥ والوزراء والكتاب : ص ٢١٦ وشذرات الذهب ١/ ٣١١

(٧٥) ذكر صاحب النجوم الزاهرة ٢/ ١٢٣ أنه كان مثل أخيه في الكرم ، بل أكرم منه

(٧٦) البداية والنهاية ١٠/ ١٩٦

(٧٧) راجع فصل : رعاية البرامكة للحركة الفكرية

(٧٨) الراغب الأصبهاني : محاضرات الأدباء ٢/ ٦٤٩ . الغوالي : جمع غالية طيب معروف مراكن : جمع مركن، آنية معروفة لغسل الثياب

(٧٩) راجع القصيدة في كتاب أخبار الشعراء المحدثين للصولي ص ١٠٥

وقال أيضاً (٨٠) :

ذهبت مكارم جعفر وفعاله ... في الناس فعل مذاهب الشّمس

ملك تسوس له المعالي نفسه ... والفعل خير سيـــــاسة النفس

وقال (٨١):

أحيا ابن يحيى النّوال مغتربا ... فكل مجد إليـه مجلــــــوب

وكلّ بذل زكت منـــــاسبة ... فهو إلى البرمكي منـــسوب

لابس تاجين تـــاج مكرمة ... وتاج ملك علتـــه منصوب

تحبّ من جعـــفر طلاقته ... وبذل سمح الأخـلاق محبوب

وحين ولّي خراسان جلس للناس فدخل عليه الشعراء يهنئونه، فأنشدوه عيون قصائدهم، فكان منهم أشجع السلمي، فأستأذنه قائلاً له : أتأذن في إنشاد شعر قضيت به حق سؤددك وكمالك،وخففت به ثقل أياديك عندي، فقال له هات يا أبا الوليد، فإنك أكثر شعرائنا برا بنا، فبدأها بما تعوّد الشعراء عليه في الجاهلية من ذكر الديار فقال (٨٢):

أتصبر للبين أم تـــــجزع ... فإنّ الديـــار غدا بلقع

ثم قال :

تريد الملـــوك ندى جعفر ... ولا يصنعون كما يصنع

إلى أن يقول :

تلوذ الملـــــــوك بآرائه ... إذا نابها الحدث الأفظع

ومنّى نفسه في أن ينال عطاءه فقال (٨٣) :

غداً في ظلال نـــدى جعفر ... يجرّ ثيابه الفتـــى أشجع

---

(٨٠) الأغاني ١٧/ ٦٣-٦٤ ومعاهد التنصيص للعباسي : ٤/ ٦٤-٦٥

(٨١) خبار المحدثين : ص ٩٢-٩٣

(٨٢) راجع القصيدة في الأغاني ١٧/ ٧٢-٧٣

(٨٣) الصولي : أخبار الشعراء المحدثين : ص ٨٢ ومعاهد التنصيص ٤/ ٥٩ والشعر ٢/ ٨٨٢ - ٨٨٣ ووفيات الأعيان ١/ ٤٧٥ وديوان المعاني ١/ ٦٤

فأعجب جعفر بقصيدته، وخاطبه مخاطبة الأخ لأخيه، وأمر له بـألف دينـار وقـال في قـصيدة أخرى (٨٤) :

أبتغي من آل يحيى ملكـاً جمّ الهبات
خلق الله ابن يحيى للحجا والمكرمات
وصـــل الله يديه بالمنايا والصـــلات
فهو يعطيك ابتداءً قبل نوب النائبات

وقال (٨٥) :

أمات اللـــــؤم نائله وأحيا الجود والكرما
وما حفظ الحقوق كجعفر أحد ولا الذّمـــا
ولا خطت سحائب جـو ده عربا ولا عــجماً

وقال في قصيدة أخرى منها هذه الأبيات (٨٦) :

ونعم المنادي باسمه حين تلتقي صدور القنا والحرب تغلي قدورهـا
به التأم الصدع الشـــامي والتقت قبائل قد كانت شتاتا أمورها
فأطـفأ نــــاراً قد عـــلا لمعانــها فروَّع البلاد واستطار سعيرها

وحين ولّي مهمّة إخماد الفتنة التي نشبت بين المطرية واليمانية سنة ١٨٠ هـ في بلاد الشام مدحه منصور النمري قائلاً (٨٧) :

لقد أوقدت بالشــــام نيران فتنة فهذا أوان الشام تخمد نارهــا
إذا جاش موج البحر من آل برمك عليها خبت شهبانها وشرارهـا
رماهـــا أمير المؤمــــنين بجعفر وفيه تلافي صدعها وانكسارها
رماها بميــــمون النقيبـة ماجد تراضى به قحطانها ونزارهـا

---

(٨٤) المرجع السابق : ص٩٣ الحجا : العقل

(٨٥) المرجع السابق : ص ١١٦-ص١١٥

(٨٦) أخبار الشعراء المحدثين : ص١٠١

(٨٧) راجع القصيدة في ا: تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٦٦-٦٧ والبداية والنهاية :١٠/ ١٧٥، خبت أطفئت، بميمون: صاحب اليمن والخير والبركة

ومدحه صريع الفواني فقال (٨٨) :

كأنه قمر أو ضيغـــــم هصــر أوحيّة ذكر أو عارض هطــل

لايضحك الدّهر إلاّ حين تسـأله ولا يعبـــــس إلاّ حين يسل

ومدحه مروان بن أبي حفصة بعدة قصائد منها هذه الأبيات التي ألحقهـا في مرثيتـه لمعـن بـن زائدة، فقال (٨٩):

نفحت مكارما عن قبر معن لنا ممّا تجـــود به سجالا

فعجّلت العطيّة يا ابن يحيى بتأدية ولم ترد المطـــالا

فكأني عن صدى معن جواد بأجود راحة بذلت نوالا

بنى لك خالد وأبوك يحيـى بناءً في المكـــارم لن يُنالا

كأن البرمكــــيّ بكلّ مال تجود به يــداه يّفيد مالا

ومدحه الأصمعي في قصائد كثيرة من أطرفها قصيدته التي منها هذان البيتان (٩٠) :

إذا قيل من للندي والعلى من النّاس؟ قيل الفتى جعفر

وما إن مدحت فــــتى قبله ولكن بنو برمك جوهــر

وكتبت إليه عنان جارية الناطقي تطلب فيها أن يتوسط عند أبيه كي يشير على الرشيد بشرائها فبدأت شعرها بالغزل، فقالت : (٩١)

يالائمي جهلا ألا تقصر من ذا على حرِّ الهوى يصبر

إلى أن تقول :

أنت المصفى من بني برمك يا جعفر الخيرات يا جعفر

لا يبلغ الواصف في وصفه ما فيك من فضل ولا يعشر

من وفّر المال لأغـــراضه فجعفر أغراضــــــه أو فر

ديباجة الملك عــلى وجهه وفي يديه العــارض الممطر .... الخ القصيدة .

---

(٨٨) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٢٣-٣٢٤ العارض صفحة الخد : الهطل : المطر الضعيف الدائم أنظر القاموس حرف الهاء

(٨٩) طبقات الشعراء : ص٤٥-٤٦

(٩٠) الجهشياري : الوزراء والكتاب : ص٢٠٥-٢٠٦

(٩١) راجع القصيدة في كتاب : البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ١٩٦-١٩٧ العارض : السحاب

مديح الشعراء لموسى بن يحيى :

وفي سنة ست وسبعين ومائة هـ هاجت في الشام فتنة عظيمة بين النزارية واليمانية، فلما اشتد الأمر أرسل هارون الرشيد موسى بن يحيى ومعه جماعة من القادة ورؤساء الكتاب، فأصلحوا بين المتخاصمين وهدأت الفتنة والتأم الشمل وأخذ رؤوس الفتنة إلى الرشيد، فأوكل أمرهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وأطلق سراحهم وقد مدح بعض الشعراء موسى بن يحيى فقال (٩٢):

قد هاجت الشـــام هيجا	يشيب رأس وليــــــــده
فصبّ موســــى عليها	بخيله وجنـــــــوده
فدانت الشـــــــام لَمّا	أتى بسنح وحيده (٩٣)
هذا الجـــــواد الذي بـ	ذ كل جود بجوده (٩٤)
أعداه جـــــــود أبيه	يحيى وجـــود جدوده
فجاد مـــوسى بن يحيى	بطارفٍ وتليـــــــده
ونال مـوسى ذرى المجد	وهو حشوّ مهوده (٩٦)
خصصــــــته بمديحي	منثورة وقصـــــيده
من البرامـــــك عوداً	له فأكــــــرم بعوده
حووا على الشعر طراً	خفيفه ومديــــــده

لم يحظ محمد بن يحيى بمثل ما حظي به أخوته من مديح القراء ، لذلك لم أجـد شـاعراً يمدحـه باستثناء أبن عباد بن المخرق فقد قال (٩٧) :

إني حبوت مدحي	من بالنَّـدى تمسّك
محمد بن يـــحيى	بن خالد بن برمك

---

(٩٢) البداية والنهاية ١/ ١٧٤ ط دار الريان للتراث

(٩٣) بسنح : اليمن والبركة

(٩٤) بذ : فاق

(٩٦) مهود : جمع مهد الموضع يهيأ للصبي ويوطأ

(٩٧) الورقة ص ١٠٥

الفصل الرابع

رثاء الشعراء للبرامكه

عاش البرامكة في العصر العباسي الأول في سعادة وهناء ، وعز ورخاء وقد وصف أشجع السلمي أيامهم فقال (١):

كأن أيامهم من حسن بهجتها   مواسم الحج والأعياد والجمع

وبين عشية وضحاها حل بهم قضاء الله وقدره، فتقوض سلطانهم، وضاع مجدهم وتبدد شملهم ، فقتل جعفر . ومثل بجثته، فعلقت أشلاؤها على جسور بغداد على غير ما يأمر به الإسلام، وسيق يحيى وبنوه : الفضل وموسى ومحمد إلى غياهب السجون، وصودرت أموالهم، ونهب متاعهم ومكتباتهم، فأصبحت أثراً بعد عين، فاستقبل المسلمون هذا الحدث الأليم بالحزن والأسى، وبخاصة الشعراء، وهم أرق الناس عاطفة، وأرهفهم إحساساً، فالتهبت مشاعرهم وتأججت عواطفهم، وشاركوا المسلمين حزنهم فرثوهم رثاءً حاراً مجللا بالدموع، وموشحاً بالسواد، وليس هناك من شيء أشد إثارة لمشاعر الشعراء من فقد الحبيب الوفي، والصديق المخلص، لأنّهم فقدوا بذلك الأمل والرجاء وقد عبَّر عن ذلك أحد أشياعهم فقال (٢) : " تركني مقطوع الآمال زاهداً بعده في طلب الأموال " .

فاسترجع الشعراء ذكري أيامهم الخوالي التي عاشوها في كنفهم فنتأت جروحاً لا تندمل، فحنوا إليها، وتحسروا عليها فرثوهم، ولكن الكثير منهم أحجم واستنكف عن ذلك؛ خوفاً من بطش الرشيد بعد الحظر الذي فرضه على رثائهم (٣) متوعدا كل من يخالف أمره ، وقد عبر عن ذلك سهل بن هارون (٤) : " ... فتبرأ منهم الحميم، واستبعد من نسبهم القريب، وجحد ولاءهم المولى، ولقد اعتبرت لفقدهم الدنيا، فلا لسان يخطر بذكرهم، ولا طرف ناظر إليهم " .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ١/ ٣٣٦ والمسعودي : مروج الذهب ٣/ ٣٨٢ والخصائص الواضحة : ص ٣٣٥

(٢) الراغب الأصبهاني : محاضرات الأدباء ٢/ ٥٨٠

(٣) الفخري : ص ١٦٠

(٤) الفخري : ص١٦٠

ولعل الذي دفع الرشيد إلى تحريم رثائهم تخوفه الشديد من أن يثير حفيظة المسلمين، وبالأخص أبناء جلدتهم من الفرس، فرغب أن يسدل الستار على تلك المأساة التي ليس لها مثيل في تاريخ الدولة الإسلامية .

لكن هذا الحظر لم يستمر طويلاً؛ لأن بعض الشعراء لم يستطيعوا أن يكبتوا مشاعرهم، وأن يخفوا حزنهم، فرثوهم خفية بعيداً عن أعين الرشيد، متحسرين على أيامهم الزاهرة، وواقفين على أطلال منازلهم دأب الشعراء الجاهليين (٥) .

فكان من هؤلاء الشعراء الرقاشي، فلمّا علم الرشيد بأمره أمر أن يجلب إليه، فلمّا مثل بين يديه مسأله عم حمله على مخالفة أمره فقال (٦) :" تحركت نعمة في قلبي فلم أصبر، فسأله عن مقدار عطائه؟ فقال : ألف دينار ، فأمر له بمضاعفتها ، كما خرق هذا الحظر أحد الشعراء ، فضبط واقفاً على أطلالهم وفي يده رقعة ينشد ما فيها، وهو يبكي، فحمل إلى الرشيد، فهدّده وتوعدّه إن عاد إلى مثل هذا، فاستأذنه في الاستماع إلى قصته مع البرامكة وله الحق بعد ذلك أن يفعل ما يشاء، فقص عليه ما أسدى إليه البرامكة من نعم غامرة، وختم حديثه بقوله : " فو الله يا أمير المؤمنين ما أجد فرصة أتمكن فيها من الثناء عليهم، والدعاء لهم إلا انتهزتها، مكافأة لهم على إحسانهم ، ولن أقدر على مكافأتهم، فإن كنت قاتلي على ذلك فافعل ما بدا لك، فتأثر الرشيد، وأمر بإطلاق سراحه، فأذن بعد ذلك برثائهم (٧) .

وهكذا لم يستطع الرشيد منع الشعراء من رثائهم إلى ما لا نهاية، كما أنّه لم يستطع أن يكبت مشاعره رغم ما يحمل من حقد عليهم فعندما مرّ بجسور بغداد ورأى أشلاء جعفر مصلوبة عليها قال متحسراً (٨) :

" لئن مضى أثرك لقد بقي خبرك، ولئن حط قدرك لقد علا ذكرك "

ورثاهم بعد ذلك كثير من الشعراء أمثال :

الرقاشي، وابن مناذر، وأشجع السلمي، وسيف بن إبراهيم، وأبو العتاهية ، ومنصور النمري، ومعاذ بن مسلم الهرّاء، وابن أبي كريمة، وصالح الأعرابي وأبو نواس، وغيرهم كثير .

---

[٥] أمراء الشعر العربي : ص ٢٥٧. وبركلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية : ص ١٩٠

[٦] الفخري : ص ١٦٠

[٧] الفخري : ص ١٦٠ – ص ١٦١

[٨] الوطواط : غرر الخصائص الواضحة : ص ٣٣٤

ولكن ما قيل في رثائهم أقل مما قيل في مدحهم، لأن ما يقال في المدح إنما يقال للرجاء والرغبه في العطاء، وما يقال في الرثاء إنما يقال وفاء لهم، وشتان بين الاثنين، غير أن شعر الوفاء يكون صاحبه أصدق عاطفة، وأقل تكلفاً (٩).

فمن عيون ما قيل في رثائهم هذه الأبيات المنتخبه :

يقول الرقاشي (١٠)، وكان منقطعاً إليهم فاحتل في شعره مكانة مرموقة ، فكانوا يدونونه ويروونه، فذكر في شعره أن جعفراً قتل يوم السبت من شهر صفر، وأن قتله هدّ ركنا مكينا كانوا يلوذون به :

أيا سبت يا شرالسبوت صبيحةً ... ويا صفر المشؤوم ما جئت أشأما

أتى السبت بالأمر الذي هدّ ... ركننا وفي صفر جاء البلاء معمّما

ورثاه في قصيدة أخرى وصفها أبو هلال العسكري فقال : " إنّها من أعاجيب المراثي فقال " (١١)

لآن استرحنا واستراحت ركابنا ... وأمسك من يحدى، ومن كان يحتدي

فقل للعطايا قد أمنت من السُّرى ... وطيٌّ الفيافي فدفدا بعد فدفد

وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ... ولن تظفري من بعده بمسوَّد

وقل للعطايا بعد فضل تعطلي ... وقل للرزايا كلَّ يوم تجددي

ودونك سيفاً برمكياً مهندا ... أصيب بسيف هاشمي مهنَّد

---

(٩) الجراح : الورقة : ص ١١٠

(١٠) كان مقتل جعفر في غزة صفر سنة ١٨٧ وهو الأشهر وقيل ١٨٨ هـ بموضع يقال له العُمر ، راجع وفيات الأعيان ١/ ٣٣٧ – ٣٣٨ والتنبيه والأشراف : ص٢٩٩ ومروج -الذهب ١/ ١١٨ حوادث : ١٨٥ والطبري : تاريخ الأمم والملوك ١/ ٨٧

(١١) لطبري : تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٨٧–٨٨ ومعجم الشعراء : ص ١٨٠ ونهاية الأدب ٥/ ١٨٢ وابن خلكان : وفيات الأعيان ١/ ٣٤ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٥/ ١١٦ وديوان المعاني ٢/ ١٧٩ والبداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ١٩١ والجهشياري : الوزراء والكتاب : ص ٢٣٦ ونسب الأبيات للشاعر وقيل لأبي نواس . ومراجع أخرى الحُداء الغناء للإبل : السُّرى : السير عامة الليل . الفدفد : الفلاة

وبكى جميعهم: يحيى والفضل وجعفر وموسى وتحسر عليهم فمن ذلك (١٢) :

ولمّا رأيت السيف خالط جعـــفراً ... ونادى منادٍ للخليـــــفة في يحيى
وأصبح قد أودى من الفضل ملكه ... وأصبح مقيماً بين سجنيه في الأسرى
بكيـت على الدّنـيا وأيقنــت أنّمـا ... قصارى الفتى يوماً مفارقـــة الدنيا
فقلت للذي يبدي ليحيى بن خالد ... شماتة أقصر ويك إنَّ لك العُتـــبى
لأيّكم أبكي ؟ أللفضل ذي النّدى ... أم لشيخ ؟ أم أبكي لمحبوسهم موسى
لكلكم أبكي بعـــين ســـــخينة ... وقلب قريـــــح لا يملُّ ولا يخشى

كما رثاهم في قصيدة أخرى ذكر فيها أنّه استعصى عليه النوم، وفارقه النعاس لمصاب البرامكه وقد بالغ في رثائه فزعم أنّه لولا الخوف من الوشاة أن يوصلوا خبره إلى الخليفة لطاف حـول جذع جعفر كما يطاف بالحجر الأسود !!

---

(١٢) لأبشيهي : المستطرف ١/ ١٩٨ والأربلي : خلاصة الذهب المسبوك ونسب الأبيات إلى المنذر بن المغيرة الدمشقي ، وابن عبد ربه : العقد الفريدة ٥/ ٧١ ونسب البيت الأول والثالث لدعبل وذكرا في ديوانه . وذكرا مع بيتين آخرين في البداية والنهاية ١٠/ ١٩٨ ونسبهما لأمرأة مجهولة . خالط : مازج . ويك كلمة إغراء، سخينة: باكية

فقال (١٣) :

هدأ الخالون من شدوى فنامــوا وعيني لا يلائمـــــها المنام

وما ســهرت لأنّي مستهـــــام إذا أرق المحب المســـــتهام

ولكن الحــــوادث أرّقتـــــني فلي سهـــر إذا هجد النيام

أصبت بـــــسادة كانـوا نجـوماً بهم نسقي إذا أنقطع الغمام

أمــا والله لولا خـــــوف واش وعين للخليفـــــة لا تنــام

لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للنّاس بالحجـــــر استـلام

على المعـروف والدنيـــا جميعاً لدولة آل برمـــك السّلام

فلم أر قبل مثلك يا ابن يحـــيى حساماً فلّه السيف الحســام

وفي أبيات أخرى (١٤) اتهم الزمن بالغدر بالبرامكه، وكما نعلم فإن الزمن لا يغـدر، وإنّمـا الذي يغدر أهله ، كما ذكر أنّ جعفرا لم يلحد (١٥) :

إن يغـــدر الزمن الخؤون بنا فقد غدر الزمان بجعفر ومحمد

حتى إذا وضح النّهار تكشفت عن قتل أكرم هالك لم يُلحـد

والبيض لولا أنّها مأمــورة ما فلّ حدُّ مهـــــــندٍ بمهند

---

(١٣) ابن خلكان : الوفيات ١/ ٣٤٠ أورد الأبيات الثماني الأولى . والبغدادي تاريخ بغداد ٧/ ١٥٨ أورد الأبيات الأربعة الأخيرة والطبري : تاريخ الأمم واللموك : ١٠/ ٨٨ ذكر أبيات الثلاث ونسبها للعطوي أبي عبد الرحمن . الشدو : الغناء . هجد : نام ليلاً

(١٤) راجع بقية القصيدة في الطبري : تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٨٨ وتاريخ الموصل للأربلي ٣١١ والبغدادي : تاريخ بغداد ٧/ ١٥٩ -١٦٠ ونسبها لأمرأة وذكر البيت الأول والثالث وأضاف بيتين زيادة على المراجع السابقة

(١٥) تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٨٨ وتاريخ الموصل ص ٣١١ وتاريخ بغداد ٧/ ١٥٩ – ١٦٠ ذكر البيت الأول والثالث . وأضاف بيتين آخرين

وقال (١٦):

ولّي عن الدنيا بنو برمــك | فلو تــوالى الناس ما زادا
كأنّما أيامهــــــــم كلّـــها | كانت لأهل الأرض أعيادا

وقال (١٧) :

قد سار دهر ببني برمــــك | ولم يدع فيهـــم لنا بُقْيـا
كانوا أولي الخير وهم أهله | فارتفع الخـــير من الدنيا

وقال (١٨) :

يا بني برمـــك وأهالكـم | ولأيامكـــــــم المقتبلة
كانت الدنيا عروسا بكـم | وهي اليوم ثكول أرملة

وقال منصور النمري في معنى البيتين (١٩) :

أندب بني برمــك لدنــيا | تبكي عليـــهم بكلّ واد
كانت بهم برهـــة عروساً | فأصبحت اليوم في حداد

---

(١٦) ابن خلكان : الوفيات ١/ ٣٣٦ ومروج الذهب ٣/ ٣٨٢ وغرر الخصائص الواضحة : ص ٣٣٥ . البرامكة سلبياتهم وايجابياتهم ص ١٣٧ عن المسعودي : مروج الذهب ٤/ ٢٥٥

(١٧) مروج الذهب ٣/ ٣٨٣

(١٨) لوطواط غرر الخصائص الواضحة : ص ٣٣٥ والجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٣٦ والنجوم الزاهرة ٢/ ١٤٠ وابن خلكان ١/ ٣٤١ وربيع الأبرار ١/ ٧٥ والمسعودي : مروج الذهب ٣/ ٣٨٢ والثعالبي : ثمار القلو المسعودي : مروج الذهب ٣/ ٣٨٣ب ص٢٠٢ . وغرر الخصائص الواضحة : ص ٣٣٥ فنسبها لصالح بن طريف

(١٩) المسعودي : مروج الذهب ٣/ ٣٨٣

وقال سيف بن ابراهيم (٢٠) متحسراً على ما كانت تفيض به أيديهم من جود وكرم :

هوت انجم الجدوى وشلّت يد النّدى   وفاضت بحور الجود بعد البرامك

هوت أنجم كانت لأبناء برمك   بها يعرف الحادي قويم المسالك

وقال شاعر آخر (٢١) :

مررت على ربع ليحيى بن خالد   وباطنه يشكو الخراب وظاهره

فكادت مغانيه تقول من البـــلى   لسائلها عن أهلها مات عامره

وقال آخر (٢٢) :   متحسرا لما آلت إليه عرصاتهم :

فإذا نظرت إلى الثرى بعرصاتهم   قلت الشجاع ثوى بها والأرقم

ومما قاله صالح الأعرابي (٢٣) :

ألم يك يحيى والي الأرض كلها   فأضحى كمن وارته منها قبورها

وتأثر أبو نواس لمصرع البرامكة وحزن عليهم فرثاهم رغم ما قيل عن كراهيته لهم وقد سبق وأن هجا جعفرا وبلغ به الحزن مبلغاً عظيماً فرحل إلى مصر ليتناساهم، ولكنه لم يصل في شعره إلى ما وصل إليه غيره من رقة العاطفة وصدق الشعور، ولعلّ ذلك يرجع لسببين أولهما :

---

[٢٠] الطبري : تاريخ الأمم والملوك ١٠/٨٨ والوطواط : غرر الخصائص الواضحة : ص ٣٣٥ ومروج الذهب للمسعودي : ٣/ ٣٨٢ ونسبها لسلم الخاسر وتبعه تاريخ الموصل ص٣٠٥ وشعرا عباسيون : ص ٣٤ وقال نسبة الأبيات لسلم خطأ لأنّ سلماً لم يدرك نكبة البرامكة . الجدوى : العطية

[٢١] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان : ص ١٥٧ . ثوى : أطال الإقامة فيه . عرصات كل بقعة واسعة بين الدور ليس فيها بناء

[٢٢] الجاحظ : الحيوان ص١٧٦ . الشجاع : الحية الذكر . والأرقم : حية فيها بياض وسواد وهي أخبث الحيات وأطلبها للناس

[٢٣] المسعودي : مروج الذهب ٣/ ٣٨٢

حرمانه من الأولاد أو لطبيعته المبتهجة دائماً (٢٤) وفي ديوانه قصيدتان رثى فيهما البرامكه الأولى عدد أبياتها ستة وعشرون بيتاً والثانية ثمانية وعشرون بيتاً (٢٥) .

فمن مراثيه فيهم (٢٦) :

إنّ البرامك الذين تعلّموا فعل الملوك فعلموه النّاس
كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا لا يهدمون لبنائهم أساسا
وإذا هم صنعوا الصنيعة في الورى جعلوا لها طول البقاء لباسا

وقال شاعر آخر (٢٧):

فإن يمس وحشا داره فلطالما تناطح أفواجاً لديه الركائب
يحيون بسّاماً كأن جبينه هلال بدا وانجاب عنه السحائب
وما غائب من غاب يرجى إيابه ولكنَّ من قد ضمَّه القبر غائب

وقال شاعر آخر يندب الفضل بن يحيى (٢٨) :

مضى الفضل والإسلام والبأس والندى غداة غدا الفضل بن يحيى إلى الحفرة

إلى أن يقول :

وألبست الدنيا قتاما لفقده وكانت بوجه الفضل ظاهرة النَّضرة
فقل للذي يسعى ليدرك شأوه لقد رُمت أمراً دونه تحسر القدرة

ولم تقف المرأة العربية من الأحداث موقف المتفرج، وإنما شاركت الشعراء حزنهم ورثاءهم غير مبالية بتحذير الرشيد ووعيده فعبرت إحداهن عما يجول في خاطرها من أسى، فقالت : (٢٩) بعد أن رأت جثة جعفر معلقة على الجسر :

---

(٢٤) من تاريخ الأدب العربي طه حسين ٢/ ٢٢٩

(٢٥) ديوان ابي نواس : ص٥٨٣ -٥٩٥

(٢٦) راجع القصيدة في الديوان ص ٥٨٢ وابن خلكان : وفيات الأعيان ٥/ ٩٥

(٢٧) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان : ص١٥٧ – ١٥٨

(٢٨) التوحيدي : البصائر والذخائر : ٢/ ٧٥٦ – ٧٥٧ . الشأو : السبق والغاية مختار القاموس حرف الشين

" لئن أصبحت نهاية في البلاء ، لقد كنت غاية في الرجاء "

وقالت إمرأة أخرى (٣٠):

أما والله لئن أصبحت للناس آية، لقد بلغت فيهم الغاية، ثم قالت: ولئن زال ملكك، وخانك دهرك، ولم يطل عمرك، لقد كنت المغبوط حالا، الناعم بالا يحسن بك الملك،وينفس بك الهلك أن تصير إلى حالك هذه، ولقد كنت الملك بحقه، في جلالته، ونطقه، فاستعظم الناس فقدك، إذ لم يستخلفوا ملكاً بعدك، فنسأل الله الصبر على عظم الفجيعة، وجليل الرزية التي لا تستعاض بغيرك، والسلام عليك، وداع غير قال ، ولا ناس لذكرك ثم أنشأت تقول :-

العيش بعدك مرّ غير محبوب ومذ صلبت رمقنا كل مطلوب

أرجو لك الله ذا الإحسان إن له فضلاً علينا وعفواً غير محسوب

ثم سكنت ساعة وتأملته ثم أنشأت تقول :

عليك من الأحبة كل يـوم سلام الله ما ذكر السـلام

لئن أمسى صدال برأى عين على خشب حباك بها الإمام

فمن مُلك إلى مَلك برغـم من الإملاك أسلمـك الهمام

---

(٢٩) الحصري : زهر الآداب : ١/ ١٥٠-١٥١ ط مطبعة السعادة مصر ١٣٧٢

(٣٠) تاريخ بغداد ٧/ ١٥٩ وخلاصة الذهب المسبوك : ص ١٥٠ -١٥١

الفصل الخامس

نزغة التشاؤم عند الشعراء بعد نكبة البرامكة

كان للنكبة التي حلت بالبرامكة أثرها الكبير في ظهور روح التشاؤم في الشعر العربي لدى شعراء البرامكه، والزهد في نعيم الدنيا، فانتهز الشعراء الفرصة للتحذير من الغرور بالحياة الدنيا، والركون إليها؛ لأنّ بقاء الحال من المحال، وصدق من قال :

هي الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من بطشي وفتكي

فلا يغرركم مني ابتسام فقولي مضحك والفعل مبكي

ومن السبعة التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم الدهر ولو صفا. ومن شاء الدليل فهؤلاء البرامكة الذين كانوا في يوم من الأيام سادة الدنيا، وبين عشية وضحاها أنشبت المنية فيهم مخالبها، فقتل جعفر، وقطعت جثته إلى أشلاء وعلقت على جسور بغداد وسجن أهله، فضاع مجدهم الذي بنوه طوال ما يزيد سبعة عشر عاماً، وتبدد شملهم، وغربت شمس سعادتهم، أليس في هذا عبرة، وأي عبرة لمن أراد أن يذكر، وصدق الله العظيم حيث يقول " وتلك الأيام نداولها بين الناس "آل عمران:١٤٠.

فهذا أحد الشعراء يقول إنهم كانوا يعمرون الدنيا، وأن كهانتهم وعلمهم بالنجوم لم تغنهم شيئاً، فقد وقع المحذور، وغدوا عبرة لكل معتبر، والحذر لا ينجي من القدر " (١) :

أوحش النوبهار من آل جعفر ولقد كان بالبرامك يُعمر

قل ليحيى أين الكهانة والسحر وأين النجوم من قتل جعفر

أنسيت المقدار أم زاغت الشـ ـمس عن الوقت حين قمت تقدّر

إن يحيى بن خالد وبنيه أصبحوا فكرة لكل مفكر

(١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان : ١٥٧ ومعجم البلدان ٨/ ٣٢٢ ولم يذكر إلا الأبيات الثلاثة الأولى .

وحينما مرّ ابو نواس بدور آل الربيع، تذكر مجد البرامكة، وما كانوا عليه من نعيم الدنيا فطاف في ذاكرته ذكريات حزينة، مملؤة بالأسى، فأنشد قائلاً (٢) :

ما رعى الدّهر آل برمك لّما ... أن رمى ملكهم بأمر فظيع

إنّ دهراً لم يرْعَ حقّا ليحيى ... غير راع ذمام آل الربيع

ولما مرّ الأصمعي بأشلاء جعفر، ورأى رأسه مجندلاً دعا إلى الاعتبار والعظة مما آل اليه حال البرامكه، فلم يمنع معرفتهم بحساب النجوم من وقوع قدر الله وإرادته فقال (٣) :

أيها المغرور هل لك ... عبرة من آل برمك

غرّهم عن قدر الله ... حساب الهشمرك

إلى أن قال :

عبرة لم ترضها أنت ... ولا قبل أب لك

وذكر أبن أبي كريمة صولة الزمان على جعفر. وصولة جعفر على الناس " ومن يفعل سوءاً يجز به، وما ربك بظلام للعبيد " فقال (٤) :

كلّ معير أعيَر مرتبةً ... بعد الفتى برمك على غّرر

صالت عليه من الزمان يد ... كان بها صائلاً على البشر

وحذّر علي بن أبي معاذ من الدهر ، وصولاته وجولاته، فأشار إلى صلب جثة جعفر، وزج أبيه وأهل بيته في غياهب السجن، وما في ذلك من عظات وعبر فقال (٥) :

يا أيها المغترّ بالدهر ... والدهر ذوو صرف وذو غدر

لا تأمن الدهر وصولاته ... وكن من الدهر على حِذر

---

(٢) ديوان أبو نواس : ص ٥٨٢ والبيان والتبيين ٣/ ٢٧٨.ومروج الذهب ٣/ ٣٨٢ وتردد في نسبة الأبيات لأبي نواس ونسبها إلى حرزة الأعرابي .

(٣) أخبار النحوين البصريين : ٥١.

(٤) تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٨٨.

(٥) مروج الذهب ٣/ ٣٨١ : دهر لا يغدر وإنما الذي يغدر أهله، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الدهر .

يأيها المغتر بالدهـــر والدهـــــر ... ذو صـــــــــــرف وذو غـدر
لا تأمن الدهـــــــر وصـــولاته ... وكن من الدنـــــيا على حـذر
إن كنت ذا جهـــــل بتصريفـه ... فانظر إلى المصـــــلوب بالجسر
فإن فيه عـــبرة ؛ فاعتـــــبر ... يا ذا الحـــــجا والعقل والفكر
وخذ من الدنيـــا صفي عيشها ... وأجرى مع الدهـــر كما يجري
كان وزيـــــر القائـم المرتضى ... وذا الحجا والفضـــــل والـذكر
وكانت الدنــــيا بأقطـــــارها ... إليه في الـــــــبرِّ وفي البــحر
يشيِّد المـــــــلك بآرائـــــــه ... وكان فيـــــه نافـــذ الأمر
بينـــــما جعـــفر في ملكـه ... عشيَّة الجمــــــعة بالغَــمْر
يطير في الدنـــــــيا بأجناحــه ... يأمل طول الخـــــلد والعُمر
إذ عثـر الدهـــــر به عـثـرة ... يا ويلنا من عثـــــــرة الدهر
وزلت الـــــنعل به زلــــــة ... كانت له قاصمــــة الظهـــر
فغودر البـــــائس من لـــيلة ... السبـت قتـــيلاً مطلع الفجْر
وأصبح الفضـــــل بن يحيى وقد ... أحيط بالشيـــــخ وما يدري
وجيء بالشيـــــــخ وأولاده ... يحيى معاً في الغـــــلِّ والأسـر
والبرمكيـــــــــن وأتباعهم ... من كان في الآفـــــاق والمصـْر
كأنما كانـــــوا على موعـــد ... كموعد النـاس إلى الحـــــشر
وأصبـــــــحوا للناس أحدوثة ... سبحان ذي السلطــــان والأمر

وحكي أنه شوهد على باب قصر علي بن عيسى بن ما هان بخراسان صبيحة الليلة التي قتـل فيها جعفر بن يحيى هذان البيتان (٦) :

إن المـــــــساكين بني برمك ... صبــــــت عليهم غير الدهر
إن لنا من أمرهـــــــم عبرة ... فليعـــــــتبر ساكن ذا القصر

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/ ٣٤٠. ومروج الذهب ٣/ ٣٨٠، ومرآة الجنان ١/ ٤١٤ وغرر الخصائص الواضحة ٣٣٦.

وقال دعبل الخزاعي (٧) مبيناً ما فعله الدهر بالبرامكه وما صنعته الأيام :

ألم تر صَرْف الدهر من آل برمك | وفي ابن نهيك والقرون التي تخلو
لقد غرسَ القوم النخيل تمكـــنا | فما حصـدا إلا كما حصد البقل

وانضم إلى الشعراء في التحذير من الدنيا وعدم الغرور بها شاعر الزهـد أبـو العتاهيـة وكـان صديقاً مصافياً للفضل بن الربيع وكان ينشده ما ينظم من الشعر فطلب الفضل منه أن يعـود إليه ثانية ليحدثه ويسامره وينشده عندما تحين له الفرصة فظل ابـو العتاهيـة يترقـب الفرصـة السانحة فلما حانت قام بزيارة الفضل فطلب الفضل منه أن ينشده ويحدثه فأنشده بيـتين مـن الشعر ذكر فيهما أن الشباب قد طويت صفحته بعد أن كساه الـشيب خمـارا ثـم تـساءل أيـن البرامكة الذين كانوا من أعظم الناس خطراً :

ولّى الشباب فما له من حيلة | وكسا ذؤابتي المشـــــيب خمارا
إنّ البرامكة الذين عهدتهـــم | بالأمس أعظم أهلها أخطارا (٨)

فكان للبيتين وقع سيء في نفس الفضل فاكفهر وجهه وتغيرت سحنته فتنكر لأبي العتاهية ولم يجد منه ما يسره طوال حياته .

وفي أبيات (٩) أخرى حذر من الدنيا ولركون إليها فمن أراد الحياة عليه أن يعتـبر بمـا جـرى لجعفر ويحيى فهذا جعفر قد مزقت أشلاؤه وعلقت على الجسر وذاك يحيى قد أقصي عن سدة الحكم ليحل في غياهب السجن، وشتت شمل البرامكة فتاهوا في البلاد ثم عزا نكبة البرامكة إلى أنهم أرادوا رضاء العبد بغضب الله ثم ختم الأبيات بذكر الله تعالى والإشادة بمن تاب إلى الله قبل الممات :

قولا لمن يرتجي الحيـــــاة أما | في جعفر عبرة ويحيـــــاه
كانا وزيري خليفـــــة الله ها | رون هما ما هـــما خليلاه
فذاكم جـــــــــعفر برمته | في حالق رأســـه وصفاه

---

(٧) مروج الذهب ٣/ ٣٨٣.

(٨) ديوان ابو العتاهية : ٩٨ والأغاني ٤/ ١٣٠٣ ط الشعب .

(٩) تاريخ الأمم والملوك ١٠/ ٨٨-٨٩ وتاريخ الموصل : ٣٠٦ ولم يذكر السادس والسابع .

و الشيخ يحيى الوزير أصبح قد	نجاه عن نفســـــه وأقصاه
شتت بعد التجـــــمع شملهم	أصبحوا في البلاد قد تاهوا
كـذاك من يسخـــــــط الله بما	رضى به العبد يـخزي الله
سبحـــــان من دانت الملوك لـه	أشهــــــد أن لا إله إلا هو
طوبى لمن تـــــــاب بعد غرَّته	متاب قبل الممـــات طوباه

ومن أثر هذه النكبة أيضاً والتي قل أن يوجد لها مثيل زهد الشعراء في زيارة الحكام والاتصال بهم، لأنّهم من السبعة التي لا أمان لها، ولو كانوا أقرب الناس إليهم، تخوفاً من أن يحل بهم ما حل بالبرامكه، ففي نكبة البرامكة عظة لهم وأي عظة .

فهذا العتابي الشاعر صديق البرامكه والمقرب إليهم، والمختص بهم يلقاه الرشـيد بعـد نكبـة البرامكه، فيقول له، ما أحدثت بعد يا عتابي ؟ فارتجل أبيات (١٠) وصفها ابن النديم فقال : حسنة المعنى (١١) وهي تدل على العواقب الوخيمة لصحبة السلطان (١٢) :

تلوم على تركي الغنى بأهلية	ذوي الدّهر عنها كلَّ طِرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في	الكُسى مقلَّدة أجيادها بالقلائد

كما قال في قصيدته :

أسرك أني نلت ما نال جعفر	من المال أو ما نال يحيى بن خالد
وإنَّ أميــــر المؤمنين أغصّني	مغصّهما بالباترات البــــــوارد
دعيني تجئني ميتتى مطمـئنة	ولم أتجشم هـــــــول تلك الموارد
فإن رفيعات الأمور مشوبة	بمستـــودعات في بطون الأساود
وإنّ الذي يرقى في المجد والعلا	ملقى بأنـــــواع الأذى والمكايد

---

(١٠) الوزراء والكتاب ص ٢٦٢، والبيان والتبيين ٣/ ٢٨٨-٢٨٩، وعيون الأخبار ١/ ٢٣٢ ولم يذكر البيت الثاني والفهرست ص ١٢١ وذكر الأبيات الأربع الأخيرة مع اختاف في بعض الألفاظ .

(١١) الفهرست ص ١٢١ والبيان والتبيين ٣/ ١٨٨ وعيون الأخبار ١/ ٢٣٢ ولم يذكر البيت الأخير وغيرها غرر الخصائص الواضحة ص ٣٣٦.

(١٢) الأغاني ١٦/ ٢٧٤ ونهاية الأدب ٥/ ٩٤ وسكردان السلطان طبع على هامش كتاب المخلاة ص ٩٩-١٠٠.

كما امتنع بعض المغنين بعد قتل جعفر عن الغناء مثل دنـانير البرمكيـة، فحينمـا طلـب منهـا الرشيد أن تغني اعتذرت إليه قائلة : إني آليت أن لا أغني بعد سيّدي أبداً، لكن الرشيد لم يقبل عذرها فأصرّ على أن تغني، فلما أعطيت العود أخذته وهي تبكي، وتقول :

يا دار سلمى بنازح السَّند بين الثنايا ومَسْقَط اللُبد

لّما رأيت الديار قد درست أيقنت أنّ النعيم لم يَعُد

خاتمة الكتاب

تنحدر الأسرة البرمكية من أصل فارسي، موطنها مدينة بلخ إحدى مدن خراسان، تقع اليوم في أفغانستان، وكان جدهم برمك الأكبر سادناً للنوبهار أحد المعابد المشهورة فاحتل مكانة مرموقة في قومه، وظل يمارس عمله إلى إن فتح المسلمون مدينة بلخ سنة ٣١ هـ بقيادة الأحنف بن قيس في زمن الخليفة الراشد عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فوقع أسيراً في قبضة المسلمين، فأرسل بن الأحنف مع رهائن إلى عثمان رضي الله عنه، فأعلن إسلامه، فسماه عبد الله، فاستشاط قومه غضباً عليه، ودعوه أن يعود إلى دين آبائه، فأبى وردّ عليهم رداً يدل على قوة إيمانه، فدبروا له مكيدة فقتل مع عشرة من بنيه، ولم يبق له إلا طفل صغير، هربت به أمه إلى قشمير ، فقضى هناك أيام طفولته، فتعلم ضروبا مختلفة من الحكمة كان منها العلوم الطبية والحساب والنجوم .

ولما ارتدّ قومه عن الإسلام إثر وباء أصابهم، كاتبوه طالبين منه أن يرجع إلى دين آبائه، على أن يكون سادنا له ، فاستجاب لهم وصار سادنا للنوبهار، ولما غدر طرخان أحد ملوك فارس بالمسلمين وغزاه القائد المسلم : قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٨٥هـ، وقعت زوج برمك الأصغر أسيرة بأيدي المسلمين فعاملوها معاملة حسنة، وتم إطلاق سراحها، فهاجر برمك إلى عاصمة الخلافة : دمشق، فاتصل بالخليفة عبد الملك بن مروان ، وتوثقت العلاقات الحميمة بينهما لسعة ثقافته خاصة في ميدان الطب، ولكن هذه العلاقات لم تدم طويلاً، فقد وافت المنية عبد الملك في نفس العام ، فاتصل بولده هشام بن عبد الملك، فأعلن إسلامه وسمي بعبد العزيز، ثم رجع إلى بلخ، فوجدها خرابا يبابا، فأعاد بناءها، وأصلح أمرها بأمر من أسد بن عبد الله، ثم هاجر إلى قشمير مهد طفولته بعد أن طالبه الأمويون بما لديه من أموال النوبهار .

ولمّا سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ توجه مع ولده خالد إلى الرصافة في العراق لمبايعة الخاليفة : عبد الله السفاح، وفي عهد المنصور لبّى نداء ربه بعد أن خلّف عددا من الأبناء من أشهرهم خالد .

فكان خالد من الفصاحة والبلاغة والخلال الكريمة ما أهله لأن ينظم إلى الدعوة العباسية، فتم اختياره أحد الدعاة العشرين لآل البيت، فاتصل بإمامي الدعوة محمد بن علي الإمام ثم بابنه

ابراهيم، فنال اعجابها، فعين بعد انتقال الدعوة من السّرية إلى العلنية قائداً في جيش قحطبة بن شبيب فافتتح عدة مدن وأثبت من الشجاعة، والإخلاص والصدق والأمانة والفطنة ما أهَّلـه لأن يتولى وظائف عدة منها ديوان الغنائم والخراج، فعامل أهل البلاد المفتوحة معاملة حسنة، وواصل زحفه حتى دخل العراق، فقدم على السفاح لمبايعته، فأعجب بما يتمتع به من فصاحة وبلاغة فأقرَّه على الغنائم، وولاّه عدة وظائف من بينها ديوان الخراج، و ديوان الجنـد، ونـال ثقته ومحبته، ثم ولاّه الوزارة بعد أبي سلمة الخلال، كما أسند إليه الإشراف الكامل على عدة دواوين، فتوثقت صلته به .

ولما تقلد المنصور الخلافة أقرّه على ما بيده من مناصب، وكان يكرمه ويستشيره في كـثير مـن الأمور، وخطط له مدينة السلام وجعلها على غرار الطراز الفارسي، ولمّا تمرد الأكراد في فارس نقله لأمرتها، فقضى على الفتنة هناك، وساس البلاد سياسة حكيمة، ولما مـات المنـصور ، و تولى المهدي استوزره لمدة قصيره، ثم جعله وزيراً لابنه هارون في حكم بلاد المغرب، ثم أمـره بغزو بلاد الروم، فرافقه ولده يحيى فحقق النصر على الأعداء، فوافاه الأجل المحتوم، ولما توفي المهدي تولى الحكم الهادي فأراد أن يجعل ولاية العهد لابنه جعفر بدلاً من هارون، وكان عمره حينئذ خمس سنوات فأثناه يحيى بن خالد عن ذلك بعد أن ناظره وأقنعه أن يجعلها في هـارون وأن لا ينقض العهد الذي أبرمه المهدي، ولما توفي الهادي تولى هـارون الخلافـة فجعـل يحيـى وزيراً له ومنحه من الصلاحيات ما جعل يحيى يدير شؤون البلاد دون الرجـوع إليـه، وكـان يساعده في ذلك ولداه الفضل وجعفر، فساسوا البلاد سياسة حكيمة يما ينوف عن سبعة عشر عاماً إلى أن قضى عليهم الرشيد، فقتل جعفراً، وأقصى يحيى عن الحكم وأودعه وأهله السجن، وظل يحيى وولده الفضل في غياهب السجون إلى أن وافاهما الأجل، وبـذلك ضـاع مجـدهم، وغربت شمس سعادتهم، وقد تبوءوا منزلة رفيعة ومكانة عالية في عالم الشعر والأدب والعلم، لأنهم كانوا يتمتعون بالبلاغة والفصاحة والنبوغ في شـتى ألـوان الأدب فكـان منـه : الـشعر والتوقيعات والرسائل والحكم والنقد والخطابة ، ومن الأعمال الجيدة الـتي قـاموا بهـا طـوال تسلمهم سدّة الحكم : حاربوا الروم وانتصروا عليهم في عدة معارك، ووطّدوا الأمن وأسكنوا الثورات، وحكمـوا بالإسـلام، وأقـاموا العدالـة في ربـوع الـبلاد، فحفظـوا للأمـة أخلاقهـا وأعراضها وأموالها .

أما في الميدان الثقافي، فقد لعبوا دوراً عظيماً في نشر العلم والأدب، فشجعوا الشعراء والأدباء والعلماء والمؤلفين والمترجمين وغير ذلك، وبذلوا لهم الأموال، و قدموا لهم كل عون ومساعدة،

وكانوا اليد الحانية عليهم، وأوصلوا الكثير منهم إلى الخلفاء، وعقـدوا لهـم النـدوات الثقافيـة والأدبية، فارتفع شأنهم، وشاع ذكرهم فغدوا في نعمة ورخاء، فلبسوا أحسن الثياب، وركبوا الخيول المطهمـة، فـأحبهم هـؤلاء، وتفـانوا في خـدمتهم، وتمنـوا لـو اسـتطاعوا أن يفـدوهم بأرواحهم.

ونشطت في عهدهم الصناعات المختلفة، وأنشئ مصنع الورق في بغـداد وشـيدت المكتبـات، وعمر سوق الورّاقين، وكثر التأليف والترجمة عن شتى اللغات، وعمرت المدن، وبنيت المساجد والخانات، وعبدت الطرق، وحفرت الأنهار والقنوات، وأقيمت السدود والحيـاض وعمـرت الأطراف وبنيت الحصون والقلاع وعظم الخير والرخاء، وكثرت الأرزاق، وأغدقت الخـيرات على أهل الحرمين الشريفين، فكانت أيامهم من خير الأيام حتى ضربت بها الأمثال في حسنها وبهائها . وقد بعثت خلال البرامكة الكريمة الشعراء إلى مدحهم والثناء عليهم .

ولّما حلت بهم النكبة حزن عليهم كل أرباب الفكر، وجميـع مـن عـرفهم، وسمـع بأيـاديهم، فرثاهم الشعراء، وتحسروا على أيامهم تغمدهم الله تعالى بواسع رحمته، وأحـسن إلـيهم كمـا أحسنوا إلى عامة من اتصل بهم، وأكثر في المسلمين من أمثالهم .

تم الكتاب بعون الله تعالى وتوفيقه، والحمد الله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أهم المراجع والمصادر

١. الآثار الباقية عن القرون الخالية : البيروني : أبو الريحان محمد أحمد البيروني ت ٤٤٠ هـ مكتبة المثنى ، بغداد .

٢. الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه : محمد محمدي منشورات الجامعة اللبنانية بيروت ١٩٦٧ م .

٣. أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم : أحمد فروخ . المكتب التجاري بيروت ١٣٨٤ هـ آثار البلاد وأخبار العباد : القزويني ، طبع صادر بيروت ١٩٦٩م.

٤. أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول : علي عبد الرحمن ط دار الجيل للطباعة .

٥. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري . دار المعارف مصر ١٩٦٣م.

٦. أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق جمع : ج هورت. دن ط الثالثة ١٣٩٩ هـ.

٧. أخبار مكة وما جاورها من الآثار : الأرزقي : أبو الوليد محمد عبد الله تحقيق رشدي الصالح ملحس دار الثقافة .

٨. الأخبار الطوال : الدينوري : أبو حنيفة أحمد بن داود ط مطبعة السعادة ومطبعة الحلبي مصر ط الأولى ١٩٦٠ تحقيق عبد المنعم عامر وزميله .

٩. أخبار النحويين البصريين : السيرافي : تحقيق ط الزيني وزميله ط مصطفى الحلبي ط الأولى ١٣٧٤ هـ مصر .

١٠. أخبار العلماء بأخبار الحكماء : القفطي جمال الدين أبو الحسن على القنطي ت ٦٤٦ مطبعة السعادة مصر ١٣٧١ هـ.

١١. اختيار من كتاب المجتمع في علم الشعر وعمله : النهشلي : عبد الكريم النهشلي القيرواني تحقيق فتحي الكعبي : الدار القومية للكتاب ليبيا تونس .

١٢. أدباء العرب : بطرس البستاني ط دار نظير عبود .

١٣. الأدب القصصي عند العرب موسى سليمان ط مكتبة المدرسة .

١٤. أدب الكتاب : ابن قتيبة الدنيويري ت ٢٧١ ط الرابعة ١٣٨٢ هـ.

١٥. الأشباه والنظائر في النحو السيوطي : جلال الدين السيوطي .

١٦. أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم الأوراق ، ج هيورت دار المسيرة بيروت ط الثانية ١٣٩٦ هـ.

١٧. أعتاب الكتاب : الفقاعي : ابو عبد الله بن محمد عبد الله بن أبي بكـر ت ٢٥٨ هـ المعروف بابن الأبار تحقيق صالح الأشتر ط مجمع اللغة العربية ، دمشق ط الأولى ١٣٨٠هـ.

١٨. الاعلام – قاموس تراجم – خير الدين الزركلي ط المطبعة العربية ١٣٤٥ هـ مصر .

١٩. أعلام الناس لما وقع للبرامكه مع بني العباس الأتليدي السيد محمد مرتضى ، المكتبة التجارية الكبرى مصر ١٣٥٦هـ.

٢٠. أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام: عمر رضـا كحالـة ، مرسسة الرسـالة ط الرابعة ١٤٠٢هـ.

٢١. الأغاني : الأصفهاني : علي بن الحسين بن محمد القرشي ت ٣٥٦ هـ مكتبة الحيـاة ودار الفكر بيروت، والأغاني ط٣ – ٤ تحقيق ابراهيم الأبياري مكتبة الشعب مصر .

٢٢. الأعلاق النفيسة : أبو رستة: ابو علي أحمد بن عمر بن رسـتة ، المكتـب التجـاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت .

٢٣. الأصمعي الراوية : عبد الحميد السلقاني ، مطابع الثورة العربية طرابلس ليبيا. أكمام المرجان في ذكر المدائن المشهورة ، بلا مطبعة ولا تاريخ .

٢٤. الأمالي المرتضى : غرر الفوائد ودرر القلائد : الشريف المرتضى الموسوي ت ٤٣٦ هـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار الكتاب العربي بيروت ١٣٨٧ هـ .

٢٥. الأمالي : لأبي علي القالي البغدادي المكتب التجاري للطباعـة والتوزيـع والنـشر بيروت .

٢٦. الإمامة والسياسة " تاريخ الخلفاء " ابن قتيبة الدنيوري ت ٢٧١ هـ والحلبي ١٣٨٨ هـ ط الأولى ١٩٦٦ .

٢٧. أمالي الزجاجي ، تحقيق عبد السلام هارون المؤسسة العربية الحديثة الطبعـة الأولى ١٣٨٢ هـ.

٢٨. أمراء البيان : محمد كرد علي دار الأمانة بيروت ط الثالثة ١٣٨٨ هـ.

٢٩. أنباه الوراه على أبناء النحاه القفطي : جمال الدين أبـو الحـسن ت ٦٤٦ محمـد ابـو الفضل ابراهيم دار الكتب المصرية ١٣٧١ هـ.

٣٠. الأبناه في تاريخ الخلفاء : العمراني : محمد بن الحسن بن علي بن محمد ، دار الثقافة العربية ط الأولى ١٤١٩ هـ.

٣١. البداية والنهاية : أبو الفداه بن كثير ت ٧٧٤ ج ٩،١٢ المعارف ومكتبة النصر بيروت.
٣٢. بدائع البدائه: الأزدي تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم الأنجلو المصرية ١٩٧٠م .
٣٣. بدائع المسلك في طبائع الملك : ابن الأزرق الأندلسي : ابو عبد الله محمد ابن الأزرق تحقيق محمد عبد الكريم ، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس .
٣٤. البدء والتاريخ : المقدسي : مظهر بن طاهر المقدسي نشر كلمان هوارط برطرند بمدينة شالون ١٩١٩م تحقيق أحمد بدوي وزميله ط مصطفى الحلبي .
٣٥. البرامكه سلبياتهم وإيجابياتهم تأليف : هولو جودت فرج دار الفكر اللبناني بيروت البرامكه في ظلال الخلفاء : برانق محمد أحمد برانق دار المعارف مصر .
٣٦. البرامكه والعلويون : جاسم الكلكاوي مطبعة أهل البيت كربلاء ١٣٨٤ هـ.
٣٧. البصائر والذخائر : التوحيدي : ابو حيان التوحيدي ت ٤١٤ هـ تحقيق ابراهيم الكيلاني ط مطبعة دمشق .
٣٨. البلاغة تطور وتاريخ : ضيف شوقي ضيف دار المعارف ط الثالثة مصر .
٣٩. البخلاء : الجاحظ : ابو عثمان عمر بن يحيى ت ٢٥٥ تحقيق ط الحاجري دار المعارف مصر .
٤٠. البلدان : اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي ت ٢٨٤ هـ مطبوع على ذيل الأعلاق النفسية لابن رستة المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت .
٤١. البيان والتبيين : الجاحظ تحقيق حسن السندوبي مطبعة الاستقامة مصر ط الثالثة ١٣٦٦ هـ.
٤٢. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : محمود شاكر الألوسي شرح محمد بهجت الأثري ط الرحمانية مصر ط الثانية ١٣٤٣ هـ.
٤٣. البداية والنهاية : ابو الفداء اسماعيل بن كثير دار الريان .
٤٤. البديع في نقد الشعر : أسامة بن منقذ ت ٥٨٤ هـ تحقيق أحمد بدوي وزميله ط مصطفى الحلبي مصر .
٤٥. بهجة المجالس وأنس المجالس أبو عمر يوسف عبد البر القرطبي تحقيق محمد متولي الخولي بيروت دار الكتب العلمية .
٤٦. البلاغة تطور وتاريخ : شوقي ضيف دار المعارف مصر ط الثالثة .

٤٧. تاريخ بغداد : البغدادي : أحمد بن علي ت ٤٦٣ هـ .

٤٨. تاريخ الفكر العربي : اسماعيل مظهر دار الكتاب العربي بيروت تقـويم البلـدان : أبو الفداء : عماد الدين اسماعيل ت ٧٣٢ هـ .

٤٩. تاريخ الفكر العربي إسماعيل مظهر دار الكتاب اعلربـي بـيروت تـاريخ الفلـسفة العربية جميل صليبا دار الكتاب الإنساني بيروت ط ١ ١٩٧٠ م.

٥٠. التاريخ الكبير : ابن عساكر طبع روضة الشام ١٣٢٩ هـ.

٥١. تاريخ مختصر الدول : ابن العبري غر نيوريوس الملطي ط المطبعة الكاثوليكية .

٥٢. تاريخ الموصل : الأزدي ، شركة الاعلانات الشرقية مصر ١٣٨٧.

٥٣. تاريخ الموسيقي العربية : هـ.ج. فارمر ترجمة حسين نـصار وزميلـه ، دار الطباعـة الحديثة مصر .

٥٤. التمثيل والمحاضرة : الثعالي ، تحقيق عبد الفتاح محمد ط عيسى الحلبي ٨١ هـ.

٥٥. التنبيه والإشراف المسعودي مكتبة المثنى بغداد ١٣٥٧ هـ.

٥٦. تحفة الوزراء : الثعالبي ابو منصور عبد الملك الثعالبي النيسبوري تحقيق على الواري وابتسام مرهون ط العاني بغداد ١٩٧٧ م.

٥٧. تاريخ اليعقوبي : دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٣٩٠ هـ.

٥٨. تاج العروس : الزبيدي : السيد مرتضى الزبيدي دار ليبيا للنشر والتوزيع .

٥٩. تاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان نقل عبد الحميد دار المعارف مصر ط الثالثة .

٦٠. تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول: ابراهيم أبو الخشب مطبعة الحمامي ١٣٧٤ هـ الطبعة الأولى .

٦١. تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي ، الـسباعي بيـومي مطبعـة العلـوم مـصر ١٣٥٤ هـ.

٦٢. تاريخ الأدب العربي : طه حسين دار العلم للملايين بيروت ط الثالثة .

٦٣. تاريخ الاسلام السياسي حسن ابراهيم دار الأندلس بيروت .

٦٤. تاريخ بخارى : ابو بكر محمد بن جعفر تعريب أمين عبد المجيـد بـدوي وزميلـه دار المعارف مصر .

٦٥. تاريخ التربية الاسلامية : أحمد شبلي : دار الاتحاد العربي للطباعة مصر ط ٤ ١٩٧٣ م

٦٦. تاريخ الأدب العربي : الأعصر العباسية : عمر فروخ دار العلم للملايين ط الأولى ١٣٨٨ هـ بيروت .

٦٧. تاريخ التمدين الإسلامي : جرحى زيدان بلا مطبعة ولا تاريخ .

٦٨. تاريخ الشعوب الإسلامية : ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي وتأليف : كارل بروكلمان دار العلم للملايين بيروت ط الخامسة ١٩٦٨ م.

٦٩. تاريخ الحكماء وهو مختصر الزوزي من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء الكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر .

٧٠. تاريخ العالم نشر : جون هامرتن ترجمة قسم الترجمة بوزارة التربية والتعليم مكتبة النهضة المصرية مصر .

٧١. تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه عبد الحميد منتصر دار المعارف مصر ط الرابعة ١٩٧١ م .

٧٢. تاريخ العرب مطول : فيليب حتي وزميلاه ، دار الكتاب للنشر والطباعة ط الثالثة ١٩٦١ م .

٧٣. تاريخ العلوم عند العرب عمر فروخ ط دار العلم للملايين .

٧٤. تاريخ النقد الأولي عند العرب : إحسان عباس ط مطبعة الامانة والرسالة الأولى بيروت .

٧٥. تهذيب اللغة الأزهري : ابو منصور محمد بن أحمد ت ٣٧٠هـ تحقيق عبد السلام هارون ط الدار القومية العربية للطباعة ١٣٨٤ هـ.

٧٦. تيارات ثقافية بين العرب والفرس : أحمد محمد الحوفي دار النهضة مصر للطباعة والنشر الفجالة القاهرة .

٧٧. تقويم البلدان أبو الفدا عماد الدين اسماعيل بن عمر ت ٧٣٢ هـ ط باريس ١٨٤٠ م

٧٨. تاريخ الأمم والملوك : لأبي جعفر محمد بن حربي الطبري ، دار الفكر الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.

٧٩. ثمرات الأوراق في المحاضرات : الحموي تقي الدين ابو بكر علي بن محمد الحموي طبع على هامش المستطرف . دار الأرقم للطباعة بيروت .

٨٠. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب الثعالبي : ابو منصور عبد الملك ت ٤٢٩ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار النهضة مصر ١٣٨٤ هـ.

٨١. جمرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة أحمد زكي صفوت مصطفى الحلبي ط الأولى مصر ١٣٥٦ هـ.

٨٢. جمع الجواهر في الملح والنوادر : الحصري تحقيق علي محمد البجاوي عيسى الحلبي الطبعة الأولى ١٣٧٢ .

٨٣. جواهر الأدب : السيد أحمد الهاشمي ط مطبعة القاهرة الطبعة السادسة عشرة . ١٣٦٧ هـ.

٨٤. ابو جعفر المنصور عبد الجبار الجومرد دار الطليعة بيروت ١٩٦٣ م .

٨٥. الحضارة العربية الاسلامية في القرن الرابع الهجري آدم متز ترجمة محمد ابو ريدة بيروت الطبعة الرابعة .

٨٦. حديقة الأفراح لإزالة الأتراح : الشرواني : أحمد بن محمد بن علي ابن ابراهيم الأنصاري اليمني الشرواني المطبعة الميمنية .

٨٧. حضارة الإسلام في دار السلام : جميل نخلة المدور دار السلام المطبعة الأميرية ١٩٦٣

٨٨. حضارة الإسلام : جوستنيان ١ فون ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد دار المعارف للطباعة الألف كتاب مصر .

٨٩. الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : آدم متز نقل : محمد عبد الهادي أبو ريدة بيروت ط الرابعة .

٩٠. حضارة العرب : غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر مطبعة عيسى الحلبي مصر

٩١. حياة الحيوان الكبرى : الدميري : الشيخ كمال الدين الدميري المطبعة العامرة الشرفية ١٣١٥ هـ.

٩٢. الحيوان : الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحرت ت ٢٥٥ تحقيق عبد السلام محمد هارون مكتبة مصطفى البابي الحلبي الطبعة الأولى ١٣٦٤ هـ.

٩٣. خزانة الأدب : الخطيب البغدادي ط المطبعة السلفية مصر ١٣٤٩ هـ.

٩٤. خلاصة الذهب المسبوك : الأربلي : عبد الرحمن الأربلي ت ٧١٧ هـ مكتبة المثنى بغداد .

٩٥. دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدي ط الثامنة مطبعة دار الفكر.

٩٦. دول الإسلام الذهبي : شمس الدين محمد أحمد تحقيق فهيم شلتوت وزميله الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤م .

٩٧. دائرة المعارف الإسلامية مستشرقون ط مكتبة الشعب مصر .

٩٨. الدرر الغافرة في الأمثال السائرة : حمزة بن الحسن الأصبهاني تحقيق عبد المجيد قطافش ت ٣٥١ هـ دار المعارف مصر ط الثانية .

٩٩. ديوان المعاني ابو هلال الحسن بن عبد الله العسكري مكتبة القدس مصر ١٣٥٢هـ .

١٠٠. دراسات في الأدب العربي آدم معتز ترجمة احسان عباس وزملاؤه وآخرين دار العلم للملايين ط٢ ١٩٧٤ م.

١٠١. ديوان بشار بن برد جمع محمد الطاهر عاشور الشركة التوفيقية والشركة الوطنية الجزائر ١٩٧٦ م.

١٠٢. ذيل ثمرات الأوراق : الأحدب محمد بن ابراهيم على هامش المستطرف دار الأمم للطباعة والنشر بيروت .

١٠٣. ذيل شرح ديوان صريع الغواني : مسلم بن الوليد الأنصاري ت ٢٠٨ تحقيق سامي الدهان ط دار المعارف ط الثانية مصر .

١٠٤. رسوم دار الخلافة : الصابي : ابو الحسن هلال المحسن الصابي ت ٤٤٨ تحقيق ميخائيل عواد مطبعة العاني بغداد ١٣٨٣ م.

١٠٥. رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، الفراء: ابو الحسن بن مجد العزاء : تحقيق صلاح الدين المنجد : لجنة التأليف مصر .

١٠٦. ربيع الأبرار ونصوص الأخبار الزمخشري : محمود ابن عمر الزمخشري ط الأولى ج١ تحقيق سليم النعيمي مطبعة العاني بغداد .

١٠٧. رسائل الثعالبي : ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي دار البيان بغداد ودار صيد بيروت .

١٠٨. رسالة الصداقة والصديق تحقيق ابراهيم الكيلاني دار الفكر دمشق ١٩٦٤ م .

١٠٩. رسائل الجاحظ الجاحظ ابو عثمان عمر بن بحرت ٢٥٥ هـ تحقيق عبد السلام محمد هرون مكتبة الخانجي القاهرة ١٣٨٤هـ.

١١٠. روضة العقلاء ونزهة الفضلاء : البستي : ابو هاشم محمد بن حيان ت ٣٥٤ هـ تحقيق : محمد بن محي الدين عبد الحميد وميلاه دار الكتب العلمية لبنان ١٣٩٥ هـ.

١١١. زهر الآداب الحصري مطبعة السعادة مصر ١٣٧٢.

١١٢. سمط اللآلئ من شرح آمالي الغالي : البكري : أبو عبد الله ابن عبد العزيز البكري الأندلسي ت ٤٨٧ هـ تحقيق عبد العزيز الميمني ط الأولى لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤هـ.

١١٣. سراج الملوك : الطرطوشي : ابو بكر محمد الفهري الطرطوشي الطبعة المصرية.

١١٤. سر الفصاحة : الخفاجي ابو محمد عبد الله الخفاجي الرحمانية مصر ١٣٥٠هـ.

١١٥. سير أعلام النبلاء : الذهبي الحافظ شمس الدين محمد احمد ابن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ مؤسسة الرسالة بيروت ط الأولى ١٤٠١ هـ.

١١٦. السيف المهند في سيرة الملك المؤيد : بدر الدين العيني تحقيق فهيم محمد شلتوت ١٩٦٦م .

١١٧. الشعر والشعراء : ابن قتيبه الدنيوري تحقيق احمد محمد شاكر ط دار المعارف مصر ١٣٨٧ هـ.

١١٨. الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول : السباعي بيومي دار الكتاب اللبناني بيروت ط الأولى ١٩٧٢ م.

١١٩. الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية العصر العباسي الأول زاهية قدورة دار الكتاب اللبناني بيروت ط الأولى ١٩٧٢ م.

١٢٠. شذرات الذهب في أخبار من غبر : الحنبلي ابو الفلاح عبد الحميد ابن الصماء ت ١٠٨٩ هـ.

١٢١. شعراء عباسيون غوستاف فون ترجمة : محمد يوسف نجم دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٥٩م.

١٢٢. شرح مقامات الحريري : الشريشي ابو العباس احمد بن عبد المؤمن القيسي تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم مطبعة المدني القاهرة .

١٢٣. شعراء بغداد : الأب شيخو ط الثانية المطبعة الكاثولوكية بيروت .

١٢٤. الشعوبية وأثرها في الشعر العربي : صالح محمود سليمان صالح مخطوط ن١٣٩٨ هـ رسالة دكتوراه .

١٢٥. صبح الأغشي في صناعة الإنشاء : القلقشندي ت ٨٢١ هـ عبد اللطيف حمزة .لجنة التأليف القاهرة .

١٢٦. ضحى الإسلام : أحمد أمين دار الكتاب العربي بيروت ط الأولى ١٣٩١ هـ.

١٢٧. طبقات الشعراء : ابن المعتز عبد الله بن المعتز ت ٢٩٦ هـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج دار المعارف مصر ط الثالثة .

١٢٨. طبقات الأطباء والحكماء ابن خلخل : ابو داود سليمان بن حسان الأندلسي تحقيق فؤاد سعيد مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار مصر ١٩٥٥م.

١٢٩. العبر في خبر من غبر الذهبي : شمي الدين محمد احمد الذهبي ت ٧٤٧ هـ تحقيق صلاح المنجد الكويت ١٩٦٠م.

١٣٠. علم الفلك : كرلو نلينو ترايه عند العرب في القرون الوسطى ط مدينة روما ١٩١١ م.

١٣١. عيون الأنباء في طبقات الأطباء ابن ابي أصيبعة ت ٨٨٦ تحقيق نزار رضا مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥م.

١٣٢. العصر العباسي الأول ، شوقي ضيف ط المعارف مصر .

١٣٣. عصر المأمون : أحمد فريد الرفاعي دار الكتب المصرية ط الرابعة مصر١٣٤٩ هـ .

١٣٤. العفو والاعتذار : لأبي الحسن حمدان عمران .

١٣٥. العصر العباسي الأول أو القرن الذهبي في تاريخ الخلفاء العباسيين عبد المنعم ماجد ط مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣ م.

١٣٦. العيون والحدائق في أخبار الحقائق مؤلفه مجهول . مكتبة المثنى بغداد .

١٣٧. عصر الازدهار تاريخ الأمة العربية : محمد أسعد أطلس دار الأندلس بيروت ط الأولى ١٩٦٠م.

١٣٨. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ابن رشيق : ابو علي الحسن القيرواني ت ٤٥٦هـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد دار الجيل بيروت ط الرابعة ١٩٧٢ م .

١٣٩. عيون الأخبار ابن قتيبة ابي محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٤٠. العقد الفريد : أحمد محمد عبد ربه الأندلسي : دار الكتب العلمية بيروت ط الثالثة ١٤٠٧ هـ ط مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ومطبعة دار الكتب .

١٤١. الفرج بعد الشدة : التنوخي : القاضي أبو الحسن علي التنوخي دار الطباعة المحمدية مصر الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ.

١٤٢. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية – ابن الطقطقي : محمد بن علي ابن طباطبا ط : محمد علي صبيح وأولاده .

١٤٣.   في الأدب العباسي : علي الزبيدي : دار المعارف مصر الطبعة الأولى ١٩٥٩ م.
١٤٤.   الفن ومذاهبه في الشعر العربي شوقي ضيف المعارف مصر ط السابعة .
١٤٥.   الفن ومذاهبه في النثر العربي شوقي ضيف دار المعارف مصر ط السابعة.
١٤٦.   في النقد الأدبي شوقي ضيف ط دار المعارف مصر الطبعة الثالثة .
١٤٧.   الفرق بين الفرق منشورات دار الآفاق الحديثة ط الأولى ١٣٩٣ هـ.
١٤٨.   الفهرست لابن النديم : محمد بن اسحق النديم مكتبة خياط بيروت .
١٤٩.   فاكهة الخلفاء أحمد عرب شاه بلا مطبعة ولا تاريخ .
١٥٠.   فوات الوفيات : محمد بن شاكر الكتبي ت ٧٦٤ هـ تحقيق إحسان عباس دار الثقافة بيروت .
١٥١.   قصة الحضارة : ول ديورانت ترجمة : محمد بدران ج ١٣ الإدارة الثقافية جامعة الدول العربية .
١٥٢.   قلائد العقيان في محاسن الأعيان والاشبيلي ط تونس.
١٥٣.   كتاب المنازل والديار ابن منقذ الكناني المكتب الإسلامي للطباعة والنشر دمشق بيروت ١٣٨٥ هـ.
١٥٤.   كتاب نسب قريش الزبيدي المعارف مصر .
١٥٥.   كتاب نقد النثر قدامة بن جعفر تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي الطبعة الثانية مطبعة لجنة التأليف .
١٥٦.   كتاب نور القبس المحنكر متن المقتبس في أخبار النحاه والأدباء والشعراء والعلماء اليغموري ابو المحاسن يوسف بن أحمد .
١٥٧.   الكامل في التاريخ ابن الأثير الكتاب العربي بيروت .
١٥٨.   كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون حاجي خليفة نشر المكتبة الاسلامية طهران الثالثة ١٣٧٨ هـ. الكشكول : العاملي بهاء الدين العاملي تحقيق طاهر احمد الزاوي عيس الحلبي .
١٥٩.   كليلة ودمنة بيديا الفيلسوف الهندي ترجمة عبد الله بن المقفع مطبعة عبد السلام شترون مصر ١٩٦٦ م .
١٦٠.   الكتابة والتعريض : الثعالبي ابو منصور عبد الملك الثعالبي دار البيان بغداد ودار صعب بيروت .

١٦١. كتاب الامتاع والمؤانسة : التوحيدي ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين دار مكتبة الحياة بيروت .
١٦٢. كتاب البديع : ابن المعتز مطبوع على ذيل كتاب ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد محمد بن عبد المنعم خفاجي دار العهد الجديد للباعة ط الثانية ١٩٥٨ م .
١٦٣. كتاب بغداد : ابن طيفور طبع الحسيني والخانكي ١٣٦٨ هـ.
١٦٤. كتاب التاج في أخلاق الملوك الجاحظ .
١٦٥. كتاب التبنيه على أوهام بن علي في آماليه البكري المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر بيروت .
١٦٦. كتاب الحلة السيراء : القضاعي المعروف بابن الأبار تحقيق حسين مؤنس الشركة العربية للطباعة والنشر ط الأولى ١٩٦٣م.
١٦٧. كتاب خاص الخاص : الثعالبي منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٦ م.
١٦٨. كتاب ذيل الآمالي والنوادر ابو علي القالي .
١٦٩. كتاب الصناعين الكتابة والشعر ابو هلال العسكري تحقيق علي محمد البخاري وزميله ط عيسى الحلبي مصر الطبعة الثانية
١٧٠. كتاب فتوح البلدان البلاذري تحقيق صلاح الدين المنجد مكتبة النهضة المصرية.
١٧١. كتاب الكامل : المبرد تحقيق محمد احمد المداني مؤسسة الرسالة .
١٧٢. كتاب : معجم البلدان مطبعة السعادة المطبعة الأولى ١٣٥٣هـ.
١٧٣. كتاب الآداب : أسامة بن منقذ تحقيق احمد محمد شاكر ط الألى المطبعة الروحانية مصر ١٣٥٤ هـ .
١٧٤. لطائف المعارف : الثعالبي تحقيق ابراهيم الابياري وزميله ط عيسى الحلبي مصر.
١٧٥. اللباب في تهذيب الأسماء : الجزري مكتبة المثنى بغداد .
١٧٦. المسالك والممالك :جرداذبة: ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت ٣٠٠هـ مكتبة المثنى بغداد .
١٧٧. موجز في تاريخ العلوم عند العرب : محمد عبد الرحمن مرحبا دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٥ م.
١٧٨. المصون في الأدب : العسكري تحقيق عبد السلام محمد هارون الكويت ١٩٦٠.
١٧٩. مختصر في أخبار البشر أبو الفداء عماد الدين اسماعيل ط المنية المصرية .

١٨٠.   محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والحلفاء الأصبهاني ابو القاسم الحسين الأصبهاني تحقيق عمر عبد الرحمن ط مجمع البلاغة .

١٨١.   المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو تحقيق مجموعة من الأساتذة منشورات الآداب الشرقية بيروت ١٩٥١ م .

١٨٢.   مختار رسائل جابر بن حيان مكتبة الخانجي ١٣٥٤هـ.

١٨٣.   مروج الأبصار في مسالك الأمصار العمراني تحقيق أحمد زكي ط دار الكتب العربية ١٣٤٢ هـ.

١٨٤.   مقاتل الطالبيين لأبي فرج الأصفهاني ت ٣٥٦ تحقيق السيد أحمد صقر دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت .

١٨٥.   المعارف لابن قتيبة ت ٢٧١ تحقيق ثروت عكاشة الطبعة الثانية دار المعارف مصر .

١٨٦.   معالم الحضارة الإسلامية مصطفى الشكعة دار العلم للملايين ط الثالثة ١٩٧٨ م.

١٨٧.   الموشي : أو الظرف والظرفاء : الوشاء ابو الطيب بن اسحق الوشهاء دار صادر ودار بيروت للطباعة .

١٨٨.   المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو تحقيق مجموعة من الأساتذة منشورات الآداب الشرقية بيروت ١٩٥١ م.

١٨٩.   منهاج البلغاء وسراج الأدباء تحقيق محمد الحبيب بن خوجه دار الكتب الشرقية تونس .

١٩٠.   من تاريخ الأدب العربي : طه حسين دار العلم للملايين الطبعة الثانية بيروت.

١٩١.   المستطرف في كل من مستظرف شهاب الدين محمد الابشيهي ت ٨٥٠ هـ دار الجيل بيروت .

١٩٢.   معجم الشعراء المرزباني : تحقيق عبد الستار فرج ط عيسى الحلبي ١٣٧٩هـ.

١٩٣.   المحاسن والاضداد : الجاحظ ابو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٥٥ تحقيق فوزي عطوي الشركة اللبنانية للكتاب بيروت ١٩٦٩ م.

١٩٤.   مجالس العلماء الهمذاني : ابو بكر محمد الكويت ١٩٦٢م.

١٩٥.   مختصر كتاب البلدان : ابن الفقيه الهمذاني ط مدينة ليون مطبعة بريل ١٣٠٢ هـ .

١٩٦. المسالك والممالك : الكرخي : ابو اسحق ابراهيم بن محمد تحقيق محمد جابر عبد العال ط دار العلم مصر ١٣٨١ هـ.

١٩٧. المثل السائر في أدب الكاتب : ابن الأثير تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ط مصطفى الحلبي مصر ١٣٥٨ هـ.

١٩٨. مجالي الإسلام : حيدر بامات نقل عادل زعيتر عيسى الحلبي مصر ١٩٥٦ م.

١٩٩. الموسمة العربية الميسرة دار احياء التراث العربي .

٢٠٠. المحاسن والمساوئ : البهيقي : تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم مكتبة النهضة مصر .

٢٠١. المخلاة العاملي دار الفكر للجميع والمطبعة الأدبية مصر ١٣١٧ هـ .

٢٠٢. مختار القاموس : الطاهر أحمد المزاوي الدار العربية للكتاب : ليبيا تونس .

٢٠٣. مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي ابو الحسن علي المسعودي ط دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت .

٢٠٤. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع : البكري : الوزير ابو عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ت ٤٨٧ هـ تحقيق مصطفى السقا ط الأولى ١٣٦٤هـ لجنة التأليف والنشر مصر .

٢٠٥. موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية : احمد شلبي مكتبة النهضة المصرية ط الخامسة ١٩٧٤ .

٢٠٦. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص : العباسي تحقيق محيي الدين عبد الحميد ط مطبعة السعادة .

٢٠٧. المقدمة وكتاب العبر ابن خلدون مكتبة المدرسة ودار الكتاب العربي بيروت : ١٩٦٦ م.

٢٠٨. المعجم الوسيط ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط الثانية .

٢٠٩. الموشح المرزباني تحقيق علي البجاوي دار نهضة مصر ط لجنة البيان العربي .

٢١٠. مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان اليافعي أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي ت ٧٦٨ هـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت .

٢١١. النثر الغني في القرن الرابع زكي مبارك دار الجيل بيروت .

٢١٢. النجوم الزاهرة في ملوك مصر الأتابكي جمال الدين ابي المحاسن بن قفرى ط المؤسسة المصرية العامة .

٢١٣. نزهة الألباء في طبقات الأدباء تحقيق ابراهيم السامرائي ط المعارف بغداد ١٩٥٩م.
٢١٤. نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب جمع ميخائيل عواد دار الكتاب اللبناني بيروت ١٣٨٤ هـ.
٢١٥. نكت الهميان في نكت العميان الصفدي .
٢١٦. هرون الرشيد : شوقي ابو خليل دار الفكر دمشق ط الثالثة ١٤٠١هـ.
٢١٧. وفيات الأعيان : ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين أحمد بن ابي بكر ٦٨١هـ دار الثقافة بيروت .
٢١٨. الورقة : الجراح : ابو عبد الله محمد بن داوود ت ٢٦٩هـ تحقيق : عبد الوهاب عزام عبد الستار أحمد فراج ط الثانية دار المعارف .
٢١٩. الوزراء والكتاب الجهشياري : ابو عبد الله محمد تحقيق مصطفى السقا وزميلاه ط الحلبي الأولى ١٣٥٧ هـ.
٢٢٠. يوم الإسلام : أحمد أمين ، لجنة التأليف والترجمة مصر ١٩٥٨ م.

ومصادر أخرى ذكرتها في مراجع الفصول وبالله التوفيق

فهرس الكتــاب

مقدمة الكتاب ٥

الباب الأول

الأسرة البرمكية

الفصل الأول : تاريخ الأسرة البرمكية.................................. ١١

الفصل الثاني : نكبة البرامكة وأسبابها.................................. ٣٠

الباب الثاني

أدب البرامكة

الأدب البرمكي وخصائصه

الفصل الأول : منزلة البرامكة الأدبية.................................. ٤٧

الفصل الثاني : الخصائص العامة لأدب البرامكه ٥٥

الفصل الثالث : فنون البرامكة الأدبية . ...

أولاً : شعر البرامكة.. ٦٣

ثانياً : نثر البرامكه ٧٣

١- خطب البرامكة ٧٣

٢- توقيعات البرامكة ٨١

٣- رسائل البرامكة ٩٢

٤- شذور من حكم وأقوال البرامكة ١٠٤

ملامح النقد عند البرامكة ١١٨

الباب الثالث

دور البرامكة في نهضة الحركة الفكرية

الفصل الأول : عناية البرامكة بالعلم والأدب ١٢٨

الفصل الثاني : رعاية البرامكة للحركة الفكرية وتشجيع أربابها ١٣٤

الفصل الثالث : دور البرامكة في ازدهار الشعر وتطوره ١٥٠

الفصل الرابع : دور البرامكة في ازدهار النثر وتطوره ١٦٥

الفصل الخامس : دور البرامكة في حركة التدوين ١٧٤
١- التأليف ٢- الترجمة
الفصل السادس : المجالس البرمكية
١- المجالس العلمية والأدبية ١٩٢
مجالس البرامكة الغنائية ٢٠٠
الفصل السابع : البرامكة والفكر الشعوبي ٢٠٩
الباب الرابع
الشعر في موكب البرامكة
الفصل الأول : عتاب الشعراء على البرامكة ٢١٨
الفصل الثاني : هجاء الشعراء للبرامكة ٢٢٤
الفصل الثالث : مديح الشعراء للبرامكة ٢٤٣
الفصل الرابع: رثاء الشـــعراء للبرامكة ٢٥٤
الفصل الخامس : نزغة التشاؤم عند الشعراء بعد نكبة البرامكة ٢٦٣
خاتمة الكتاب ٢٦٩
أهم المراجع والمصادر ٢٧٣
الفهرس ٢٨٧